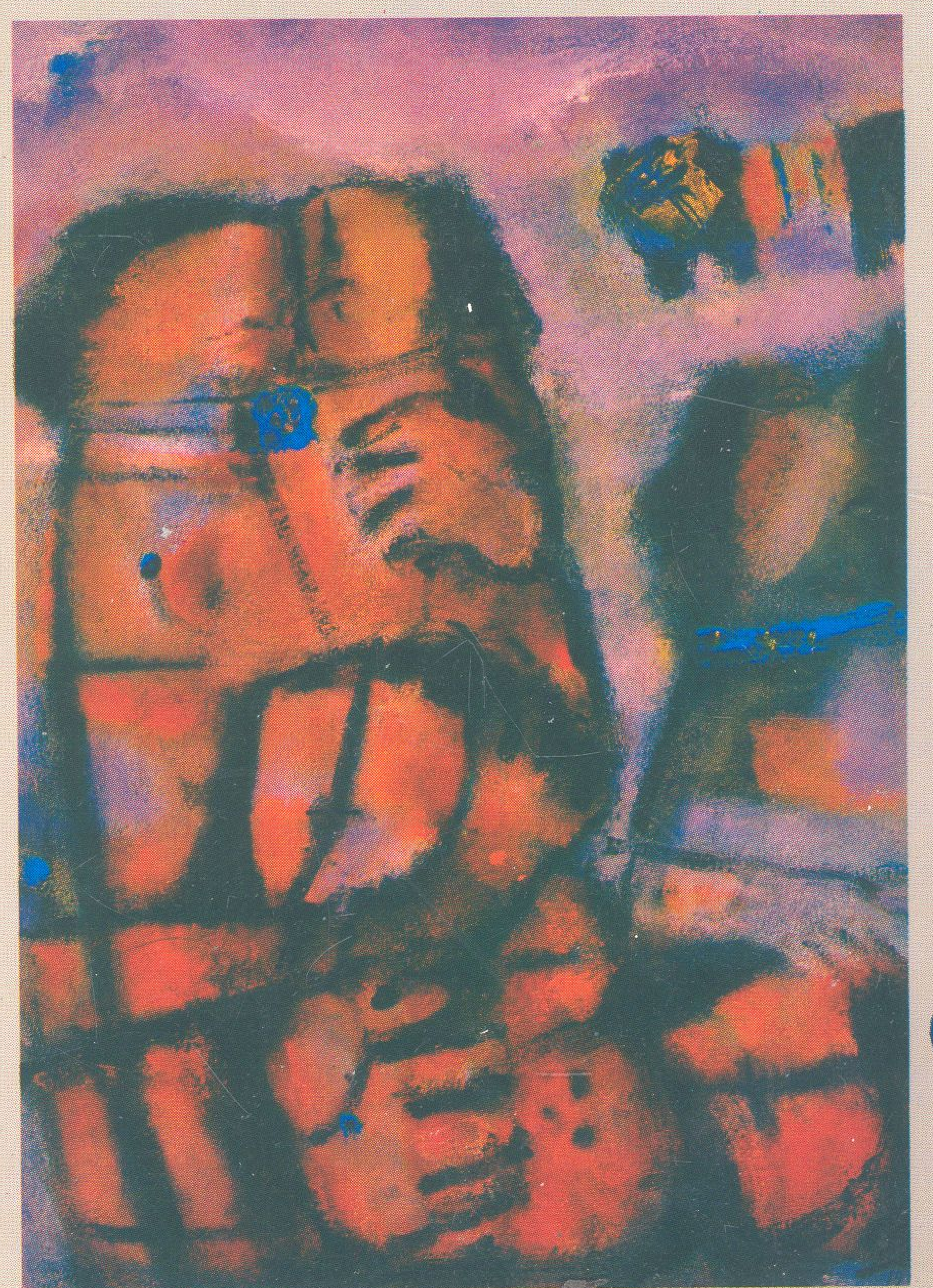


المشروع القومي للترجمة



الخوف من المرايا



ترجمة:
طلعت الشايب

133

المشروع القومى للترجمة

الخوف من المرايا

تأليف : طارق علي
ترجمة : طلعت الشايب



٢٠٠٠

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

FEAR OF MIRRORS

الصادرة بالإنجليزية عام ١٩٩٨ عن

Arcadia Books - London

المؤلف

طارق علي :

- من مواليد "لاهور" - عاصمة ولاية البنجاب الهندية - ١٩٤٣

- تعلم فى باكستان ، وأكسفورد (١٩٦٣) حيث درس السياسة والفلسفة والاقتصاد ، وكان عضواً فى محكمة جرائم الحرب التى شكلها "برتراند راسل" ، كما زار كمبوديا وڤيتنام (١٩٦٧) فى إطار نشاط هذه المحكمة وكان أحد رموز الحركة الطلابية العالمية فى ١٩٦٨

- فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كان رئيساً لتحرير صحيفتى "القسم الأسود" والخلد الأحمر "، وانضم خلال تلك الفترة إلى الأممية الرابعة، وكان أحد الكوادر البارزة لشعبتها فى بريطانيا .

- كتب عن التطورات السياسية العالمية لصحف "نيو ستيتسمان" و"نيولفت ريڤيو" و "الجارديان" وهو صاحب مؤلفات عدة حول شبه القارة الهندية من بينها :

باكستان: " حكم عسكرى أم سلطة شعبية ؟ ١٩٧٠ -

هل يمكن لباكستان أن تبقى ؟ - ١٩٨٣

النهرويون والفانديون : سلالة هندية حاكمة

سنوات حرب الشوارع .

سيرة ذاتية للستينيات.

تروتسكى للمبتدئين - ١٩٨٠

الثورة من أعلى : الاتحاد السوفيتى إلى أين ؟

- طارق على مؤلف مسرحى، ومخرج سينمائى ، وكاتب روائى صدر له :

* إقتداء - ١٩٩٠

* ظلال شجرة الرمـــان - ١٩٩٢ - وقد أثارت تعليــقات مهمة فى الأوساط الأدبية ، وترجمت إلى عدة لغات ومنحت جائزة أفضل رواية مكتوبة بلغة أجنبـــية فى سنتيـاجو دى كومبو ستيللا - أسبانيا - ١٩٩٥ -

* الخوف من المرايا - ١٩٩٨ -

المترجم

طلعت الشايب

كاتب ومترجم مصرى من مواليد ١٩٤٢

حاصل على ليسانس فى اللغة الإنجليزية والتربية عام ١٩٦٢

عمل بالتدريس والترجمة والإعلام فى مصر والكويت وقطر

يترجم من وإلى العربية والإنجليزية والروسية .

صدرت له الترجمات الآتية :

دراسات :* حدود حرية التعبير (ترجمة كتاب القصة والرواية فى مصر فى عهدى عبد الناصر والسادات) تأليف : مارينا ستاغ

شرقيات – القاهرة – ١٩٩٥

* مثقفون – بول چونسون – شرقيات – القاهرة – ١٩٩٨

* صدام الحضارات – صمويل هنتجتون – سطور – القاهرة – ١٩٩٩

روايات :* الملاك الصامت – هينرش بول – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – ١٩٩٧

* البطء –ميلان كونديرا – شرقيات – القاهرة – ١٩٩٦

* فتاة عادية – آرثر ميلر – شرقيات – القاهرة – ١٩٩٨

* الحرير – أليساندرو باريكو – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – ١٩٩٨

* عاريا أمام الآلهة – شيف كومار – شرقيات – القاهرة – ١٩٩٨ .

* الحمامة – باتريك زوسكيند – شرقيات – القاهرة – ١٩٩٩

الخوف من المرايا

- ١ -

نحن نعيش فى خواء موحش ، وهذا القرن على وشك الانتهاء ، خبرت توهجه وخموده ، رأيت الشمس وهى تغرب فوق سهول المنطقة القطبية الجرداء . أحاول ألا أنظر إلى مصيرى بازدراء ، ولا أفلح دائماً ، أعرف ما يدور بذهنك يا "كارل" ، تعتقد أننى أستحق العقاب الذى أنزله بى التاريخ .

أنت تظن أن الحقبة التى انتهت الآن كانت حقبة يوتوبيات انتحارية حولت البشر إلى أحجار بناء وحديد ، إلى مشروعات هيدروكهربائية عملاقة ، إلى خطط جماعية مجنونة ... وربما إلى ما هو أسوأ.

الهندسة الاجتماعية اعتادت على تقزيم القيمة المعنوية للبشر وسحق روحهم الجماعية ، لست مخطئا تماماً .. ولكن القصة ليست كاملة .

وأنا فى مثل عمرك ، كان والداى لا يكفان عن الكلام عن الطرق الموصلة إلى الجنة ، كان يبنيان طريقا اشتراكياً خاصة جداً ليصبح جسراً لصنع الجنة على الأرض ، رفضا أن يستذلا فى صمت ، رفضا أن يقبلا حقارة الفقراء الدائمة ، كم كانا محظوظين يا بنى !! أن يحلما بمثل ذلك ، وأن يكرسا حياتهما لتحقيقه ! كم يبدوان الآن مجانين ليس بالنسبة لك فقط ، ولا للعالم الذى تمثله ، وإنما فى نظر بلايين الناس المحتاجين إلى صنع عالم أفضل ، ولكنهم يخافون الآن . حتى مجرد الحلم .

إن الأمل ، على عكس الخوف ، لا يمكن أن يكون عاطفة سلبية .

الأمل يحتاج إلى حركة ، إلى بشر نشطاء ، وحتى الآن ما زال الناس

يحلمون بإمكانية حياة أفضل ، فجأة توقفوا ، أعرف أنها فاصلة ، مجرد فاصلة وليست نقطة فى نهاية جملة ، ولكن الوقت قد فات لإقناع "جيرهارد" .... العجوز المسكين ! لقد ضاع إلى الأبد .

هذا زمن يتطلب أحياناً جهداً جهيداً من أناس مثلى لمجرد مواصلة الحياة . والشئ نفسه كان فى الثلاثينيات . مرة حكت لى أمى أن والدى كان يقول لها قبل أن أن يقتله رجال "ستالين" بعام: "فى أوقات كهذه ، يصبح من السـهل أن تمـوت لا أن تعيش " وها أنذا ، لأول مرة ، أفهم ما كان يقصد . الحياة ذاتها تبدو شريرة . والعذاب الأكبر هو أن أشهد تحللى الشخصى فى صمت. والحقيقة أننى كنت أود أن أبدأ بنغمة أكثر تفاؤلا .. معذرة ! أنا وأمك ، أنا فى "برلين" وهى فى "درسدن" كلانا تحرك صوب الآخر ، بحثا عن ملجأ من الاختناق الذى أصاب معظم مواطنى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، كنا نتوق إلى الفوضى لأن مركز عالمنا البيروقراطى كان قائماً على النظام ، كان "جيرهارد" وجميع أصدقائنا الآخرين لديهم نفس الشعور . وكنا نحب لقاءاتنا آخر الليل ، نتحدث عن المستقبل مملوئين بالأمل ، نستدفئ بالبخار المتصاعد من فناجين القهوة السوداء . حتى فى أحلك الظروف كانت هناك دائماً لحظات مرح.

شعر . أغان . وكان "جيرهارد" يجيد تقليد الآخرين وكانت لقاءاتنا تنتهى دائماً به وهو يمثل دوره فى المكتب السياسى ، كنا شديدى الحاجة للتحرر .. لدرجة أننا ، لوقت ما ، كانت تعمينا الأضواء المنبعثة من مجال البث التلفزيونى الغربى التى نجحت فى إخفاء كآبة المنظر الذى يواجهنا الآن .

كان النظام القديم يمتلك ميزة واحدة .. إن لم يكن شيئاً آخر. مجرد وجوده كان يحفزنا على التفكير ،على التمرد، على أن نهدم الحائط كله،

وإذا فقدنا حياتنا في تلك العملية ، فإن صرعة الموت لنا ستكون سريعة كالبرق ، وسيكون رحيما بنا.

أما التوافق الجديد فهو قاتل بطئ يشجع على السلبية ... ولكن .. يكفى هذا القدر من التشاؤم الآن .

هذه هى قصة والدى يا "كارل" لك وللأطفال الذين أتمنى أن تكون أبا لهم ذات يوم ، في طفولتك ، كنت تتغذى يومياً على قصص البطولة. وكان معظمها حقيقياً وإن كانت مكرورة .

ولهذا السبب نفسه ، وربما تكره ما أنت مقدم على قراءته بالضبط كما اعتاد الفقراء على كراهية البطاطس!

ومنذ أن أصبحت صبياً مدركاً ، وجدت أنا وأمك أن من الممكن اجتذابك إلينا ، أن نجعلك تتكلم معنا ، ونستمع إلى شكاواك ومخاوفك وأحلامك ، والآن أعرف لماذا لم تستطع أن تقول لنا شيئاً نحن فى نظرك، قد فشلنا ، وفشل الكبار بالنسبة للصغار جريمةكبرى ومهما كان حكمك علينا .. أود أن تقرأ هذا للنهاية فى مثل عمرى الآن ، يبدو مرور الزمن مثل شلال مائى ، لذا أتمنى أن تتعامل مع هذا الرجاء كمعروف أخير ، تسديه إلى البقية الباقية من ذلك الذى كان والدك .

لقد مر وقت طويل منذ كنا نجلس متجاورين ، نضحك على ذكريات من طفولتك ونتبادل البوح ، لم أكن أشعر أننا مجرد أب وابن كنت أرانا أصدقاء ، وكان "جيرهارد " الوحيد الذى وثقت به وأحببته من بين كل رفاقى يلاحظ ذلك ويقول : كم أنــــت محـــظوظ يا "ڤلادى" أن يكون لك شبل مثل "كارل" :

كانت هناك اختلافات بيننا بالتأكيد ، لكنني كنت أفضل أن أعتبرها

فروق أجيال ،.. وربما أوديبية ، وفى السنوات الأخيرة كنت تسخر من أفكارى ، ومرة أخبرونى بأنك شبهتنى ، علنا ، بالديناصور! .

أنا من مواليد ١٩٢٧ ، لست مسنا ، أليس كذلك يا "كارل" ؟.

لقد كان اختيارك لهذا اللقب هو الذى أدهشنى وفاجأنى الديناصورات انقرضت منذ ملايين السنين ولكنها مازالت تسكننا! ولماذا؟ لأن معرفة كيف ولماذا انقرضت تحمل لنا الكثير من الذى يجعلنا نفهم الحياة على هذا الكوكب .

هناك – حتى – كلام عن إمكانية إعادة تخليق الديناصورات عن طريق الچينات وبكلمات أخرى يا بنى أنا فخور بأن أكون ديناصورا.

كان تشبيهك موحياً وملهما لى بأكثر مما تظن .

أبى وأمى كانا من الثوريين فى الأيام الذهبية للشيوعية ، كما كانا أيضاً خلال سنواتها الدموية ، كنت طفلا فى "موسكو" أثناء حرب هى الآن بعيدة .... بعيدة .... فى ذاكرة أوروبا عشت معظم سنوات عمرى في القرن العشرين أنت من مواليد ١٩٧١

ومن حسن الحظ أنك ستعيش معظم حياتك فى القرن الواحد والعشرين كل ما تتذكره هو سكرات موت الاتحاد السوفيتى ، التفسخ النهائى لنظام الدولة الذى كانوا يطلقون عليه اسم الشيوعية، وأنا وأمك عندما كنا نعمل من أجل مستقبل لم يأت أبداً .. ومن أجل إعادة توحيد ألمانيا .

وتتذكر أمك بالطبع ، وهى تحزم حقيبتها وتغادر شقتنا ، وأعرف أنك تحملنى مسئولية انهيار العلاقة ، وقرار أمك التالى ، بقبول وظيفة فى نيويورك ، وتعتقد أن علاقتى بـ "إيڤلين" كانت هى القشة الأخيرة ،

لكنك مخطئ ، لقد كنت أنا و "هيلجا" متباعدين ، ولم يكن ذلك هو السبب ، كيف يمكن لزواج مثل زواجنا أن ينتهى . أنا اعتقد أننا كنا متطابقين حتى فى المزاج ، ومتشابهين فى أمور كثيرة كان زواجنا فعل دفاع عن النفس .

كانت هى فى حاجة لأن تتحلل من قبضة منزلهم اللوثرية الأرثونوكسية ، وكنت أنا فى حاجة إليها لكى أتحرر من أمى "جيرترود" .

وعندما زال الضغط الخارجى أصبحت حياتنا خالية فجأة ..

رغم كل اضطراب الشوارع ! كنا أسرى فخنا الذاتى و "إيفيلين" كانت حاشية لرسالة .. هامشاً على المتن !

وأشعر أحياناً بأنك تعتبرنى مسئولاً – مسئولية شخصية – عن الجرائم التى ارتكبت باسم الشيوعية والآن أراك غاضباً لانضمامى إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى * " لماذا؟ لماذا؟ " .

ما زلت أشعر برنة الغضب فى صوتك وأنا أبلغك بقرارى للمرة الأولى ، أنا الذى لم أكن فى يوم من الأيام جزءاً من كيانهم الرسمى ، التحق الآن بحزب تراه أنت مجرد غطاء للعملاء القدامى! هل كان الأمر هكذا فعلاً يا "كارل" ، أم تراك كنت تخشى أن يؤثر ذلك على صعودك السريع بين صفوف الحزب الديمقراطى الاجتماعى وعلى عملك المستقبلى ؟ ، هل أنا غير منصف ؟ ، كل ما استطيع أن أقوله إنها ستكون مفاجأة لى إذا كان قرارى بالانضمام إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، يمكن أن يبعدك عن حكومة الحزب الديمقراطى الاجتماعى فى القرن القادم ، وتأسيساً على ما أقرأ وأسمع وأشعر ، أنك ستصل إلى مراتب عليا لقد أصبحت خبيراً

* الصيغة الجديدة للحزب الشيوعى السابق الذى كان يحكم ألمانيا الشرقية (المترجم) .

فى أن تجعل الاشتراكية "معقولة" بالنسبة لأعدائها الطبيعيين ، وذلك بتفريغها من أية شحنة مدمرة وهذا أفضل من العودة إلى الدين .

ولو أنك أصبحت لاهوتيا لحرمتك أنا وأمك من الكنيسة .... الكنيسة التى هى قلبنا .

أرجوك ... أفهم شيئاً واحداً ... وهو أنك فى الوقت الذى تكون فيه جالساً فى غرفة الانتظار فى مكتب المستشار ، ستكون كل ذكريات الحرب الباردة قد تبخرت ، ستواجه بوحوش حقيقية .. مختلفة ، أوروبا وأمريكا مملوءتان بالديماجوجين ، كل منهم مشغول بوضع صيغته الخاصة من "كفاحى" وإن اختلفت الأساليب الوحشية الحيوانية للفاشست القدامى ، تتخلى عن مكانها ويجعل محلها الأبوية المراهنة لخلفائهم ، لقد انضممت إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى احتجاجاً على الموقف التعس الذى نجد نحن الشرقيين * أنفسنا فيه ، لكى أعلن كرامة البؤس ، وأوضح للناس أنه لابد من وجود وسيلة جماعية للخروج من هذه الورطة. فى ألمانيا الشرقية كان عدد حالات الانتحار ، أكثر منه فى أى مكان آخر من أوروبا الشرقية ، إننا لا نتضور جوعاً ولكننا نشعر بأننا مسحوقون معنوياً ، وذلك من شأنه أن يؤثر علينا جميعاً بصرف النظر عن الحروف الأولى من أسماء الأحزاب التى تحكم ولاعنا ، ولصالح من نعطى أصواتنا فى الانتخابات ، وأعرف كثيرين من مؤيدى مستشارنا الضخم ، يشعرون بمثل ما أشعر به بالضبط الغربيون* يعتقدون أن كل

* المقصود بالشرقيين سكان ألمانيا الشرقية وبالغربيين سكان ألمانيا الغربية (المترجم) .

شئ سيكون على ما يرام ، بمجرد تحطيم ماضينا ، وإزالة كل أثر لجمهورية ألمانيا الديمقراطية ، يا لهم من أغبياء أولئك الرجال والنساء فى الغرب ، يعتقدون أن المال كان هو الحل السحرى ... إنه اللغة الوحيدة التي يفهمونها وأنا ، لا ألومهم كثيراً على هذا الضعف على أية حال ، فى فترة ما بعد الحرب كان شعارهم المرفوع هو الكد من أجل المال .. والمزيد من المال .... حينذاك فقط سيقدر الناس قيمتهم ، كما يزعمون. وأصبحوا مشغولين بذلك الهدف لدرجة استخدامه كعلاج طبيعى ، يساعد كثيرين منهم على محو ذكريات تواطئهم مع الرايخ الثالث .

فى حالتنا لم يكن الأمر بمثل تلك البساطة ، ومهما كانت مخيفة ومهما كانت متوحشة ،فإن جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة – هكذا كانت من البداية إلى النهاية – لم تكن هى الرايخ الثالث، المعادلة غبية ، وهى إهانة لذكائنا أنت تعرف ذلك جيداً .. مثلى .. ولذا أرجو أن تتأكد أنه واصل إلى سادتك الجدد .

على مدى أكثر من أربعين عاماً كنا نصنع فلك ثقافتين مختلفتين خذ لغتنا على سبيل المثال ، نحن نتكلم – حتى – على نحو مختلف. فى الغرب نسوا قواعد اللغة تماماً، الحياة فى مدارس ألمانيا الديمقراطية كانت خانقة ، ولكن رياض الأطفال لدينا كانت جيدة بالفعل ، وفى الستينيات والسبعينيات كانت البنى البروسية الستالينية فى الجامعات قد بدأت تتكشف عن صدوع خطيرة.

لن يشاهد أطفالك أبدا "رجل الرمل" ألم يكن أفضل بكثير من تلك النفايات الأمريكية ، التى يعرضونها للأطفال فى الغرب ؟

أم ترانى مجـــرد شخص مزعج وعجوز خرِف ، يبدأ فى إثارة أعصابك ؟

كثيرون منا سعداء ، لأننا عدنا بلداً واحداً مرة أخرى ، ولكنهم أسفون لأن كل شئ هنا يجرى تدميره . برلينهم الجديدة ...

"برلين" القرن القادم الرسمية يجرى تصميمها وبناؤها بحيث يتم محو الماضى وإعادة مارد التاريخ إلى القمقم ، إلا أنهم فى نفس الوقت يخلقون الظروف ، التى تحى الاستقطابات القديمة. الأغنياء الغربيون يقبلون على شراء كل العقارات لكى يصبحوا أكثر غنى . وعندما يأتون إلى فنادقنا يحضرون معهم صابونهم وفوطهم ، عملية تجانس جديدة يتم فرضها علينا ، لدينا بالطبع الحرية لكى نعترض .. وهذا شئ جيد .

رسالة "جيرهارد " وصلتنى بعد أن سمعت خبر انتحاره فى الراديو سطور قليلة ، بروفيسور سابق يشنق نفسه فى حديقة منزله فى "جينا" هذا هو كل شئ .

قرأت رسالة"جيرهارد" أكثر من مرة كان ذلك صوت أقرب أصدقائى. قبل أقل من أسبوعين كنا قد قضينا مساءً معاً ، وكان "جيرهارد" – مثلى – قد طرد من وظيفته لم يبقوا عليه أستاذاً للرياضيات فى "جينا" ، بسبب آرائه السياسية كان مثل غيره قد احتفى بإزالة الحائط .

للأسف " كان والد "جيرهارد" جنرالا فى الاستخبارات العسكرية . كان الغربيون يستأصلوننا بكافة أساليب الانتقام ، قالى لى يا "كارل" ما الفائدة التى ترجى من ألمانيا ،تحكم على رجل مثل "جيرهارد" بالإعدام ؟ لقد بكيت عندما أريتك رسالته .

هل تتذكر ذلك الوجه الوديع المشرق ، الحالم دائماً المشبع دائماً بعدم اليقين ، دون انطواء أو كآبة ؟

هى فى البداية جذوة ، ثم تبدأ فى الوميض وسرعان ما تصبح

لهباً ، اللهب الذى يخترق العقل والنتيجة ؟ ألم متواصل .
وعندما يعجز عقلى عن احتواء الألم .. عندما يطغى الألم
على كل شئ الأمل ، الحب الذكريات الجميلة ، كل شئ،
عندما يغتال الماضى بوحشية تنبثق الفكرة ، يرفض الألم أن
يذهب ، ثم فى جو جميل مشمس بعد ظهيرة يوم كهذا أفكر
فى أفضل طريقة للرحيل ، لماذ لا أعلق نفسى فى شجرة
البلوط العتيقة فى الحديقة ؟ عمل شبه علنى ، سيبلغ الجيران
عن الحادث ، إن تلك يا "ڤلادى" هى الطريقة الوحيدة المتبقية
لنا للهرب . الغربيون يريدون القضاء علينا تماماً ، لم يكن لنا
وجود أبداً كل شئ كان هراء ، لا أقوى على الحياة فى بلد
ينظرون فيه إلى البشر، مرة أخرى على أنهم قمامة يجب
كنسها .

إن الفقر الروحى أصعب ، من الموت أو التحلل أو
الإنتحار .

الصورة الوحيدة لنا عندك يا "كارل" هى أننا جيل مهزوم ، كل تراثه
مسمم ، وعندما أروى لك قصة "لودڤيك" فقد تكون فرصة لك لكى تعرف
الكثير عن جدتك وعنى ، لا تفزع أمنحنى الشفقة وطيب الخاطر ، لن
يكون ذلك محاولة لتبرير الذات ، ولا لفطامك عن الجهاز الذى أصبحت
مرتبطاً به ، هكذا كل شئ نسبى فى هذا العالم اليوم . أنا سعيد لأنك
"ديمقراطى اجتماعى" ولست "ديمقراطى مسيحى" وذات يوم لا بد أن
تشرح ما يفصلك عنهم اليوم ما أريده قبل أى شئ هو أن أخلص
الناس فى هذه القصة من قبضة أولئك الذين لا يهتمون بالماضى ،
سوى من أجل تبرير حاضرهم .

بعضنا ، نحن الذين تشكلنا ونجونا من العواصف النارية لهذا القرن ، .... ندين بذلك لأنفسنا إن لم يكن لأى شئ آخر ، وإن كنت لا تريد أن تقرأ ما لابد أن أقوله ، فلتتركه فى مكان ما كى يجده أبناؤك أو أحفادك يوما ما ، وربما قد لا أحبذ إرساله لأحد عندما أصل إلى النهاية ، معظم ما ستقرأ من نسج خيالى ، المساحات الفارغة بين ما أعرف من أشياء ، لا يمكن أن تظل فارغة بكل تأكيد ، لو سمحت لى ، سوف أبدأ بالأسلوب الذى تم الإصطلاح عليه منذ القدم :

فى يوم من الأيام ، فى قرية "بدفوشوليسك " فى إقليم "جاليشيا" فى العقد الأخير من القرن الماضى ،، كان هناك خمسة أولاد تبدأ أسماؤهم، جميعاً بحرف اللام يسبحون فى النهر نفسه ، يذهبون إلى المدرسة نفسها، ، يطاردون البنات أنفسهن ،ونشأوا كلهم غير مكترثين بكون قريتهم الحدودية بين الأراضى النمسوية - الهنغارية وممتلكات قيصر الأراضى الروسية كلها كانت دائماً عرضة لأهواء الاستعمار . كانت الأيدى تتغير عليها كل بعض سنوات .

وكان معنى ذلك ، أنهم تعلموا لغات كثيرة بدلاً من لغة واحدة ، وتعلموا أن يقرأوا "بوشكين" و "جوته" باللغة الأصلية ، كانت جدتك "جيرترود " تتحدث دائماً عن صورة رأتها ذات يوم فى موسكو كانوا كلهم هناك خمسة أولاد أبرياء يبللهم الماء من الرأس إلى القدم ، وجوههم عليها ملامح متحفزة ، فاجأتهم الكاميرا وهم فى بنطلونات السباحة القصيرة .

وإلى أن شبوا عن الطوق ، لم يكن "لودفيك" "ولانج" - كانوا يدعونه دائماً فريدى - و "ليفى" و "ليفيتسكى" و"لارين" قد شجعوا على إنشاء مكتبة وقاعة للاطلاع ، حيث كان يمكنهم قراءة الصحف

والدوريات الصادرة بالألمانية ، وسرعان ما أصبحت قاعة الإطلاع تلك مكاناً للقاء ، حتى بالنسبة للشبان الأقل حظا من التعليم فى القرية ، وعندما أغلقها الروس عم الغضب الجميع ، وكان بين الأولاد الخمسة الذين تبدأ أسماؤهم بحرف اللام ثلاثة من أصل يهودى يتكلمون لغة "البيديش" منهم أبى "لودفيك" بينما كان الآخران من أصول بولندية فلاحية الكل يتكلم لغة الكل وعندما حان وقت الاحتفال بعيد ميلادهم العاشر ، كان جـــدك وأصدقاؤه يتكلمون الألمانية ، والروسية ، والبولندية ، والبيديش ، بدرجة متساوية من الطلاقة .

نعرف جميعاً الملامح السلبية للامبراطوريات القديمة ولكنها كانت لا تعد ملمحا إيجابياً كان وجودها يوجد المجتمعات التى يحكمونها من خلال تزويدهم بلغة مشتركة .... وعدو مشترك .

الشبان الذين نشأوا فى "بدفوشوليسك" الصغيرة ، لم يشكوا أبداً أن الحرب العالمية الأولى ، سوف تقصف عمر معظمهم خلال ســنوات قليلة ، ولم يكونوا غافلين عن الظروف المضطربة ، التى يعيشونها نادراً ما تكون الحياة فى قرية حدودية ، هادئة ومطمئنة ، فهمى تجتذب الآبقين من كل جنس ، مجرمون ، سياسيون منفيون، فارون من جيوش، هاربون من ظلم الأباء ، يحاولون أن يجدوا طريقاً نحو العالم الجديد .

كان وضع أولئك الشبان الذين تبدأ أسماؤهم بحرف اللام ، جيداً ، منذ أن امتلك والد "شميلكا ليفتسكى"فندق القرية الصغيرة ، بقفطانه الأسود ولحيته الكثة السوداء المتناغمة معه ، كان منظره يوحى بالخوف ويثير الاحترام، وكان رجلا طيباً يشمل نزلاء فندقه الصغير بالمودة والكرم، وهنا، سمع "لودفيك " وأصدقاؤه لأول مرة من المنفيين البولنديين عن قيام ثورة ضد القيصر فى"سان بطرسبورج"كان ذلك فى عام ١٩٠٥ .

ثم علموا بأن الثورة قد تم سحقها عندما مرت بالقرية موجة جديدة من المنفيين ، وكانت القرية قد أصبحت فى أيدى النمسويين مرة أخرى ، لم يكن الخمسة يعيشون فى "إسن" أو "مانشسير" أو "ليل" ، ورغم وجود اتحادات عمالية ودعاة إصلاح ، إلا أنهم كانوا قلقين بسبب سرعة تغير الأحوال .

كانت "بدقوشوليسك" قرية أوربية مهمة ، على هامش امبراطوريتين قويتين وكان ما يقرب من ثمانية بالمائة من سكانها من اليهود، استقبلوا الأخبار القادمة من "بطرسبورج" ببهجة لم يخفوها فى البداية ، ولكن سرعان ما عاودا إلى حالتهم العادية ، من التشاؤم الحذر .

وفى يوم مشمس من أيام مارس عام ١٩٠٥، ومع بدء ذوبان الجليد ، جاء إلى "بدقوشوليسك" رجل ضئيل الحجم ، فى بداية العقد الثالث ، له عينان متعبتان ويرتدى نظارة طبية لها إطار يشبه قرن حيوان ، كان بولنديا وكان اسمه "آدم " وكان قد أمضى عدة سنوات فى سجون القيصر ، كل ما يريده هو أن يستريح ، صادقة "لودفيك" وقبلوه عضو شرف فى المجمتع السرى للخمسة الذين تبدأ أسماؤهم بحرف اللام ، كان يقضى معهم وقتاً طويلاً فى المشى على شاطئ النهر ، يستمع إلى ثرثرتهم حيث كانت بنات القرية، موضوعاً رئيسياً للحكى ، عن الحاخام وكبار شخصيات القرية الآخرين .. ثم يتكلمون عن الممارسات الأبوية ، التى لا تروق لهم .

كان "آدم" مستمعاً جيداً...يبتسم كثيراً ويسأل قليلاً ولا يتطوع بقول شئ ، وعندما بدأوا يسألونه فقط ، أدركوا أن حياته كانت مختلفة عن حياتهم ، حكاياته هزتهم ، ثم بدأ هو يوجه الأسئلة، وسرعان ما بدأت الأحداث التى كانوا يقبلون بها كأمر مسلم به تظهر فى ضوء جديد ،

المذابح المنظمة مثلاً "لودفيك" حكى "لآدم" كيف اصطحبه والده منذ سنوات لحضور زفاف عم له، فى قرية مجاورة ، كانت "بدقوشوليسك" كلها تقريباً يهودية، ودائماً تحت الحكم النمسوى، وتشعر بالأمان ولكن عمه كان يعيش فى روسيا كان الشارع الرئيسى الذى يعيش فيه فى القرية يشبه الوادى الصغير الضيق شديد الانحدار. دكاكين، وبيوت اليهود على جانب ، وكل شئ آخر على الجانب الآخر ، وعندما كان "لودفيك" يتكلم أصابت صوته بحة ، فقد تذكر ما شعر به من رعب فى تلك الليلة الخريفية الباردة ، كان يوم سبت الشموع موقدة ، وبينما يسيرون فى الشارع، كان وميض سحرى ناعم يؤطر نوافذ بيوت اليهود.

وصف له تجمع المصلين وهم يغادرون المعبد ، رجال مسنون بظهور محنية ورؤوس مدلاة وقفاطين مفتوحة ، وآخرون صغار مثل "لودفيك" يحاولون تقليد الكبار، فى مشيتهم ، ولابد من أن يكون بعض كبار السن قد شموا رائحة خطر فى لحظة ما ، فصمتوا جميعاً لسبب غير واضح ، فجأة ، دون إنذار إنقضت عليهم جماعة من الفلاحين يقودهم قساوسة ، كان "لدوڤيك" يتذكر المناجل والمحشات والسياط والعصى ، التى كانت تنهمر من السماء فوق رؤوسهم كالمطر كان السوط فى يد فلاح قوى كث الشارب ، ينهال على ظهر عجوز يهودى فى الستين ، وكان "لودڤيك" يصف وجها شوهه الحقد ، وعينين أصابهما مس الكراهية المسيحية المتأصلة ، ضد اليهودى، ذلك الوحش الذى أرسله الشيطان من السماء ليقتل المسيح ويضطهد الأبرار ، أمسك والد "لودڤيك" ابنه فى يده وركضوا بعيداً .... بعيداً مخلفين كل ذلك الشر وراءهم ، وفى اندفاعهم هاربين من العقاب ، لم يلاحظوا أن جماعة أخرى كانت تقتحم بيوت اليهود وتضرم فيها النيران بشموع السبت ، كانت مذبحة صغيرة فى تلك الليلة مات يهوديان فقط ، وهما يقطعان

الأميال الباقية حاول والده أن يهدئ من روعه ، كانت الأمور أسوأ من ذلك فى "لومبيرج " و"كييف" صمم" لودفيك" وأصدقاؤه ، بتشجيع من "آدم" على الهروب من "بدفوشوليسك" كانوا كلهم متفوقين فى الدراسة استطاعت أسرهم تدبر المال الكافى لإرسالهم إلى الجامعة فى "فيينا" كنا فى عام ١٩١١ ، "فريدى" و"ليفى" و "لارين" درسوا الطب "لودفيك"على غير رغبة والديه ، الذين كان يريدان له أن يصبح محامياً ، درس الأدب الألمانى وكان يتكلم بحماس عن "هينه ""ويكتب الشعر "شميلكا ليفيتسكى "تخصص فى الرياضيات ، ولكنه كان يقضى معظم وقته فى العزف على الكمان .

وفى البداية ، كانوا يلتقون كل مساء ، يتبادلون الأخبار ويتحدثو عن الوطن ، ويتشاكون عن ارتفاع أسعار كل شئ ، ويتحسرون على انفسهم، وفيما عدا "ليفيتسكى" لم يكن أى منهم قادراً على شراء ملابس جاهزة ، وكانوا يجذبون اهتمام الآخرين عندما يتجمعون حول طاولة فى أحد المقاهى فى صخب ، يشربون قهوتهم، ويتكلمون باليديش ، كانوا يريدون أن يتخلصوا من ريفيتهم فى يوم وليلة .

بعد أسابيع قليلة أصبحت لقاءاتهم أقل ، كانوا يعملون بجد وبدأوا يكونون صداقات جديدة، وفى وقت قصير أصبحت اتصالاتهم ببعضهم، مقصورة على التلويح من بعد عبر طاولات مقاهيهم المفضلة "لودڤيك" "سحرته "ڤيينا" ، أسرته دوامة التاريخ المدهشة هنا يتبدى كل شئ ونقيضيه الاشتراكيون المسيحيون المعادون للسامية ، فى مواجهة الاشتراكيين كان "شوينبيرج" قد أطلق وابل طلقاته المغرقة فى الحداثة، على الفالس الڤيينى ، وهكذا تم دفن مؤسسة موسيقية فى الماضى ، وكان فرويد يتحدى التقاليد الطبية الراسخة .

كان "لودڤيك" مستثاراً لدرجة بعيدة لم يستطع أن يدرك أن ما كان يشهده ، ليس أقل من تفسخ للنظام القديم ، على العكس من نظرائهم الإنجليز والفرنسيين ، لم تكن النخبة ، البرجوازية النمسوية قادرة على الاندماج مع أرستقراطيتها أو تدميرها .

ولكنها بدلاً من ذلك ، ركعت على ركبتيها وحاولت تقليد من هم أرقى منها ، لم تواجه سلطة الأمبراطور أى تحد إلا من أسفل، الفاشيست القدامى من جانب ، والاشتراكيون من الجانب الأخر .

ولأنه عجز تماماً عن فهم ديناميكيات ذلك العالم ، بحث "لودڤيك" عن ملجأ فى الجانب الثقافى من صحافة "فيينا" ، جذبه أسلوب صفحات التسلية وكتابها كانوا نفرا ممن تخصصوا فى تشجيع المشاعر الخاصة ، وجعل القراء يشعرون بأنفسهم يسبرون أغوار الواقع .

ترك ذلك أثراً عميقاً على "لودڤيك" وراق له الحس الأدبى ونرجسيته كان دائم التفكير فى الوطن يفتقد طبيخ أمه ، وفطائر عمته "جالينا" التى كانت تصنعها فى المناسبات المختلفة ، حتى صوت والده المازح كان يحن إليه ، وفى الهزيع الأخير من الليل كان يجلس وحيداً فى غرفته الصغيرة يكتب ما كان يعتقد أنه خطابات ذكية ليسعد والديه ، مقلداً أسلوب كتاب صفحات التسلية والكتابة الخفيفة كانت متدلاقة لسانه ونغمته الزائفة تحزن والديه ، الأب كان مدرساً خاصاً ، يكسب القليل من تدريس الموسيقى لأبناء الطبقة الراقية البولندية ، أمه كانت تصنع الخبز والفطائر المحشوة بالجبن لمخبز "بدڤوشوليسك" وكلاهما كان يعمل بجد لكى يرسلا ابنهما المحبوب إلى "ڤيينا" ، أما شقيق "لودڤيك" وهو عكسه تماماً ، فكان يتدرب لدى عم لهم يعمل بصناعة وإصلاح الساعات وكان ناجحاً فى عمله ، إلى أى مدى كان يمكن أن

يستمر ذلك ، وأين انتهى الأمر بالخمسة ؟ لا أعرف حدث شـــيئان لإنهاء تلك الحالة من الانغماس الذاتى ، ودفعا بهم فى إتجاه الحقيقة .

الأول هو "كريستينا" والثانى .... نشوب الحرب العالمية الأولى... دخلت "كريستينا" حياتهم فى سنة ١٩١٣ ، كنا فى يوليو .. والأيام طويلة والسماء زرقاء صافية ، والليالى ساكنة ...رآها "فريدى" ذات مساء على الرصيف ، وهم يشربون عصير الليمون المثلج محاولاته لإشراكها معهم فى الحديث باءت بالفشل ، وعلى نـــحو بائس لاحظ "لودفيك" أنها كانت تقرأ فى كتيب من تأليف "كاوتسكى" تقدم نحوها وسألها إن كان يمكنه أن يستعيره منها هذه الليلة ، وكان هذا الأسلوب أكثر نجاحاً وافقت على الإنضمام إلى طاولتهم ولكنها أصرت على أن تدفع ثمن الشاى الذى شربته .

كانت أكبر منهم بسنوات قليلة وبادية الذكاء الحاد النزاع للصدام ، وجميلة جداً ولكنه جمال من نوع غريب ، وكانت تكره النفاق كانت قد نشأت فى "وارسو" ودرست الفلسفة فى "برلين" وحضرت الدروس التى كان ينظمها الحزب الديمقراطى الاجتماعى الألمانى وعندما عادت إلى الوطن ، أصبحت اشتراكية وانضمت للحزب البولندى السرى ، سلطتها مستمدة من الشهور الأربعة التى أمضتها فى السجن قالت ذلك كله لهم ، ولكن كل محاولة لمعرفة شئ عن حياتها الشخصية كانت تبوء بالفشل ، لم تتحدث معهم أبداً عن أبويها ولا عن علاقاتها الغرامية ، لم يكونوا حتى متأكدين أن "كريستين " هو اسمها الحقيقى ، أحبوها نعم حتى "لودفيك" رغم أن "ليزا" زوجته عندما كانت تسأله بعد ذلك عنها كان دائماً يحتج بشدة ، ويقول .. ، نعم "! " طبعاً ! ... وكيف لا يحبها إنسان ؟ ولكنى لست فى علاقة غرامية معها هناك فرق".

وذات مساء عندما كانوا يحضرون دروسها لعدة أشهر ، استطاعت "كريستينا" أن تجندهم جميعاً لقضية الاشتراكية الدولية المدهش أنها استطاعت وبسرعة شديدة أن تغير مفاهيمهم ، عن فيينا ، والعالم علمتهم ألا يقبلوا الحياة على علاتها ، وأن يقاتلوا ضد كل التجاوزات .. بعنف ، لم يكن هناك في قاموسها حقائق راسخة ... كل شئ يمكن أن يتغير ، ولا بد أن يتغير، لا يوجد مستحيل .

كان الأولاد الخمسة الذين جاءوا من "بدقوشوليسك" قد أصبحوا الآن خلية سرية للحزب الاشتراكي البولندى ، فى المنفى أصبحت حجرة "كريستينا "الصغيرة جامعتهم لم تُغيرهم بتغيير وظائفهم الأكاديمية ، فحركة الطبقة العاملة فى حاجة إلى أطباء لعلاج الفقراء ، معنى ذلك أن ثلاثة من اللذين تبدأ أسماؤهم بحرف اللام كانوا يصلحون لذلك ، اكتشفت "كريستينا" أن "لودفيك" كان لغوياً موهوباً أقنعته بترك الأدب الألمانى ، لكى يدرس تفاصيل ودقائق اللغات الألمانية ، والإنجليزية ، والروسية ، والفرنسية ، والإسبانية .

كانت تريده أن يتذوق الخصوصية الفريدة لكل لغة ، ولذلك عزم على قراءة أدب كل ثقافة ، وكان يمكن مشاهدته على مدى عدة أشهر ، وهو جالس فى مقاهيه المفضلة منهمكا فى قراءة روايات أوربية .

لم يلتقوا أبداً فى حياتهم بامرأة مثلها ، كانت تحارب من أجل عالم أفضل ، وتخلت عن كل شئ آخر فى حياتها لتحقيق هذا الهدف ، علمتهم معنى الالتزام بمجموعة من المثل والقيم ، بعثت فى حياتهم روح الدراما فجعلتهم يشعرون بأنهم ليسوا مجرد أفراد، وإنما ممثلين .. لكل منهم دور يلعبه على مسرح التاريخ ربما يبدو ذلك كلاما كبيراً الآن .... عندما ننظر إلى عالم اليوم ، ولكنه لم يكن هكذا دائماً .... وهذا شئ يريد جيلك أن ينساه ، "كريستينا"غيرت الطريقة التى كانوا ينظرون بها

إلى العالم أجبرتهم على التفكير فى الحاجة لتغيير الحالة الإنسانية ... غيرت رؤاهم إلى الأبد .

كانت هى التى منحتهم هويات جديدة ، كانت تدعوهم باللامات الخمس ، وطواعية ، أصبحوا أصابع يدها الخمسة . ولا شك أن شخصيتها القوية هى التى دفعت الخمسة إلى الثورة ، أما التفسخ الاجتماعى الذى خلفته الحرب العالمية الأولى فتكفل بالباقى . فكر فى ذلك يا "كارل" كل ميسر لزمنه . العمل بأناة من أجل الثورة العالمية فى جاليشيا" كان الخيار دائماً محدوداً . الامبراطور، أم القيصر ؟ وجهتهم "كريستينا" نحو أفق جديد وفى غرفتهم فى "فيينا" ،كانوا كثيراً ما يساءلون إن كان الأمر كله مجرد كلام ، وما إذا كانت رؤية "كريستينا" الطوباوية يمكن أن تتحقق ذات يوم كان "لودفيك" قد شاهد المذابح ، وكان يشك فى إمكانية أن يتجمع المظلومون خلف راية واحدة ، أولئك الفلاحون البولنديون والروس الفقراء كان يوعز إليهم بقتل اليهود .

وإحراق منازلهم .. هكذا بكل بساطة فهل يستطيعون فعلاً أن يحرروا أنفسهم ؟ إن الأمر يحتاج إلى معجزة تنتزعهم بعيداً عن ذهول الانقياد للآخرين .... وذلك الذهول الذى يغمرهم "كريستينا" تستمع بصبر وتبتسم ، كان "لودفيك" يعبر عن الشكوك نفسها التى كانت قد أصابتها منذ سنوات وعندما كانوا يتجادلون سمعوا صوت هياج فى الشارع الأخبار جاءت من "سراييفوا" صربى قومى ، قتل وريث العرش النمسوى من ذا الذى كان يمكن أن يتصور آنذاك ، يا وريث "كارل" أن قرن الحروب والثورات سوف يبدأ وينتهى بـ "سراييڤو"؟

وبنشوب الحرب تبددت شكوك "لودڤيك" ، منذ اليوم الأول ، كان موقف كريستينا واضحاً ، لم تشعر بالحاجة إلى استشارة سلطة أعلى، كانت حرباً ، من الإجرام أن تنحاز فيها إلى جانب أى طرف لا الامبراطور ولا القيصر كانت القوى الأوربية تحارب بعضها لتحديد من

تكون له السيطرة على بقية العالم ، وكانوا كلهم يستخدمون عمالهم علفاً للمدافع !

كانت كريستينا تريد أن تقوِّم كافة الأحزاب العمالية فى أوروبا بإضراب عام احتجاجاً على الحرب لم تكن تريد للعمال البريطانيين أن يقلتوا أو أن يقتلهم نظراؤهم الألمان كانت تصرخ ، بعيون مشرقة فى المهتدين إلى المذهب الجديد "ليس للعمال وطن! "

فى البداية لم يكن اللامات الخمس مقتنعين كان القيصر الروسى بالنسبة لهم هو الشر الأكبر ، وأن انتصاراً ألمانياً من شأنه أن يساعد الديمقراطيين ويحرر "بولندا" والمستعمرات الروسية الأخرى ، وكانت "كريستينا" غاضبة جداً . لماذا يجب استبدال حاكم بآخر ؟ الحرية الحقيقية معناها سقوط كل العروش وامبراطورياتها كانوا يتجادلون عدة أيام ، وفازت "كريستينا" والذى أقنع الخمسة فى النهاية هو رؤيتهم لـــ "كريستينا" وهى تبكى وفى يدها نسخة من "داى نيو زايت" الديمقراطيون الاجتماعيون صوتوا فى البوند ستاغ لصالح الحرب ، كان "ليبكنشت" هو الوحيد الذى صوت ضدها استولت هيستريا الحرب على العمال ، وكان حزبهم قد أصبح ضعيفاً لا يستطيع أن يسبح ضد التيار ربما كان "لودفيك" هو الذى اقترح مبدئياً أن يهدئ من مشاعرها ، وكان ذلك يعنى أن العمال الألمان لهم وطن .. ولكن النظرة المتجهمة التى استقبلت هذا التجذيف الفكرى .. فرضت تراجعاً فورياً .

كان "لودفيك" شديد التأثر بالناس أكثر منه بالأفكار ، وكانت فلسفته تعبر عن ذلك دائماً ومن الآن فصاعداً سيصبح التحقق سمة سائدة من سمات وجوده .

وكان خيارهم هو أن يغادروا "ڤيينا" فوراً بمجرد صدور قرار التعبئة العامة ، "كريستينا " أخذتهم إلى "وارسو" .

- ٢ -

لندع أبى "لودڤيك" وأصدقاءه ينتظرون بعض الوقت "كريستينا" تعلمهم فنون الحرب والسياسة ، وسوف أعود إليهم بعد قليل .. لكن هناك شئ آخر يقلقنى ، ويطير النوم من عينى .

أريد أكثر من أى شئ آخر أن أصلح علاقتنا ، وأن أعيد بعض المرح لحياتنا ، أنا وأنت ، أستطيع أن أدرك مكمن الخطر ، إن المرارة الدفينة والتوترات المقبضة أصبحت قارة فينا نحن الاثنين، هل من ترياق لهذا السم ؟ أتمنى أن توافقنى يا "كارل" .

حتى عندما أكتب ، يبدو أمراً مضحكاً أن أعود هكذا إلى الماضى البعيد ، بدلاً من التصالح مع المستجدات الحاضرة ، أعنى قرار أمك بأن تتركنا ذلك القرار الذى كنت تلومنى دائماً بسببه ربما لو كانت هى التى بقيت ، وتركت البيت أنا كنت ستلومها بدلاً منى .. بالرغم من أن ذلك - وبالدرجة نفسها - لن يكون له أى مبرر على الإطلاق ، بعد موت جدتك "جيرترود " بدا أن كل شئ كان يتجه وجهة خاطئة ، وجدت أنا وأمك أنه لم يبق لنا سوى بقايا كلام وفى الشقة الخاوية ، بدأت أشعر بغيابها أكثر ، وتزايد إحساس بأنها فقدت الاهتمام بى ، كانت تقضى وقتاً طويلاً فى عيادتها .

وذات يوم وأنا أتناول القهوة مع "كلاوس ونتر" ، قال شئياً ما كان ينبغى له أن يقوله هل تتذكر "كلاوس" ؟ كان صديقاً قديماً من أصدقاء "جيرترود" ، وكان يبكى فى جنازتها بحرارة ، هو الذى اشترى لك

بنطلون الجينز من "برلين" الأخرى فى عيد ميلادك الرابع عشر ، قال لى "كلاوس" عرضاً ، إنه كان قد شاهد "هيلجا" مع صديق فى حفل موسيقى منذ يومين ، وسألنى لماذا لم أكن موجوداً المشكلة يا "كارل" ليست فى أنها لم تخبرنى بأنها كانت ستذهب إلى الحفل ، المشكلة أنها قالت بوضوح إنها لن تستطيع أن تحضر اجتماع المنتدى فى تلك الليلة بسبب مريض لا تسمح حالته بإلغاء موعده .

فلماذا كذبت على ؟

تركت "كلاوس ونتر" وحده فى الفندق الذى كنا نجلس فيه ، وعدت مندفعاً إلى المنزل كنت مجنوناً من الغيرة ، ولحسن الحظ ، وربما لسوئه كنت أنت فى الخارج مع أصدقائك . وعندما رجعت أمك واجهتها بالحقيقة ، والمدهش أنها ابتسمت وقالت إننى مثير للشفقة ! ضربتها شعرت بالخجل فيما بعد ، توسلت لها أن تسامحنى لم تتكلم ولكنها مشت بهدوء إلى غرفة نومنا وراحت تجمع ملابسها من الخزانة .

تجمدت فى مكانى لم أستطع أن أقول شيئاً ، أو أن أفعل شيئاً لأثنيها عن ذلك . كنت جالساً على السرير صامتا ، بينما تجمع أشياءها وتضعها فى الحقيبة الخضراء الباهتة إياها ، تلك الحقيبة التى كانت تخص جدتها ذات يوم منذ ما قبل الحرب تذكرت ذلك اليوم عندما جاءت بها إلى المنزل بعد زفافنا ، وحملتها إلى غرفة النوم .

"لم أكذب عليك يا ڤلادى ، ولم يحدث أبداً أن فعلت. الرجل الذى كان معى فى الحفل هو أحد المرضى ، وكان ذلك جزءاً من علاجه . أما رد فعلك فهو عرض من أعراض عقلك المثقل بالذنوب ، أنا راحلة نتكلم الأسبوع القادم عندما تهدأ ، وبعدها نتحدث مع "كارل" قل له إننى

ذهبت إلى "ليبزج" لزيارة أمى ، وإذا كنت تود أن تجئ "إيفيلين" إلى هنا فليس لدى أى اعتراض .

كان ذلك هو كل ما قالته وهى تغادر بيتنا ، كنت أريد أن أصرخ أن أركض خلفها ، أن أركع على ركبتى متوسلاً أن تبقى وتمنح علاقتنا فرصة أخيرة ... ولكننى لم أفعل شيئاً سوى أن ذرفت بعض دموع ذاهلة وهى تخرج .

ربما كان هناك شئ ما بداخلي يخبرنى بأن لا فائدة ! لقد تباعدنا .. لا شئ ، حتى أنت يا "كارل" يمكن أن يجمعنا مرة أخرى والباقى أنت تعرفه عادت وافترقت أنا و "إيڤيلين " .

أما القطيعة الكبرى فقد جاءت بعد ذلك ، ولأسباب يعرفها كلانا ، كانت هليجا مخطئة فى موقفها من "إيڤيلين" لو كنت قد أعترفت لها لغضبت ... ولكنها كانت ستفهم .

لقد اكتشفت بالمصادفة رسالة من "إيڤيلين" كان لابد من التخلص منها ، كانت تقول فى رسالتها إن هزه الجماع عن الانثى اختراع ذكورى ، ولا ينبغى أن أيأس من عجزى عن إشباعها كنت أحتفظ بالرسالة فقط ، لأنها أضحكتنى ، أمك قرأتها ، وفهمتها على نحو مختلف ونسبت إلى "إيڤيلين" قوة لا تمتلكها – للأسف– تلك المرأة الصغيرة أعتقد أننى لا بد أن أبدأ من البداية .

قد يكون ذلك مفاجأة لك يا "كارل" .. ولكننى كنت محاضراً مشهوراً فى "همبولت" والأدب المقارن يسمح بقدر كبير من الإبداع فى تدريسة ، وكانت "إيڤيلين" من بين طلابى فى برنامج عن الأدب الروسى.

كان من عادتى مثلاً أن أتكلم عن "جوجول" وهو يقرأ أجزاء من "أرواح ميته" على "بوشكين" ، بينما يكتب الطلاب حواراً متخيلاً بين الرجلين ، "إيڤيلين " كانت سريعة البديهة وكنا نبتسم للحوار الذكى الذى كتبته ، إلى أن وصل إلى نقطة سيريالية ، كانت شديدة الحساسية بالنسبة للأفكار السائدة ، وعندما اقترب حوارها المتخيل من نهايته ضمنته بعض التلميحات العنيفة عن "هونيكر" والمكتب السياسى ، ونظر الجميع إلىَّ لم أعلق بشئ وانتقلت إلى الطالب التالى .

لم أكن أتحدث معها بعد المحاضرات أبداً لم تكن علاقتنا أكثر من تبادل نظرات ودية ، وابتسامات عابرة ، وخاصة عندما يحاول طالب أن يصعد حزبياً بتوجيه أسئلة محرجة .

فى ذلك الأسبوع كان عيد ميلادى الخمسون . قامت "هيلجا"بترتيب حفل ولدهشتى جاءت "إيڤيلين " ، مع بعض أصدقاء من الجامعة لم تكن قد وجهت دعوة لأى منهم ، ومع ذلك رحبت "هليجا" بهم جميعاً. كانت مناسبة عفوية بعيدة عن التكلف كانت "إيڤيلين " هى الوحيدة التى ظلت فى حالة صحو فى تلك الليلة .، وكانت تراقبنا جميعاً من خلف غلالة كثيفة من دخان السجائر ، وكان ذلك عندما رأيتها لأول مرة .. كامرأة جذابة .. متوسطة الطول ، رشيقة ، شقراء الشعر ، ورائعة القوام صدرها ليس عامراً مثل صدر "هيلجا" ولكنه صغير وقوى ... وفوق ذلك كله عينان زرقاوان حادتان ووجه بارز العظام شديد الذكاء .

بعد ذلك بأسبوع مارسنا الجنس لأول مرة فى شقة صغيرة تطل على

مقابر اليهود القديمة ، كانت شقة عمتها ولم تكن موجودة بالبيت فى ذلك المساء لبضعة أشهر تشاركنا فى كل شئ ، الأخبار الأسرار ، الهموم ، الأوهام ، الأحلام ، ونما الحب بيننا مثل وردة برية ، كنا نمشى إلى الحديقة يداً فى يد ، ونتبادل القبلات مثل المراهقين مشبوبى العواطف .. وجاء وقت كنت قد فكرت فيه بكل جدية أن أخبر أمك بذلك ، ماتت العلاقة فجأة ، فما الذى بترها من الوجود ؟ من ناحيتى أعتقد أنه كان سكين العقل ، وبعد ظهيرة أحد الأيام فشلت فى ممارسة الجنس معها ..... عيرتني وكانت هازئة وعيّابة ! " من الواضح أننا قد فشلنا ، كلانا قد أنهك الآخر على ما أعتقد .. حان وقت التغيير، تبدو مدهوشاً يا "فلادى" مظهرك ليس سيئ سيئاً بالنسبة لسنك ، كنت معجبة بك بسبب لسانك اللاذع ، ولأنك كنت مختلفاً عن الروبوت الاخرين فى "همبولت" كان ، من عادتك أن تضحكنى لم أكن أنوى أن أتوقف طويلاً فى محطتك أيها الغبى العجوز على أية حال .. إشاراتك فى حاجة إلى الإصلاح وأنت نفسك فى حاجة إلي مهندس أكثر منى خبرة " حينذاك فكرت أنها كانت مدفوعة بطموح شخصى خالص ، رغبتها المستمرة فى تغيير العشاق كان يقررها أيهم سيساعدها أكثر لكى تتقدم فى عملها ،كنت قد قدمتها إلى مخرج سينمائى من معارفى ورأيتها تشتغل عليه ، ولم يكن لدى أدنى شك فى أنه سوف يحل محلى ، وقد حدث .

قد أبدو غير منصف، وربما تكون قد استغنت عني هكذا ببساطة بعد أن انتقلت إلى مرحلة جديدة من حياتها أمضيت وقتاً طويلاً فى مراجعة كتاباتها وكنت أبدى ملاحظات نقدية، وأدفعها دفعاً لكى تكتب وتعيد

الكتابة ، إلى أن أشعر بأنه لا أفضل من ذلك، أنا الذى قرأت قصصها القصيرة ، وقصائدها أنا الذى اكتشف أن لها أذناً جيدة للحوار ، ودفعتها دفعاً لكى تكتب للسينما .

بعد أيام قليلةٍ من انتهاء علاقتنا رأيتها فى الطريق مع المخرج السينمائى،أقدمتُ على تصرف سئ قطعتُ حديثهما معاً وجذبتها من يدها وكان رد فعلها يشى بأن كل شئ كان قد انتهى بالفعل، احتقرتنى،كانت الكراهية تتدفق منها مثل حمم البراكين المصهورة هددت بإبلاغ "هليجا .

وانصرفت شعرت بالغيظ الشديد ، أحسست بأننى خدعت .. واستخدمت ، حاولت أن أواجهها مرة أخرى ولكنها كانت قد اختفت هربت هى والمخرج السينمائى إلى الغرب ، وأخبرنى أحد أصدقائها أنها قد استقرت فى "هيدلبرج" .

لم يكن ثمة داع لأن أخبر أمك بأى شئ كان كل شئ قد انتهى، ولكن شخصاً ما كان قد سجل الحدث ، على غير علم منى ولا من "إيفيلين " كانت لقاءاتنا الصيفية فى الحديقة ، قد لفتت انتباه "ليلى"، وهى رسامة تركية من " كروز بيرج" كانت مكلفة برسم مجموعة من المناظر الطبيعية فى برلين الشرقية ، وكان فى البورتريه الذى رسمته لنا مسحة سيريالية شخصان غائبان فى عناق عميق على نحو غير مشروع فى حديقة عامة ، وكان عنوان اللوحة "قبلات مختلسة " ومرت أشهر عدة كانت "إيفيلين " كامنة فى لا وعيى ، وذات يوم عاصف ممطر كانت أمك تبحث عن مكان تحتمى به فدخلت قاعة فنية ، حدث ذلك مصادفة ، ولكن يالسوء الحظ ، رأت اللوحة ، أخترقت القناع السيرالى وتعرفت علىَّ وراحت تسأل ليلى باستفاضة كأنها تستجوبها .

لم تكن "هيلجا" تقدر على شراء اللوحة ولكن عندما لاحظت ليلى مدى تأثرها أهدتها لها ، وبعد انتهاء المعرض أحضرت "هيلجا" اللوحة إلى شقتنا ، إعصار فى علاقتنا علاقة محكوم عليها بالنهاية ولكن القبلات المختلسة ختمت مصيرها النهائي ... .!

حملت اللوحة معها عندما رحلت وهى تقول رغم أن الموضع كله يصــيبها بالغثيان .. إلا أنها تحب التكوين .. وأصبحت صديقه لليلى .

يحدث أحياناً في الحياة أن تستدعى نكسة واحدة انتكاسات أخرى ... فالمصائب لا تأتى فرادى .. مثلما تكون صخرة صغيرة مخلخلة سبباً فى إنهيار كبير .

بعد شهر تقريباً ، التقيت بـ "كلاروس ونتر" على الغداء وأخبرنى أن أمن الدولة كان يتلقى تقارير مفصلة عن اجتماعاتنا القيادية فى منتدى الديمقراطية الألمانية ، وكرر بعض العبارات المنسوبة لى بالحرف ، كان تقريره دقيقاً للغاية حدث ذلك عندما أخبرنى "ونتر" بأنه كان من كبار المسئولين فى الاستخبارات الخارجية ، وأنه كان يعمل هو وجدتك "جيرترود" لحساب الاستخبارات الحربية السوفيتية منذ أواخر العشرينيات وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عينا للعمل لحساب الاستخبارات جمهورية ألمانيا الديمقراطية .

صعقت يا "كارل " لم أكن أتصور أن "جيرترود" كانت ما تزال متورطة في مثل تلك الأمور ، لم يكن في أوراقها التى تركتها أى أثر لذلك ، لم أمكن "ونتر" من أن يرى أثر الضربة التى وجهها إلى، كانت "جيرترود" هى التى شجعت على إنشاء هذا المنتدى وهى التى ساعدتنى

بالفعل فى كتابة بيانه التأسيسى ، وحضرت بعض الاجتماعات كنت قد ناقشت معها بعض أدق أسرارنا بما فى ذلك خطة لسرقة بعض الوثائق من المكتب السياسى ، لأن أحد أعواننا كان يعمل في ذلك المبنى . وأنا خارج من شقة "ونتر"كنت أتساءل بيني وبين نفسى عن حجم ما نقلته من أسرارنا، كل شئ ؟ لا شئ ؟ بعضها ؟ وفى تلك الأحوال لماذا لم يلقوا القبض علينا ويحلوا المنتدى ؟ كان من السهل جداً أن يفعلوا ذلك ربما كانوا قد أبلغوا موسكو مباشرة بالأمر ، ونصحهم رجال "جورباتشوف " بأن يتركونا ننمو .

كنت أبحث عن إجابات ، ولكن قبل أن أكون مستعداً لمواجهة "ونتر" ، كان على أن أكتشف جيرترود الحقيقية ، والأشباح التى تسيطر عليها كانت "جيرترود " قد ماتت ... وكان لابد أن أقوم بتجميع الخيوط المتشابكة والمتباينة التى كونت حياتها .

كيف كانت متداخلة مع خيوط "لودڤيك"؟ متى التقت "ونتر" لأول مرة ؟ وأين ؟ ومن هى قبل كل شئ ؟ كانت حياتها قد بدأت تطاردنى الآن مثل الشبح .

أتذكرك وأنت تسألها قبل أن تموت بفترة قصيرة ، إن كانت تحتفظ بأى صورة لعائلتها ، أنا أيضاً كنت دائماً أسألها عن ذلك عندما كنت طفلاً ، فكانت تهز رأسها بسرعة وتغير الموضوع وعندما سألتها أنت أخذت تبكى ، هل تذكر ؟ هل تعرف لماذا يا "كارل " ؟ لأنها كانت قد تركت بلدها فى وقت وفى ظروف كانت كل العلاقات بينها وبين عائلتها مقطوعة ، فيها كان والد "جيرترود " من الجيل الثالث لليهود الألمان

جدها الذى كان صاحب تجارة رائجة فى الشاى والكافيار ، بنى بيتاً كبيراً فى "شوابن " التى كانت حينذاك ضاحية حديثة من ضواحى "ميونخ" معظم تلك البيوت القديمة قد دمر ، من زمن بعيد ليس بسبب الحروب ، وإنما بواسطة الذين قاموا بالتطوير .

والد "جيرترود " كان طبيباً محترما . أمها كانت تعيش حياة فراغ ، لم تعمل . ولم يكن أيهما متدينا كل ما عرفته "جيرترود " وشقيقها عن الدين فى طفولتيهما - إن كانا قد عرفا شيئاً -جاء عن طريق الطباخ والخادمتين ، وكلهم كانوا كاثوليك طيبين كانت طفولتها سعيدة ، وأحياناً كانت تتحدث عن الحديقة الكبيرة والتى كان يوجد فى نهايتها بوابة صغيرة ، تؤدى إلى غابة اعتادت هى " وهينرش "أن يخرجا إليها ليجمعا التوت البرى كل صيف ، كانت هناك شجرة أرْز عتيقة وأرجوحة وكانت تجد متعة فى أن تدفع "هينرش" عالياً حتى يصرخ من الخوف ومن البهجة .. فكانت الخادمة تندفع من البيت لكى تنقذ الولد الصغير .

نشأ مثل كل الأطفال الألمان من طبقتهما وجيلهما كانت تعاقب فى المدرسة الثانوية لوقاحتها ، فقد كانت ترفض أن تتقبل معاداة مدرس التاريخ للسامية ، أحياناً كتب ناظر المدرسة إلى والدها ولكن الدكتور " مايور" لم يتعامل مع الأمر بجدية ، كان والدها يقول لها: "إنهم جهلة يا جيرتى " وإظهار غضبك معناه أنك تهبطين إلى مستواهم لا بد أن تتعلمى كيف تسيطرى على نفسك "

وكانت هى تقول :" ولكن كيف يسمحون له بتدريس التاريخ لنا إن كان جاهلاً ؟"

كان الدكتور "مايور" يبتسم وهو يمشط لحيته بأصـــابعه ، ولكنه لا يستطيع أن يجيب ، عندما كانت تتذكر ذلك ، تشرق عيناها كانت تلك أول مرة فى حياتها تنتصر فى نقاش .

"ليس لدى إجابة عن سؤالك يا "جيرتـى" كل مـا أطلبه منك هـو أن تدرسى ما يعلمونه لك ، وأن تجتازى امتحانك بنجاح ، وتستعدى للالتحاق بالجامعة ، هل تعتقدين أنه كان يمكننى أن أصــبح طــبيباً لو أننى استمعت إلى كل إهانة أو لعنة ؟ إن معادة السامية عميقة الجذور فى ثقافتهم رضعوها مع المسيحية ، "لوثر" هو الذى جعل هذا الجانب منها سيئاً ، ولكن ذلك لا قيمة له ، لا قيمة بالمرة .

نجحت جيرتى فى الامتحان ، ولكنها أحبت زميلا لها اسمه "ديفيد شتاين " فى عامها الأول فى جامعة "ميونخ" هناك صورة لهما أيام الدراسة ، وجدتها وأنا أقلب أوراقها منذ أشهر قليلة .

كان شاباً متوسط الطول ، شعره غزير داكن الحمرة ، عيناه لامعتان ، كان والده عامل سكة حديد وكان ذلك شيئاً نادراً فى الجامعة وعرضه لكثير من الاضطهاد .. فهو يهودى ومن أسرة فقيرة كانت "جيرترود " مفتونة بثقته الزائدة فى نفسه وبقدرته على الارتفاع عن مستوى الإهانات ، والهز الذى يتعرض له باستمرار، قد يبدو ذلك غريباً بالنسبة لك "يا كارل" ، لكن لا تنس أن الجامعات الألمانية كانت قلاعاً للرجعية ، فقبل أن يصبح "هتلر " مستشاراً بفترة طويلة ، كانت أفكاره قد انتصرت وسادت بالفعل فى الجامعات .

كان "شتاين " نابغة فى الرياضيات ، وكانت " جيرترود " تشعر دائما بأنها لو لم تشغله لوصل فى مهنته إلى أعلى المستويات ، ربما ولكن .. لو لم يتدخل القدر فى صورة جدتك "جيرترود"لكان قد انتهى به

المطاف - ببســاطة - فى "أوشــوتز " أصــبح الاثنان لا ينفصلان ، وببطء وهدوء بدأ كلاهما يستكشف عواطف وجسد الآخر ، كلاهما كان يستخف بالعقيدة اليهودية ، كانت حياة "جيرتى" فى بيتها علمانية فى كل شئ تقريباً ، ولكن المطبخ لم يدنس أبداً بلحم الخنزير ، والدا "ديڤيد" كانا ملحدين ، وكانا من نشطاء الحزب الديمقراطى الاجتماعى .. وهنا أيضاً كان يتم مراعاة التحريم القاطع للحم الخنزير .

"ديڤيد" و "جيرتى" دعما حبهما بالذهاب إلى محل جزار غير يهودى وشراء بعض لحم الخنزير المطبوخ ، ثم يذهبان إلى مقابر اليهود ليتناولا طعامهما فوق قبر جد "ديڤيد " وبعد أن يفرغا من تناول الطعام يدعوان الله أن يبرهن على وجوده بأن يميتهما .. ولكن السماء كانت تظل ساكنة ، كانت دهشة "جيرتى" كبيرة .. فى الطريق تقيأت ، ولكن بعد أن ساعدها ديڤيد على تنظيف فمها بدءآ يضحكان مجدداً ، كانا قد عالجا نفسيهما من كل الخرافات إلى الأبد ، وكان بعد هذه المرحلة فقط .. أن سحبها "ديڤيد" لمقابلة والديه .

كانت عائلة "شتاين " تعيش فى شقة مكونة من غرفتين ومطبخ صغير فى أحد الأدوار الأرضية على الحائط صورة باهتة لـ "أدوارد برنشتاين" كم تغير الزمن يا :"كارل"؟ فى تلك الأيام كان "برنشتاين" يعتبر الأب الروحى للفكر المراجعى كان رجعياً تسالم مع العدو الطبقى كانت تلك النظرة واسعة الانتشار من عشرين عاماً ، اقرأ بعض مقالاته الآن يا "كارل" و قارن بينها وبين الأحاديث التى تكتبها لسادتك الجدد من الديمقراطيين الاجتماعيين "برنشاتين " يبدو الآن وكأنه سياسى محافظ .. متطرف ... ليس أقل من ديناصور ، لاشك أن الزمن تغير لماذا أنسى هذه الحقيقة دائماً ؟ إلى جوار صورة "برنشتاين " كانت توجد صورة أخرى بنية اللون حولها إطار ، يظهر فيها والد "ديڤيد"

وستة رجال آخرين يرتدون جميعا ملابس أنيقة تبرز منها سلاسل الساعات بكل كبرياء، اللجنة التنفيذية لاتحاد عمال سكة حديد "ميونخ"

كانت "جيرتى" تخشى والد "ديڤيد" جدا أصبحت تزورهم بانتظام كان الموضوع الوحيد للحوار فى المطبخ هو السياسة الاشتراكية ، كان والد "ديفيد" أحد القادة المحليين للحزب الديمقراطى الاجتماعى ، ولكنه كان دائماً مجرداً من الاعتداد بالنفس يتكلم بهدوء ، ودائماً على أهبة الاستعداد للاستماع إلى خصومه السياسيين ، الذين كان عددهم يتزايد فى اتحاد عمال السكة الحديد .

كما فى عام ١٩١٨وألمانيا تقطعت أوصالها بواسطة الحلفاء كان "لينين" و"تروتسكى" فى السلطة فى "بتروجراد "و"موسكو" التوتر يختمر ... ويجتاح أوروبا ... أوروبا حبلى بالثورة .. كان قد تم إسقاط الامبراطور "اليونكر " * البروسيون يتحاورون مع الديمقراطيين الاجتماعيين ويرون أنهم الطريق الوحيد لتجنب الثورة الألمانية .

وأخيراً جاء يوم شعرت فيه "جيرتى" أنها لا بد أن تأخذ "ديڤيد" إلى البيت إن كانا سيتزوجان ، فلا بد من تقديمه إلى والديها ، ولأنها كانت على وعى بالتناقض الحاد بين العائلتين ، كانت تخاف المناسبة لم يحاول والدا "جيرتى" مجرد إخفاء صدمتهما ، لم تترك عينا "ديفيد " اللامعتان الذكيتان أى تأثير عليهما أرعبتهما فكرة أن تتزوج ابنتهما من فقير مفلس ، أمامـــهما "ديڤيد" مخـتلف تماماً " ديڤيد" آخر . شاب يرتدى بنطلونا مبقعاً وحذاء بالياً ، كانت "جيرتى" قد منعته من ارتداء بدلته الوحيدة ، ولاحظا أنه كان يتحدث بلغة مبتذلة وبطريقة سوقية ... والأسوأ من ذلك كله أنه لم يكن يشعر بأى حرج لفقره .

* أعضاء الطبقة الارستقراطية الإقطاعية (المترجم) .

الدكتور "مايور" الطيب ، وزوجته الأكثر طيبة منه ، قررا ، أن الولد كان وقحا .. وكان يقصدان بذلك – فى الحقيقة أنه لم يكن مراعياً للآخرين ، فقرراً أن يخضعاه لاستجواب شديد القسوة والوقاحة ، لكى يعلماه أصول السلوك المتحضر .! ومن هم والداه ؟ ومن أين جاءوا ؟ هل كان والده اشتراكياً ؟ أين يعيشون ؟ ما حجم شقتهم ؟ كيف التحق بالجامعة .

كانت "جيرترود " مرعوبة لم تسطيع أن تدرك أن والديها كان يعبران عن خوف من الآخر ، وأنهما خائفان أن يفقدا ابنتهما .. رأت أن ذلك كان يعبر عن تفسخ برجوازى عفن.وقالت لى آنذاك إن ذلك هو الجانب ، الذى كانت تحاول دائماً أن تتجاهله فى والديها وأن تكبـــحه قدر الإمكان.

أما "ديڤيد" فأخذ الأمر على أنه تسلية ، كان يجيب عن كل سؤال بكبرياء واضح ، وفى نفس الوقت يغمز بعينه لـ "جيرتى" محذراً أن تهدأ وتحاول قدر الاستطاعة أن تكظم غيظها ، ولكن لافائدة ! عن ذلك كان قد فاض الكيل بجدتك ، كانت شاحبة الوجه ، خجلة من والديها ، خجلة من بيتهم ، خجلة من وجود خادمات فى الزى الرسمى لا يستطعن منع أعينهن من النظر إلى "ديڤيد" ، وخجلة من نفسها لأنها تنتمى إلى عائلة "مايور" .

لم تطلب من "ديڤيد" أن يأتى لزيارتها بعد ذلك أبداً ، بدأت هى تقضى المزيد من الوقت مع عائلته كان ذلك فى شقة عائلة "شتاين" أن قضت معظم أيام عطلتها فى شهر ديسمبر ، عندما فهمت أهمية الثورة الروسية .

كان والد ديڤيد يعتقد أن "لينين "رائع بالنسبة لروسيا التى لم يسبق

لها أن عرفت الأحزاب السياسية والاتحادات العمالية ، ولكنه ليس رائعاً بالنسبة لألمانيا لم يكن لديه وقت طويل للثوار السبارتاكوسيين* الذين شقوا الحزب الديمقراطى الاجتماعى الألمانى العظيم واتهموا - حتى "كارل كاوتسكى" "بالخيانة" .

عندما قال "ديڤيد" إن الحزب الألمانى العظيم قد صوت لصالح منح الامبراطور حق إعلان الحرب ، بينما لم يوافق الحزب الشيوعى معلنا للعمال أن العدو الحقيقى موجود فى الداخل ، كان والده يهز رأسه فى أسى .

هو أيضاً لم يكن سعيداً بسياسة الحزب الديمقراطى الاجتماعى لتأييد الحرب ، ولكنه ظل صلباً عنيداً بالنسبة للمسألة الأخرى لم تكن ألمانيا جاهزة لثورة "لينين" كانت أساليب الحزب الألمانى القديمة المجربة هى الأمل الوحيد .

قال الهر "شتاين " لـ "ديڤيد" و"جيرتى" ذات مساء :" هناك حكمة ألمانية قديمة تقول : لاشك أن قبعة من الحرير ستكون جميلة بشرط أن تكون لدى قبعتى ولكن "كارل " و"روزا" بعيدان حتى الآن"

بالنسبة "للهر شتاين " كان أعضاء حزب سبارتاكوس يعيشون فى عالم خيالى ، ولأن "ديفيد" لم يكن يريد أن يزعج والديه ، أحجم عن أن يخبرهما أنه و"جيرتى" كانا قد انتظما فى محاضرات عن "السبارتاكية" فى ميونخ .

ولم يكن ذلك بسبب الاختلافات بينهما بالضبط كان "ديڤيد" يعرف

* حزب سبارتاكوس الاشتراكى المتطرف الذى ظهر فى ألمانيا عام ١٩١٨ (المترجم) .

كيف ضحى والده لكي يوفرا له تعليماً جيداً ، سوف يقلقهما أن تجد اهتماماته الجديدة بالسياسة تأخذه بعيداً عن الجامعة وعن عمله .

بعد شهر ، في يناير ١٩١٩ عندما قتلت "روزا لكسمبرج" و"كارل ليبكنشت" عمداً بأيدى القوات الخاصة فى "برلين " أعلنت كل عائلة "شتاين" الحداد ، هل تعرف يا"كارل" أن أحد الضباط المتورطين فى الاغتيال كان رجلاً يدعى "كاناريس" وأصبح أدميرلا فى جيش "هتلر" بعد ذلك وأحد الذين أعجب بهم بعض القادة الغربيين أثناء الحرب ؟ كانوا يعتقدون أن بالإمكان التعاون معه .

كان والد "ديڤيد" يبكى بصوت مسموع وهو يهز رأسه .

كان حزيناً وغاضباً كان قد استمع إلى "روزا" و"ليبكنشت" يتحدثان فى عدة اجتماعات قبل نشوب الحرب ، كان قد جمع تبرعات لهما عندما سجنا لمعارضتهما للحرب ، ولكنه رغم إعجابه الشديد بالثوار المقتولين ، لم يكن يستطيع أن يدافع عن قرارهما بإعلان التمرد .

قال لـ "ديڤيد" و"جيرتى" والدموع مازالت تغرق وجهه :

"كانوا مجانين حالمين ! سيفتقدهم العمال فى السنوات القادمة كان يجب أن تفهم "روزا " على نحو أفضل الآن علينا أن نتحرك لا يمكن أن نظل هكذا إن لم نتحرك سيقتلنا "اليونكر ""

كلنا سنقتل الاسبارتاكوسيون والمستقلون والديمقراطيون كلنا سواء بالنسبة لهم .

احتضن "ديڤيد" والده بشدة ولكنه لم يتكلم كان "شاتين" العجوز مخطئاً كان "اليونكر" يعرفون الفرق بين الجماعات جيداً وكان الفيلد مارشال "فون هندنبيرج" يعرف أنه قد وجد فى "ڤريدريش إيبرت"

وطنياً ألمانياً لن يتخلى عن الواجب المحدد له ، ولولا تأييد ودعم قادة الديمقراطيين الاجتماعيين :"إيبرت " و "نوسكى" و"سكيد مان" لما تمكن "اليونكر " من إغراق انتفاضة "برلين" فى الدم .

ربما يكون عليك يا "كارل" أن تقنع " مؤسسة "إيبرت " أن تمول الاحتفال فى سنة ٢٠١٨ بذكرى الانتفاضة والقتلى ، كما يستطيع الحــزب الديمـــقراطى الاجــتماعى أن يدعـــى أن "إيبـــرت" هو أبو الديمقراطية الألمانية أما حزبى الاشتراكى الديمقراطى ، إن كان سيظل موجوداً ، فسوف يقول إن مأساة "برلين" (١٩١٨ - ١٩١٩) هـى التى مهدت الطريق لكارثة ١٩٣٣ ، كان "انجلز" قد أشار مرة فى رسالة إلى صديق له ، أن التاريخ هو نتيجة صراع عدة إدارات فردية تأثرت على أنحاء مختلفة بمجموعة ظروف اجتماعية معينة ، والنتيجة النهائية غالباً هى شئ لم يكن أحد يريده ، وبشكل عام ، أعتقد أنه كان محقاً ، ولكن "هند نبيرج" و"ايبرت" كانا يريدان سحق الثورة فى "برلين" وقد فعلا لقد تربى جيلنا على حكايات عن احتمال اختلاف الأمور، لو أن الثورة فى "برلين " كانت قد نجحت ، ربما تتصور أننى مازلت أحاول التعلق - يأساً - بشئ ما ، أى شئ حتى لو كان حطام الثورات والانتفاضات الفاشلة ، قد تكون محقاً لو نسيت لدقائق قليلة فقط أننى والدك دعنى أتنكر فى لباس أستاذ الأدب المقارن ، واقترح عليك أن تقرأ أحد كتاب الروايات العظام فى هذا القرن العظام فى هذا القرن ، وبالرغم من أن "ألفريد دوبلن " لم يكن الكاتب المفضل لدى قوميسارية جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، إلا أننى كنت أشير إليه فى محاضراتى فى "همبولت" قرأت أجزاء من أعماله ، وكنت أضع ذلك الافتراض مكتوباً على لوحة إعلاناتى :

موضوع الرواية هى الواقع طليقاً الواقع الذى يواجه القارئ مستقلا عن مجرى ثابت للأحداث تمام الاستقلال ، وواجب القارئ ، وليس الكاتب هو أن يحكم ، أن تتكلم عن رواية ، فذلك معناه أنك تتكلم عن وضع طبقات فوق بعضها تكديس أكوام ، دفع وشق طريق ، أما الدراما فهى دائماً عن فكرة فقيرة ، الفكرة الموجودة دائماً فى الدراما تتجه الحكاية دائماً "إلى الأمام" ولكن "إلى الأمـام" لا يمكن أن يكون شعار الرواية أبداً

إن "دوبلن " لم يكن مجرد مؤلف "برلين : ألكساندر بلاتس" (١) لقد كتب روايتين كبيرتين أخريين، إن تيسر لديك الوقت فلا بد أن تحاول قراءة "شعب تمت خيانته :نوفمبر ١٩١٨ : ثورة ألمانية " والجزء المكمل لها " كارل و روزا " : مأساة ألمانية " . وليس ذلك رأيى أنا فقط ، شاعرك "جونتر جراس" ، الشاعر الغنائى للديمقراطية الاجتماعية يوافقنى تماما بخصوص "دوبلن" هو نفسه يعترف بدينه الخاص له ويضعه فى مرتبة أعلى من "مان" و"برخت" و"كافكا" لست متأكداً إن كان "جراس : يحب الروايتين اللتينأريدك أن تقرأهما لم أقرأ له تعليقاً عليهما ، ولكن لا تدع ذلك يشغلك كان "دوبلن" ، مثل "برخت" قد وجد ملجأ فى "لوس انجلوس" فى تلك السنوات الرديئة وعمل بعقد لدى MGM وهو ينتظر بفارغ الصبر نهاية الرايخ الثالث "برخت" عاد إلى الشرق و "دوبلن" إلى الغرب ، ستجد معظم ذلك فى مذكراته "شيكسالريز"(٢) التى تأثرت بها كثيراً منذ ثلاثين عاماً .

أقرأه يا "كارل " ، أقراه سيكون ذلك تغييراً منعشاً بالنسبة لك وأفضل من تقارير "بوندزبانك"* المضجرة التى سدت ذهنك لابد أن تدرسها لكى

(١) برلين : ميدان الكساندر ، Berlin Alexander Platz وهى رواية شهيرة المترجم .

(٢) رحلة قدرية Schick solreise

*البنك الاتحادى Bundes bank

تشعر بقنديل البحر الذى يستخدمك ولكن امنح نفسك فسحة من الوقت.

كانت "جيرترود" وحبيبها "ديڤيد شتاين" يرسمان الخطط لكى يهربا معاً ، كان لديهما أفكار كبيرة ، إن جيلك لا يفهم ذلك ، ولكن على مدى معظم سنوات هذا القرن كان هناك ملايين يحملون بمثل تلك الأفكار الكبيرة وفى تلك الأيام كانت أعداد كبيرة من البشر على استعداد للتضحية بمستقبلهم من أجل عالم أفضل كان "ديڤيد" و "جيرترود" قلقين على مصير رفاقما فى "برلين" وكانا يعرفان أن الذين نجوا من المذبحة .. جرحى وكان مطلوباً أن يهرع أناس من مدن أخرى لتقديم المساعدة لإعادة بناء تنظيم برلين ، أناس مثلهم .

حتى عندما كان يرسمان مستقبلهما قامت ثورة أخرى فى "ميونخ" هذه الفكرة غير واردة اليوم "باڤاريا"؟ أى "باڤاريا؟ بلاد مستودعات البيرة حيث كانت تسكر جماهير "هتلر" على الحقد والتى أصبحت فيما بعد حصنا للرجعية؟ أما فى أيامنا بعد الحرب الإقطاعية التى يتحكم فيها "ڤرانز جوزيف شتراوس"؟ أنا أتحدث عن "باڤاريا" أخرى ... "بارڤاريا " أقدم من ذلك .

فى نوفمبر ١٩١٨ أعلن "كورت إيزنر" زعيم الديمقراطيين الاجتماعيين المستقلين جمهورية "با ڤاريا" وانتخب رئيساً لوزرائها وبعد ثلاثة أشهر أعدمه "كورت آركو" حتى المعتدلون من أمثال والد "ديڤيد شتاين " كانوا يطالبون بالانتقام وكان ينادون مع زعماء الحزب الديمقراطى الاجتماعى بعمل شئ ، ولكن طلب منهم أن يتركوا القرارات للمجربين من أهل الثقة !

"مجربون وأهل ثقة فى القتل !" هكذا صرخ "شتاين" العجوز غضباً وهو خارج من مقر الحزب فى "ميونخ" كان العمال بلا شك فى حالة غضب ، ولكن هل كانوا يريدون ثورة ؟ لم يكن "إيوجين ليڤنيه "يعتقد

ذلك كانت الكومينرن * قد أرسلته إلى "ميونخ" للمساعدة فى التحضير للثورة وتنظيمها .

كانت "ميونخ" ملأى بالحالمين والواهمين ، لم تكن "جيرترود" و"ديڤيد" وحدهما ، ألوف كثيرة كانت تريد الاستيلاء على السلطة فوراً مسكين "ليڤينيه" كان يعرف أن المحاولة محكوم عليها بالفشل وكانت "جيرترود" تحبه ... تقريباً ! كان من عادتها أن تحكى كيف كان يسهر الليل وهو يحاول أن يفرغ رؤوسهم من الأحلام قال لهم "ليڤينيه " إنهم كانوا ما يزاولون معزولين وكان يريد تأجيل الثورة ، ولكن "جيرترود" وأصدقاءها كانوا أغلبية .

عندما جاءت الأخبار إلى "ميونخ" فى مارس ١٩١٩ عن انتفاضة "بودابست" وإعلان "بيلاكون" لجمهورية هنغارية سوفيتية ، قال "ديڤيد " لـ "جيرترود" إن تلك كانت فرصتهم الحقيقية الأولى لصنع التاريخ ، والانتقام لقتلى "برلين" ودفع الثورة للأمام ، وقد حدث ، ولرعب الطبقات المتوسطة والفلاحين الكاثوليك ، ظهرت إلى حيز الوجود الجمهورية البارڤايه السوفيتية

ظهرت إلى حيز الوجود فى الجمهورية البارڤايه السوفيتية

* أعلنت المنظمة الدولية الشيوعية الثالثة فى "موسكو" فى عام ١٩١٩ بمصاحبة ضجة إعلامية كبيرة كان الهدف منها هو الثورة العالمية التى كانت المنظمة بمثابة رئاسة أركان لها وضعت المنظمة مجموعة شروط للعضوية (٢١ شرطاً) ، وكان أهم أهدافها شق الأحزاب الاشتراكية التى كانت قائمة فى الدولة الثانية وتكوين أحزاب شيوعية جديدة ، وفى السنوات الأربع الأولى - أوج نشاطها - كان هناك سعى عنيف لتحقيق ذلك الهدف ، أصبحت الكونتيرن فيما بعد أداة فى يد السياسة الخارجية السوفيتية قام "ستالين" بحلها " من جانب واحد - فى سنة ١٩٤٣ ليقنع "تشرشل" و"روزفلت " بأنه كان حليفاً يمكن الاعتماد عليه. (المؤلف) .

كانت موسكو فى حالة بهجة شديدة ، وكانا "لينين" و"تروتسكى" فى غاية العناد ولكنهما كان يائسين كذلك يعرفان ثمن العزلة كان "لينين" على يقين من أن الجمهورية السوفيتية الوليدة لن تستمر طويلاً دون قيام ثورة ألمانيا كان محقاً يا "كارل" أليس كذلك ؟ أعنى أن المساحة التاريخية المحتلة بخمسة وسبعين عاماً ، كانت صفراً لاشئ ، لذلك أرسل "لينين" و"تروتسكى" دعمهما ليميونخ على هيئة مئات البرقيات ، كانا يتمنيان أن تسقط "ڤيينا" كذلك ، وأصدرا بالفعل تعليمات للمارشال الأحمر "توكاشيڤسكى" "توكا" الذى كان والدى يحبه– لبحث الإمكانيات العسكرية لعمل ممر من الاتحاد السوڤيتى إلى "باڤاريا" ولكن رجلهم فى ميونخ لم يكن يعانى من مثل تلك الأوهام ، ودع "ليڤينيه" زوجته وطفله الوليد واستعد ليضحى بنفسه من أجل قضية ، لم يكن هناك أدنى أمل فى نجاحها .

كان بالإمكان أن يستولى "اليونكر" على "ميونخ" دون عناء ، ولكن ذلك لن يكون رادعاً كافياً للبلاد الأخرى لا بد من سفك دماء، الشئ نفسه يحدث اليوم ، يمكن أن يستولى الصرب والكروات على قرية بسهولة دون القضاء على المدنيين ، ولكنهم نادراً ما يفعلون ذلك إنها الشهوة للدم غريزة الحيوان ما زال صداها يتردد فى التكوين البيولوجى للإنسان .

الجنرال "ڤون أوڤن" سحق الجمهورية الباڤارية بوحشية لا يمكن وصفها كانوا ينتزعون الناس من الفراش وينهمر عليهم الرصاص وطعن الخناجر ... والاغتصاب والضرب حتى الموت "جيرترود" فرت هاربة إلى والديها فى "شوابن" "ديفيد" وجد ملاذا عند استاذه "ليڤينيه" وأختبأ هناك فكر فى زوجته وابنه ، ثم أصبح شاغله الهرب ولكنه وقع ضحية وشاية فقبض عليه وحوكم ، وأعدم كانت محاكمته مهزلة لم تنس

جدتك ، حتى يوم وفاتها - حديثه الأخير أمام المحكمة كانت دائماً تردده على مسمعى ، وأنا طفل فى ذلك المكان الذى كانوا يطلقون عليه اسم الاتحاد السوفيتى

نحن الشيوعيين موتى فى أجازة أنا واثق من ذلك تماماً لا أعرف أن كنت ستقرر تمديد إجازتى أم سيكون علىَّ أن ألحق بـ "كارل ليبكنشت" و"روزا لكسمبرج" على أية حال أنا أنتظر حكمك بكل رباطة جأش وصفاء داخلى لقد أديت واجبى بكل بساطة نحو الدولية والثورة العالمية .

كانت الكلمات قد استمرت فى تعذيبها ومطاردتها طويلاً بعد تحلل النظام الذى باعت له روحها إلى آخر مدى ، والآن يقولون لنا إن الأمور كانت دائماً على مثل هذا النحو ، ولكننى لا أصدقهم يا "كارل" أنت أيضاً لا يجب أن تصدقهم ، كانت هناك نبالة الهدف ربما كان خيالياً، ولكنه بالنسبة للغالبية لم يكن ضاراً أبداً وإلا يصبح من المستحيل أن نفهم دوافع أولئك الرجال والنساء ، الذين ضحوا بحياتهم فى السنوات الأولى . الناس الذين لا تعنى خريطة العالم شيئاً بالنسبة لهم ، إن لم تكن الأحلام مرسومة على كل قارة، هؤلاء هم الناس الذين أحاول أن أعيد بناء حياتهم من أجلك .

أعدموا "ليڤينيه" ذات صباح باكر . أجبروا جنديين من فرقة الإعدام على أن يعبوا الكحول قبل الضغط على الزناد بعد ظهر اليوم نفسه أخبرت "جيرتى" والديها بأنها أصبحت شيوعية ، لم تنس أبداً نظرة الرعب الممزوجة بالخوف التى علت وجهيهما ترك والدها الغرفة ، وبعد دقائق قليلة علمت أنه قد سقط مريضاً ، أما كل ما فعلته أمها فهو أنها جلست على كرسى فى الصالة وراحت تبكى .

ضابط شاب "أوتو موللر" كان قد جرح جرحاً بسيطاً في معارك الشارع جاء ليقيم في منزلهما . وقف خلفها بينما كانت تحدق من النافذة في شجرة الأرز العتيقة والأرجوحة ، وهمس في أذنها " لقد سمعت كل شئ أنا معجب بقرارك ، ليتنى كنت مع "ليفينيه" رفض أن يستجدى عفوا عنه كان وجهه كله كبرياء ، وهو منتصب القامة وهم يطلقون عليه النار..

الصدمة الأولى تحولت إلى دهشة إذا كان هناك في الجانب المنتصر رجال مثل هذا الضابط يقولون شيئاً كهذا في وقت كهذا ، فمعناه أن كل شئ لم يصنع غريبة تلك الأشياء العارضة التى تترك مثل هذا الأثر

كانت جدتك متأكدة أن كلمات الضابط المشجعة جعلتها تقرر شيئاً . بعد عدة سنوات قابلت "موللر" في "برلين " حيث كان يدرب كطبيب ، كان في عجلة من أمره . كنا في عام ١٩٣٣ وكان يحاول أن يرسل أثاث واحد من أقرب أصدقائه . إلى الدانمرك كان اسم صديق طفولته " برتولد برخت" عندما أفاق والد "جيرتى" تكلم بصوت خشن لكنه مرتعد:

"من الآن أنت لست ابنتى!"

أمها لم تتكلم ذهبت "جيرتى" إلى غرفتها وراحت تبكى "أمى!أمى! لماذا لم تتكلمي ؟" كانت تنتحب بعد ذلك حزمت بعض الملابس وصورة لها مع "هينرش" و كتبها وشال أخضر صغير كان لجدتها كان شقيقها في رحلة مدرسية ، جلست إلى مكتبها وكتبت كلمة وداع قصيرة "عزيزى هيني ، لابد أن أذهب الآن سأفتقدك بشدة ، تذكرني سأكتب لك وأبلغك بعنواني في "برلين" قبلاتي " من "جيرتى" التى تحبك .

خرجت من المنزل ،مشت، عندما وصلت إلى ناصية الشارع واختفى المنزل وراءها ، كانت تريد أن تستدير للمرة الأخيرة،ولكنها كابرت وقاومت تلك الرغبة بعد ذلك كتب إليها يخبرها بأن وجه أمها الغارق في

الدموع ظل ملتصقاً بزجاج شباك الدور الأول وهى ترى "جيرتى" تغادر منزل الأسرة ، أخبرته بذلك عندما عاد من رحلته المدرسية ، أثق أن لا أحد منهما كان يعتقد أنه سيكون فراقا نهائياً ، ولكن لا أحد منهما أيضاً كان يعرف ما تخبئه الأيام؟

بعد الحرب بسنوات ، عندما عادت من "برلين " كانت "جيرتى" تود أن تذهب إلى "ميونخ" لترى المنزل مرة أخرى كان ذلك قبل بناء الحائط وكان الانتقال بين المنطقتين سهلاً أخذتنى معها، كنت فى الحادية عشرة أذكر رحلتنا إلى "شوابن" جيداً .كان المنزل مازال هناك كما كان دائماً أخذتنى "جيرتى" فى أحضانها وراحت تبكي. كشيوعية كانت قد حاربت النازية وظلت على قيد الحياة، والدها ، القومى الألمانى المتشدد ، رجل اليمين ، اختفى فى أحد المعسكرات مع "هينى" وأمها وبقية الأسرة لم ينج سواى أنا و "جيرترود " كنا ننظر محدقين فى المنزل ونحن مارون بالسيارة وكانت "جيرتى" تخاف أن تدخله . استدرنا ببطء وعندما تحركنا لا حظنا أن رجلاً عجوزاً على عكازين ... وقف وكان يراقبنا من خارج البوابة .

سأل "جيرتى" من أنت ؟

قبضت على يدى بشدة " أنا كنت أعيش هنا منذ زمن بعيد " اقترب العجوز وحدق فى عينيها "فراولين جيرترود"؟ هزت رأسها .

" ألم تعرفينى؟ أنا "فرانك" عامل الحديقة كنت أحملك أنت "وهينرش " الصغير على ظهرى " وامتلأت عينا العجوز بالدموع احتضنته "جيرترود" وعندما تحركت أخيراً كانت ستسأله عما حدث ، لكنه قرأ السؤال فى عينيها قبل أن تتكلم وهز رأسه .

"جندت فى عام ١٩٣٦ ، كانوا مازالوا هناك كان من بين زبائن

الطبيب بعض المرضى المهمين . نازيون يحترمونه ولا يستغنون عن الأطباء بأى ثمن . وعندما رجعت فى عام ١٩٤٢ - كنت من أوائل المصابين على الجبهة الروسية - كانوا قد اختفوا جميعاً "هززنا رأسينا .

"والمنزل يا فرانك "

"هل تذكرى ذلك الطبيب الشاب الذى كان يساعد والدك؟ انضم إلى الحزب النازى.. كانت تلك مكافأته . جاء إلى هنا هو وأسرته وأخذ العيادة والمنزل والأثاث ، كل شئ منذ سنوات قليلة ، خاف وباع العقار المنزل خال الآن . سوف يهدمونه ويبنون مكانه عمارة سكنية الحديقة ستختفى تماماً . أما هو فما زال فى "ميونخ " هو واحد من المواطنين المحترمين ذوى الامتيازات أسس دار نشر طبية ".

تناولنا الغداء مع فرانكلين فى مقهى حاولت "جيرتى" أن تعطيه بعض النقود ولكنها تنبهت إلى أنها كانت مفلسة فكرت فى تلك الزيارة يا "كارل" عندما جاء المحققون - منذ عامين - تقريباً - من "بون" ، مازلت أذكر التاريخ لأنه كان يوم عيد ميلاد "هيلجا" السادس من أبريل ، أولئك الرجال الثلاثة الذين جاءوا ليستجوبونى، ويقررون ما إذا كنت شخصاً يصلح للتدريس فى الجامعة . لم يكن يهمهم على الإطلاق أن أكون معارضا للنظام القديم ، أو أننى قد خبأت منشقين . وزعت منشورات ، شاركت فى مسيرات ، أو ساعدت فى هدم الحائط والحقيقة أنهم ضحكوا عندما أريتهم البيان الذى كنت قد شاركت فى كتابته عند تأسيس المنتدى .

كان رأى رجل ذى الشعر الأحمر أنه "لغو ماركسى"! كما قال رفيقه بصوت مهذب : ربما تكون قد جعلتهم يخرجون إلى الشارع ، ولكنهم صوتوا لصالح المستشار "كول" لم يسبق أن تناقشت معك فى ذلك أبداً

يا "كارل" ، لأننى كنت أخاف كنت أعتقد أنك ستتفق معهم فى الرأى ، كنت مخطئاً سامحنى كنت أود أن أصرخ فى وجوه أولئك المنافقين . أن أذكرهم بـ "شوابن" أسأل متى يمكن استعادة منزل "جيرترود". أسأل لماذا ما يزال النازى الذى سرق منزل أجدادى منزل أجدادى منتعشاً ، بينما يجعلوننا نحن زائدين عن الحاجة ، ولكننى بقيت هادئاً بدلاً من ذلك . شرحت لهم كيف أن الموقف متطاير. ذكرتهم كيف كان الأتراك والفيتناميون يحرقون أحياء فى منازلهم ، بينما يقف مواطنوا ألمانيا الجديدة والمستشار قد غسل يديه . وذات مرة سألتهم : لماذا تحتقروننا هكذا نحن الشرقيين؟

لا توجد حتى معاهدة "پاساو " بالنسبة لنا ؟

تطلعوا إلى بتعبيرات جوفاء . لا أحد منهم يريد أن يعترف ، لا أحد منهم كان يعرف متى ، أو لماذا كانت معاهدة "پاساو" وكان ذلك هو انتصارى الوحيد الذى حققته فى ذلك اليوم .

شرحت لهم كيف أنه عن طريق معاهدة ١٥٥٢ ، كان اللوثريون قد قبلوا تعايشاً مؤكداً ، يحسدون عليه ، مع الكنيسة الكاثوليكية استجوبونى لمدة ثلاث ساعات ، ولكن اتخاذ قرارهم لم يستغرق ربع الساعة استدعونى إلى غرفة التحقيق ، فقد كنت قد واجهت عداءات القوميسارات الفكرية فى الأيام الماضية .

" تفضل بالجلوس يا بروفيسور "مايور" . بعد التفكير فى الأمر جيداً ، رأت اللجنة أنك لا تصلح لتدريس مادة الأدب المقارن فى جامعة "همبولت" مع الاعتراف بموهبتك فى اللغات الإنجليزية والروسية والصينية ، نحن على ثقة من أنك ستواصل عملك فى الترجمة وهو رفيع المستوى لكن التدريس الآن .. وفى هذه الظروف الجديدة أمر آخر .

كتبت لك خطاباً قصيراً أخبرتك فيه أننى قد فصلت من عملى .

كان بودى أن أخبرك كيف كان الخوف يطاردنى ويمزقنى الإحساس بعدم الأمان ... يأساً من عودة أمك ، كنت أجول فى المدينة بالساعات غبار فى كل مكان. سقالات منصوبة فى كل مكان. كان "هتلر" و "سپير" يريدان إعادة تعميد "برلين" . "چيرمانيا" .. كان الاسم المفضل عندهما "برلين" ستصبح مدينة عاصمة مرة أخرى هى التى ستعيدك على الأقل إلى هنا يا"كارل" بعيداً عن "بون" القديمة الهادئة وسيكون ذلك جميلاً ، لدى إحساس بأن المعماريين يعودون إلى القرن التاسع عشر ويحاولون نسيان أن يكون هذا القرن قد حدث .. وإذا نجحوا فلسوف يدمرون "برلين" .

فكرت أن تصبح مدينتانا مدينة واحدة على مدى زمن طويل كان النصف الغربى منطقة محرمة هل تعلم أن محلات الجنس قد حلت محل الكنائس القديمة والكاتدرائيات ؟ إنها تقدم ما يليق بكل ذوق .. يرضون جميع الأذواق فى "ودنج" حيث كان يعيش "ديڤيد" و "جيروترود" بعد الفرار من "ميونخ" التى كانت قلعة من قلاع الطبقة العاملة ، يمكن أن تجد المستثمرين الجدد يتاجرون فى أشياء غريبة طيور استوائية نادرة ، مسحوق قرن فرس النهر .. ، آذان الخنازير المجففة إلى غير ذلك "برلين" مدينة استهلاكية بلا خجل ! .

الفن ، شاسيه سيارة كاديلاك قديمه ، وألواح من الخرسانة ، ومقاعد خشبية محفور عليها أعضاء جنسية ، وأثداء ! .

ولدهشتى الشخصية يا "كارل" بدأت أفتقد "برلين" القذرة الحقيرة ... المترمتة .. التى نشأنا فيها أنا وأنت .

- ٣ -

كان "كارل مايور " يقف فى شقته فى الدورر الثانى فى شارع "فريتز تيلمان " فى "بون" أحياناً .. يندم على هروبه إلى تلك المدينة الغريبة ، كان فى البداية يتمنى أن ينسى كل شئ عن برلين ، والحائط ، والسقوط ، ووالديه ، و"جيرهارد" ومدرسة جميلة اسمها "ماريان " وجدته "جيرترود " كل شئ كان يحبهم جميعاً ، ولكنه عندما ينظر خلفه ويتذكر نكد والده وعماه عن الحقيقة أو إصرار أمه على أن تقرأ تعقيدات السياسة الأوربية عن وتيرة واحدة ، كان يعود إليه غضبه كان والداه دائماً ثائرين شديدى الانفعال فى لامنطقيتهم .

الحائط الوقائى الذى أقاماه حولهما وحول أصدقائهما سقط فى الوقت نفسه الذى سقط فيه الحائط الآخر هاهما الآن يشكوان من بؤس وحماقات النظام الجديد ، وكان "كارل" يعتبرهما مسئولين عن فشلهما .

الآن ، وهو قريب من مراكز القوى فى تلك المدينة المحتضرة كان يخشى أن ينسياه. أمه سعيدة هناك فى "نيويورك" ولكنه قلق على حال والده دائماً ، وعلى صحته العقلية .

ارتدى بدلته الزرقاء الداكنة ، وربطة عنق مناسبة ونظر إلى هيئته فى المرآة ، رأى شاباً رشيقاً متوازناً ، هز رأسه فى رضا أغلق شقته ونزل بالمصعد إلى مستوى الشارع ، كان المقهى الذى يتناول فيه إفطاره يقع فى نفس المبنى وبينما هو يرتشف "الاسبرسو" راح يقلب صحيفة "فرانكفورتر" أليمين زيتونج "الصباحية هناك شكوك كثيرة حول استمرار

"كول" لدورته كمستشار هذه المرة ، هناك تقارير عن تحالف منشقين بين الصرب والمسلمين فى البوسنة وحزب المحافظين فى بريطانيا يواجه أزمة جديدة .

كان "كارل " غير مبال بشأن البلقان وبريطانيا فى نظره تجربة معملية فشلت .. وحقل التجارب بمجمله كان على وشك ثورة انتخابية وربما أصبح مهما لألمانيا لو جاءت حكومة جديدة. ربما الحقيقة أن "كارل" لم يكن مهتماً بغير السياسة الألمانية ودقائقها ، كان يعرف بالطبع أن الولايات المتحدة والصين واليابان هم اللاعبون الرئيسيون على مسرح الكون ، ولكن حتى هذه المعرفة لم تثر لديه أى اهتمام حقيقى بالبلدين الأخيرين ، كان "كارل" ألمانيا جداً ... يريد أن تقوم ألمانيا بدورها العالمى ، لم يصدق أن جرائم الرايخ الثالث قد ألغت وضع ألمانيا التقليدى فى وسط أوروبا .

من أسابيع قليلة ، وطبقاً لتعليمات زعيمه كان "كارل" قد قضى مساء يوم كامل فى محادثات مكثفة مع عضوين بارزين من الديمقراطيين الأحرار فى البرلمان ، وكان أحدهما قد تحدى تعليمات حزبه ولم يصوت لصالح مرشح الديمقراطيين المسيحيين لمنصب المستشار ، كانت مهمة "كارل" صريحة مثل سلوكه. يريد أن يخلع "كول" من منصبه وأن يتوج زعيم الحزب الديمقراطى الاجتماعى مستشاراً بدلاً منه ، أمطره العضوان بأسئلة كثيرة عن المستقبل ، كم منصب فى الحكومة ؟ نوايا الحزب الديمقراطى الاجتماعى بالنسبة لأوروبا ؟ هل يمكن لهذا الشاب أن يؤكد لهم أن "شارينج"" كان أكثر من صنيعة من صنائع الجهاز ؟

"كارل " لم يخف شيئاً قال لمحدثيه المدهوشين إن الاستقرار الألمانى يتطلب مستشاراً يخضع لسيطرة الجهاز ، وإن أى شخص قروى ضعيف يمكن أن يكون أفضل من أى مسئول حزبى صخّاب ، يثير من

الآمال ما يستحيل تحقيقه ، وإن ألمانيا ، تحت قيادة الحزب الديمقراطى الاجتماعى فقط ، يمكن أن تستخدم عضلاتها الاقتصادية ، وتمارس ضغطاً سياسياً ، يتناسب مع مكانتها الجديدة فى عالم ما بعد الشيوعية وأضاف ... أن ألمانيا قوية سياسياً ، وهى التى تستطيع أن تعيد بناء أوروبا الوسطى ، الحماس الشديد والثقة الشخصية التى أبداها ذلك الشاب الذى ينتمى إلى الحزب الديمقراطى الاجتماعى تركت انطباعاً جيداً لدى عضوى "البوند ستاغ" كان مثلهما ، مهتماً بالسلطة فقط ، يمكنهما إذن أن يعقدا صفقة معه ، طلبا منه أن يحضر بعد أيام قليلة ليلتقى بزملائهما .

فى الليلة نفسها ، كان "كارل" على موعد فى حفل شراب يقيمه الرئيس المحلى لشبكة CNN الإخبارية على شرف ضيف كبير من "أتلانتا" ثلاثة وزراء على الأقل ، سفراء كثيرون ، رئيس الحزب الديمقراطى الاجتماعى وكثير من العاملين فى التليفزيون زميل كبير قدم "كارل" إلى "مونيكا مينراب " سيدة شابة لا يزيد عمرها عن أربعة أو خمسة وعشرين عاماً، ابتسمت... وعيناها اللوزيتان تشعان كالمصابيح ، صافحها "كارل" وهو ينظر اليها .... وجه عريض ، كله حس ، يحيط به شعر أسود قصير ... معقوص ، شفتان رقيقتان . وكانت ترتدى بدلة من الحرير رمادية اللون ، واسعة ... تجعل من الصعب التكهن بشكل الجسم الموجود تحتها ، كانت محللة نظم كمبيوتر فى بنك كبير ودخلها بسيط ، تركت لدى "كارل" انطباعاً جيداً لو أننا فى مناسبة أخرى لتمسك بها ، ولكن عيناه بدأتا تجولان من فوق رأسها وهو يحاول أن يلمح المشاهير وأصحاب النفوذ ، كان يريد أن ينتقل لينضم إلى المجموعة الملتفة حول وزير الخارجية .

"إذا كنت تريد أن تذهب لتلعق الأحذية ... أُغرب ! أشمئز من الحديث المهذب مع شخص وصولى .. مع السلامة ! .

ذهبت "مونيكا " وتركته فى حالة ذهول ، فكر لأول وهلة أن يجرى وراءها ولكنها كانت قد وصلت إلى باب الخروج ، وعلى أية حال ، قال لنفسه بعد أن أفاق من صدمته إنه كان بالفعل يريد أن يسمع ما كان وزير الخارجية يقوله للأمريكيين .

بعد تخرجه ، كان "كارل" يريد شيئاً واحداً : أن يهرب ، أن يترك "برلين " بأسرع ما يستطيع ، كان اندفاع "هيلجا" إلى نيويورك قد ضايقه فى البداية ، بعد ذلك جاءت المرارة ، كان غاضباً منها لأنها تركته ، كان بإمكانها أن تنتقل وتنشئ عيادة فى "فرانكفورت" لماذا تترك البلد فى وقت كهذا ؟ اختيارها نيويورك كان يحيره وفى النهاية أقنع نفسه .... لابد أنه كان لها عشيق ، ولكن لماذا لم تخبره عرف أنها لم تكن سعيدة عندما ألمحت فى إحدى رسائلها إليه أنه كان مشروع عميل فى "بون" ويعمل لجهاز فاسد مملوء بالأوساخ ، رسالتها جعلته يضحك ولكن رده الحاد عليها أدى فى البداية إلى وقف لإطلاق النار بينهما .. ثم إلى توقف تام من جانبها لم تكتب له بعد ذلك ، كان يتبادلان التحية ويتحدثان قليلاً .. بالتليفون مرة أو مرتين فى الأسبوع تنهد "كارل" عندما فكر فى والده حالة عصية على الإصلاح لافائدة ترجى منها ، يعيش فى عالمه .. فى شرنقته بعيداً عن الواقع لم يحقق فى حياته شيئاً سوى بعض الكتب المليئة بالرطانة الماركسية التى عفا عليها الزمن فى السنوات الماضية ورغم قلة عدد الطلاب الذين كانوا يفهمون ما يحاول أن يقوله ، كانت كتبه زينة إجبارية لأرفف الكتب عند مثقفى اليسار ، لم يعد أحد يشترى الآن كتب "قلادى" " كارل" يشعر بأنه غريب تماماً عن والده وبعيد عنه أسلوب حياته فخر – ... ما يزال يرفض أن يرتدى ثياباً جديدة – وأرؤاه وميوله تترك "كارل" غاضباً وعاجزاً عن الكلام ، لماذا لا يفهم ذلك العجوز الخرف أن كل شئ قد انتهى ؟ كارل " كان قد توقف

عن الجدل معه ، ولكن "ڤلادى" كانت ما تزال لديه القوة الذهنية الكافية لإزعاج ابنه ، فى آخر مرة ، رد عليه "كارل" بلهجة عنيفة وكان صوته عالياً بشكل غير مألوف .

"قضى الأمر يا "ڤلادى" . انتهى ، هذه الألمانيا الديمقراطية لن تنهض مثل العنقاء مرة أخرى.. وأنا سعيد بذلك " .

ابتسم " ڤلادى "

"وأنا أيضاً ! ولكن ما علاقة أى شئ من ذلك بالماركسية ؟ " وفى تلك المرة كان "كارل" على وشك أن يصرخ من الضيق .

"انتهى ! انتهى ! انتهى ! يوتوبيا جرفها ماء التواليت مع كل البقايا ، كيف يمكن أن توجد الماركسية إذا كان البروليتارى النبيل ! موضوعها .. قد تخلى عنها ؟ ألا تفهم أنت و"هيلجا" الماركسيون ليسوا أكثر من بقايا زبد فوق سطح المحيط الأزرق الغامق " هو : الذى كان ذات يوم قريباً جداً منهما ، يريد الآن أن ينسى والديه، كان يبنى نجاحه الخاص ، ولديه خطة زمنية لذلك ، أقنع نفسه بأن النجاح هو أسرع الطرق لمحو أى ذكرى ، كانت تؤرقه ، لجمهوزية ألمانيا الديمقراطية .

"كارل " كان يريد أن يصبح عضواً فى "البوند ستاغ" فى سنة ٢٠٠٠ ومستشاراً فى سنة ٢٠١٠ ، وكان ذلك شيئاً يدعو للسخرية ، إذ لم يسبق له أن كان قد أبدى أى اهتمام بالسياسة من قبل ! هذا إدمان جديد جداً ! اختار الحزب الديمقراطى الاجتماعى كما يختار أحدهم فريق كرة .. وهناك قاعدة بسيطة ، إن بقيت مع فريقك وتمسكت به فى الظروف الصعبة ، فلابد أن تحصل على مكافأتك عاجلاً أو آجلاً .

فى صغره ، كان يتجنب الثرثرة الطويلة فى التاريخ والسياسة كان يحب جدته "جيرترود" التى قضت معه وقتاً طويلاً ولكن ليس مثل الآخرين

كانت لا تضعه فى السرير إلا مع قصص المغامرة وحكايات البطولة فى الحرب الأخيرة ومقاومة "هتلر" فى ألمانيا ، ربما كانت بعض رواسب وبقايا ذلك الزمن هى التى جعلته يفضل الحزب الديمقراطى الاجتماعى على الديمقراطى المسيحى ، ربما "كارل" كان يريد أن يبدأ حياته من جديد. قرأ إعلاناً عن وظيفة باحث وتقدم لها ، ولم يكن يتصور أنه سيصل إلى مرحلة المقابلة الشخصية .. ناهيك عن الحصول على الوظيفة ، كانت مؤسسة "إيبرت " قد أعلنت عن حاجتها إلى خريجيين وتبحث عن شباب أذكياء فى العقد الثانى يمكنهم استيعاب الكمبيوتر من أجل تلخيص الوثائق السياسية للمسئولين فى المركز الرئيسى للحزب الديمقراطى الاجتماعى فى "أوليناور شتراس " .

نجح فى المقابلة الشخصية ، نقده الواضح والمباشر لجمهورية ألمانيا الديمقراطية ترك انطباعاً جيداً لدى السيدتين اللتين أجرتا معه المقابلة ، على خلاف بعض منافسيه فى الشرق القديم ، كان أداء كارل هادئاً خلواً من الحماس ، لم تتدفق من فمه أى إعلانات مبالغ فيها عن الحرية ، كان أسلوبه رصينا ركز على استحالة إمكانية أن ينجح نظام ملكية الدولة فى تحرير السلع أو توصيلها وفى رأيه ، كان سبب الانهيار هو أن النقص المادى والاقتصاد العاجز قد كشفا عن أيديولوجية فقيرة ، كان ذلك هو الذى عجل بالسقوط كما قال... ولم يلجأ إلى تعميمات أو تجريد بأن يتكلم عن الديمقراطية والحرية كان انطباع السيدتين عنه جيداً ، كانتا تنظران باهتمام إلى ذلك الشاب طويل القامة الذى يرتدى بدلة كحلية وربطة عنق رمادية يبدو عليه الذكاء ، ومشاعره تحت السيطرة ، كل مافيه – أسلوبه فى تدوين ملاحظاته ، أوراقه فى حقيبته – كل شئ كان يدل على أنه منظم فى عمله .

تركتاه يتكلم لمدة ساعتين تقريباً ، وكانت أول مرة يظهر فيها حماسه

عندما سألتاه : هل تكون سعيداً لو أنك عملت مع المسيحى الديمقراطى ؟ فأجاب بصوت أعلى "لا بالطبع " فأنا ديمقراطى اجتماعى " .

السيدة الأكبر سناً ، وكان اسمها "إيڤا وولف " ، إحدى قيادات الحركة الطلابية فى الستينيات ، كان يمكن أن تفضل لو أن ذلك الشاب أظهر ولو علامة بسيطة على التمرد ولكنه لم يفعل ، فهزت كتفيها ، هؤلاء الأولاد مختلفون ، وفى تقريرها الذى كتبته للمؤسسة عن "كارل" وأوصت فيه بتعيينه وصفته بأنه النموذج المثالى للديمقراطى الاجتماعى قالت: إنه "عبد للسلطة ، تتملكه فكرة واحدة مسيطرة : كيف يشد الحزب الديمقراطى الاجتماعى للسلطة ولو يعنى ذلك تطوير الأفكار المقبولة من البافاريين فهو على استعداد لعمل مسودة مشروع لذلك ، ولو يعنى التخلص من الشعارات القديمة الجوفاء ، فهو مع ذلك بقوة ، حتى لو أدى ذلك إلى غضب أصدقائنا .

"عندما سألناه إن كان مستعداً للانتقال إلى "بون" فى خلال أشهر قليلة، ابتسم وقال إنه على استعداد لمغادرة "برلين" من الغد ، اعتقد أن "تيلمان" لابد أن تكون له جلسة طويلة معه وبعدها نتخذ قراراً نهائياً "كارل مايور" سيضيع إذا عين باحثاً فى المعهد لابد أن يأخذ منصباً فى جهاز الحزب فوراً .

شخص سريع التفكير ، ولكنه ليس من النوع الذى يقفز إلى استنتاجات بدهية ، يفكر فى كل شىء بشكل جيد ، مرفق صورة من الحديث الذى كتبه عندما اختبرناه سوف تلاحظ به قليلاً من العبارات الأصلية لو أن "شاربنج" يستطيع أن يتكلم هكذا .. فقد نفوز ... من يعرف ؟

كان حدس "إيڤا" فى مثل هذه الأمور ، محل احترام كبير من أصدقائها فى قيادة الحزب، وفى ظرف شهر من التحاقه بالمؤسسة، كان

"كارل" قد استقر بأمان فى مكتب الأبحاث التابع للحزب الديمقراطى الاجتماعى .

وكانت إحدى نتائج انتقاله إلى "بون" الصداقة القوية التى نشأت بينه وبين "إيڤا" ولأنها كانت تكبره بخمس وعشرين سنة ، فقد حلت جزئياً محل "ڤلادى" و"هيلجا" ، فى تلك المرحلة الانتقالية الحرجة من حياته .

كانت هى الصديق الوحيد الذى يمكن أن يحدثه عن ماضيه حدثها عن انتحار"جيرهارد" الذى آلمه كثيراً ، "جيرهارد" الذى كان يفهمه رغم قلقه لعدم اكتراث "كارل" بالأفكار الماركسية ، "جيرهارد " الذى علمه أغنية تبدأ هكذا :

من وراء ظهر الشيطان يهب القلق

ومن وراء ظهر الله ... لا شئ سوى الضجر .

قال لها "كارل" إنه كانت تأتى عليه لحظات يتمنى لو أن "جيرهارد" كان والده . ربما وكان قرب "جيرهارد" من "ڤلادى" – كانا متقاربين سياسياً – هو الذى أحدث ذلك التشوش فى عقل "كارل" كان قد كتب إلى "هيلجا" عدة مرات عن "جيرهارد" وردت عليه بمودة ودفء ، ولكنه لم يكتب شيئاً إلى " ڤلادى " ، وكان "ڤلادى" هو الولد الذى يريد فعلاً أن يتكلم عنه "جيرهارد " وكان "كارل" أحياناً يتساءل بينه وبين نفسه لماذا كان يعاقب والده ... ولكنه لا يسمع إجابة شافية .

كانت "إيڤا" دائماً مستمعة جيدة ، ومتعاطفة وقد فجأها ذلك التناقض بين التشوش العاطفى لهذا الشخص الذى أخذته تحت جناحها ... وثقته السياسية .

فى الليلة الماضية، أثناء العشاء هونت عليه وواجهته "كل شئ له حدود

يا "كارل" كل شئ . ما يفعله أى شخصين لبعضهما ، أو أب لابنه أو ابنة لأمها ، الواقع أنك تحب والدك كثيراً ، أكثر مما تعترف به ، موت "جيرهارد " هو الذى أجبرك على الاعتراف بذلك لنفسك ، ولكنك متردد لماذا ؟ أنت حزين لأن والدك لم يساعدك عندما كنت فى أمس الحاجة إليه، لكن هل حدث أن ساعدته ؟ هل "ماتياس " يساعدك ؟

ابتسمت "إيڤا" كانت دائماً تتكلم عن أمورها العائلية مع "كارل" رغم أنها كانت قد انفصلت عن "آندى" زوجها المخرج السينمائى، عندما عينت رئيسة للبحوث فى القسم الألمانى للمؤسسة ، إلا أنهما ظلا أصدقاء ، كان ابنها "ماتياس " مغنياً رئيسياً فى إحدى الفرق الموسيقية فى "برلين " .

كان فى نفس عمر "كارل" لم يكن بينهما أى شبه آخر .

ورغم عدم لباقة ابنها ، إلا أن "إيڤا" كانت تحبه جداً ثم قالت مجيبة عن سؤال من "كارل" : لا ولكنى لا احتاج إليه كثيراً منذ ذلك قريب جدا من والده ، بينهما عيوب كثيرة مشتركة أحوالهما المالية ليست مستقرة ولكنهما يحاولان ، ليس مسموحاً لى أن أرسل نقوداً لأى منهما كلاهما يساعد الآخر وكلاهما يعتبرنى خائنة ! "ماثياس" كتب أغنية عن أم كانت ثورية ونقية ذات يوم التحقت بالحزب الديمقراطى الاجتماعى والآن تنتابها أفكار ملوثة ، عرفت أن مؤيدى "ستيفان هايم" كانوا يرددونها فى الشوارع أثناء حملته الانتخابية .

على العكس منك يا "كارل" "ماثياس" ابنى يكره "بون" ولذلك فأنا أذهب إلى "برلين" كل شهر أنت أيضاً سوف تعود إلى "برلين" قريباً وسوف أبقى أنا هنا وحيدة !

هل ستذهب "مونيكا" معك ؟

أحمر وجهه ، كيف عرفت بأمر "مونيكا" قيادة الحزب الديمقراطى الاجتماعى سوف تنتقل إلى "برلين" وتستقر هناك كانت "مونيكا" أحد الأسباب ولكن كيف اكتشفت "إيڤا" ذلك ؟ سألها .

"لا يوجد سر فى ذلك ، حاولت أن أتصل بك عدة مرات قال زميلك أنك كنت مع "مونيكا" على التليفون هل المسألة جد؟

"لا أعرف ... مركزها كبير فى البنك الذى تعمل به كما تعلمين ، ويخشون أن يلعب برأسها خصومهم ويأخذونها ..."

"وهل هى فى جانبك"؟

" لا أعرف ليس لها اهتمامات سياسية جميع السياسين كذابون ، تافهون ، حقراء ، كلماتها .... عاشت سنة فى "سان فرانسيسكو" كان جدها "كولونيل" فى القوات الخاصة وأحد المقربين من "هينرش هملر " كانت أمها من اتباع "ماو" وتعمل الآن فى مدرسة ابتدائية . أبوها ؟ مات فى "ستامهايم " "مونيكا متأكدة أنه لا يمكن أن يكون قد انتحر مصرة على أنه قتل لا أعرف "

"أفهم الآن لماذا هى بعيدة عن السياسة "

"أحياناً تكون فى غاية القسوة ، عندما نتشاجر ، فأنا أيضاً حثالة ، عاجز عن الوصول إلى "البوند ستاغ " كذاب ، وأحشو جيبى بالمال ، وعندما أذكرها بأنها تكسب أكثر مما يكسب أى نائب من الديمقراطى الاجتماعى فى "البوند ستاغ" تقول إن ما تكسب لا يأتى عن طريق الخداع ولكنها حركة السوق دون مخالفة أى قوانين .

أنا أحبها يا "إيڤا" أريدها أن تكون أما لأولادى .

" وهنا كنت قد بدأت أعتقد أنك مجرد "روبوت" وتخشى أن يتضح أن فتاتك كانت "روبوت" آخر فأرا ... أو شيئاً من هذا القبيل فى الجهاز فى "أوليناور شتراس " لقد فاجأتنى بالفعل ! أستغرب.. ماذا ترى فيك ؟ احضرها إلى الأسبوع القادم ... نتناول العشاء يوم الأربعاء ؟

" حسن لن أؤكد نيابة عنها !" .

"قل لها إن أبنى "ماثياس " يغنى مع فرقة روك مجنونة ! ربما يجعلنى ذلك أقل جاذبية قل لها ما تريد ولكن لابد أن تأتى بها إلى هنا "

قضى "كارل" اليوم كله فى إعداد تقرير مختصر عن إمكانية تحالف جديد ، كان يريد أن يصل الديمقراطى الاجتماعى إلى السلطة ويريد أن يصبح "شارينج " مستشاراً ، وأن يبقى فى "بون" حتى عام ٢٠٠٠ ، حينذاك تكون الجراح قد التأمت ، وربما يبدأ فى لقاء "ڤلادى" ثانية سجل ملاحظة فى مفكرته ، فى العام الماضى ، وفى قمة ابتعاده عن الماضى نسى عيد ميلاد والده ، لا بد ألا يتكرر ذلك ، اكتشف أنه كان مازال يحب "ڤلادى" وصدمه هذا الاكتشاف.

- ٤ -

كان "فلاديمير مايور " سعيداً ، بالأمس نشرت له نيوز دويتش لاند " مقالاً طويلاً عن الاتجاهات الحديثة فى الأدب الروسى كان مقالاً عنيفاً كتبه بسخرية شديده ، يصف فيه كيف حلت واقعية السوق محل الواقعية الاشتراكية، وخلفت بالدرجة نفسها نتائج بالغة السوء ، كتابات داعرة حلت محل الإشاعة الطقوسية بالرؤساء والوزراء والمسئولين، كان ذلك أول مقال ينشره منذ طرد من وظيفته فى"همبولت"كان سعيداً بالنتيجة انتصار بسيط ، إشارة للعدو على إنه لن يتلقى الهزيمة منبطحاً ! سيرى الصغير"كارل" إنهم لم يكونوا مجرد رغوة، سيرد عليهم بقبضته الأدبية.

كتب إليه عدد كبير من أصدقائه القدامى يهنئونه فى ماضى الأيام كان "جيرهارد " أول من يسارع للاتصال بهم ، ولكن "جيرهارد " مات كان "يعرفنى جيداً " كان "ڤلادى" يفكر فى ذلك وكان يعرف كيف يخرجنى من همومى ... وكانت أحكامه عاقلة ورزينة .. يمكن الاعتماد عليها لم يكن هناك أى أثر للغيرة فى عمله "جيرهارد طيب القلب ، لم يطلب أشياء كثيرة من هذا العالم ولكنه توقف عن المقاومة أمر مهلك طلبه الموت فى قناع النظام الألمانى الجديد .

فى الخارج كان ليل ... وغطاء من الضباب فوق الشوارع قرر "فلادى" أن يبقى بالمنزل من الأفضل أن يظل محاطاً بالأشباح على أن يشارك فى الطيش الاضطرارى فى الخانة هكذا قرر كان يقرأ ، ويمشى جيئة وذهاباً فى غرفته ، قرأ الرسائل القديمة وراح يكلم نفسه ، ويكلم "كارل" و "هيلجا" و "جيرهارد" وعندما دقت الساعة الثانية صباحاً .. نام

... كان ذلك ماحدث بالأمس واليوم قام من النوم متأخراً النهار صاف ، ولكن ظلال الشتاء كانت قد بدأت تلون المشهد كله ، الضوء سوف يختفى خلال ساعات قليلة قفز من الفراش ارتدى ملابسه بسرعة وخـــرج إلى الشـــارع كان يجول بلا هدف ، وبعد ساعة ونصف الساعة ، وفى غمرة شعوره بالحزن والوحدة ، وجد نفسه فى محل لبيع الكتب القديمة على "كو دام" منظر الكتب على الأرفف خفف قليلاً من شعوره الكئيب .

"ماذا تفعل هنا "

"إيفيلين واقفة خلفه ، علت الدهشة وجهيهما ، ابتسمت وعانقته بدفء حقيقى .

"الجاكت القديم هو .. هو ، ڤلادى " القديم نفسه ! لماذا لم تحلق ذقنك؟ " ابتسم وهز كتفه زايلة الحزن للحظة رؤية "إيڤيلين" نقلت قلقه إلى المستقبل ، سارا حتى وصلا إلى قاعة فنون صغيرة ، كانت مشهورة بأنها تقدم أفضل قهوة فى "برلين" "إيڤيلين" تتصرف وكأن شيئاً لم يحدث بينهما أبداً ،عاملته على أنه أستاذها السابق ... لا أكثر من ذلك .. ألحت عليه أن يحضر المؤتمر الصحفى لأول فيلم لها فى نفس المساء ، ثم يحضر حفل عشاء بعد ذلك مع فريق العمل بدا عليه الشك ، وكان حذراً .. لا يريد أن يستعيده أحد بالمرة .

"سوف تلتقى بزوجى وصديقه ، أرجوك يا "ڤلادى" لايبدو أن لديك أى ارتباط الفيلم كوميدى وستضحك كثيراً " .

قبل دعوتها ، وهو يفكر بينه وبين نفسه أنه يغير رأيه دائماً " هل وجدت عملاً جديداً ؟ "

هز "ڤلادى" رأسه .

ولا سياسة جديدة ؟

هز رأسه مرة أخرى .

"كفى عيشا فى الماضـــى يا "ڤلادى " استيقظ .. نلتقى فيما بعد " .

بعد أن انصرفت طلب لنفسه فنجاناً آخر من القهوة وقضى الساعة التالية فى تفكير عميق ، منذ ساعات قليلة كان "ڤلادى " يتجاهل شمس الخريف الجميلة ، وهو يفكر فى يومه الفارغ الذى يدعو إلى اليأس ، هل يمكن أن تكون "إيڤيلين" هى العلاج لكل ذلك ؟ أغمض عينيه يتذكر الوقت الذى قضياه معاً ، ولكن لافائدة ! كان العالم الذى لا يريد أن يراه مدفوناً فى أعماق رأسه .. ويبدو أنه لن يتركه ، كان الواقع قد كسره ، ولكنه ما زال هناك فى أحلامه وكوابيسه كلها ، لم يمس جمهورية ألمانيا الديمقراطية البروسية الستالينية القديمة ... بكل متاهات نظمها وقوانينها البيروقراطية ، وتقاليدها الغريبة الخاصة ، بكل لا عقلانيتها الدفينة ، وقسوتها المعهودة وعدستها المشوهة التى لا يرى منها المرء سوى عالم مشوه! والآن ... يجبره التاريخ أن يعيش فى عالم جديد جرده من كرامته كمواطن كان هناك كثيرون يفكرون بنفس الطريقة وأحياناً كان يشكو لـــ "جيرهارد " لم يكن "ڤلاديمير مايور" هو الوحيد الذى يعتقد أنه كانت هناك جوانب من الحياة فى ألمانيا الديمقراطية القديمة ، أفضل مما هو موجود اليوم ، وكان كثيرون يرون مشاكلهم .

نتيجة مؤقتـــة لمرحـــلة انتقال مؤلمة من نظام ملكية الدولة إلى الاقتصاد الحر.

"ڤلادى " كان مختلفاً كان يرفض أن يعتبر كل شئ كارثة تامة ، وعندما كان يعبر عن تلك الأفكار مع أصدقاء قدامى كان يرددون دائماً :"لاشك أن الأمور سيئة بالنسبة لنا يا ڤلادى ، ولكننا هنا فى "برلين " لا نقوم من النوم كل صباح لنتساءل إن كنا سنظل على قيد الحياة حتى آخر اليوم أم لا كما يفعل كثيرون فى "سراييڤو " و"موسكو"

لم يكن "ڤلادى" يحب مثل تلك المناقشات ، العبادة العمياء للحقائق الراسخة تقود دائماً إلى السلبية لماذا يتصالح المرء مع الحاضر ؟ إن توجها كهذا ما كان له أن يؤدى إلى سقوط الحائط كان يرفض الموجود هنا لمجرد أن أحداثا فى أماكن أخرى كانت أسوء ، أصبح التاريخ عذراً ، تاريخ ملعون يخرج من رحمه جمهوريات صغيرة مخلوقات بشعة ! كيف لا تكون هكذا وهى مشوهة بعقود من ولادة غير طبيعية ؟

رجال ونساء وأطفال .. كلهم كانوا يعيشون ويموتون من أجل تلك الدول الجديدة ، كانوا فى الماضى يفعلون الشئ نفسه من أجل الأمبراطوريات الكبرى .. لكن مع فارق: فى الماضى كانوا يحاربون على مضض .. مع شك فى الدوافع ! ولكنهم اليوم يذهبون إلى الحزب بإصرار عنيد .. رؤوسهم وأجسادهم يشوهها تعصب أحمق لا بد أن ينتهى كل ذلك نهاية سيئة ، كان "ڤلادى" واثقاً من ذلك فى السنوات القليلة الأخيرة كان يتفادى بعض التأكيدات .. كان النظام الاقتصادى البيروقراطى قد انتهى ولكن أفوله لم يكن يعنى أن ما بقى أفضل أو أرقى .. من أسبوع فقط ، ألقى القبض على أحد طلاب ڤلادى النابهين كان شاعراً تفيض قصائده بالأمل ... كانت جريمة شروع فى قتل ، الضحية رجل تركى لديه كشك تجارى فى "كروزبرج" لم يمت ولكنه فقد

إحدى عينيه ، والأن وبينما هو يفكر فى ذلك ، تذكر "قلادى" أن القصيدة التى أعجبته جداً ، كانت من وحى كونيجزبيرج" القديمة حيث كان يعيش جدًا الشاب قبل الحرب ، وهربا منها بعد الهزيمة .. وقبل أن يصبح اسم المدينة "كالينجراد " حتى ذكرى "إيمانويل كانط " كانت مستلهمة والقصيدة كلها جنوح باللاوعى إلى التخوم القديمة ربما كان قد قرأ كثيراً عنها ولم يكن ذلك كله سوى حالة الاغتراب التى كانوا يشعرون بها جميعاً .. بدرجة أو أخرى بسبب بنية ألمانيا الديمقراطية ! دفع الحساب وغادر المكان ، زيارته المخططة لـ"تاير جارتن" لم ينفذها بسبب "إيفيلن" وعليه فقد استقل "الباص" المتجه شرقاً عندما وصل إلى هناك كانت الساعة الرابعة تماماً ، وجد الشقة غير مرتبة تخلص من المخلفات الموجودة فى المطبخ ونظف غرفة الجلوس ، أما غرفته فكانت مرتبة استلقى على السرير ، كان أحياناً يحسد أولئك الذين ينسحبون إلى عالمهم الخاص ولا يهتمون بأى شئ آخر أولئك الذين لم يشغلهم التاريخ أبداً... عندك "ساو" مثلاً " ساو" الذى ترك التاريخ وتحول إلى التجارة أما "قلادى" ومهما حاول ، فلم ولن يستطيع أن يهرب من التاريخ بالنسبة لأناس مثله ، لا يوجد تراجع أو انسحاب إلى الغابة نشأته ، وبيئته ، كل منطلقاته .. كانت مختلفة تماماً عما عند "ساو" لا شئ ثابتاً ، كان لابد أن يتغير المجتمع غضب الفقراء المكتوم لا يمكن أن يستمر إلى الأبد .

وسط دوامة هذه الأفكار الكبرى .. نام استيقظ بعد ساعة تقريباً وفوجئ بالظلام فى الخارج ، ولكن الساعة لم تكن قد تجاوزت الخامسة، لا داعى للخوف قام ببطء وتوجه إلى الحمام شعر بالضوء الخفيف البارد يؤلم عينيه وهو يحلق ذقنه ، كان طويل القامة قوى البنية، بشرته السمراء وعظام وجنتيه والحول الخفيف فى عينيه البنيتين .. كلها

كانت دائماً مثار تعليقات ساخرة فى أيام المدرسة ، وفى العام الأخير كان وزنه قد زاد ، إلا أنه كان له مظهر رجل فى جدارية إيطالية ، حال لونها بفعل الزمن منذ سنوات عديدة كان قد اتش اشتعل رأسه شيباً ارتدى "ڤلادى" بدلته القطيفة ذات اللون الأخضر الفاتح ومشط شعره وغادر الشقة فى الواحدة صباحاً ، كان كل الفريق يريد أن يذهب إلى ملهى ليلي جديد خاص بالشواذ يقع فى شارع جانبى متفرع من "كانت ستراس " ولكن "ڤلادى" كان مرهقاً تماماً ، ألم خفيف يرعش قلبه ، كان يفكر فى "إيڤيلين " كثيراً ، وسعيداً باللقاء الذى حدث مصادفة ، ولكنه لم يكن مستعداً للاحتفال .

كان قد توقع أن يكون احتفالاً بسيطاً ، ووقوراً فى أحد المطاعم ، ولكنه – بدل ذلك – وجد نفسه فى حفل عشاء والحضور فى ملابس تنكرية عبثية فى استوديو سينمائى مهجور ، أجلسوهم على مقاعد من طراز العصور الوسطى ، وأمامهم طاولة ضخمة مكدسة بصنوف الطعام التركية والإضاءة ... كأنه مشهد سينمائي وحول المكان نماذج مضاءة لهامات وهياكل عظمية و "ماركس " و"إنجلز" و"ولينين" وفرسان يمتشقون الدورع .. وبروليتاريا ...!

نظر إلى وجوه الناس المهمين من حوله هل كانوا حقيقيين ؟ لماذا لم تكن خزانات وقودهم مفرغة ؟ هل هو فرق السن أم تراهم سكارى بالنجاح المتوهم ؟ وبعد أن ضاق بمن حوله وبعد أن أذهلته "إيڤيلين" بدأت عينا "ڤلادى" تجولان فى أرجاء المكان رآها ... امرأة تنظر إليه وتجفل عندما تلتقى عيونهما ابتسمت ، كانت ترتدى صديرية حمراء من الحرير مطرزة بخيوط ذهبية ، وبنطلوناً أسود اللون .. فضفاضاً ابتسم ومثله ، كانت هى أيضاً قد رفضت الدعوة

لارتداء ملابس سينمائية تنكرية ، بعد العرض شعربأنهما التقيا قبل ذلك حاول أن يتذكر اسمها ، كانت ذكريات "ڤلادى" دائماً انطباعية .. تتكون من كلمات وصور الناس أنفسهم .. ماذا يلبسون .. ملامحهم الجسدية .... الصفات التى تميزهم .. كل ذلك لم يكن واضحاً فى ذهنه فجأة عرفها "ليلى" ، ليلى كرونبيرج" تلك الرسامة التى دمرت حياته دون أن تدرى ، أول معرض بعد الحائط ، بورتريه ليلى من وحى "فريدا كاهلو" كان شعرها بلون العسل الأبيض وعيناها خضراوين أما فى اللوحة فقد رأت نفسها سوداء الشعر بينة العينين لرسومها أوصاف غير حقيقية من المؤكد أنها ليست تزيينية الشخوص والألوان من ذكريات طفولتها فى الأناضول ، ولكن المؤكد أن المحيط والإطار من "برلين" أطفال أتراك وجوههم ملأى باللهفة ، يختلسون النظر ، من وراء نوافذهم ، إلى الأطفال الألمان الذين يلعبون فى الشارع .

سيارتان على الطريق إحداهما ملأى بوجوه تركية قلقة والأخرى يقودها برجوازى ألمانى سمين ذو أنف متورم ووجه رابط الجأش .. راض عن نفسه! الراقصون يمرون أمامهم .. ثم كانت "قبلات مختلسة " والتى شاهدتها "هيلجا" ذات يوم مطير ، ثم عادت إلى المنزل وخرجت من حياته ، كان لابد أن تكره "هيلجا" تلك المناسبة وضع على وجهه ملامح الاستياء وهو يلمح إليها بالشكل البائس الذى كانت عليه المناسبة هزت "ليلى" رأسها متعاطفة معه ، ربما كانت هى الأخرى ضجرة من كل شئ الضحك الصاخب المرائى ، الأصوات العالية التى تحى نجاح "إيڤيلين" الرقة المصطنعة ، المجاملات الزائفة المبتذلة .. لكم تغيرت "إيڤيلين الطالبة الجرئية ذات العينين اللامعتين ، والتى سكنت قلبه زمنا ما ، أصبحت وحشا كاسراً ، متمركزاً حول ذاته ، أم تراها كانت هكذا دائماً ؟ لعلها كانت تحاول فقط أن تحدث صدمة . على أية حال .. لم تتغير كثيراً .

وكأن التعامل مع "إيڤيلين " لم يكن سيئاً بما يكفى ، وجد "ڤلادى" نفسه يتلقى تحية من رجل حليق بدين كان شكله مألوفاً له إلى حد ما ... رغم ملبسه السخيف ، كان فى حالة سكر ، أنفه الحسى المنتفخ ذكرته به ... ! "ألبرت " ذو الوجه الأعجف واللحية السوداء بلون الفحم ، واللذان كان يسيطران على أكثر من اجتماع سرى فى الأيام الخوالى ، هذا هو "ألبرت" ذاته ، الذى كان قد كتب نقداً فلسفياً عويصاً لجمهورية ألمانيا الديمقراطية وكل منظومة العلاقات الاجتماعية فى أوروبا الشرقية ، تم تهريب المخطوطة إلى "برلين" الشرقية ونشرت فى "فرانكفورت" وأمضى "ألبرت" شهراً فى السجن .

قلة فى الغرب هم الذين فهموه أو فهموا تلك المقولات الماركسية التى كان ينشرها بقليل من المهارة ، ضد من كانوا يدعون أنهم يحكمون باسم "ماركس" ، ولكنه كان قد وقع فى مستنقع أموال الغنائم ! كما كان كتابه " أسئلة بلا جواب " صلاة المائدة على كل طاولة فى مقاهى أوروبا الغربية فى فترة ما لم يسمح له كبار الحمقى الذين كانوا يديرون البلد ، بالعودة من "فرانكفورت" حيث كان محاضراً زائراً – مجاملة – لمؤسسة "إيبرت " كان "ألبرت " قد أصبح مشهوراً .

وها هو الآن قد عاد إلى "برلين " فى هيئة جديدة ! أصبح من كبار قادة الفكر فى "حزب الخضر " ، مؤمناً بالمهمة الحضارية لقنابل ""الناتو" فى الخليج والقرن الأفريقى ، ثم أخيراً فى البلقان !

"مرحباً ڤلادى ! ظللنا زمناً طويلاً نغير العالم ، والآن جاء الوقت مرة أخرى لكى نفسره ! موافق أم لا ؟ ابتسم "ڤلادى" دون أن يظهر على وجه أى تعبير وهو يومئ إليه بنصف إيماءة ، وكان على وشك أن يستدير لولا أن أغضبته ابتسامة "ألبرت " المستعلية .

"تطلق كثيراً من الهراء يا" ألبرت " طنطنة كثيرة . ، أعتقد أن ذلك يخرج منك فى أى مكان ، سمعنا كلنا أن كبدك قد أصابه التلف تماماً ولكنى لم أكن أتصور أبداً أن عقلك يمكن أن يضمر هكذا "

اندفع "ألبرت " نحو مصدر الإهانة ولكن "فلادى" ابتعد عن طريقه ، بينما راح الخدم يساعدون صديقه القديم الذى كان يترنح الآن ، لم يشعر "فلادى" بشئ لا أسف ولا شفقة ، منذ ثلاثة أيام تم إحراق أسرة تركية حتى الموت فى مدينة صغيرة فى ألمانيا ، بينما كانت الشرطة والناس يقفون ويشاهدون المنظر ، والآن هاهو شخص أحمق ، يرتدى ملابس قائد رومانى يقول له إن كل شئ على ما يرام !

كان "ڤلادى" يحاول أن يلتقط عين "ليلى" ثانية عندما أسكتت صرخات "إيڤيلين" جميع الموجودين كانت النظرة الشزراء واضحة جداً على وجه "إيڤيلين " وسط تلك الإضاءة المسرحية الصاخبة والمكياج الوحشى الذى جعلها تبدو قبيحة فظة ، كانت ترتدى تنورة جلدية سوداء وصديرية ... للثديين فقط !

"لماذا تحدق فى " ليلى" هكذا ؟ ليلى ملكى ! ابتعد عنها جميع من هنا هذه الليلة أصدقائى أنا معجبون بى كلهم يعرف أننى أكثر موهبة من جميع المخرجين الذين يروقون لك ، ردوا علىّ كلكم .. هل تحبوننى ؟ ابتسمت وجوه السكارى ولوحوا لها ولكن أحداً لم يتكلم ابتسم "فلادى" ولكن عيناه ظلتا جامدتين صارمتين ندم لأنه قبل دعوتها ، هكذا كانت "إيڤيلين" دائماً ، غير متوازنة ، متلاعبة ، متوحشة الطموح ، لكنها حادة الذكاء متقبلة للأفكار الجديدة وشديدة الحساسية للجمود ، طاقتها المكبوتة طويلاً فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية انفجرت الآن على الشاشة ، ولكنه للأسف كان فيلماً رديئاً .

والحقيقة أنه لم يكن رديئاً تماماً " ڤلادى" الذى لم يستطع أن يخرج عن حزنه ، أساطفهم مغزاه ، وفشل فى تذوق السخرية الحادة من الذات ، الكامنة وراء الفيلم .. كان مشغولاً يتخبط فى رثاء الذات لأنه لم يلحظ السخرية الشديدة نظر إلى "إيڤيلين" وتنهد ، كانت تريد أن تصمُه بهذه الأمسية العبثية ، كان لحنا قديماً .. محاكاة ساخرة لتدهور "ويمر" لوكانت حالته مختلفة لاستمتع بالأمسية ولكنه كان مرهقاً ، ويريد أن يعود إلى المنزل تبادل نظرة حزينة مع "ليلى" كان يفكر بأسى وهو يضع قبعته الروسية القديمة على رأسه ويحكم المعطف حول جسمه .

وعندما استنشق نسيم الصباح الباكر تنهد بارتياح ، استطاع أن يهرب كان مخطئاً ولكن صوتاً مزعجاً جرح فجر "برلين" "ڤلادى" .

استدار فرأى "إيڤيلين" واقفة فى المدخل ، كانت قد خلعت الصدرية .. ونهداها يغطيهما الضباب ، صرخت فيه :"ڤلادى" أيها العجوز الخرف " ، تردد صدى صوتها وجمع عدداً من المستمعين إلى جوارها ، وعندما كان جمهور مستمعيها فى أماكنهم خاطبت حبيجها القديم :

لماذا هذا الوقار دائماً ؟ ولماذا تنصرف الآن ؟ ماذا؟ ألا تود أن تمارس الجنس هذه الليلة ؟ بالإمكان ترتيب ذلك ! إلا إذا كنت تود أن تكون مع "ليلى" .. وليس معى ! وهكذا يمكن أن .... "

"لا شكر يا "إيڤيلين" لا أنت ولا "ليلى" هذه الليلة !

وشكراً على العرض !

كان لابد أن يعترف لنفسه أنها كانت تبدو جميلة ورائعة وأنها كليوباتره حديثه ، تعشق شهوة الرجال ولكنها تكرههم "كليوباتره" دانتى" وليست كليوباتره شيكسبير كان على وشك أن يقول لها ذلك ولكن الوقت كان متأخراً لمناقشة دوائر الجحيم!كما أن "ڤلادى" لم يكن فى

حالة تسمح له بأن يستمع إلى وصف "دانتى"

وبدلاً من ذلك راح يودعها بأسلوب ودى .

"أرجوك .. إرجعى حتى لا تصـــيبك نزلة برد .. أتمنى للفيلم كل نجاح" .

وبينما هو خارج من الردهة الواسعة كان صدى صوتها يتردد غبى .. تافه .. شيوعى ... ضئيل الحجم ! حتى مع استخدام الواقى الذكرى ! ولذلك أصبحت آمنا ... فى ستين "داهية..."!!

ضحك ڤلادى " كانت تلك عبارة قديمة ترددها دائماً كلما كان يرفض أن ينام معها قبل أن تبدأ علاقتهما .

بدأ يسير بنشاط ، ياله من مساء مرعب ! ليس لأن النطات والقفشات كانت مرعبة فقط ، وكان ذلك شيئاً سيئاً ، لقد كان المزاح المفتعل كله جزءاً من قناع ، يرتديه كل أصدقاء "إيڤيلين" الجدد كلهم كان يحاول أن يخفى تعاسته خلفه ، كلهم يعيشون حياة فارغة .. مجردة من العقيدة .. من الأمل .. من الولاء لم يستطع أى منهم أن يدرك ذلك ، ناهيك عن الاعتراف به ، ولذلك السبب بالتحديد كانواكلهم يعيشون كل يوم حسب مقتضى الحال .

بدأ تركيزه الذهنى يعود إليه بالتدريج التشتت الذى استولى عليه عندما تسللت"ليلى"إلى أفكاره أثناء العشاء كان قد بدأ الانحسار، دماغه الآن صافية بدأ يستمتع بـ"برلين"برلينه الخاصة كانت تلك هى المرة الوحيدة التى يحس فيها بالمدينة القديمة فعلاً مدينة خالية شوارعها من السيارات،كان صديق له قد كتب دراسة مؤخراً يطالب فيها بأن يكون استخدام السيارات مقصوراً على مناطق بعينها، وأن يعاد إصلاح خطوط الترام القديمة فى"برلين "وبينما هو عائد إلى المنزل،كان"ڤلادى" .

يمرح فى وحدته الثانية صباحاً تقريباً ، رياح باردة تهب والأرض مغطاة بالجليد تقريباً يوجد بعض الثلج على الأرصفة ولذلك كان يسير ببطء ابتسم "ڤلادى" لنفسه " اليوم هو فى السادسة والخمسين ما كان يلوح له من بعيد كقمة جبل من الثلج وصل إليه ولكنه نجا من المواجهة كان ما يزال حياً ورغم كل شئ ، لم يلق بنفسه أمام قطار كان ما يزال موجوداً ... وذلك سبب كاف للفرح .

بزغ فجر رمادى عندما وصل إلى "تايرجارتن "بالضبط لابد أنها كانت ليلة كتلك ، عندما قتلوا "روزا لكسمبرج" فى يناير المشئوم عام ١٩١٩ ، توقف ، هز رأسه بأس عندما رأى النصب التذكارى لـ "روزا لكسمبرج" مشرفاً على القناة ثم واصل السير إلى الجسر حتى نصب "كارل ليبكنشت" لم يغفر "اليونكر " أبدا لـ "ليبكنشت "إعلانه على الملأ فى سنة ١٩١٤ أن الوطنى ليس أكثر أو أقل من مأجور دولى ، لا شئ من ذلك كله يعنى شيئاً بالنسبة لجيل ابنه ، آبنه "كارل" الذى صرخ فيه بشكل لا يليق عندما ذكر اسم "روزا" آخره مرة "وما شأنى أنا بآلهتك الموتى ، الآن لابد أن يكون قد تأكد لك أن كل شئ قد انتهى إلى الأبد .

كان حلماً مزعجاً .. كابوساً .. حاول أن تنسى أرجوك " الحاضر هو كل ما يهمهم الحاضر اللعين تذكر "ڤلادى" سطراً من "هينة" كان قد كتبه فى منتصف القرن الثامن عشر كتب كل ما يريده العالم ويبحث عنه ، أصبح الآن غريباً عن قلبى " المشكلة أن "كارل" الصغير كان فى وسط كل ذلك أصبح غريباً عن قلب والده! عندما وضع المفتاح فى ثقب الباب كان "فلادى" .

ولأول مرة – لا يفكر فى الماضى وإنما فى المستقبل هل سيكون لـ "كارل" أبناء ؟ هل سيكون فلادى "ما زال على قيد الحياة ؟ هل ينتهى الأمر بـ"كارل" وزيراً فى حكومة الحزب الديمقراطى الاجتماعى؟ ارتعد

عند هذه الفكرة بالتحديد ، ولكن ذلك جعله أكثر إصراراً على بذل جهد أكبر ، وبناء جسر يمكن أن يلتقيا عليه ... ولو حتى فى منتصفه على خلاف كثير من أصدقائه كان "كارل" يستمتع بقراءة الكتب و"فلادى" يمكن أن يكتب قصة حياته .. اعترافاً جزئياً .. شرحا جزئياً من أجل "كارل" .. نعم .. كان ذلك هو الحل لابد أن يجلس ويكتب كل ما يعرف .

وهل كان "ڤلادى" يعرف كل شئ ؟ كانت هناك بالتأكيد ثغرات مهمة فى التسلسل الزمنى الذى وصله من أمه "جيرترود " وكانت معلوماته عن والده قليلة فيما عدا قصص البطولة وأنه قتل بأوامر "ستالين" قبل أن يولد "ڤلادى" بشهور قليلة .. فى ديسمبر ١٩٣٧ .

كان دائماً يفكر فى أبيه .. لكنه بخصوص الأجزاء التى لم تذكرهاله أمه فى حكايتها كانت تنتمى إلى جيل لا يجد أى صعوبة فى إخضاع الحقيقة لاحتياجات "موسكو" أو حتى لاحتياجاتها الخاصة من أجل حماية هويتها الجديدة فى ألمانيا الجديدة بعدالحرب . لم يصدق أبدا حكاياتها الوردية عن الحياة فى العشرينيات والثلاثينيات الحقيقة .. أو على الأقل جزء صغير منها يوجد فى أرشيف الـ "ك.ج.ب " كان يريد الوصول إليه، وبين دائرة معارفه كان هناك شخص واحد يمكن أن يساعده .

تذكر "فلادى" صديقه القديم " "ساو" الذى كان ذات يوم مقاتلاً فيتنامياً والآن رجل أعمال .. الرجل الذى يرتدى الثياب الفرنسية الآن بكل اعتزاز .. كما كان يرتدى "أوفرول " الفيتكونج الأسود "ساو" له علاقات واتصالات فى روسيا الجديدة حيث كل شئ للبيع الآن! كنوز الأرمتياج الفنية والمقتنيات الخاصة .. وعملاء الـ"ك.ج.ب" ينادون على بضاعتهم – ذكرياتهم علنا فى معرض الكتاب فى فرانكفورت ، كما كان الجنرالات يبيعون المعدات العسكرية قبل انسحابهم من "برلين" حتى

اليورانيوم والصواريخ يمكن شراؤها إن كان لديك الاتصالات والمعارف المناسبة نعم ! ليس هناك وسيلة أخرى ، كان "ساو" هو رجله ، وسيصل إلى "برلين" غدا ليصحب "ڤلادى" لتناول العشاء معاً .

شاعراً بالإرهاق الشديد ، خلع ثيابه وغرق فى السرير كنا فى الفجر ، وجاء النوم سريعاً لينقذه .. كان يمكن أن يواصل نومه طيلة اليوم التالى ، ولكن جرس التليفون الملح أيقظه عند الظهيرة مثقل العينين ، شاعراً بالبرد الشديد ، الذى يخترق عظامه أدخل رأسه تحت البطانية وهو يلعن نظام التدفئة الذى تعطل منذ أيام قليلة ، الهاتف يدق فكر أنه قد يكون "ساو" فأطلقت الفكرة تياراً كهربياً فى رأسه ، قفز من السرير، أحكم البطانية حوله ورفع سماعة الهاتف :-

"نعم"

"عيد ميلاد سعيد ، جميل أنك هنا ، كنت قلقاً عليك" .

كان "كارل" يتكلم من بون . هزه ذلك من الأعماق ولكن صوته ظل متحفظاً " .

"مرحباً يا كارل " .... شكراً جزيلاً .. أنا بخير .. وأنت ؟ نعم .. نعم ... ما أخبار الشقة ؟ "

"أنا مازلت هنا، ألا تلاحظ ؟ "

"لكن " .

" أعتقد أنهم لابد أن ينتظروا بضع سنوات أخرى قبل أن يستعيدوها ... الحثالة ! لقد عرضوا على مبلغاً بالفعل ! " " كم ؟ "

"خمسين ألف مارك"

"مبلغ لا يمكنك من شراء شقة أخرى فى مكان آخر .

" على الأقل نحن متفقان "

": سأحضر إلى "برلين " فى الشهر القادم يا "ڤلادى " هل يمكن أن أقيم فى غرفتى القديمة ؟ "

"تقصد أنك سوف تقيم هنا ، وليس مع رئيسك فى .. "

"فلادى ! أرجوك " .

" طبعاً ... طبعاً ... يا "كارل" ، سيظل ذلك منزلك إلى أن يطردنى المالك . وبالمناسبة ، سوف أتعشى اليوم مع العم "ساو" ... هل تذكره ؟!!! "

- ٥ -

كانت ليلة باردة من ليالى فبراير ١٩٨٢ ،وكانت "درسدن" غارقة فى المطر عندما ذهب "ڤلادى" وزوجته "هيلجا " لزيادة أمها المريضة.

بعد أسبوع قاما فيه برعاية الأم ، التى كانت تعانى من سكتة دماغية حادة ، ومساعدة الأب الذى يبلغ الثمانين من عمره ، أصر "ڤلادى" على قبول دعوة للعشاء ، تجمع أكثر من اثنى عشر منشقاً فى الشقة الصغيرة ، يتبادلون الأحاديث عن تجاربهم ، وعن الموقف السياسى ، واستهلكوا كمية كبيرة من البيرة .

وفى طريق العودة ، لمح ڤلادى رجلاً فيتناميا أنيقاً ، يتأبط ذراع امرأة ألمانية ... شابة وجميلة ، ولم تكن "هيلجا " تعرف أن كان طالباً أو عاملاً بأحد المصانع المحلية وفجأة .. ظهر من المجهول ثلاثة أو أربعة أشخاص ، وأحاطوا بالفيتنامى والألمانية ، طرحوا "ساو " أرضاً وبينما كان أحد المعتدين يمسك بالسيدة ، نزلت على"ساو " ثلاثة أزواج من الأحذية! جثم رجلان على صدره ، بينما نزع الثالث بنطلون "ساو" عنه وهو يلوح بسكين !

فى البداية،لم يرفع ساو "ولا صديقته ولا أحد من المهاجمين الثلاثة صوته، أما "ڤلادى" وهيلجا "فقد تجمدا فى مكانهما وكأنما قد أصابهما الشلل أمام ذلك المشهد الصامت الذى كان يبدو من على البعد وكأنه عرض خرافى من عروض خيال الظل ، بعدها، صرخت السيدة طالبة النجدة ، واندفع "ڤلادى" وهيلجا فى الشارع يصرخان ويطلبان الشرطة

المهاجمون لانوا بالفرار ساعد "ڤلادى" فى رفع "ساو " من الأرض بينما كان أنفه ينزف فكت "هيلجا" وشاحها واستخدمته لإيقاف النزيف وكانت السيدة الألمانية تنتحب .

" هل أنت بخير ؟ .

" خصيتاى ما تزالان هناك؟ ، قال "ساو " وهو يحاول أن يبتسم بضعف " أما بالنسبة للباقى فهو كما ترى .. شكراً لك" .

سألته هيلجا " من أولئك الناس ؟"

تكلمت صديقة "ساو " لأول مرة : "شبان شيوعيون " ثم همست " ظل أحدهم يطاردنى لعدة شهور ، وعندما أكتشف أننى التقى "ساو" هدد بقتله "

رد "ڤلادى" بقدر من الغرور " أتمنى أن تقول ذلك للشرطة .. هل تعرف اسمه ؟"

ضحك "ساو " الشاب الذى حاول إخصائى ؟ طبعاً أعرفه ولكن هل تعلم أن والده هو رئيس الحزب فى هذه المدينة ؟ إن تقدمت بشكوى فسوف أكون أنا الضحية ... سيقومون بترحيلى !"

" كيف يمكن أن تكون هادئاً هكذا ؟

" لست هادئاً بالمرة " قال وهو يحاول أن يسيطر على غضبه .. أنا غاضب جداً .. وأشعر بالمرارة .. وأفكر في الانتقام ، ولكننى بلا حول ولا قوة فى جمهوريتكم الديمقراطية جداً .. لو فقدت السيطرة على نفسى فلسوف اختفى من على وجه الأرض فى خلال أسابيع قليلة " "ڤلادى" الحائر" ألمح إلى أنه لا يستطيع أن يتبع المنطق الفيتنامى كان "ساو "يبتسم من خلال النزيف أنا جـندى مدرب مقاتل ... تعلمت أن

أقتل عدوى فى هدوء كان بإمكانى أن أكسر رقابهم لو لم تصلا إلى هنا وبعد ذلك كان الـ "ستاسي " سيقوم بتدبير حادث فى مصنعى ، أمر ثقيل سيجل ، بى حادث صغير يروح ضحيته عامل "أجنبى" آخر وهكذا ترى يا صديقى أنك قد أنقذت رجولتى وحياتى أيضاً والآن من فضلك ، نريد أن نعود إلى البيت هى إلى شقة أمها وأنا إلى المنزل الذى أقيم به " "هيلجا" أصرت على تأخذ "ساو" معها إلى منزلها ، وهناك عالجت جراحة التى كان معظمها بسيطاً ، وتغلبت على تردده أن يتطفل عليهم مرة أخرى ، أخذ حماماً ، وبعد وجبة أعدت على عجل أوصله "فلادى" بسيارته إلى المنزل الڤيتنامى وهو بناء يشبه السجن على أطراف المدينة اتفقا على اللقاء فى اليوم التالى ، هكذا ولدت الصداقة بينهما .

بعد عام من حادث "درسدن" اختفى "ساو" لا أحد يعرف أين ذهب ! وذات يوم وصل خطاب من "موسكو" كان "ساو" يريد أن يبلغ ڤلادى و"هيلجا" أنه قد استقر هناك وأنه كان سعيداً كان لديه أقارب وأصدقاء ورفاق منذ الحرب الفيتنامية فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى ، كان على صلة مستمرة بهم جميعاً ، وكان كثير الأسفار ، ويتمنى أن يكون "ڤلادى" "وهيلجا " وكارل " الصغير بخير وسوف يراهم قريباً . كان ذلك هو ما جاء فى خطابه .

وعلى امتداد السنوات التالية لذلك ،كانا يتلقيان منه البطاقات البريدية العارضة ، وأحياناً ،كان يحضر زائر ما من "موسكو" يحمل هدية من"ساو" وكانت دائماً علبة "كافيار"كبيرة –لا تحمل أية علامة تجارية–مع رسالة قصيرة من صديقهما تخبرهما بأن ذلك من الكافيار

* جهاز الاستخبارات فى المانيا الديمقراطية – "stasi"

الخاص بالمكتب السياسي وبعد تذوقه .. يدرك "ڤلادى" و "هيلجا " أنه لم يمكن يمزح وكثيراً ما كان يتكلمان عنه ويتساءلان ماذا يمكن أن يكون نشاطه وماذا يفعل فى "موسكو " "ڤلادى " يتذكر الأن منافشاته الكثيرة مع "ساو " وبعد فترة ، بدأ يتجاهل خيالات صديقه التى لا تنتهى ، والتى كانت تدور كلها حول المال ، كان الرجلان مختلفين تماماً ، وتناقضهما كان يعكس أحوالهما وأصولهما .

"ڤلادى مايور " كان قد وضع المثالية ، الألمانية ورغم إدمانه لجوانب كثيرة من الفكر الماركسى ، إلا أنه كان رومانسياً معذباً فى الأعماق منه هو مثال حى ، إن لم يكن محاكاة ساخرة لوجود كلمات ألمانية مثل "فلتشميرتس [1] ، وأنجست[2] " وتسايت جست [3] " فى الإنجليزية التى هى لغة عالمية .

كان فى شبابه شيوعياً ، وكاد أن يموت فى الحرب ، وعندما يرى ما يحدث الآن يضيق صدره بالتجريدات! ينحدر من أسرة فلاحية متوسطة، حارب والده فى الجيش الفرنسى ولفترة طويلة كانت لديه زكريات مطموسة عن أصوله ، ولكنه فى ظروف الحرمان والبؤس التى خلفتها الحرب ، كان يتذكر أمه وأخواله ، وكيف أن أفعالاً مثل :يشترى ، يبنى ، يستبدل ، يبيع ، مهمة فى حياتهم اليومية ، ومع تزايد شعوره بالغربة والابتعاد عن الدولة التى حارب من أجلها ، كان ساو " يرحل فى الزمن ، أماما وخلفا بشكل دائم ، والآن تروق له مزايا الاقتصاد الزراعى القديم، والعلاقات الأسرية فى الريف قبل تحضر المجتمعات ، وتلك أشياء

١ - الألم الكونى Wettschmerz

٢ - قلق Angst

٣ - روح العصر . Zeitgeist

لا يمكن إعادتها ولكن الذكريات مهمة ، لكى تساعده على إعادة تشكيل مكانته الاجتماعية الخاصة ، لم يكن يريد أن يقضى على الصدمات التى جاء بها النظام العالمى الجديد وبينما كان "فلادى " مقتنعاً بأن الحقائق الجديدة ، أمور دخيلة ومقحمة بشكل مؤسف ، كان "ساو" كله إصرار على الإفادة منها وكان ذلك الجانب فى شخصية صديق الأسرة ، هو الذى يروق لـ "كارل" أكثر من غيره .

كان "ڤلادى " معادلاً مفيداً ، تبادلهما المنتظم للأفكار ووجهات النظر ، وضع أساساً لصداقة أصبحت مثمرة لكليهما مرت عشر سنوات ، وفى أحد أيام عام ١٩٩٢ ظهر "ساو" فجأة ليدق باب شقة "ڤلادى" فى البداية لم تعرفه "هيلجا " ثم صرخت فرحة وهى تنادى "ڤلادى" " وكارل" كانت مفاجأة لثلاثتهم ، العامل الأجير – سابقاً – ها هو الآن فى بدلة أنيقة كاملة ، على رأسه قبعة سوداء من الحرير .. غير مستقرة .. ومحملاً بالهدايا .

كان يشبه صورة من الخمسينيات للامبراطور الڤيتنامى المطرود "باو داى " فى منفاه الباريسى " .

كان اللقاء بعد زمن ممتعاً ومرحاً ، صمم على أن يأخذهم جميعاً إلى جزيرة قريبة من ساحل البلطيق ، منتجع على البحر كان مقصوراً ذات يوم على كبار رجال الحزب .

"ساو " الذى سبق له أن أمضى أوقاتاً طويلة فى الكازينو فى "باريس" " كان يتوقع أن تكون هناك بعض وسائل الترفيه ، ولكنه لم يجد خيبة الأمل التى ظهرت عليه أدهشت ، "هيلجا" ولكنه كان أسبوعاً للاسترخاء على أية حال لم يدرك "ڤلادى"و"هيلجا" كيف أرهقهما النشاط السياسى المكثف والمتواصل على مدى الشهور الستة الأخيرة

اجتماعات ، مسيرات في الشوارع ، مناقشات طوال الليل ... كل ذلك سرق حياتهما . كان "كارل" الصغير مهملاً بالفعل ، وهاهم الآن بفضل "ساو " معاً مرة أخرى مواطنوا المانيا الديمقراطية البوساء كانوا مثل الأيتام .. مصابين بالأضطراب العصبى تقريباً ، ولكن قلة منهم هى التى كانت تدرك ذلك في الأسابيع العنيفة التى سبقت إعادة التوحيد ، وكان "ڤلادى " واحداً من تلك القلة كان يجد لشكوكه متنفساً فى التليفزيون والصحافة فى تلك الأيام ، كان اللصوص الصغار الذين يحاكون اللصوص الكبار ، قد اعتادوا على الرد بأسلوب ودى ، ولكنه متفضل أنت وأصدقاؤك يا بروفيسور "مايور" تنتمون إلى العالم القديم ، نعرف أنكم ستظلون اشتراكيين بالقلب ولا نعتبر ذلك ممسكا ضدكم ، نحن مستعدون لأن نغفر وننسى وأنت مازال بإمكانك أن تقدم خدمات للديمقراطية تعال معنا ! ولنبن ألمانيا الجديدة معاً ! كان "ساو " يعلن أن أفكار "ڤلادى" فى مكان آخر وكان "ڤلادى " يبدى اهتماماً مهذباً بقصة تحول صديقه من عامل أجير إلى صاحب أملاك "ڤلادى" وهيلجا " بدأ يشعران بالذنب بعد أيام قليلة تحت أشعة الشمس ، وفى الليل ، كان "ساو " يسمعهما يتهامسان . هو لا يسمع جيداً ما يقولان ، ولكن بعض الكلمات والعبارات توحى بأنهما مهمومان بمستقبل هذا البلد .

أما "كارل " الصغير فكان يتابع كل تفاصيل القصة . كيف استغل "ساو " خطوات التاريخ المتسارعة لكى يغير مجرى حياته ،وكان الجزء الأكثر إثارة فى نظره ، هو كيف صنع رجل الأعمال الڤيتنامى المغامر المليون الأول ، كان متباعداً عن والديه ونشاطهما الأخير .

المظاهرات الكبرى فى "برلين " و "درسدن " لم تحرك الشاب وبطبيعته ، كان إنساناً يفضل قاعة اللجنة عن الشارع ، كان التعبير عن العواطف علنا يشعره بالحرج ، مشاعر الجماهير تخيفه وكان ڤلادى " و"هيلجا " لا يملكان سوى نظرات اليأس والاستسلام يتبادلانها ، وهما يرقبان نمو ذلك الشبل الصغير .

ملحمة " ساو " أدهشت "كارل " وكأن "ساو " قد سحره كان ينصت باهتمام ، تلمع عيناه ، ويقاطع الراوى من أجل التفاصيل . كان اهتمام "كارل" هو الذى أزعج والديه وأجبرهما أيضاً على الاهتمام الشديد بالحكايات التى يرويها صديقهما الڤيتنامى ، وكان ذلك على غير رغبة منهما ، فقد كان كل ما يودان التفكير فيه هو الوضع غير المستقر للمكتب السياسى فى "برلين " .

"ساو " فر إلى موسكو ، وكان يقول - إنها - مقارنة بـــ "درسدن " وبرلين " جنة كوزموبوليتانية أقام من فوره علاقات بمجتمع الڤيتناميين هناك ، ووجد سريراً فى شقة مكونة من غرفتين تشارك فيها مع خمسة آخرين كان اثنان منهما كثيركييف الاسفار ، ومن بين الآخرين كان هناك شخص قدم من قرية قريبة ، سأله "ساو " عن عمه فى "كييف" والذى لم يكن قد رآه منذ سنوات طويلة لم يكن لديهم معرفة به ، عندما سألهما "ساو " إن كان بالإمكان أن يحملا رسالة منه ، فى رحلتهما التالية فى "أوكرانيا " ضحكا وأخذا "ساو " معهما بدلاً من ذلك ، لم تمثل وثائق السفر ولا النقود أية مشكلة. اتضح بسرعة أن المسافرين كانا رجال أعمال مزيفين متورطين فى جمع الثروة بطريقة بدائية. كانا

يديران سوقاً سوداء للجماعات الڤيتنامية فى أنحاء الاتحاد السوفيتى آخذة فى الاتساع ، وكانت شبكة التوزيع الخاصة بهما ذات كفاءة ويمكن الاعتماد عليها . كان "ساو " مذهولاً من حجم العملية وأن تكون العملة الوحيدة التى يستخدمانها هى الدولار أو المارك الألمانى وهو فى القطار إلى "كييڤ" كان يفكر فى بلده الأصلى بعد سقوط سايجون فى ١٩٧٥ وجد القادة فى"هانوى " أنفسهم على رأس بلد خراب ، كانت الحرب الكيماوية قد دمرت البيئة تدميراً هائلاً والمدن التى قصفتها القنابل فى حاجة إلى إعادة بناء والأيتام فى حاجة إلى ملاجئ والجنود المسرحون يبحثون عن عمل ، والعمالة الزائدة لابد أن تباع للاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية فى مقابل معدات وسلع ضرورية .

الولايات المتحدة وعدت بالإصلاح ، ولكنها نكثت بكل الوعود وفرضت حظراً اقتصادياً بدلاً من ذلك كان "ساو " يعرف أن بلاده تعاقب ، تجرأوا على المقاومة والانتصار ، والآن عليهم أن يدفعوا ثمن انتصارهم العظيم على أقوى دولة فى العالم .

كانت سنوات الحرب ملأى بالتوتر والغضب والخوف .. أثارت فيهم أيضاً فكرة الانتصار ذات يوم ، وإعادة توحيد فيتنام كل ذلك مضى ، لم يحقق السلام سوى الفتات لعامة الناس "ساو " بشعر بالمرارة " حارب بعنف كان يعرف أن الجنة مجرد حلم ،ولكن المؤكد أنه كان يتصور أن يحمل المستقبل القريب بعض السلوى .

الأمل ، النضال ، الأمل ، الخيانة ، الأمل ، الثأر ، الأمل ، الانهيار ، لا أمل! ، قال ذلك كله فى اجتماع حزبى فى "هانوى" رؤوس كثيرة . . . كثيرة جداً أومأت فى صمت موافقة .

بعد ثلاثة أسابيع أرسلوه إلى جبهة جديدة .. جمهورية ألمانيا الديمقراطية ...بلد تحت مسمى خطأ يحكمه بيروقراطيون مضللون ، يا لها من حياة.

"ساو " يشعر أنه وصل إلى مفترق طرق ، كان يسير على أرض متحركة حياته قد تتخذ عدة مسالك ، نظر إلى أبناء وطنه ، كلهم مشـــغول بما يمكن أن يبيع ويشترى فى "كييف" وقرر أن ينضم إليهم .

كان يشعر أن الشبكة لابد أن تمتد إلى كل مدينة رئيسية فى الاتحاد السوفيتى ، وأن عليهم أن يطوروا علاقاتهم بالعمال الڤيتناميين فى أوروبا الشرقية .

كان "ساو " يضحك وهو يقول "لابد أن يتم تداول السلع ومن أفضل منا ليقوم بذلك ؟ لقد حكَمنا الصينيون عدة قرون ثم جاء الفرنسيون ثم الروس ، والآن فكرنا ... دعنا نعمل من أجل نظام اقتصادى .

"ساو " وأصدقاؤه جربوا واختبروا شبكة من الوسطاء منتشرة فى أرجاء الدولة ، تجمعت الأموال وأصبحت جبلاً مع بداية الانهيار أصبحوا يصرون على أن يقبضوا بالدولار أو المارك الألمانى ، وكانوا يسربون جزءاً من الأموال إلى "ڤيتنام " كثير من الدراجات البخارية وأجهزة الفيديو والتليفزيون فى "هانوى " كانت نتيجة لذلك النشاط مرت "هانوى " فعلا بانتعاشة صغيرة عندما بدأت تلحق بمدينة "هوش منه " التى كانت ما تزال "سايجون"

ويواصل ساو حكايته ... "فى الأيام الأولى كنا نتقاسم الأرباح مع رجال الحزب صغارهم وكبارهم بدءاً من المسئولين فى الخلايا الصغيرة وانتهاء بأعضاء اللجنة المركزية ، بعد ذلك قرروا أن يغيروا الأسلوب أصابنا الذعر .. هل تكون تلك نهايتنا ؟ كنا أسماكاً صغيرة فى بحيرة متوسطة ، والآن سنصبح مثل الأسماك الأوروبية الصغيرة فى بحر

القرش سوف يستولى على كل شئ كم كنا مخطئين يا أصدقائى ، كم كنا مخطئين ! "

توقف هنا وضحك وكان فى ضحكته ماهو أكثر من الهيستريا ! "وما المضحك فى ذلك يا عم "ساو" ؟ سأله "كارل" بصوت مرتبك .

"المضحك هو أننا الوحيدون الذين يمكنهم استغلال هذا الانهيار، لا أحد كان يمكن أن يتخيل أن الاتحاد السوفيتى سوف يتفسخ بهذه السرعة .. ولكنه حدث .

حدث ! كان "يلتسن " فى عجلة من أمره لكى يغرق "جورباتشوف " ولو كان عليه أن يغرق الاتحاد السوفيتى القديم أولاً لفعل وقد فعل ! المافيا الروسية أخذت على حين غرة على أية حال لم تكن علاقاتها ولا اتصالاتها واسعة ، ولا ذات كفاءة مثلنا ، كانوا يعتمدون كثيراً على ارتباطاتهم بمسئولى الحزب أصيب النظام القديم بالشلل ، انهار التوزيع هرعنا نحو الڤيتناميين للإنقاذ ولكن كل شئ بثمن مثلما جاءوا لانقاذنا أثناء الحرب كل شئ له ثمن نظمنا تسلسلاً قيادياً . كنا ننقل السلع طورنا نظام النقل الخاص بنا ، من هذه الثغرة تسللنا يا عزيزى "كارل" الآن عمك "ساو" لديه شقة فى "باريس" وزوجة فرنسية " وأستطيع أن أسافر إلى أى مكان ولكن "ڤلادى" وهيلجا" هما أفضل أصدقائى أصدقاء حقيقيون ليسا لهما مثيل فى أى مكان آخر تذكر ذلك دائماً يا كارل " .... اتفقنا ؟

ثم اختفى مرة أخرى .

منذ أسبوع تقريباً اتصل بـ "ڤلادى" تليفونياً لكى يخبره بأنه سوف يحضر قريباً إلى "برلين " فى مهمة ضرورية .

اتفقا على موعد للعشاء كان "ڤلادى" فى الطريق إليه" نجوين فان ساو " الڤيتنامى ابن الفلاحين .. كان مغموراً فى حوض إستحمام ملئ

بالرغوة فى جناح مترف بالطابق الثالث من فندق "كمبينسكى " ولكن حالته النفسية كانت سيئة .

كان يوماً منحوساً . الرحلة من "لندن" تأخرت موظفو الجوازات فى "برلين" فحصوا جواز سفره باهتمام شديد . أما خيبة الأمل الكبرى فكانت فشله فى أول النهار فى الحصول على عازل طبى من القرن السابع عشر ، مصنوع من الحرير ، ومطرز كان لويس الرابع عشر قد استخدمه ، وإن كان الكتالوج المصاحب لم يوضح درجة نجاح استخدامه .. هل نجح فى منع مرض الزهرى الذى كان يمكن أن يصرع الملك الشمس ؟

كان "ساو " يريد أن يحصل على ذلك الشئ ليقدمه هدية لوالده فى عيد ميلاده السبعين ، ولكنه خسر فى المزاد العلنى الذى أقيم فى قاعة« "سوذبى » ، وفاز به رجل شيشانى ، كان يرتدى سترة من الفراء ، ربما كان يعمل لحساب تاجر أكبر فى « موسكو" أو « برلين » . كان « ساو » مشغول البال وهو خارج فى الحمام ويلف نفسه فى « روب » وثير . ... على الأقل . فإننى قد أجبرت ذلك الوغد أن يدفع خمسين ألف دولار لمجرد الاستمتاع بملمس حرير الملك . وبما أن دولارات كثيرة تطبع فى روسيا هذه الآيام .. أكثر بكثير مما يطبع فى أمريكا فإن "ساو " كان يتمنى أن تكون "سوزبى " قد حصلت على دولارات مزيفة ! .

"ساو "كان يشعر بأنه غريب وبعيد عن العالم الذى أصبح نجاحاً فيه.

وبقيت المشكلة ماذا يشترى لوالده ؟ فى السنوات السابقة كان يرسل للرجل العجوز قمصاناً حريرية وأحذية مصنوعة يدوياً ، وعباءات فيتنامية أثرية وصناديق كونياك ... وأشياء أخرى كثيرة ، كان معظم تلك الهدايا ينتهى به الأمر فى السوق السوداء فى "هانوى " وهذا العام عبر والده لأول مرة عن رغبة خاصة كان قد قرأ فى مجلة ما أن العازل

الطبى الخاص بالملك لويس الراب] عشر معروض للبيع ولسبب غامض وعميق ومجهول بالنسبة لـ "ساو " كانت تلك رغبة والده "ساو " يشعر بالذنب ربما كان٤عليه أن يواصل صراعه مع الشيشانى حتى‹يهزمه كانت تلك أول مرة يطلب منه والـــه شيئاً ويفشل فى أن يحققه له كان يحو والده ، والد "ساو " حارب فى "ديان بيان فو " فى سنة ١٩٥٤ ، وهى مدينة صغيرة فى فيتنام الشمالية أحتلها الفرنسيون وكانوا يتصورنها منيعة والد "ساو " حارب فى صفوف الفرنسيين رغم أن تلك الحقيقة قد نسيت تماماً ولم يعد يذكرها أحد ، أما تاريخ الأسرة فيزعم أنه كان عميلاً شيوعياً ، ولم يكن صحيحاً .

لم يكن سوى خادم يرتدى بزة نظامية ويلقى معاملة طبية من كولونيل فرنسى أرستقراطى يمتلك مزرعة كبيرة بالقرب من "نيم "الملابس المستعملة والأحذية المستغنى عنها ، وبقايا الكونياك والبقشيش السخى والكلمات الطبية من وقت لآخر كانت تجعل الجندى الڤيتنامى الصغير سعيداً وذلك كله لأن الڤيتنامى الحلاق الماهر ، كان يحلق ذقن سيده كل صباح بعناية شديدة.

أما الكولونيل فقد كان سعيداً به أيضاً لدرجة أنه طلب أن يأخذه معه إلى فرنسا ، ولا بد أن يكون الأمر هكذا أن لم يتضح أن التاريخ غريب جداً .. ذات صباح فى عام ١٩٥٤ استقيظ "ساو " فى مدينة "ديان بيان فو " المحاصرة وأدرك رغم أنه لم يكن عسكرياً متمرساً ، أن المستحيل كان على وشك أن يحدث كان الجانب الذى يعمل لديه على وشك الانهيار، كان الجنرال "فونجوين جياب " قائد جيش المقاومة الڤيتنامية – جنرال الشجيرات الكثيفة كما كان يدعوه الفرنسيون – كان قاب قوسين أو أدنى من انتصار كبير وكانت القوات الرئيسية للجيش الفرنسى أمام خيارين .. إما الاستسلام الذليل أو الفناء .

وحدث تحرر من الوهم ، فر والد "ساو " إلى الجانب المنتصر ، لم

يمكن الوحيد ، وبعد يومين استسلم الجيش الفرنسى .

وانتهت حرب ڤيتنام الثانية .

كان "ساو " العجوز " على ثقة من أن سيده السابق يفضل الموت على الاستسلام ورغم التحول المتأخر .. اتضح أنها كانت خطوة ماكرة .. سياسياً وعاطفياً هزم الفرنسيون ، وانسحبوا من شبه الجزيرة الڤيتنامية بلا عودة ، أما الكولونيل فأكد إحساس خادمه الفطرى وأطلق النار على رأسه ليقتل نفسه .

الأهم من ذلك أن والد "ساو " التقى بأم "ساو " كانت تكبره بعشرين عاماً ، رفاقها يعتبرونها مقاتلة فدائية وكانت قد شاركت فى حصار "ديان بيان فو "

كانت هى التى رأت زوجها المستقبلى بين صفوف محاربى الجيش الفرنسى المرهقين ، وهو يزحف تحت الأسلاك الشائكة ويرفع منديلاً أبيض ، ولسبب ما ، جعلها منظره تضحك قامت باستجوابه وأبلغت عن استسلامه وسلمته لضابطها السياسى وعادت إلى خط الجبهة ، بعد الاستسلام لم يمنحها لحظة سلام واحدة ! كان يتبعها فى كل مكان حتى اعترفت لنفسها أنها كانت تحبه كانت "ثوڤان " شيوعية شديدة الالتزام تعهدت التربية السياسية لزوجها بمنتهى الجدية وبعد أن شعرت بأن تربيته اكتملت ... وأنه قد صار إنساناً كاملاً ، هنا ،فقط تنازلت وحملت بطفل "ساو . " الصغير .

بعد اتفاقية عام ١٩٥٦ عندما تم تقسيم البلد ، وتم تعليق اقتراع عام ، بقى والد "ساو " فى الشمال مع "ثوڤان " والشيوعيين ، تاركاً للقساوسة الكاثوليك ومسكنه لأحد أبناء العم .

ورغم أن والد "ساو " كان يشعر بالندم لأنه خدم فى الجيش

الفرنسى، إلا أنه كان يفتقد أساليب حياة الفرنسيين ، وإن شئناً الدقة ، فإنه كان يفتقد بقايا كونياك الكولونيل والمعلبات ، كان يفتقد الأغانى التى يغنونها ، كما كان يفتقد صور الفرنسيات الجميلات والأطفال ذوى الشعر الملفوف .

افتقد الحقبة الاستعمارية الفرنسية ، وجميع الهدايا الثمنية والمواد الغذائية التى كان يرسلها إليه ابنه من" باريس " لم يكن لها نفس الطعم ! كانت نكهتها المعنوية منفرة لحواسه ، لم ينفذ الاقترا ع فى فيتنام لماذا ؟ لأن الأمريكين الذين حلوا محل الفرنسيين كانوا يخشون أن يفوز الفيتناميون .

بدأت حرب ڤيتنام الثالثة ، تركت "ثوڤان " زوجها وأبنها الصغير فى "هانوى" لتنظم لجبهة التحرير الشعبية التى نظمت حديثاً فى الجنوب كانت معرفتها الجيدة بطبيعة الأرض هناك قد جعلتها فى غاية الأهمية .

"لابد أن تأكل جيداً وأنا بعيدة "يا ساو" وأنت طفل كنت ممتلئ الجسم يانعاً مثل فطيرة حلوة ، انظر إلى نفسك الآن تبدو هزيلاً ناحلاً .. عدنى بأنك سوف تتناول كل وجباتك " وعدها "ساو" حملته عن الأرض وقبلته فى عينيه .

امتلأت عيناها بالدموع وهى تودع زوجها وطفلها شعرت لشئ ما داخلها كأنه يقول لها إنها لن تراهما ثانية همست فى أذنه : أهتم به جيداً.

"ثوفان " قتلت بعد شهور قليلة فى عام ١٩٦٢ ، أثناء معركة "آب باك" حيث واجه الأمريكيون أولى انتكاساتهم الخطيرة كانت المواجهة نفسها بسيطة ولكنها قررت مستقبل الحرب وذات يوم جاء "ساو " الصغير إلى دكان الحلاقة القذر فى "هايفونج" حيث كان يعمل والده ، كان معظم زبائن المحل من البحارة أثناء إجازاتهم ... الوقت متأخر ولا يوجد زبائن الآن نظرا "ساو " فى المرأة المعتمة فجأة انهارت نظرة والده المجهدة واستسلمت للدموع احتضنه "ساو " فى هدوء .

قال الرجل بصوت هادئ : الأمريكيون أغبياء بالفعل " واضح أنه كان يفكر فى "ثوقان " إذا كان الفرنسيون قد فشلوا فى أن يهزمونا أفلا يعنى ذلك أن غيرهم لن يستطيع ؟

كان "ساو " يحمل معه دائماً صورة لأمه ، إحدى الصور الرسمية المصممة خصيصاً للأجيال القادمة بغرض الدعاية السياسية ترتدى فيها بيجامة سوداء ، وقبعة من القش وتحمل بندقية .

وجهها مشرق يملأه الابتسام هى آخر صورة تلتقط لها وكان يحملها معه وطوال حياته ، وعندما ذهب لينضم إلى صفوف المقاومة كان يريها لرفاقه بكل زهو وفخار .

كيف كانت مملوءة بكل ذلك الأمل ؟ كان "ساو" يحسدها على ذلك أكثر من أى شئ آخر . حياته ، حياة مستقرة مستريحة لرجل غنى ولكنها خالية من أى رؤيا جميلة عن المستقبل .

كان الآن جافاً تماماً تناول ساعته اكتشف أنه تأخر فبدأ يرتدى ثيابه على عجل .. وبينما يضع حافظة نقوده فى جيبه دق جرس الهاتف .. تركه يدق للحظات وهو يربط حذاءه .

"عفواً يا هر ساو " يوجد شخص يقول إن إسمه البروفيسور "مايور " ينتظرك فى صالة الاستقبال " "دعه يصعد ... دعه يصعد .. ! رد "ساو" " بلهفة وهو يضحك ، بينما يحكم أزرار أكمام القميص الذهبية كان "ڤلادى " قد قطع المسافة إلى " كو – دام " سيراً على قدميه وكانت الريح الباردة قد جعلت وجنتيه حمراوين قليلاً وكان يشعر بالانتعاش جسداً وذهناً.

وبينما المصعد فى طريقه إلى الطابق العلوى ، كان "ڤلادى " يبتسم

وهو يفكر فى التغيرات التى حدثت فى السنوات العشر الأخيرة والتى حولت حياة "ساو" وحياته منذ ليلة لقائهما مصادفة فى "درسدن" فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية منذ أثنى عشر عاماً تقريباً .

كان "ساو" ينتظر خارج باب غرفته المفتوح تعانق الصديقان "ساو" يتكلم وبريق خبيث فى عينيه : أول سؤال لك يا بروفيسور "مايور" هل العمال راضون الآن ؟

وضحك كلاهما .

" ليس بإمكان كل العمال أن يعيشوا مثلك يا "ساو" للأسف " ضحك الڤيتنامى وهما يهبطان إلى الطابق الأرضى ويتجهان نحو مطعم المأكولات البحرية طلب "كافيار": و"جمبرى" وشمبانيا وهو يتحسر لأن المأكولات البحرية فى "هالونج باى" أفضل بكثير واكتفى "ڤلادى" بقطعة من" الاستيك" "والسلاطة" : وجبتان طيبتان خلال يومين لابد أن وزنه سوف يزيد فى هذا العالم الجديد .

بعد ذلك تشاركا زجاجة كونياك فى جناح "ساو" وهو ثمل ، عرض "ساو" على صديقه مالاً ، شقة فى "برلين" أو باريس" ، معهداً خاصاً به فى "درسدن" ، دار نشر جديدة فى "ميونخ" " أو فيينا " أو أى شئ كان "ڤلادى" يريده .

ابتسم "فلادى" شاكراً وهو يهز رأسه .

"استمع إلى جيداً يا "ڤلادى" لقد أنقذت حياتى وهل أنس لك ذلك أبداً ؟ وأنا الأن غنى ، لدى أكثر مما كنت أحلم به من مال وسيكون لدى أطفالى وزوجتى ما يكفيهم بعد أن أرحل والمال ما زال يتدفق أود أن أساعدك ما هى المشكلة فى ذلك يا "ڤلادى" ورطة أخلاقية ؟ نعم؟ لماذا ؟

"الورطة وجودية وليست أخلاقية " كيف تعيش ليس هو السؤال المهم، أهم من ذلك بكثير هو إن كان من الضرورى أن تعيش على الإطلاق "جيرهارد " حل المشكلة بأن شنق نفسه فى حديقة منزله فى "جينا " أما أنا " .

"ولكن ليس أنت يا "ڤلاديمير مايور " وقبض "ساو " على ذراع صديقه وكأنه أسير حرب ... " لا ليس أنت ! .

لا استطيع أن أصدق أنك يمكن أن تستسلم هكذا ، فصلت من قبل مجموعة أوغاد من الغرب ، لابد أن تقاومهم بكل ما تملك من قوة ، سأقوم بتمويل هجومك المضاد هل تذكر عبارة "برخت " التى قلتها لك منذ عدة سنوات : :"إن هبت الريح سأضع شراعاً .. وإن لم يكن هناك شراع سأصنع واحداً من الخيش والعصى .

ابتسم "ڤلادى " .

المشكلة ليست فقط فى عدم وجود رياح .. المشكلة أن البحر كله محتل بسفن ضخمة .. وبحار واحد يغنى ... ليس "برخت" وإنما المارك الألمانى ... المارك الألمانى .

"فوق الجميع " هل تعرف ماذا يقول بعضهم ؟ يقولون إن لم نكبر أكثر من ذلك سنصبح أصغر "

ابتسم ساو " ابتسامة عريضة سعيداً بأن يرى "ڤلادى" غاضباً مرة أخرى سأله " وماذا عن القواقع ؟ يقصد الحزب الديمقراطى الاجتماعى.

"كارل" أموره تسير سيراً حسناً ، وهذا جيد بالنسبة لى ، لو كان لى صديق فى المستشارية سوف تنتعش أعمالى وتزدهر أكثر مما هى.

أهدأ أنت يا ڤلادى . ألمانيا الجديدة ليست جنينا للرايخ الرابع قد

يحلم بعض الأغبياء بذلك ، ولكن البراجوازية الألمانية لم تقع فى الخطأ نفسه مرتين أبداً أنا واثق من أن الحزب الديمقراطى الاجتماعى سيفوز ثانية.

" ليس لبعض الوقت أنهم فى حاجة إلى زرع مخ لإيقاف الانهيار ولكن كفى سياسة ميته وسياسيين أحياء أموات أريد أن أعرف .. من أين يأتيك المال يا "ساو " أريد الحقيقة ".

ابتسم "ساو " هل يعنى ذلك أنك قد نسيت ؟ لقد أخبرتك بكل شئ .. عنى وعن عائلتى وعن ثروتى ... كل شئ هل تذكر الأسبوع الذى قضيناه معاً ؟

قبل إعادة الوحدة نسيت كنت ثملا بالحرية والديمقراطية وعلى العكس من ذلك كانت حياتى تبدو تافهة لا يهم أن كنت على حق هى فعلاً تافهة لن أستمر طويلاً قليل من الكونياك .. تفضل .. هناك أشياء كثيرة لابد أن أخبرك بها .

كان "ڤلادى " ناقماً نظراً فى ساعته سبع وثلاثون دقيقة بعد منتصف الليل .

"يمكن أن تجرى مكالماتك التليفونية القذرة فيما بعد" .

أريد أنا أولاً أن أعرف الحقيقة وبالمناسبة .. لم أنس شيئاً كأن سيرة حياتك فقط قد حدث فيها فصل جديد ، هل أنا محق أم مخطئ؟

تراجع "ساو " فى مقعده وهو يتنهد " حسن " ،

قال الڤيتنامى وهو يملأ كأسه .

"مازلت فى إنتظار إجابة يا "ساو" من أين يأتى كل ذلك الآن ؟

مخدرات أم سلاح ؟"

نظر كلاهما إلى الأخر ولمح "ڤلادى " نظرة اضطراب تعبر عينى صديقه ، ثم كان صمت ثقيل وبعد دهر .. بدأ "ساو " يتكلم " .

" أنا لا يمكن أن أتورط فى تجارة المخدرات يا "ڤلادى " أبدا رغم أنه من الثابت أن شركائى السابقين كانوا يقضون أجازات طويلة فى "باكستان " وكولولمبيا " .. ولكن ليس أنا .. ليس أنا "

"تجارة سلاح " وانفجر "ساو " فى الضحك " هذه موضة قديمة يا ڤلادى " تهريب دبابات ، تهريب صواريخ ، تهريب طائرات مقاتلة ، نعم أما تهريب مدافع فلا ! أنا أبيع أو أشترى الصينيون يريدون صواريخ ، فأطير إلى "آلما - أتا - وأعقد صفقات مع الكازاخستانيين ، صفقات الصرب يريدون دبابات ، العراق يريد قطع غيار لطائرات "الميج" أؤمن لهم الحصول عليها ، عرض وطلب يا "ڤلادى " .

قوانين السوق الرأسمالية التى كنت تكرهها من كل قلبك غزت العالم .

"عالمك أنت ربما ، ولكن هناك عالم آخر " يا ساو " كان "ڤلادى " يحاول كل جهده أن يكبح اللهجة الموجعة فى صوته ربما كان غارقاً لفترة ولكنه سوف ينهض مرة أخرى .

"أنا فى دهشة لأنك ، دون الجميع ، يمكن أن تنسى بعد كل التضحيات التى بذلها الناس العاديون ".

"عندما تجرى الرمال ضد الناس لا بد أن يبتعد الناس "حكمة صينية قديمة يا"ڤلادى" تضحيات "؟نحن الڤيتناميين نعرف عن ذلك أكثر مما يعرف غيرنا عندما كنت فى السادسة عشرة التحقت بلواء الشباب

الشيوعي في "هانوي " وبعد عام كنت أحارب في الجنوب ، رأيت كل رفاقي المقربين يموتون ، أنا نفسي أشرفت على الموت ، ونجوت مصادفة لأن أسرة من الفلاحين كانت تبحث عن أى شئ وسط القمامة ، فوجدوا أنني كنت ما أزال حياً أتنفس حملوني وأبلغوا أقرب وحدة من وحدات جبهة التحرير الشعبية ، نقلوني إلى مستشفى في كمبوديا " ولكنني عدت لكي أشهد سقوط "سايجون " كنا نستحق ذلك الانتصار ، اليس كذلك ؟ تضحيات ؟ "أتساءل أحياناً إن كان ذلك يساوى ما بذل فيه لقد فقدنا مليونين من البشر يا ڤلادى .. ومن أجل ماذا ؟ لكى نبنى مستقبلاً أفضل ؟ حتى الأطفال لا يصدقون ذلك الآن وقليل من المعلمين يعتقد أنه جدير بالتكرار أتذكر وأنا في الثانية عشرة ، كانت الطائرات الأمريكية ، تدك مدننا وقرانا بالقنابل ليل نهار ، كنا نشعر بالزهو عندما كان معلمونا يقومون بتصحيح واجباتنا المدرسية في هياكل طائرات أمريكية محطمة كنا فخورين يا "ڤلادى " .. جداً .. لماذا كنا فخورين وربما سعداء رغم كل ذلك الموت والدمار ؟ كنا نؤمن بشئ ما ، لم يكن اعتقاداً بأن الأمر سوف ينتهى بنا عمالا أجراء في أوروبا الشرقية السابقة ، ناهيك عن السوق العالمية الجديدة ، أقصد أننا لو كنا نعلم أن الأمر سوف ينتهى هكذا ، لكنا قد عقدنا صفقة مع "واشنطن " قبل ١٩٧٥ بفترة طويلة .

جميع المضاربين والطفلتين الذين فروا مع الأمريكان يعودون الآن بالتدريج نفس المستغلين الذين حاربناهم لمدة ثلاثين عاماً لذلك أسألك : هل كان الأمر يستحق ؟ "

كان ڤلادى يدرك أنه لا طائل من أى دفاع بلاغي ، لذا قرر أن يعاود الهجوم .. "وماذا عن تهريب البلوتونيوم يا "ساو "؟ من المؤكد أنه ليس لديك أى موانع أخلاقية ، أقصد .. إذا كانت المسألة كلها هي قوانين السوق فلماذا لا تعرض البلوتونيوم إذا اتضح أن هناك طلباً شديداً

عليه؟ أعط قنبلة لكل شخص ".

"أنت غاضب يا صديقي أرجوك لا تسئ فهمي يا "ڤلادى " أنا لست بدعاً فى ذلك ولست مسخاً ، أنا أعمل لكى أعيش ، وأعيش بشكل جيد هذا كل ما فى الأمر هل كان يرضيك أن أذهب إلى "هانوى " أو "هيو " وأفتح دكاناً صغيراً للكتب أو أن أصبح موظفاً فى الحزب أو قواداً أو بائعاً جوالا؟

"لا تقل لى إنه ليس هناك مساحة للحياة دون أن تلوث يديك وأن تسفح دمك ! ثم لا يا صديقى .. أنا لا أتاجر فى البلوتونيوم ولا الأسلحة الكيماوية عملى فى السلاح بالتأكيد لا علاقة له بالذرة ولا بالكيماويات " حدق فيه "ڤلادى" ببرود "

"نعم " أجاب ڤلادى كان يشعر بشدة أن "ساو" يقول الحقيقة "ولكن لماذا أنت هنا الآن ؟"

"الجيش الأحمر القديم مازال هنا أليس كذلك؟ الجنرالات يريدون أن يبيعوا وأنا أريد أن أشترى هناك طلبية كبيرة من العراق والدفع بالدولار .

أحد الجنرالات الروس على الأقل سيبقى هنا فى "برلين " أعدك بذلك وإلى هذا الحد" .

ثم توقف "ساو " فجأة عن الكلام ، صديقه جنح بعيداً كان "ڤلادى " يتساءل أن كان كل ما حدث فى هذا القرن يستحق كل ذلك العناء الثورة الروسية والمقاومة الڤيتنامية البطولية ... انتهت أخيراً منبطحة أمام بورصة المال فى نيويورك كان يعد الأرواح التى أزهقت فى روسيا عندما قطع عليه صوت "ساو " حبل أفكاره "الآن وقد قلت لك كل شئ يا "ڤلادى" ، لماذا لا تتركنى اشترى لك دار نشر ؟ لا توافق ؟ الكتب الآن

سلعة مثل السمك المعلب هل تريد أن تذهب لتعيش فى الولايات المتحدة مثل صديقتك "كريستا وولف "؟ يمكن ترتيب كل شئ لى أصدقاء فى جامعة كاليفورنيا ... لا " "كريستا "طورت أيها الوغد كانت ممتازة بالنسبة لهم عندما كانت ألمانيا الديمقراطية على قيد الحياة كانوا فى حاجة إليها حينذاك وكانت وحشاً نبيلاً ، والآن لابد من تحطيمها ، لكى يقنعوا أنفسهم بأن كل شئ فى ألمانيا الديمقراطية كان ملوثاً! كل شئ ! وهذا بواسطة رجال استأجروا نازيين سابقين بالآلاف لكى يديروا دولتهم الجديدة بعد الحرب أبطال الحزب النازى ، مازال يحتفى بهم فى "لوفت واف "*كل ما يفعلونه هنا يزكم الأنوف بالأزدواجية والنفاق .

ماذا تنوى أن تفعل بحياتك يا ڤلادى ؟

"لا أعرف يمكن للمرء أن يواصل العيش فى الحاضر إلى أن يسقط ميتاً ، معظم الناس يفعل ذلك هذه الأيام بالنسبة لى .. هو شئ يشبه الحياة فى غابة ، "جيرهارد " الذى كنت تعرفه قرر أنه لن يستطيع أن يواصل العيش فى هذه الظروف ، وأنت قد تغيرت كثيراً يا "ساو "

" لم يكن ينقصك أصدقاء أبداً يا "ڤلادى "

"ولكن الصداقة كان لها معنى فى تلك الأيام ، الآن يلتقى المرء بأناس ثم يلقى بهم .. كما تسقط أشجار الخريف أوراقها .

ابتسم "ساو " كان معجباً بـ "ڤلادى ، بدرجة ما ، لأنه كان يدرك عبث وضعه السياسى عبثى لكنه عجيب !

منذ أن طرد "ڤلادى " من عمله الأكاديمى ، تحول حلمه بألمانيا شرقية ليست غربية ولا سوفيتية ، إلى كابوس. كان الأمر يبدو بالسنبة لـ "ساو" وكأن صديقه يواصل معركته الجدلية التى وضع لها التاريخ نهاية مؤخراً .

*سلاح الطيران Luftwaffe(المترجم) .

لم يستطع أن يقول "لـ ڤلادى " إنه – ساو – كان يريد أكثر من أى شئ آخر أن يحطم تلك المرآة التى ظل يحدق فيها .. لا لشئ سوى أن يحدق لمدى أبعد فى المرآة الموضوعة خلفه ! كان يريد أن يجعل "فلادى" يفعل ذلك بنفسه .

"دعنى أساعد يا ڤلادى " أرجوك .

مر صمت طويل أن يتكلم ڤلادى " مرة أخرى بعد تفكير عميق ، ولكن نبرته الآن كانت أقل حدة .

" هناك شئ واحد يمكن أن تفعله من أجلى يا "ساو ""ما هو ؟ "

"أبى أريد أن أعرف كيف مات ومن الذى قتله عن طريق علاقاتك بـ "موسكو "هل يمكنك أن تحصل على ملفه من أرشيف ال "ك . ب . ج"

ابتسم "ساو " سعيداً .

" بكل تأكيد : المارك الألمانى يمكن أن يشترى كل شئ مدن بكاملها .. تباع وتشترى أحياناً وكل ما تريده أنت ليس سوى بضعة أوراق لا مشكلة بالمرة شراء التاريخ أسهل من شراء العقارات والارشيفات والسجلات لا تهم المافيا فى شئ سوف أحضر لك ما تريد مهما كان ذلك الذى تريد ! فقط اعطنى البيانات هل لديك صورة له ؟

هز "ڤلادى " رأسه .

" حسن قال " ساو" احضرها غداً

وقال ڤلادى " وهو يتنهد إذا كان الأمر بهذه السهولة هل يمكنك أن تحضر ملف أمى كذلك ؟ ربما أمكننا أن نعرف القصة كلها ! .

ضحك "ساو " هى صفقة إذن ، ولو طرأ على ذهنك أى شخص أخر دعنى أعرف ، وأرجوك يا "ڤلادى " دعنى أساعدك بوسائل أخرى "

وقف "ڤلادى" ، وانحنى هازئاً أمام "ساو" "إلى اللقاء غداً نهض"ساو" وعانق صديقه ، كان ڤلادى يخلص نفسه من بين ذراعيه بهدوء عندما همس "ساو" في إذنه " لقد أنقذت حياتى ذات يوم .. أعطنى الفرصة لكى أنقذ حياتك "

ابتسمت عينا "ڤلادى" وأومأ برأسه قليلاً كانت علاقة عرفان وامتنان ثم غادر غرفة "ساو" وأمام فندق "كيمبينسكى" فاجأ نفسه واستقل سيارة أجره إلى المنزل كانت الساعة الثانية والنصف صباحاً دخل شقته خلع "ڤلادى" ملابسه ولكن صداعاً شديداً كان يطحن رأسه ، وجافاه النوم .. النوم الذى لا يرحم .

راح يفكر فى أصدقائه السابقين فى الاتحاد السوڤيتى السابق وتشيكوسلوڤاكيا السابقة ، لم يسمع عنهم منذ وقت طويل كم منهم سقط ؟ أغنياء جدد أحرار من جديد .

هل يستطيع أى من أصدقائه القدامى أن يكون فى طليعة نهاية القرن .. تلك النهاية البغيضة الفوضوية ؟ أم تراهم مثله يبحثون عن ملجأ من ذلك المشهد كله ، ويعيش كل منهم فى منفاة الداخلى؟ كان أهم شئ هو البقاء على قيد الحياة .

أن تغطى رأسك ببطانية وتنتظرحتى يتوقف مطر التلوث ! راح الآن يعيد التفكير فى رجائه لـ « ساو » ..

هل كان بالفعل يريد أن يعرف أكثر ؟ ربما كان من الأفضل أن يظل الماضى بعيدا .. مجهولا .. مطوياً ! وما الفرق إذا كان الرجل الذى تعتبره والده قد أصبح شخصا مختلفا بالمرة ؟ إنه لن يغير شيئا . نعم .. قد يغير ! قد يضع نهاية لذلك العذاب .. عذاب الذكريات المؤلم . هذا القرن ملعون ، ولكنه مازال يريد أن يعف . ومهما حاول فإنه لن يستطيع أن يمح الماضى بسهولة .. أو أن يفصل نفسه تماما عن الحاضر . وأخيرا استهلكت التناقصات نفسها فى رأسه ... ونام .

- ٦ -

نحن فى عام ١٩١٣ ، ڤيينا عاصمة امبراطورية على وشك الانطفاء ، ولكنها تبدو كما هى ، كأن لم يصبها أى تغيير . أهلها لا يظهر عليهم أى أثر للذعر ، الاحتفالات بالعام الجديد تسير كالعادة على قدم وساق . ڤالسات شتراوس منتشرة بين الأوساط البرجوازية والعامة على السواء . موسيقى « شوينبرج » الجديدة لا يستمع إليها إلا قلة ..... ولا يستسيغها سوى طليعة بعيدة تماما عن واقع الحياة اليومية ... أو هكذا كانت تبدو الأمور . الصراع القادم بين القوى الكبرى سوف يغير ذلك كله . ولكن فى ڤيينا بداية القرن فإن عقول الكثيرين لا تفكر فى وقوع حرب مدمرة ... ولا تتصورها . الجامعات ما زالت تقبل الطلاب القادمين من أقاصى الأمبراطورية . وهكذا التقى « لودڤيك » بـ « ليزا » . كلاهما لم يكن قد احتفل بعيد ميلاده التاسع عشر بعد . كانت جالسة فى مقهى مع بعض الأصدقاء عندما رأى ابتسامة تشكل ملامح وجهها ، ثم سمع دوى ضحكة عالية . وجه قوى حسن الطلعة ، جبهة عريضة ، وجنتان بارزتان ، عينان زرقاوان ... نفاذتان ، شعر بنى غزير غامق اللون ملموم فى ضفيرة واحدة فخمة ! كانت ترتدى فستانا أسود وتضع وشاما من الحرير و« بروش » من الفضة .

أما هو ، فكان يبحث عن شخص آخر ، ولكنه لم يستطع أن يسترد عينيه من عليها ... إلى أن لمحت نظرته .. فعبست . لا يبدو جذاباً من النظرة الأولى ...... له عينان وديعتان ولكنه قصير القامة وبدين إلى حد ما .

نموذج الكمال عندها كان يفضل الشخص الناحل .. المنحوت . أما شعره الأسود القصير فكان قد بدأ يتساقط وكانت تعتقد أنه سوف يصاب بالصلع خلال سنوات قليلة ... وتشاغلت عنه . أما هو فكان مثابرا . كان صوته هو الذى جذبها .. وعندما تكلم شعرت بقوة شخصيته ، إلا أنها كانت ماتزال تقاوم . هو أيضا لن يقبل الهزيمة . بدآ توددا مرهقا كان يبدو أنه سوف يستمر إلى الآبد ... وكل أسبوع كان يتركهما مرهقين تماما .... مجردين من الطاقة والمشاعر . أصبح لكل شوارع « ڤيينا » معنى بالنسبة لهما . كان يسيران معا بالساعات صامتين من فرط العاطفة ، ينتظر كلاهما أن يكسر الآخر الصمت إلى أن يحين وقت الفراق ..... ولم ينطق أحدهما بكلمة .

كان بعد ذلك يستعيد فى ذهنه زكريات ذلك اليوم الضائع فتعود الشوارع للحياة مرة أخرى . هنا ضحكت ... هنا تشابكت أيدينا ، ويمجرد أن وصلا إلى مقهى « السنترال » دب بينهما شجار جديد . تستبد به المشاعر فلا يستطيع أن يأكل شيئاً ، أما هى فقد طلبت لنفسها بعض الفطائر مع القهوة .

باح لها بحبه فى الأسبوع الأول بعد لقائهما . قاومت . كانت أحساسيها الداخلية تحذرها وتنذرها أن ذلك الحب سيكون طاغيا وخطراً . قالت إنها لم ولن تحبه . شحب وجهه ، ولكنه لم يقل شيئاً . نهض وانصرف وهكذا كل ما حدث . اختفت لمدة أسبوعين وكانت تتجنب جميع المقاهى التى قد يلقى فيها أحدهما الآخر وأمضت أياما تعسة مع صديق قديم . لم تدرك أنها كانت تفتقد « لودفيك » إلا عندما حاول صديقها القديم إغواءها . كانت تفكر فيه طول الوقت .

لافائدة من التمادى فى المقاومة . تركت صديقها وذهبت لتبحث عن « لودفيك » .

مارسا الجنس فى غرفتها بعد ظهيرة أحد الأيام .. دخل المساء وحل الليل ... بدأ وهو مستلق بين ذراعيها يتكلم ليقول شيئاً ولكنها وضعت يدها على فمه .

« شـ .. شـ .. شـ .. لا كلام هذه الليلة عن الآلم ! »

« لماذا ؟ »

« أعتقد أن الأيام المشحونة بالأحزان قد انتهت بالنسبة لكلينا . »

كان « لودفيك » قد شبع ، ولكن نزعة الحزن تفجرت بداخله .

« ومن يدرى ماذا يجئ به الغد ؟ »

« هذه الليلة هى كل ما يهمنا يا « لودفيك « . دعنا نتخيل أننا آلهة فى السماء ! » .

محيا كل الذكريات المؤسية ، أزالا الخط الفاصل بين الأمس واليوم . لا دموع ولا حسرات على الماضى . أدهشه مزاجها الرومانسى وانتقل إليه فى الوقت نفسه . أخذ يضحك مستمتعا بكل شئ . سحبته « ليزا » من خلف النافذة عندما كان يهدد بأن يعلن للعالم كله عن سعادته . قبلها فى عينيها ... وهى كانت تشجعه وتسرى عنه .

« لماذا الانشغال بما يمكن أن يحمله القدر أو لا يحمله ؟ هل تجد متعة فى ذلك ؟ » .

كلاهما كان يشعر بالارتياح . كلاهما ثمل بالأخر . كلاهما كان لايزال فى ريعان الشباب .

شئ ما تغير . ولكن فى الوقت نفسه ، عندما كان يعتقد أن علاقتهما قد وصلت إلى مرحلة جديدة ... أبعد ، وضعت هى حواجز عاطفية بينهما وانطوت على نفسها . لم تكن تريد أن تكون مدينة بالفضل له أو لغيره . مازال الوقت طويلاً .... وكانت تحتاج لوقت لكى تفكر .. اقترحت أن يفترقا عدة شهور ليختبر إمكانية أن يعيش كلاهما دون الأخر .

« أخشى أن أقع فى حبك يا « لودفيك » . لا أعرف لماذا . أصبر أرجوك ... ! » .

فى البداية انفجر غضبه . أطلق اللعنات .. سبها بعبارات « باليدش » * لم تفهمها . ثم بالهولندية والألمانية وفهمتها ... ثم عاد الهدوء . قرار الابتعاد . بذل « لودفيك » جهدا فوق مستوى البشر وأبعد نفسه عنها .

وذات ليلة ، بعد أن كان الآخرون قد غادروا الاجتماع فى غرفة « كريستينا » صارحها « لودفيك » ....

« لقد أقمت سورا من الحجر حول قلبى ، ولابد أن أقوى دفاعاتى قبل أن تطلق نيران مدفعيتها . إنها لا تريد أن تستولى على قلبى . أتفهمين ؟ كل ما تريده هو أن تحطم السور » .

* لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر بها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود فى دول الاتحاد السوفيتى السابق وأوربا الوسطى وتكتب بأحرف عبرية .

وكانت « كريستينا » تفهم جيدا . نصحته بالراحة التامة . بتغيير الهواء وبالمزيد من العمل السياسى المركز . كانت « كريستينا » مؤمنة جدا بنظرية أن الحماس الثورى يتغلب دائماً ويطغى على ما عداه . وهكذا انتقل « لودفيك » إلى « وارسو » .

وهنا سوف يقوم طباع يهودى عجوز بتعليمه فن تزوير الوثائق وجوازات السفر ... ولكن ليس أوراق البنكنوت . فذلك - كما قال له معلمه - كان يتطلب مهارة خاصة ، ومن أسف أن « لودفيك » لم يكن يمتلكها ! بكل أسف ! بعد شهر من التدريب المكثف عاد « لودفيك » إلى « فيينا » عاد بتعليمات ... ومجموعة من الجوازات المزيفة ، كانت « كريستينا » قد طلبتها من « ديرجينسكى » .

كان يريها الجوازات التى صنعها بنفسه مزهوا . هنأته كريستينا ، ولكنها قررت أن تجعله يظل مشغولا فكلفته بمجموعة من المهام العاجلة ، أما « لودفيك » فقد انخرط فى العمل السياسى السرى ممتنا لها ، شاكراً للجميل !

وذات يوم سألته : « هل يحقق العلاج نتائج يا « لودو » ؟» وكان يهز رأسة فى صمت .

اكتشفت « ليزا » بعد أسابيع قليلة أنها كانت تريده أكثر من أى شئ آخر . بدأت تحن إليه . كأن ضوءا قد اختفى من حياتها . كانت تضحك لنكاته القديمة . وتستعيد مناقشاتهما . وتعيد قراءة رسائله وتكتب له رسائل جديدة كل يوم . ولارد شئ ما جعلها تشعر ذات صباح أحد

أيام الجمعة أنه كان قد رجع إلى « ڤيينا » بدأت تذهب إلى مقهى « السنترال » يوميا . كانت تعرف مواعيد ذهابه إلى هناك وتثق أنها سوف تعد له كمينا ، ولكنها لم تكن تعرف أن « اللامات » الأربع كانوا قد توقفوا عن المجئ إلى المقهى نهاراً .

وذات يوم كانت تجلس فى ساعة متأخرة بعد الظهر فى حالة قنوط . جلست أطول مما اعتادت ، محاولة أن تغرق أحزانها فى فناجين القهوة السوداء . ربما مايزال فى « بولندا » وربما كان خيالها يفوق الواقع . كانت السنترال مبنية على طراز الكاتدرائيات . أعمدة فى كل الأرجاء . وكانت « ليزا » معتادة على الجلوس على طاولة فى أحد الأركان بالقرب من المدخل الأمامي والذى كان مسيجا عن بقية المقهى بعمودين . من هذه البقعة الممتازة كان يمكنها أن ترى الطاولة التى كانت تحتلها « كريستينا » عادة واللامات الخمس . كانت تراها بوضوح . الذى يرى أو يلاحظ « ليزا » من على البعد ، إنما يرى سيدة جميلة .. متوترة .. تدون أشياء على عجل ويتصورها كاتبة . والحقيقة أنها كانت تشخبط بالقلم بطريقة نصف واعية : كان قلمها الحبر يتحرك فى دوائر معبرا عن الاكتئاب الذى يحتل عقلها .

وعندما أفاقت من شرودها نظرت فى ساعتها وكتمت لعنة كادت أن تفلت منها . التاسعة إلا خمس دقائق . ظلام فى الخارج . وبينما هى على وشك أن تغادر المكان ، دخل معتمدا على ذراع «كريستينا» ومعهم « اللامات » الأربع ، وكانوا كلهم يضحكون . شحب لون « ليزا » ، وانهمرت دموعها على وجهها . غضب وإحباط وغيرة . ممزوجه كلها

بشعور بالارتياح . كانوا مشغولين ببعضهم . لذا لم يرها أحد منهم . جلسوا إلى طاولتهم المعتادة .

كانت تحملق في ظهر « لودڤيك » بينما ترى جانبا من وجهه في مرآة الحائط . لماذا يبدو حزينا ؟ ماذا قالت « كريستينا » الآن جعلهم يضحكون جميعا ؟ كان الغضب قد بدأ يزيح الحب مرة أخرى ، وفكرت « ليزا » أن تنصرف دون أن تجذب انتباهه عندما التفت - فجأة - ونظر إليها مباشرة . وللحظة كان كلاهما يحدق في الآخر غير مصدق . ثم وقف كما لو كان في غشية ... أسرع نحو طاولتها وجلس في مواجهتها . وجهان متوتران بالمشاعر. لا يستطيع أحدهما أن يتكلم .

تملكت الحمى الإثنين . خرجا معا ، و« كريستينا » و« اللامات » الأربع يراقبونهما . ذهبا إلى غرفتها . بدأ الثقل ينزاح عنهما . هبت عاطفتها مثل عاصفة استوائية فأزالت هواء الاتهامات المتبادلة وراحا يضحكان لغبائهما : وعندما كان أيهما يحاول أن يبدأ الكلام في شبه اعتذار ، أو تفسير أو تبرير للمد والجزر في عواطفهما .. كان الآخر يقاطعه قبل أن يشرع في ذلك . تفعل ذلك « ليزا » بأن تقبله . حركات شفتيها ولسانها تجعل الكلام أكثر من ذلك لا لزوم له . وقرر « لودڤيك» أن يقلدها . كان قد استيقظ في الصباح وهو يشعر بالوهن أكثر من العادة . مسد شعرها ثم قبلها ، مسده وقضم حلمتيها برفق « أحبك يا ليزا » .

نظرت إليه وهي تبتسم ذاهله . غاص قلبه في قدميه .. هل هما مقدمان على . دورة جديدة من الصراع العاطفي ؟

« أنا قلق بعض الشئ بسبب مقالى كما تعلمين . كان لابد أن يعيده إلى البروفيسور « لويو » . عن الجهاز العصبى و – » ثم صرخ : « ليزا ! جهازى العصبى لا يمكنه أن يتحمل المزيد من تمنعك ! » .

جعلهما ذلك يضحكان .. ثم مارسا الجنس مرة أخرى . أنسابت الذكريات الحلوة هادئة مثل « الدانوب » !

« اللاندتمان ... هل تذكر يا « لودو » ؟ »

ابتسم وهى ابتسمت . كان أول لقاء بينهما قد تم فى عام ١٩١٣ ، لم يكن « الأرشيدوق » قد زار « سارايڤو » بعد ، وعلى السطح كانت « ڤيينا » تبدو صلبة كسابق عهدها . تحت السطح .. كانت الصدوع والتشققات قد بدأت تظهر .

« ليزا » تجلس مع عاشق . زميل فى دراسة الطب ، فى مقهى « لاندتمان » . فنجانا القهوة ممتلئان حتى المنتصف وأكواب الماء موضوعة على الطاولة لم تمتد إليه يد . شاب متجهم يرتدى چاكت ممزقا وقميصا مربعات وبنطلوناً قصيرا عليه وجوربا أسود اللون .. دخل ممسكا بنسخة من جريدة « أربيتر زيتونج » . يبدو من مظهره أنه طالب ولكن لم يسبق لهما أن شاهداه فى « لاندتمان » . ينظر إليها محدقا وهو يبتسم . . « ليزا » مدهوشة ، كيف يمكن لابتسامة أن تعيد تشكيل وجه على هذا النحو ؟ تعيد تشكيله تماما !

صديقها العاشق يهمس فى أذنها : « يحاول أن يعلقك ! كيف تتوقعين أن تكون محاولته وكيف سيبدأ حديثه معك ؟ »

وقبل أن ترد عليه « ليزا » ، كان « لودفيك » قد وصل إلى طاولتهما . كلمها بالألمانية ولكن بلكنه بولندية حادة .

« أسمحى لى يا « فراولين » * .. فى طقس كهذا .. حتى النسور ذات الرأسين يمكن أن تنوب ! » .

لا شك أنها افتتاحية مبتكرة ! « ليزا » تنفجر فى الضحك وتجد صعوبة فى أن تتوقف . ابتسامة « لودفيك » تختفى . « ليزا » الآن فاقدة السيطرة . وفجأة يقتحم لقاءهما الأول صوت من طاولة مجاورة .

استدار « لودفيك » كأنما أصابته رصاصة . أمرأة فى أواخر العقد الخامس ترتدى بلوزة سوداء من القطن وتنورة طويلة وشالا من الحرير الأحمر يغطى كتفيها وقبعة من القش ، وكانت تدقق النظر فى « لودفيك » جيدا . عيناها تحفران فيه ثقوبا . يحمر وجهه . (فعلا أحمر وجهه) ، يعتذل « ليزا » وصديقها بسرعة ويصحب السيدة ويخرجان من المقهى .

الآن يضحكان على حدث وقع من فترة قصيرة ولكنه يبدو وكأنه قديم . « لوكان الأمر هكذا دائما ... فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ » .

ردت عليه برِقةً : « والثورة ! نسيتها ؟ أتمنى ألا تكون متقلبا هكذا معى ! »

وفى الخارج كان الظلام قد بدأ يخيم . أمضيا النهار كله فى الفراش . جعلهما الإدارك يشعران بالتحلل .. وبالسعادة !

* آنسة Frâulein .

- ٧ -

كنت فى الرابعة من عمرى عندما غزا « هتلر » الاتحاد السوفيتى . أنا وجدتك « جيرترود » كنا فى « موسكو » فى ذلك الوقت ، وكانت هى التى طلبت أن تبقى فى العاصمة السوفيتية لكى تساعد بالعمل فى القسم الألمانى بالإذاعة . كثير من الأصدقاء رجوها أن تتركهم يأخذونى معهم خارج المدينة ، وكانت على وشك الاستسلام لرجاءاتهم ولكننى رفضت بشدة . تملكنى الغضب فكسرت الأكواب وهددت بالقفز من النافذة وهكذا ... مارست كل تلك التصرفات المرعبة وأفلحت خطتى ، فخافوا وتركونى معها فى « موسكو » .

هل تعلم يا « كارل » أن معظم الذين عرفناهم فى « موسكو » لم يكونوا خائفين بالمرة ؟ « هتلر » وَحَّدَنا ، ونسينا رعب حملات التطهير ، وعمليات القتل الجماعى . ورغم صغر سنى آنذاك ، إلا أنى أذكر نظرات الرعب على وجوه الناس . قد لاتكون كلها ذكريات ، فربما كانت ذكرياتى قد اختلطت بما روته لى جيرترود فيما بعد ، أى بعد هزيمة النازية . أثناء سنوات الحرب كانت هناك أشياء فى « موسكو » لا تخلو من المرح ، وقد يبدو ذلك غريبا فى نظرك . كان الأمر يبدو لنا وكأننا من خلال تلك الكارثة الأكبر يمكن أن نتجاوز العذاب الذى يفرضه علينا حكامنا .

كـان الألمان على أبواب المدينة ، وكـان على « سـتـالين » أن يسلح الناس . كـان لى أصـدقـاء فى العـاشـرة أو أكـبـر قليـلاً ، وزعت عليـهم الأسلحة وألحقوا بقوات الدفاع الشعبى . تمنيت أن أذهب معهم ، ولكن أمى لم تكن تريدنى أن أبتعد عن عينيها .

كانت تأخذنى معها إلى محطة الإذاعة وأجلس رغما عنى بالساعات استمع إلى الأحـاديث الطويلة المملة « إلى الشـعب الألمانى ... إلى كل الوطنيين الألمان » .

نعم ! وطنيـون ! إذاعـات سـتـالين ذاتـهـا كـانت الآن « وطنيـة » فى لهجتها ، ولكن الأغبياء لم يفهموا أن معظم « الوطنيين » الألمان كانوا - سـواء بـإرادتـهـم أو بـدونـهـا - يؤيدون النـازى ، ويـتـمنـون انتصـاره فى « موسكو » . القيادة الألمانية العليا كانت تعتقد أن « هتلر » لابد أن ينجح فيـما فشل فيه « نابليون » ! ستالين « أيضا كانت تنتابه هواجس « نابليون » .

انتـصار القيـصر على الجنرال الفرنسى ، الذى كان يريد أن ينشر التنوير عن طريق القـتـال ، كـان ينظر إليـه كـسـابقـة بطوليـة ووطنيـة . جنرالات الجـيـش الأحـمـر الذين لم يكونوا قـد أعـدمـوا بـعـد ، أُطلق سراحهم وأرسلوا إلى الجبهة .

وعندما كـانت « جيرترود » تعود إلى المنزل ليلاً ، كانت تحدثنى عن طفـولتـهـا وعن سبب هـروبـهـا مـن ألمانـيـا ، فـى المرات العـادية كنت أنام منهـا ، ولكن إثارة الحرب والجـو المشـحـون ، والبطولات الحـقيـقـية للناس العاديين الذين كـانوا يعيشـون معنا فى المبنى نفسـه ... كل ذلك كـان يجعلنى مستيقظاً .. أريد أن أسمع بعد سنوات ، وكنت قد نسيت

طـرفــا مـن حـكايتـهـا ، كنـت أسـألهـا كـثـيـرا ، حـتـى غدا ذلك جـزءا من ذاكرتى .

أعتقد أنها إعتادت أن تتكلم معك أيضا فى السرير ، ولابد أنك كنت فى السابعة أو الثامنة تقريبا فى ذلك الوقت ولكنها كانت تضحك وهـى تقـول : « كـارل » ابنك سيـصـبح برجـوازيـاً ، يغلبـه النعـاس دائمـاً فى التوقيت الخطأ .

كانت بالطبع تعرف كل شئ عن معنى أن تكون برجوازيا .

روائـح الصـيف كـانــت هــى الــتى تجـعلهــا تتـكلم عن طفولتها وعن « ميونخ » ، تلك المدينة التى كانت تحبها . تحكى عن الحديقة الكبيرة فى بيت العائلة القديم فى « شوابن » ، وعن فرحـها عندما ترى بشائر التوت البرى ، وعن رائحة أوراق الصنوبر المنعشة .

قبل ليال قليلة من رحيلها هى وحبيبها « ديڤيد » إلى « برلين » كانا قد ذهبا لمشاهدة مسرحية « أرنست توللر » الثورية « ماس منش » * التى كانت بمثابة دعوة للسلاح .

« جيرتى » ... على نحو خاص ، فتنتها القصة أكثر من العرض ... كأنها نومتها مغناطيسياً !

أنـا قرأت المسرحية يا « كارل » وهى مروعة فعلا ! قرأتها كمواطن فـى جمـهـورية ألمـانيـا الديمقراطية وشعرت بالنفور الشديد .. أما جدتك .. فلا !

* الإنسان الجماهيرى Masse Mensch .

حتى النهاية ، كانت تتذكر الإرادة الثورية الحديدية المجسدة فى كلمات « الكورس » ، والتى كانت قد تملكت قلبها وعقلها هى و« ديفيد » فى نفس الوقت :

منذ الأزل ونحن سجناء ،

في هاوية المدن الشاهقة .

نحن الموضوعين على مذبح الأنظمة الميكانيكية ،

الساخرة ،

نحن ، ذوى الوجوه الغارقة فى ليل الدموع

الذين منذ الأزل بلا أمهات

من هاوية المصانع نصرخ

متى سنعمل فى حب ؟

متى سنعمل بإرادتنا ؟

متى الخلاص ؟

مسرحية « توللر » قوت عزيمة « جيرترود » . لن تصبح أبدا مثل تلك المرأة فى مسرحية « توللر » . . لن تحجم أبدا عن العنف . لن تسمح أبداً للعواطف الإنسانية أن تكون صاحبة اليد العليا .

كان ذلك فى « برلين » عندما التقت والدى للمرة الأولى . روت لى القصة مرارا دون أن تضيع منها التفاصيل . ودائما بالضبط ! صوتها يرتفع قليلاً أو يتكلف قليلاً عندما تروى الأحداث .

كنت أتساءل أحيانا بيني وبين نفسي ، ماذا وراء ذلك الألم المبرح ؟!

« جيرترود » التقت « لودڤيك » لأول مرة في « بار فورستنهوف» . في «بوتسدامر بلاتس » . ليلة باردة من ليالي نوفمبر في «برلين» : ٧ نوفمبر إن شئنا الدقة . ولسبب ما ، كانت تلك العبارة الأخيرة تزعجني دائما . « ٧ نوفمبر إن شئنا الدقة » . أقصد أنها لا يمكن أن تكون ٧ نوفمبر ، إن كنا لا نريد أن نتوخى الدقة ... هل يمكن ؟ كلنا يعرف أنها ذكرى الثورة الروسية . ربما كانت هي المسحة الدينية التي كانت تزعجني ! كانت « جيرترود » متوترة ومستثارة . كان « لودڤيك » مبعوثا من قبل الدولية الشيوعية ، والشعبة الرابعة في الجيش الأحمر . المخابرات العسكرية . أما هي فكانت واحدة من ستة اختارتهم قيادة الحزب الشيوعي الألماني في « برلين » للعمل السري . الستة جميعاً تخلوا عن كل شئ آخر . هوياتهم الشخصية ، جنسياتهم ، عضويتهم الرسمية في الحزب أوقفت ، كانوا يعتبرون أنفسهم عيون وآذان الثورة العالمية التي تعمل خلف خطوط الأعداء . سمح لها « لودڤيك » بالاحتفاظ باسمها الأول فقط ، لأنه لم يسبق له أن كان قد التقى في حياته شيوعيا باسم « جيرترود » . هكذا كان . ابن نكتة ، مراوغاً ، ووفيا لأصدقائه حتى عندما كان يتعارض الوفاء مع خط الحزب . قال « لودڤيك » وهو ينحني تحية لعاملة البار بشكل مبالغ فيه : كأسان من نبيذكم الفاخر ، لو تكرمت يا « فراولين » . اليوم هو السابع من نوفمبر ، عيد الميلاد السادس لطفلنا ، وأرجوك .... انضمي إلينا

وشـاركيـنا ! »« شكـراً جـزيـلاً يا « لودڤيك » ... مـا اسم ابنك ؟ » بقى « لودڤـيك » مـرتـبكا للـحظات ، ثم ابـتـسم ورفـع كـأسـه . « فى صـحـة » ڤلاديمير » .. ! ندعوه بـ « ڤلادى » . ... تعرفين ... على اسم والده ! »

كانت « جيرترود » متوترة فلم تبتسم . على أية حال ... ألم يكن ذلك عدم انضـبـاط منه عندمـا يسـخـر من « لينين » والثـورة ؟ عـاملة البـار لم تفهم ، ولكن جيرترود أدركت لهجة الاستخفاف ! كانت التعليمات لـديها أن تـرتـدى ثيابا أنيقة . لـم تكن مـلابـس البـروليـتـاريا الخـادعـة مـحبـذة فـــى مـجـال عمـلها الجـديـد . ولـم يكـن فــى ذلــك أى مشكـلة بالنسبة لـ « جيرترود » .

فى أول لقاء لها مع « لودڤيك » كانت ترتدى جاكت مربعات لونه بـنى ، وتنـورة مناسـبـة ، وبلـوزة « بـيـج » مـقـفـولـة عنـد الـرقـبـة بـ « بروش » من حـجـر الآمـاتيـست الأرجـوانـى ، كـان لجـدتهـا ذات يوم . شعرهـا الأسود النـاعم ملمـوم فى حزمة واحدة مـستقرة فـى دعة على رقبتهـا الـرخـامية البيضـاء . نظـارتها ملقـاة على الطاولة ... كانت قبيحة الشكل .... كان يحاول أن يرشدها إلى فنى بصريات آخر !

لاحـظ « لـودڤيك » أنـهـا كـانـت تـتكـلم بطـريـقـــة صـريحـــة ولطيفـة ، وبابـتـسـامـة فـى عـينيـهـا المظلـلتـين بحـــزن دفـــين . مـا هـــى يـاتـــرى الهـمـوم التـــى تعيشـــها ؟! قرأ ملفهـا جيداً . عرف كل شئ عن حياتها فـــى «ميونخ» وقطيعتـهـا مـــع العائـلة . عـــرف عـن الـزواج القصـير من « ديڤيد شتـاين » فى « ورنـج » ولكنه لم يعـرف شيئا عن الأحـزان التى

تظلل عينيها والتى لم يفلح المكياچ ولا النظارة فى إخفائها . ومن جانبها ، كانت « جيرتى » تتعجب كيف أصبح « لودفيك » ، الذى لايبدو أكبر منها بكثير ، قد أصبح على تلك الدرجة من الأهمية فى « الكومنتيرن » ؟ هل يمكن أن يكون مفكرا أو مثقفاً كبيرا بالفعل ؟ شكله عادى ! وجه المثقف عندها تمثله « روزا لكسمبرج » ، « إيوچين ليڤينيه » ، « كارل راديك » ، « ليون تروتسكى » .

توقفت وسط مجرى أفكارها . كان « لودفيك » شلاڤيا ، ولم يكن يهوديا من وسط أوروبا . كان استنتاجها صحيحا إلى حد ما . كانت أمه روسية وأبوه يهوديا من بولنده ورث عن أمه الجبهة العريضة والشعر الأشقر . عيناه زرقاوان مثل والده ، وعندما يضحك يمتلئ وجهه بالتجاعيد . لاحظت « جيرتى » أن يديه غليظتان مثل أيدى الفلاحين ، ولكن الأظافر مشذبة . لا أثر للتبغ عليها ، ولا حواف مشوهة . أثناء العشاء ، أصبح « لودفيك » صارما فجأة . تجهم وجهه ، وبدت عيناه باردتين حادتين ..... قال لها إنه قد تم تجنيدها لسبب واحد : وهو قدرتها على التحدث بالإنجليزية والفرنسية والروسية التى تجعلها بالغة القيمة والأهمية .

شرح لها كيف أن عملها لن يكون سهلاً ، وأنه سوف يتضمن تنقلات وأسفارا كثيرة فى داخل وخارج ألمانيا ، وأنها سوف تسافر إلى « موسكو » فى خلال أسبوعين من أجل تدريب فنى ، بعدها سيعطونها جواز سفر جديدا . وعليها أن تقطع كل صلاتها بالحزب الألمانى فوراً وتعيد بطاقة العضوية . كما أن عليها ألا تظهر مع المتعاطفين مع الحزب .

« هل لديك علاقة حب ؟ »

« أنا لا أرى علاقة لذلك بأى شئ ! »

« هل هو رفيق ؟ »

« لا »

قالت بصوت لا يخلو من تحد .

« حسن » ، قال « لودقيك »

« هو مصور ، إن كان لابد أن تعرف . ديمقراطى اجتماعى ولكنه غير نشط .. أعنى أنه ... »

« رائع ! ممتاز ! وهل هو محل ثقة ؟ »

« من أجل ماذا ؟ » .

« يلتقط بعض الصور التى قد نحتاجها من وقت لآخر . »

« وهل سيتقاضى أجراً عن ذلك ؟ »

« بالطبع »

« يمكن إذن أن نثق به . »

« لماذا انفصلت عن « ديڤيد شتاين » ؟ إنه إنسان رائع ، ورفيق جيد . لماذا ؟ »

« وهل لذلك صلة بأى شئ ؟ »

« كل ما أسألك عنه له صلة بكل شئ »

« حسن ! إذا كان لابد أن تعرف ... فإن « ديفيد » أحب امرأة أخرى . طبيبة . ديمقراطية اجتماعية » .

« أعرف »

وأخذت « جيرترود » تضحك . أما وجه « لودفيك » فبقى صارما كما هو . « متأسفة ! ... إنها طريقتك فى قولك « أعرف » .. امرأته الجديدة اسمها « جيردا » . كان يريد دائما أن يصبح طبيباً . ولكن الثورة الباڤارية عطلت ذلك . وكانت « جيردا » هى الطريق الذى يعيده إلى الطب . هما الآن فى « هيدلبرج » وهى التى تتحمل نفقات دراسته . حب حقيقى .

يقال إنه لم يعد نشطا سياسيا .

قال « لودفيك » بهدوء : « معلوماتك خاطئة ! » .

هكذا بدأ كل شئ . فى اليوم السابع من نوفمبر عام ١٩٢٣ . لو أن أحدا كان قد انبأها آنذاك إلى أين تمضى الأمور ، وكيف سيلقى «لودفيك» حتفه ، لضحكت فى وجهه وأعتبرته مجنوناً . ورغم ذلك ، كان هناك حتى حينذاك - أمثال ذلك العجوز المنكود « كارل كاوتسكى » الذى كان يحذر مرارا وتكرارا من أن التجربة البلشفية بانعزالها عن واقع العالم ، لا يمكن أن تؤدى سوى إلى كارثة .

« لينين » و« تروتسكى » وهما من سادة المحاججة ، ردا عليه . جميع أعضاء الحزب فى ألمانيا كلها عبروا عن استحسانهم ووبخوا الديمقراطية الاجتماعيين وكانوا يصفونهم بـ« كاوتسكى المرتد » و« ثورة البروليتاريا » و« الإرهاب والشيوعية » . نعم ! حدث ذلك بالضبط وكان أمراً حسنا !

و«لودفيك ؟» ، تماما كما اكتشفت « جيرتى » - نكاته ، تقلباته المزاجية المفاجئة ، ذكاؤه الحاد ، نفاذ بصيرته ومعرفته بمكامن القوة والضعف فى القادة الشيوعيين فى « موسكو » و«برلين » ، بدأت تقدر كيف ولماذا صعد هكذا بسرعة . كان نوعية خاصة جدا من البشر ، نصف شاعر ، نصف قوميسار . طيب القلب . شديد الاندفاع !

أتذكر يوما جميلا من أيام الصيف فى « پوشكينو » . كنا بصحبة أصدقاء . العمة « يلينا » وزوجها العم « ميتيا » . كان ابنهما « ساشا » فى نفس عمرى تقريباً وكنا نذهب معا إلى المدرسة نفسها فى « موسكو». كان العم « ميتيا » عالم فيزياء يبحث فى إنشطار الذرة ولذلك كان لديه تلك « الداتشا * » حيث يستطيع أن يعمل فى هدوء . وبينما كنت أنا و« ساشا » نلعب ، ونحفر اسمينا على أشجار « البتولا » سمعنا صوت « جيرترود » متهللا وهى تجرى نحونا ، وخلفها والدا « ساشا » يرقصان فى بهجة .

« الجيش الأحمر يزحف نحو « برلين » . هل تعرف ماذا يعنى ذلك يا « ڤلادى » ؟ لقد كسبنا الحرب ! »

حملقت أن و« ساشا » فى الثلاثة الكبار . « صحيح ياماتى ؟» . « صحيح يابنى » ، قال العم « ميتيا » بصوت أجش وهو يمسد لحيته بشكل ينم عن الرضا « لقد انتهى الألمان . المطرقة والمنجل سوف يرفرفان فوق « برلين » ! »

*. منزل ريفى صغير - Dacha

أتذكـر أنـني قلت « ولكن نحن ألمان » ، وغضـبت عندمـا ضـحكوا كلهم ، مثلمـا اعتدت أنت أن تغضب عندمـا كنت أضـحك أنا وأمك على بعض أسـئلتك . « سـاشـا » اضطرب لما قلت . « هل سـيقوم جنرالاتنا بقتل الألمان ؟ »

وردت عليه أمه موبخة « لا ياجاهل ! سيقتلون النازيين فقط » .

بعد أن سئمنا الاستماع لحديث الكبار ، هرعنا إلى المكان الذى كان يحلو لنا أن نختبئ فيه فى الحقول القريبة من النهـر . هنا ، كـان من عادتنا أن نستلقى على بطوننا ، وجوهنا مستندة على أيدينا ونحن نحدق فى النهر المنساب بالساعات ، سارحين فى خيالاتنا .

كـانت الأصـوات الوحـيـدة التى تتناهى إلى مسامعنا هـى أصـوات الطيـورة وهمهمة الجـدول الصـغير وهو يتدفق على الصـخور القديمة فى طريقة إلى النهر المنخفض عن مستواه .

كـان من عـادتنا أن نتسلق الصـخور الزلقـة التى يكسـوها العشب الأخضر القاتم الذى يتحول إلى اللون البنى المحمر عندما تشرق عليه الشمـس ، ثم نقفز فى الجدول رغم أن ذلك كان محظوراً لضحالته .

كان ذلك شيئا رائعا ! هنا كنا ننسى أن الاتحاد السوفيتى فى حالة حـرب ، وأن الملايين يموتون ، وأن مـئـات المدن والقـرى كـانت قـد تحـولت إلى أطلال ، وعندمـا كنا نقف فـوق تلك الصـخـور كنا ننسى حـتى أن الجيش الأحمر فى طريقة إلى « برلين » .

لم أنس أبدا ذلك المساء فى « يوشكينو » . أبدا ! .

وبعد سنوات كنت مازلت أتذكر ذلك المنظر الطبيعي الخلاب ! وكيف كان كل شئ يبدو هادئا . بعد عدة سنوات ، قالت لي « جيرترود » إنها كانت تشعر بنفس الشعور .

كل ذكرياتها السيئة كانت مجمدة مؤقتا . تملكتها أفكار كبرى ، طموحات خيالية ، أحلام بمستقبلي وهي طافية مع النهر . كانت دائما تذهب إلى هناك بمفردها .

كانت « جيرترود » تعرف كيف ستبدو « ستالينجراد » و«لينينجراد» . كانت قد أجرت مقابلة مع الجنرال « فون باولوس » وجنود جيشه السادس المهزوم لبثها من راديو « موسكو » . بدأت تتساءل بينها وبين نفسها كيف ستبدو ألمانيا عندما تعود إليها .

عادت ذكريات « شوابن » تتدفق . وبكت عندما تذكرت « هيني » ووالديها . اندفعت أحتضنها . كنا قريبين من بعضنا ، أقرب مما أنت بالنسبة لوالديك . أستغرب دائما لماذا الأمر هكذا ! ما الخطأ الذي ارتكبناه يا « كارل » ؟ على الأقل لم يكن أينا مدافعاً عن النظام القديم ! كلانا كان يقاتل من أجل التغيير ، ولكن ليس من أجل العلاج بالصدمات ... ولا من أجل تجميعنا على ذلك النحو القسري الذي لا يعترف بنا كبشر ! حتى أنت وأصدقاؤك في « إيبرت ستيفتونج » لا بد أنكم ترون أن ذلك كان يمكن أن يتم بأسلوب مختلف .

أتذكر « جيرترود » عندما أرسلتني عائدا إلى « الداتشا » لأحضر بعض العصائر المثلجة ولا شئ أكثر . كان يوم ذكريات جميلة بالنسبة

لــى ، ولكــن « جيـرترود » بعـد ذلك روت لى كـيف أنتـهى ذلك اليـوم .
عدت إليها بدون العصير وأنا أصرخ .. « ماتى ! ماتى » وعندما اقتربت
منها رأت وجهى الغارق فى الدموع وأخذتنى فى أحضانها .

قلت : « هناك ثلاثة رجال يريدون مقابلتك » وكنت أحاول أن أتمالك
نفسى « رجال من الجيش يريدون مقابلتك » .

« أهــدأ ... أهــدأ .. أنا قـادمـة .. لماذا أنت خائف هكذا ياصغيرى
« ڤلاديمير » ؟ »

« أحدهم له شعر أسود وشارب مثل شارب الرفيق « ستالين » ،
أمسك بى بشـدة حتى لا أهرب . ثم قـذف بى فى الهـواء فـضحكوا
جميعا . كانوا يتكلمون بلغة غريبة ، ثم قال لى : أذهب وأحضر أمـك ،
أبلغــها أنهــا إذا لـم تحـضر فــوراً فسـوف نقطع رأسها الألمانى » .

شحب وجه « جيرتى » ، كانت تعرف . أمسكت ذراعى بشدة لكى
تمنع ارتعاشة يدها وعادت إلى « الداتشـا » . كـانت تعرف من هو ،
لماذا يمسك بـ « ڤلادى » بقبضته الأشبة بقبضة وحش . وكانت
تشعر بالغثيان .

لم أدخل البيت مع أمى . من الخارج ... كنت آلاحظ ظل حـــركتهـم
وأسمع صدى أصواتهم العالية ، وكنت سعيـدا لآن « جيرترود »
أيضا كان يبدو عليها أنها ليست مستريحة للرجل ذى الشارب !

لحنا الـرجل نتجسـس فـرفع قبضته نحونا متوعدا . هرعت أنا و« ساشـا » إلى الغـابة واختبـأنا هناك . لم نـخـرج إلا بعـد أن سـمـعنا صوت سيارة عسكرية وهى تتحـرك من هذا الرجل يا أمى ولماذا جاء إلى هنا ؟ »

« اهـدأ يـا « ڤـلادى » ... أهدأ ياحـبـيـبى .. كنا نعـمل مـعـاً قـبل سنوات» .

« إنه فظ يا أمى ! فظ ! »

جفلت « جيرتى » . فوجئت بصدق الإحساس الفطرى لطفل !

« أتمنى ألا تلتقية مرة أخرى ! »

- ٨ -

فى يناير ١٩٢٤ كانت موسكو تشهد أبرد شتاء فى تاريخها . أربعون درجة تحت الصفر يوم وفاة « لينين » . كل شئ متجمد . أضاءوا المشاعل فى الميادين . تجمع الناس مع انتشار الخبر . الرفيق « لينين » مات .

الرفيق « لينين » مات . من كل فج بالمدينة وضواحيها كانت الجموع ، بطيئة .. متشحة بالأسود والأحمر تزحف فى اتجاه بهو العمدة حيث الزعيم مسجى !

الدخان المتصاعد من المشاعل محمل بالقطران ويعوق الرؤية لدرجة أن عربات الترام وهى تدق أجراسها كانت تتحرك بسرعة السلحفاه .

المركبات مغطاه بالجليد وتبدو كأنها ساكنه فى أماكنها لأن المشاه أسرع منها .

كان « لودفيك » يسمع الموسيقى من ميدان « لوبيانكا » . المارش الجنائزى تتخلله انفجارات الديناميت . حتى فى موته ، لم يكن « لينين » ينعم بالسلام ! كانوا يشقون بطن الأرض ليجهزوا قبره .

الظلام مخيم . موسكو وسكانها يلفهم ليل قطبى .

كانوا يتحركون نحو جسده فى صمت تام . فى التابوت المرتفع الذى تحيط به الزهور والأعلام الحمراء كان يظهر وجه « لينين » .

انثالت الدموع على وجه « لودڤيك » . أمسكت « ليزا » ذراعه بشدة وهما يمران أمام الرجل الميت ذى الجبهة البارزة واليدين الصغيرتين .

كانا قد استمعا إليه عدة مرات وهو يتكلم . و«لودڤيك » شاهده عن قرب في اجتماعات « الكومنتيرت » وتحدث معه فى بعض المناسبات .

وضعت « ليـزا » يـدهـا على بطنها المنتفخة وكلمت طفلها الذى لم يولد بعد . « هذا هو محور التاريخ ... هل تفهم ؟ »

وهما خارجان ، لمحها « لودڤيك » ، كانت جيرتى ترتدى السواد وعلى رأسها وشاح أحمر ، ووجهها مغطى بالدموع ، يكسوه الحزن . أخذها من ذراعها وسارا مبتعدين عن الميدان الأحمر .

أى جيل آخر مر بما مروا به ؟ الحرب ، والثوره ، والحرب الآهلية . فـى غرفتهما الصغيرة التى تضيئها الشموع ، شربوا الڤودكا وتحدثوا عن « لينين » .

« لـودڤيك » أخبر « جيرتى » و« ليزا » أن هناك شائعات مغرضة . « ستالين » أهان « كروبسكايا » رفيقة عمر « لينين » ، « لينين كان قد قطع كل علاقاته بـ « ستـاين » « لينـين » لجأ إلى « تروتسكى » لتكوين جبهة مشتركة ضد « ستالين « لينين » ترك وصية أخيرة يطلب فيها من الحزب أن يزيح « ستالين » من منصب السكرتير العام . « ستالين » دس السم لـ « لينين » . وكانت جيرترود تسأل لاهثة من شدة التأثر « وهل ذلك صحيح ؟ » ، و«لودڤيك» يهز كتفيه .

وفى اليوم التالى لم يكن « تروتسكى » موجودا فى الجنازة . كان يرقد متوعك الصحة مصابا بحمى شديدة وكان بعيداً عن « موسكو »

. المكتب السياسى نصحه بالا يعود إلى العاصمة قبل أن تتحسن صحته .

« نعاهدك أيها الرفيق « لينين » .... » ، هكذا بدأت خطبة «ستالين » فى الجنازة . كانت تلك اللغة غريبة بالنسبة لـ « لودڤيك » ومعظم أعضاء الحزب .. وكان « لودڤيك » نافرا ومنزعجا من التلميحات الدينية والخرافية . ولكن لماذا « ستالين » ؟

كان يقبل أن يكون « تروتسكى » غائباً ، « تروتسكى » الذى كان يستطيع أفضل من أى شخص آخر أن يحث الجنود على القتال ويحفزهم عن طريق الإقناع وتقديم النموذج كقوميسار للحرب وكقائد للجيش الأحمر ... ولكن أى شخص آخر كان يمكن أن يكون أفضل ، « بوخارين » . « زينوڤييف » . « كامينييف » . كلهم حاضر هنا وقادر على ذلك . لماذا « ستالين » ؟ حتى العاديين من الناس كانوا فى حيرة من الأمر .

فى تلك الليلة قال « لودڤيك » لـ « ليزا » إن حربا جديدة قد بدأت . حرب على الخلافة وأخشى أن يكون صديقنا قد فقد الأمل فى الفوز . كان لابد أن يقوم من فراش المرض ويستقل قطارا . رأيته عندما كان يقود الرجال فى المعارك وحرارته مرتفعة » .

لم يكن « لودڤيك » قد سبق له أن تكلم مع قوميسار الحرب ، ولكنه حارب تحت قيادته فى الحرب الأهلية وفتن بشخصيته .

سألته « ليزا » : هل تعتقد أنه سيكون هناك المزيد من سفك الدماء ؟ هل ستأكل ثورتنا نفسها كما فعلت الثورة الفرنسية ؟» .

باحت عينا « لودفيك » بالقلق ! لم يكن سعيدا عندما قرر الحزب ، بضغط من « لينين » و« تروتسكى » ، عبور المياه المتجمدة والاستيلاء على « كرونشتاد » بالقوة وحل لجان البحارة واعتبار الثوار « عملاء للثورة المضادة » ، الأمر الذى يعنى أن الدولة كان من حقها أن تعاملهم كما تعامل أعداءها الحقيقيين ، بصرف النظر عن أهدافهم . كان ذلك هو «الثيرميدور» * كما شرح « لينين » . تذكر مصير « روبسبيير » و« سان جوست » . هذه هى مأساتنا . كان « لودفيك » يعتقد أن كل ثورة يؤرقها مصير سابقتها .

وكان « لينين » لديه هاجس « الثيرميدور » . لابد من الاحتفاظ بالسلطة بأى ثمن . نشاط المنشفيك والصوار الاشتراكيين اليساريين وصحفهم محظور . الفصائل المنشقة داخل حزب البلشفيك تم حلها وذلك كله باسم « الثيرميدور » اللعين !

وتذكر ما رواه لهم « راديك » عن حواره مع « روزا لكسمبرج » قبل مقتلها بثلاثة أيام . « روزا » كانت قد قالت له فى « برلين » :

« لم ينجح الرعب الذى مارسوه فى أن يسحقنا أبدا . كيف لنا أن نعتمد على الرعب ؟ » .

* « ثيرميدور » هو شهر فى التقويم الثورى الفرنسى يبدأ فى ١٩ يوليو عندما أطيح بـ « روبسبير » فى سنة ١٧٩٤ والإشارة هنا إلى أنها مرحلة تميزها دكتاتورية تركز على استعادة النظام وفرضة وتخفيف التوترات مهما كانت الوسيلة (المترجم) .

أما « راديك » فكان ينفث غليونه فى صمت منتظرا أن يسأله لودڤيك أو الاخرون كيف كان رده ، ولكن أحدا منهم لم يتكلم .

وبعد أن شعر بالضيق ، وبعد أن فرغ صبره تكلم « راديك » .

« قلت لها هكذا مباشرة ... روزا » ... الثورة العالمية فى خطر هنا . لابد أن ننتظر بعض السنوات . الرعب لا يكون فعلاً عندما تستخدمه طبقة محكوم عليها بالفناء ضد المد العالى لطبقة جديدة ، ولكنه يصبح قويا ومؤثرا إذا استخدمناه نحن ضد طبقة محكوم عليها بالموت تاريخياً » .

لم تعجبهم المغالطة ... فقاطعته خمسة أصوات فى نفس واحد « وماذا كان ردها ؟ » .

حملق فيهم « راديك » غاضباً . كان يعرفهم جميعاً . يعرف أنهم من المتمرسين فى العمل السرى فى بولندا . وأمضوا فترات فى السجون ويحبون « روزا » . لم ينطق « راديك » ، وقف فى هدوء وغادر المقهى .

كان وجه « ليزا » يلمع فى ضوء المصباح الخافت . عندما نظر إليها « لودڤيك » لاحظ القلق فى عينيها . تعانقا . كان عناقاً يعبر عن اليأس أكثر مما هو عن الحب . جمع خديها فى كفيه وقبل شفتيها .... ثم عينيها . كان ابنهما سيولد هذا الشهر . فهل يجد دفئاً فى « موسكو » ؟!

كان قلقا بخصوص المستقبل ، حتى فى تلك المرحلة الباكرة من الثورة . كانوا يعولون على انتصار فى ألمانيا ولكنه ظل مراوغاً ، وأصبح

« لودڤيك » مقتنعاً تقريباً باستحالة الثورة فى ألمانيا . الأوضاع سيئة . الاشتراكيون مطوقون تماما فى المصانع . الريف معاد . الجامعات تحت سيطرة القوميين الألمان . المثقفون منقسمون والطبقات الوسطى مفزعة من الثورة الروسية ، وفى عام ١٩٢٤ كانتْ تلك الأفكار أشبة بالهرطقة .

ولكن ماذا عن « جيرتى » ؟ فى القطار بين « برلين » و«موسكو» ، قررت أنها كانت تريد « لودڤيك » ، ليس من أجل الرحلة فقط .... وإنما إلى الأبد . كانا قد استقبلا العام الجديد لتوهم مع بقية المسافرين فى القطار . والآن عادا إلى المقصورة الخاصة بهما . الجوازات تقول إنهما رجل وزوجته . اقترحت أن يكونا حبيبين . وبلطف شديد رفض العرض متعللا بالتزامات عاطفية - زوجته حامل بطفلهما فى موسكو - وقواعد مهنية .

كان يعتبر مسلكا سيئا وخطرا أن يستمر أناس مثلهما فى ذلك الارتباط فى هذا الميدان من العمل . الحياة تصبح عرضة للخطر . وكل ما يستطيع أن يقدمه هو الرفقة ! حاولت « جيرتى » أن تخفى إستياءها بذلاقة اللسان .

« تقصد أنك حتى لست « رجل كوب ماء » ؟

ابتسم « لودڤيك » . كان لينين قد قال لـ « كلارا زيتكين » - أم ترى كانت « كوللونتاى » - إن الجنس مثل شرب كوب من الماء . لا شئ أكثر ولا شئ أقل . وبين عشية وضحاها أصبحت تلك الملاحظة العابرة عقيدة مناسبة لكثير من الشيوعيين فى كل أوروبا . والنتيجة ... أن كثيرا من الماء بات يستهلك فى أرجاء العالم .

« لا » ، رد عليها « لودڤيك » وهو يبتسم ، « على أية حال ، كان « ڤلاديمير إيليتش » يشير إلى علاقته بـ « كروبسكايا » .. لم يكن الأمر أبدا مجرد كوب ماء مع « أنسيا » أو أى واحدة أخرى يمكن أن أخبرك عنها » .

« جيرتى » تألمت لهذا الصد ، وغضبت من نفسها لأنها تألمت . وبمجرد أن وصلا إلى « موسكو » انغمست فى برنامج تدريبى مكثف وبدأت عاطفتها نحو « لودڤيك » فى الإنحسار .

ظلا أصدقاء . وبعد أن قابلت « جيرتى » حبيبته « ليزا » ، أصبح من الواضح لها أن أى علاقة جادة معه كانت مستبعدة تماما .

أصبحت « جيرتى » من الموالين لا « كومنتيرن » . تابعة لـ « جريجورى زينوڤييڤ » ولا تطيق أى تحد للعقيدة السائدة . كانت تتشاجر بعنف مع « لودڤيك » على انفراد وفى اجتماعات الحزب التى تناقش « الوضع فى ألمانيا » . وتنقض كالنمرة على أى مظهر ولو ضئيل لما كانت تستنكره وتسمية « تشاؤم البرجوازية الصغيرة » . وكان « لودڤيك » يستثيرها بقوله : « وهل تعتقدين أن البروليتاريا متفائلة دائماً ؟ » . ولكن « جيرتى » كانت ثملة ... سكرى بالآمال والتوقعات ، يدفعها لذلك طاقة لم تكن تدرى أبدا أنها تمتلكها . كانت تعيش فى عاصمة الثورة العالمية ، تلتقى بالرفاق من كل أركان الدنيا ، سعيدة بالرعب الذى ألقت به الثورة فى قلوب البرجوازية والقادة الإمبرياليين فى الغرب . لم يكن لديها وقت كبير للأمور العادية .

وذات يوم جاء صحفى إنجليزى من جريدة ثورية ليجرى مقابلة مع « زينوڤييف » بخصوص خطاب من المفترض أنه كان قد كتبه إلى اتحادات العمال فى بريطانيا . كانت الوثيقة المعروفة برسالة « زينوڤييف » قد تم تزييفها بطريقة مكشوفة من قبل الاستخبارات البريطانية لإحراج حكومة الأقلية ... حكومة العمال . لم يكن «زينوڤييف» غاضبا ، بل كان يضحك على ذلك ، والحقيقة أن الحدث أشبع غروره الصحفى ، وكان ناحلا طويل القامة واسمه « كريستوفر براون » أعجب كثيرا بمهارة « جيرترود » كمترجمة . دعاها للعشاء . ظلت تتكلم وتتكلم . وهو يستمع . انتقل حماسها إليه .

قدمته لأصدقائها . اصطحبته ليستمعا إلى الشاعر «ماياكوڤسكى » الذى كان يحلو له أن يترنم بقصائده . كان فى تلك الليلة متألقا .

فى بوتقة الانصهار السوفيتية ،

ترقد طبقة رقيقة من العفن ،

ومن خلف ظهر الاتحاد السوفيتى ،

يطل خلسة ... أنف البرجوازية البشع !

وبعد أن كان « براون » قد لان بما فيه الكفاية ، جاء دور «لودڤيك» قضى معه وقتاً طويلاً . سأله بالتفصيل عن الأوضاع فى بريطانيا والهند . « براون » الذى كان قد عزم على قضاء أسبوعين فى « موسكو» بقى بها ثلاثة أشهر . تقاريره إلى جريدته كانت تزداد سخونة يوما بعد يوم .

ثم حدث شيئان . « جيرترود » اتخذته عشيقا ، و«لودڤيك » جنده عميلاً سريا . كان « لودڤيك » يقول له « نحن لسنا الجنود المشاة للثورة العالمية ، نحن عيونها وآذانها . عندما تعود لابد أن تقطع صلتك بنا علنا .. وتقول إنك نفرت من بعض الجوانب التي شاهدتها . معنى ذلك أنك لن تكون مضطرا للكذب . بإمكاننا أن نساعدك ببعض المواد . أريدك أن تترك عملك في « المانشستر جارديان » وتحصل على وظيفة في « التيمز » « براون » ذهل ! لم يكن ممثلا جيدا ، وكان متوترا بخصوص أسلوب تعامله مع أصدقائه . لم يكن مستعدا لتلك الازدواجية على هذا المستوى . «جيرتي » أقنعته أن ذلك كان ضروريا . أحبها . عرض عليها الزواج واقترح أن تعود معه إلى «لندن» .

درس « لودڤيك » الفكرة جيدا ولكنه رفضها ، كان يحتاج « جيرتي » في ألمانيا .

كانت « جيرتي » والإنجليزي يمارسان الجنس يوميا ، ولكن عندما اعترف بحبه لها لم تستطع أن تكبح عواطفها . كانت قد نسيت دلالها الرومانسي مع « ديڤيد شتاين » من زمن ، والآن تتظاهر بالنفور من النزعة الرومانسية والعاطفية في العلاقات الشخصية .

« الحب ! » قالت لـ « براون » وهما يتأهبان للفراش ذات ليلة ، « ماذا يعني الحب ؟ إنه مرض يضع سياجا حول العقل .. ويجعلك كائنا لا عقلانيا ! أنا احتقر هذه الكلمة . يا لها من مزحة ! الحب بالنسبة لأناس مثلك يعني بيتا جميلاً وأطفالاً وحسابا ضخما في البنك . الحب فكرة برجوازية .

يبدو أنك قد قرأت شعراً رومانسيا كثيرا ... إنه مرض ألمانى قديم ! لذلك أفهمك . إنه لعنة يا « كريستوفر » .. أطرحه عن تكوينك ! أرجوك .... ! الشعراء والروائيون الذين يكتبون فقط عن الحب والمشاعر الرقيقة ، إنما يفعلون ذلك لأنهم يغمضون أعينهم دون حقارة وزيف هذا العالم . والآن ... انقلب لكى أمارس الجنس معك .

هيجانها صدمه ! ورغم أنه كان الآن مملوءا بحرارة اغتصاب جديد ، إلا أنه كان يعرف أنها مخطئة ! وكان يتساءل بينه وبين نفسه عن خلفيات هذا الانفجار ، ولكن لامبالاتها أثارته ، وهكذا فعل ما طلبته منه . فى الأسبوع التالى عاد إلى « لندن » .

حاولت « جيرتى » بإصرار أن تصبح صديقة لـ « ليزا » ونجحت . كانتا يتحدثان معا عن كل شئ . حياتهما الأولى ، أسرتيهما ، القطيعة مع الماضى .. وعن العشاق .

سمعت « جيرتى » لأول مرة حكاية « لودفيك » وأصدقائه الأربعة من « ليزا » عندما كانت فى أشهر الحمل الأخيرة .

يوم « أحد » هادئ كان الجو فى الخارج شديد البرودة تحت سماء زرقاء صافية ، درجة الحرارة انخفضت ثانية . كان من المفترض أن يعود « لودفيك » من « براغ » بعد الظهر . كان طفل «ليزا» قلقا كثير الحركة فى بطنها . لديها إحساس بأنه ولد ، وتخيلته « لودفيك » مصغرا محبوسا فى بطنها . ضاعفت الفكرة من رقتها وراحت تمسح بيدها على بطنها بهدوء وهى تغنى أغنية أوكرانية كانت أمها تغنيها لها وهى طفلة .

شعرت بالارتياح عندما جاءت « جيرتى » مرتدية معطف الجيش الأحمر وقبعة من الفراء تحمل كمية من المواد التموينية . خبز أسمر وجبن وشوكولاته . وسرعان ما تحول الحديث إلى « لودفيك » اعترفت لـ « ليزا » : « عندما رأيته لأول مرة لفت نظرى ، أنه شخص عادى ». ضحكا لغرابة ذلك المفهوم .

وهذا هو سبب تفوقه في عمله . رجل أعمال صغير .. من الحجم العادى فى وسط أوروبا . تعرفين .. أنه يقابل عملاءه فى « براغ » فوق حانة تستخدم أيضا كماخور .. وصاحب الحانة مقتنع بأنه قواد » .

فجأة انتبهت « جيرتى » لوجود صورة صغيرة فى إطار كانت فوق المدفأة . خمسة أولاد مبللين بالماء من رؤوسهم حتى أصابع أقدامهم ، وجوههم يكسوها البؤس ، فاجأتهم الكاميرا وهم فى سراويل السباحة الغريبة التى تصل إلى الركبة .

سألتها « ليزا » : « هل يمكنك التعرف على « لودفيك » بينهم ؟

« أيهم » ؟

« خمنى » !

خمنت « جيرترود » وضحكت « ليزا » .

« هل التقيت بالآخرين » ؟

هزت « جيرتى » رأسها .

« اعتقد أنك لابد أن تلتقى بهم . إنهم معك فى نفس الشعبة »

« مستحيل ! كلهم » ؟

هزت « ليزا » رأسها . وهنا بالضبط شعرت بتقلصات وأمسكت بطنها بشدة . وضعت « جيرتى كوب الشاى وراحت تمد رقبة « ليزا » وكتفيها برفق .

« يبدو أن الوقت قد اقترب يا « جيرتى » ! أنا فى حاجة إلى «لودفيك » فعلا ! أريده الآن : هل أنت واثقة أنه سيعود اليوم ؟ » .

« نعم ... بالتأكيد ! أين التقيت به لأول مرة ؟ هل أنتما من نفس القرية » ؟

« لا » ، أطلقت « ليزا » ضحكة مجلجلة « أنا من « ليمبرج » ، قابلته فى فيينا ، فى الجامعة . كانوا كلهم .... الخمسة هناك ، وكان كل منهم يدرس شيئا مختلفا . « لودفيك » كان يدرس الأدب . أكثرهم مرحا ، وكان يضحكنى كثيرا . كانت أياما خالية من الهموم ، قبل الحرب مباشرة ... كنا نعيش فى عالم آمن ... أو هكذا كنا نعتقد . كانت الملكية الثنائية هناك إلى الأبد . لو أن أحدا كان قد قال لنا إن حربا ستقوم وتفجر ثورة تقضى على القيصر والإمبراطور لضحكنا ، وأرسلناه ليرى الدكتور « فرويد » .

« وهل « لودفيك » هو اسمه الحقيقى » ؟

ابتسمت « ليزا » ولكنها لم تجب . كانت « جيرترود » تعرف أنها لن تستطيع أن تسترسل .

أحد الدروس الأولى التى تعلمتها فى الشعبة ، كان ألا تكشف عن هويتها الحقيقية ولو إلى أقرب الأصدقاء . ذلك مهم جدا بالنسبة للأمن والسلامة فى هذا المجال . وكان عليها أن تنسى الماضى .

« وماذا حدث لـ « كريستينا » ؟

« مـاتت فى « باكـو » فى العـام الماضى » . تيـفـوس . « لامـاتهـا » الخمس حـملوا النعش . كـان لابد من رؤيتـهم ذلك اليوم . أولئك الرجـال هم جنود الثورة . أربعة منهم من أبطال الحرب الأهلية .

كانوا يبكون كالأطفـال بصوت عـال .. ولفترة طويلة .لم أر «لودڤيك » أبدا فـى مـثل تلك الحـال . اعـتـقـد أنه كـان مـوت البـراءة ، كـان وداعـا لشبابهم . مسكينة « كريستينا » .

« لم تحبيها يا « ليزا » !

« ليس بالضبط ! كانت سيطرتها شديدة على « لودڤيك »» .

وكنت أغـارة وأعـرف أن صـداقـتـهـمـا لم تكن مـادية ... ولكنـهـا كـانت عـميـقـة . ولكى أكـون أمـينة ... لم أشـعـر بشئ كـثـير عندمـا مـاتت . مـا أحـزننـى هو أننى كنت أراهـم مـضطـربين كلهم ، ولكن فى قـرارة نفـسى كنت أشعر بالراحة . وهكذا تخلصت من كل ما كان بصدرى. وأعتقد أنه كـان شـعـورا مـتبـادلا . كانت تضـع مسافة بينى وبينها دائمـا . اعـترضت على علاقتنا . لأنها كانت تشبه الزواج إلى حد بعيد .

« امرأة كوب ماء ؟ »

« ربما ! أعرف أن لا أحد من رجالنا الخمسة نام معها » .

كـانوا ينظرون إليـهـا كـإنسـان كـامل الأوصـاف ، ويؤلهـونهـا ! «مـريم» بلشـفـيـة حـقيـقـيـة ! أشـك أنه كـان من الممكن أن نتفق على إنجاب طفل

لو أن « كريستينا » كانت ماتزال على قيد الحياة . عندما قالت لها ذات مرة إن وجود طفل فى حياتنا قد يكون مفيدا طالما أنهم يمكن أن يقبلونا أنا و« لودفيك » فى أى مكان فى أوروبا كأى زوجين من البرجوازية ، نظرت إلى بغضب شديد لدرجة أننا خسرنا تماما لعدة دقائق . ثم قالت ووجهها شاحب من شدة الغضب . « أنتم ثوار ، متورطون فى عمل خطر ، ونحن نحاول أن نبعد الخوف عن قلوبنا ، وجود طفل يمنعنا من ذلك ، يجعلنا قلقين ... فنصبح جبناء » .

توقفت « ليزا » فجأة عن الكلام ووضعت يدها على رحمها وقبضته فاض ماؤها . كان هناك قابلة فى نفس المبنى أرسلنا إليها على عجل ... ولكن أين « لودفيك » ؟ وبينما كانت « جيرتى» تستدعى القابلة سمع الباب الرئيسى يفتح ويدخل « لودفيك» مبتهجا محملا بصناديق مختلفة الأحجام . ابتسم عندما رآها . سألت عيناه إن كان قد تأخر ولكن « جيرتى » ابتسمت .

« ليس بعد، ولكن حالا ... لقد جئت فى وقتك يالودفيك » ! » .

« هكذا أنا دائما » ! « وابتسم » .

وولد « فيلكس » الصغير قبل أن تعلن الساعة منتصف الليل بدقائق .

بعد الولادة بقليل ، وقبل أن تطلب قدحا من الشوكولاته الساخنة قالت « ليزا » : كنت أعرف أنه كان لابد أن يكون ولدا ، وأثناء شرب

الشـوكـولاته كـانت تشـرح لهم لماذا . « لو كـانت بنتـا لأصـر على أن يسميها « كريستينا » ، وأن لا أحب الأشباح » .

قال « لودفيك » وهو يترنم بصوت خفيض متجاهلا تعليقها : «انظروا إليه ! إنظروا إلى فيلكس ! إنه يشبه الثورة بالضبط.. قبيح ووقح ! » .

« جيـرترود » التى كـانت تعـيش على بعـد كيلو متـرات مـحـدودة من الثكنات القـديمة حـيث كـان يقـيم « لودفـيك » وأفـراد الشـعـبـة الرابعـة .. كـانت عـائدة إلى غـرفـتـهـا .. وفـى الخـارج ... بجـوار أشـجـار البـتـولا السـوداء كان القـمـر مكتـمـلا ... يتـحـرك فى السـمـاء . الأرض يغطيـهـا الثلج . وهى تسير ببطء شديد وحذر .. ! تحاول ألا تتخلف عن القمر أو أن تسبقه ...

عندما رأت الفرح فى عينـى « لودفيك » استيقظت فيها عاطفة كامنة . لم تشـعـر بأى ذنب . وهل يشـعـر البـركـان بالذنب عندمـا يدرك أنه قـد توقف عن الفوران ؟ !

- ٩ -

في سنة ١٩٢٨ منح « لودفيك » نوط العلم الأحمر ، أعلى درجة من درجات التكريم في الجمهورية السوفيتية . البيان الذي صدر أشاد بالخدمات التي قدمها للثورة العالمية ، وهي خدمات لا يمكن ذكرها لأسباب تتعلق بالأمن القومي . كانت « ليزا » تعرف أنه أنشأ شبكات في دول أوروبية كثيرة ، ولكن النوط الأحمر كان من أجل عمل بعينيه .

فكرت لحظة . ربما كان قد قام بتصفية عدو مهم ! ولكنه أنكر ذلك بشدة . كان حتى الآن يقول لها إنه لم يقتل أحدا . أو إن عملية واحدة لا تعني الكثير . كان ذلك جيلا عرف الحرب العالمية الأولى التي فقد فيها الألمان وحدهم قرابة مليونين من البشر .

الحرب العظمى جعلت الموت أمرا سهلاً ، جعلت حياة البشر رخيصة إلى حد بعيد ، لدرجة أن يصبح قتل فرد لا يمثل مشكلة أخلاقية لأي من الجانبين في السنوات التي تفصل بين الحروب .

إن لم تكن عملية تصفية استراتيجية ... فماذا تكون إذن ؟

كانت « ليزا » بالفعل في حيرة شديدة .

ماذا فعلت يا « لودفيك » ؟ قل لي ... أرجوك ! هل كان شيئا خطيراً ؟ ولكنه لم يخبرها أبدا . كان دائما يخفي عنها معظم المهام الخاصة التي يكلف بها . كان لا يريد لها أن تتورط ، لو حدث أن ألقي

الطرف الآخر القبض عليهم . وكانت « ليزا » تفهم أسباب حرصه ، ولكن ذلك لم يمنع ضيقها بتكتمه .

وفى وقت ما – كانت تقول لنفسها – لم يكن بينهما أسرار . فى سنوات الحرب الأهلية ، لم يشعر أيهما بالحاجة لإخفاء شئ عن الآخر ، وكثيرا ما كانت تثقل عليه طلبا لتفاصيل عن العمل الذى أدى إلى منحه ذلك النوط ... ولكنه كان يرفض أن يتكلم .

بعد سنوات ، اكتشفت أن الأحداث وقعت عندما كانوا فى «امستردام» فى سنة ١٩٢٧ ، المرة الأولى عندما كان ثلاثتهم قد اقتربوا من العيش بشكل عادى ، كان « لودفيك » قد افتتح محلا لبيع الأدوات المكتبية كغطاء لنشاطه . وكانت « ليزا » تديره بكفاءة لدرجة أنه حقق ربحا وكان ذلك مفاجأة لهم ، ومفاجأة أكبر لـ « بيرزن » وبقية الجماعة فى « موسكو » .

كان « هانز » الرسام ، أحد رفاق « لودفيك » القدامى و الذى أخبرها فى الشتاء الماضى عندما كان فى زيارة إلى « باريس » . وكان « هانز » مندهشا لأنها لا تعرف . فقد كان الافتراض أنها دائما على علم بكل شئ .

« تريدين أن تقولى إنه لم يخبرك بذلك ؟ »

هزت « ليزا » رأسها مقطبة . أشعل « هانز » غليونه ، وبلكنة مشوبة بالألمانية أخبرها بالقصة كاملة .

« لودفيك الذى تعرفين ، يجعل كل شئ يبدو بسيطا دائما » .

جاءنى ذات يوم فى الاستوديو وقال : احزم حقائبك ياصديقى ، نحن ذاهبان فى رحلة « . ما عرفته بعد ذلك هو أننا كنا فى « لندن» حيث أقمنا مع « أولجا » ..

تعرفينها ؟ لا ؟ لايهم ! مكثنا ثلاثة أيام .

وفى اليوم الأول اصطحبنى « لودفيك « لنتمشى معا : ميدان « ترافالجار » ، قصر باكنجهام ، مجلس العموم ، تعرفين تلك الجولة السياحية المعتادة . ثم أرانى وزارة خارجيتهم .

« أنظر إلى هذا المبنى جيدا يا « هانز » . ونظرت .

يبدو مثل غيره من المبانى . عمارة امبريالية . هززت كتفى !

« أنس الجانب الجمالى أرجوك للحظة ياصديقى . هذا هو مركز منظمتهم الدولية . من هذا المبنى تدبر وتنفذ الثورة العالمية المضادة . علينا أن نزرع شخصا ما هنا .. »

ضحكت للمزحة كما ضحك هو . نسيت كل شئ عن الموضوع إلى أن عدنا إلى « امستردام » .

فى الأسبوع التالى كنا نتناول العشاء معا فى منزلكما . قال لى .. « تعال ... أنا لم أكن أمزح » . لم أتذكر عم كان يتحدث . كنت بالفعل قد نسيت القصة كلها . ذكرنى . ظننته قد فقد عقله . كيف أستطيع أنا الرسام الألمانى بإنجليزيتى الرديئة جدا ، أن أدخل أى شخص أى مكان فى « لندن » .. ناهيك عن وزارة الخارجية ؟ ولكن « لودفيك » — كعادته دائماً — كان لديه خطة . كان من الممكن أن تتحول ، بكل

بســاطـة ، إلى كـارثــة . والحـقـيـقـة أننــى كنت مـقـتـنـعـاً بفشـلهـا . ولكنها نجحت .

هل أنت متأكدة أنك لا تريدين الخروج لتناول الطعام الآن » ؟

صـرخت « ليـزا » فى وجـهـه ... « لا ! أكمل أيهـا الأحـمق ... أكمل القصة أولاً » .

« كانت خطة ساذجة ، تبدو غبية !. ولكن « لودڤيك » صديقك لم يكن غبيا . هل كان ؟ وراء سذاجة الخطة هناك دائما لمسة عبقرية . أكبر مما يكن أن يقال عن لوحاتى » .

توسلت إليه « ليزا » « هانز ....! خبرنى أرجوك ! »

« كانت عملية من ثلاث مـراحل . الآن أبدو مثله . كان على أولا أن أذهب إلى « جنيف » وأنشئ ستوديو هناك .

بالنهــار يمكن أن أمــارس الرسم ... أو الجنس . أو الاثنين مــعــا ! المســاءات كــانـت فـــى خـــدمـــة الشعـــبة الرابعة . تتسائلين .. ولماذا « جنيف » بالذات ؟

« عصبة الأمم ؟ »

« بالضـبط ! وفى العصـبة وفد بريطانى . وضـمن الوفد البريطاني عدد قليل من الذين يكتبون بالشـفرة . كان على أن أجد أحدهم وأقيم صداقة معــه . ولــم يكـن ذلـك أمرا سهلا بسبب إنجليزيتى الفقيرة ،

ولكن « لودفيك » ظهر ، وعلى الفور حصلنا على وصف لأثنين من كتاب الشفرة وأين كانا يشربان فى المساء .

« ظللت أسبوعين أتابعهما متابعة لصيقة . قررت ، ولا تسألينى لماذا ، هكذا بالغريزة ، أن أتوجه إلى أكبرهم .. وكان رجلاً ذكيا من شريحة دنيا فى الطبقة الوسطى . يجيد الألمانية والفرنسية والروسية . وذلك حل مشكلة التواصل بيننا . أصبحنا أصدقاء . أنجزت المرحلة الأولى . بعد أشهر قليلة اعترفت بميولى الشيوعية ، ناقشت الثورة الروسية وكل تلك الأمور . ثم قدمته إلى « لودفيك » .

بعد ثلاثة أسابيع يا « ليزا » كان زوجك قد جند الصديق الإنجليزى فى صفوف الدولية الشيوعية .

كان رجلا ذكيا ، سريع الاستيعاب ، وكان بالفعل يعرف الطبقة الإنجليزية الحاكمة . كانت القصص التى رواها عن « كيرزون » مضحكة وفاسدة . وكان يكن احتقارا حقيقيا لحاكم بلاده .

وذات يوم طرح « لودفيك » المسألة عرضا ، هكذا ببساطة .

ووافق « ديفيد » أن يعمل لحسابنا . والآن أصبح لنا رجلنا فى قلب عملياتهم الدولية . لم يكلفنا ذلك شيئا بالمرة . العملية كانت سياسية كلها .. ذلك كله انتهى الآن ... ولكن فى تلك الأيام ... » .

وتوقف « هانز » عن الحكى لينظف غليونه ويعيد حشوه .

« والمرحلة الثالثة يا « هانز » ! .

« بسيطة ! « قال وصوته يخلو من الحماس « بعد أن أنهى « ديفيد » مهمته المكلف بها فى « جنيف » ، عاد إلى وزارة الخارجية فى « لندن » ، نقلنى « لودفيك » إلى هناك ، ولكنه كمصور هذه المرة . أنشأت محلا صغيراً وستوديو فى « فليت ستريت » متخصصا فى بيع البورتريه ، ربحت أكثر مما ربحت من الرسم . كان « لودفيك » يقول لنا دائماً الغطاء الذى نستخدمه ومهما كان نوعه ، لابد أن يكون غطاء حقيقياً . وإن المخاطرة تكون شديدة لو أن هناك أية درجة من الغش أو التزييف .

ضحكت « ليزا » عندما تذكرت محل الأدوات المكتبية فى « امستردام » و« هانز » خمن سبب ضحكها .

« محلكما ؟ نعم .. بالضبط ! كنت دائما مغرما بالتصوير الفوتوغرافى وحولنى « لودفيك » إلى مصور محترف . بدأت أبيع الصور الفوتوغرافية للصحف فى بريطانيا وأوروبا وغالباً للصحف البرجوازية الجادة . أخبرنى ألا أتصل أبدا بأى من الصحف اليسارية . كان بعض الصور التى التقطتها على درجة عالية من الجودة ولذا أصبح لى مكانة فى « فليت ستريت » .

كان الجميع يعرفون وسيلة كسبى للعيش . مرة فى الأسبوع يحضر « ديفيد » كاتب الشفرة من وزارة الخارجية . نلتقى فى مطعم أو مقهى . يخرج حزمة من الأوراق . أعود بها إلى الاستوديو حيث أقوم بتصوير كل صفحة ثم أرجع مسرعاً إلى المقهى لأعيدها إليه . يلتقط أنفاسه وينصرف .

وفى المساء نفسه ، أقوم بتظهير المادة وفى المساء نفسه أيضا يحملها مندوب وترسل إلى « موسكو » على الفور .

أحيانا كانت « موسكو » تطلع على الوثائق قبل أن تصل إلى وزير الخارجية أو « دواننج ستريت » .

ومن أجل هذه الخبطة الكبرى ، منحو « لودفيك » نوط العلم الأحمر .

« وماذا حدث لـ « ديفيد » كاتب الشفرة » ؟

« لن تصدقى ! » واختفت عينا « هانز » فى وجهه الذى غمره الضحك . « نقلوه إلى السفارة البريطانية فى موسكو » .

- ١٠ -

« لماذا يتأخر هكذا .. دائماً يا أمي ؟ » .. كانت هناك نغمة يأس في صوت « فيلكس » وهو واقف بشعره الأشقر الطويل المغسول المصفف . هذا يوم عيد ميلاده العاشر . كان قد طلب - ووعدوه - أن يخرجوا لتناول الطعام بهذه المناسبة في مطعم « ساشر » ، وكانت « ليزا » قد طلبت كعكة خاصة بالمناسبة أيضاً .

« فيلكس » يرتدي بذلة كاملة ، لونها بني غامق مكونة من ثلاث قطع - أصبح يتقن ربطها على النحو والأسلوب الذي يريد رغم أنه وقف ساعة أمام المرآة .

كان « فيلكس » متوترا ، ولكن أين « لودفيك » ؟.

« ليزا » أيضا كانت متأنقة في بلوزة من الحرير ، لونها أصفر فاتح وتنورة « بيج » طويلة وجاكت مناسب ، وعلى المقعد كان يوجد معطف الفراء استعدادا للبرد خارج المنزل .

« هل سيأتي اليوم يا « ماما » » .

ابتسمت لابنها وهي تمسد رأسه برفق محاولة أن تخفف قلقها . هكذا كان الأمر دائما عندما يتأخر تتوقع الأسوأ .

الموت . قبر مجهول .عذاب ... ألا تعرف إن كان على قيد الحياة أو مات . أثناء الحرب الأهلية ، وعندما كانت الفصائل الحمراء والفصائل

البيضاء فى قتال متلاحم ، كان الموت أمرا قليل الأهمية مقارنة ببقاء الثورة . والأهم من ذلك أنها قوميسار على الجبهة . كلاهما واجه الأخطار نفسها ، وكان ذلك يجعل الانفصال أمراً محتملا . الحقيقة أن المشكلة التى كانت تواجهها مع فصيلها كانت تعنى أنها لم يكن لديها وقت للتفكير فى « لودڤيك » والآن ، من واجبها أن تحتفظ بمظهر الأم الجيدة والزوجة الجيدة أيضا . ثم أن هناك « فيلكس » .

تذكرت كيف كانت « كريستينا » تحذرها كيف يمكن أن يكون للأطفال تأثير عكسى على التزامات الشخص الثورية . سمحت «ليزا» لنفسها بابتسامة بسيطة ... ساخرة ! «كريستينا» كانت ذكية . صار كل شئ أسوأ بعد انتصار الفاشية فى ألمانيا .

و« برلين » ، تلك المدينة التى ظلت تعلق عليها آمالا وأحلاما كثيرة لزمن طويل ، أصبحت فى أيدى الأعداء . « لودڤيك » و« جيرتى » كانا هناك لمدة استمرت أكثر من أسبوعين . كان هناك ليتعرف عى الشبكات التخريبية ويحاول أن يعرف عدد عملائه الذين دخلوا السجون ويلتقى بأولئك الذين لم يقبض عليهم بعد ، وليتأكد بكل وسيلة إن كان أى منهم قد تأثر بالفيضان البنى الدى كان يجتاح البلاد .

«ليزا» تفتقد « لودڤيك » أكثر مما كانت تتوقع . وكان يجتاح كيانها أحيانا شوق جارف وحنين له ، حركاته ، إيماءاته ، تشعر بلمسة يده على وجهها ، تشم رائحة القهوة فى « السنترال » حيث كانا يلتقيان فى أيام الغزل الأولى . وفى لحظات كتلك ، كان يصيبها الشلل وتعجز عن عمل أى شئ ولا ينتزعها من تفكيرها فيه سوى صوت ابنها .

« ماما »

« اسمعنى يابنى ، سننتظر عشر دقائق أخرى ! بعدها ستصحبك أمك إلى المطعم . سنأكل ونشرب نخبك ونستمتع . » امتلأت عينا « فيلكس » بالدموع . جثت « ليزا » على ركبتيها وعانقته وضمته إليها بحنان .

« أينما كان والدك ، وأنا واثقة أنه فى قطار يقترب من « فيينا » .. لا بد أن تثق أنه يفكر فيك . دعنا لا ننتظر أكثر من ذلك .. هيا بنا » ! .

خرجت الأم والابن من البناية ذراعا فى ذراع . كان الجو فى الخارج مظلما وباردا .. انتظرا بعض الوقت حتى جاء الترام .. وكان كلاهما يرتعد من البرد . وعندما فتح لها البواب باب المطعم شعرا بارتياح . كان الدفء يرحب بهما . نظر « فيلكس » إلى « ليزا » مبتسما . أعطيا الجاكتات للخادم ودخلا .

وبينما كان النادل يصطحبهما إلى الطاولة المخصصة لهما والمحجوزة باسم « فيلكس » أشرقت عينا الولد . اختفى التحفظ .

« بابا ..... بابا ! » .

وضع « لودفيك » الجريدة وقام ليعانق أبنه ويقبله . بينما « ليزا » تحدق فيهما وتحاول بكل جهد أن تسيطر على مشاعرها .

كان بخير . لم يحدث له مكروه .

« حسن إذن ! » قال « لودفيك » بصوت أبوى « كنت متأكد من أنكما سوف تتأخران . ظننت أننا سنكون هنا فى الثامنة تماما . جلست انتظر » .

« فيلكس » يضحك سعيداً . أعطاه والده علبة صغيرة ، فتحها فتفجرت سعادته . ألبوم طوابع جديد وعدد من المغلفات البنية الصغيرة مليئة بالطوابع . سقوط « الهابسبورج » أدى إلى ظهور دول جديدة ، وكان ذلك يعنى طوابع بريد جديدة .

كان « فيلكس » متخصصا فى أوروبا الوسطى والشرقية . سفريات والده التى لا تنتهى كان لها ملمح إيجابى واحد ، مساعدته على تنمية هواية جمع الطوابع البريدية . بدأ « فيلكس » يتأمل الصلبان المعقوفة والقمصان البنية على الطوابع الألمانية الجديدة .

« كيف وجدت « برلين » ؟ » كان سؤال « ليزا » غير عادى مع أنها سألته بصوت عادى .

« ليست جيدة ! معظم أصدقائنا اختفوا » .

لم يقولا أكثر من ذلك . كان واثقين أن « فيلكس » رغم أنه سأل أسئلة قليلة ، قد فهم أكثر مما كان يعرفان . لم يعد طفلا ، .

وهكذا كانت محادثاتهما فى حضوره على مدى السنوات الأخيرة كانت تصبح كأنها مشفرة يوما بعد يوم .

انحنت « ليزا » ومسدت وجه « لودڤيك » . ابتسمت عيناه . تناول يدها وقبلها . كان لهما فى « ڤيينا » أكثر من عام بقليل وكانا يتجنبان معظم أصدقائهما السياسيين القدامى . بيد أنه كان من المستحيل إغلاق الماضى تماما . كان لهما ذكريات كثيرة قديمة فى « ڤيينا » . كلاهما كان يفكر فى الأيام السابقة ويبتسم . « فيلكس » هو الذى أعادهما إلى الحاضر .

« مـــامـــا ! هـــل يمكـــن أن أطـــلـب آيـــس كـــريـــم مـــرة ثـــانيـــة ؟ »
« بالتـأكيـد ! » « قـال والده ، « هذا يومــك ، أطلــب ماتشاء » ! قالت
« ليزا » : « هل أخــبرتك يــا « لودڤيك » لماذا كنت دائماً أتناول قـهوتى
فى « لاند مات » ؟ .

« لأنـهـا كانـت قريبة من الجامعة ، لأنك لم تكونى مهتمة بالسياسة ،
لأن صـديقك الغـبى كـان يصـر علـى ذلك . لأنك كنت تريدين أن تعـرفى
كيف تحافظ « الماماهلر » على جمالها . » .

« فيلكس » يضحك .

« لا ... ياغـبى ، بل لكى أخطف نظرة سـريعـة إلى « سـيـجـمـوند
فـرويد » قـالت « ليـزا » وهـى تضـرب « لودڤـيك » برفق على مـفـاصل
أصابعة بملعقة الحلوى .

« لودڤيك » قال لابنه : « فى السنترال » يابنى كان يمكن أن نشاهد
مـــا هـو أهـم بكثير من دكتور « فرويد » . كان من عادتنا أن نرى هناك
« آدلر » و« تروتسكى » وهما يلعبان الشطرنج .

سأله « فيلكس » ! « ومن الذى كان يفوز ؟ »

فى تلك الليلـــة ، بعـــد أن نام « فـيلكس » ، أفـضـى « لودڤـيك »
بهمومه . قال لـ « ليزا » إن الموقف فى ألمانيا كان من المتعذر إصلاحه
أو استـعـادته فى المسـتـقبل القـريب . « لقـد منينا بـهـزيمة سوف تغـيـر
خـــريطة أوروبا . أنا واثق من ذلك . كـــان بالإمكان تجنب ذلك لو أن
الأغبياء فى « موسكو » قد فهموا أن ....

قـالـت « ليزا » وفى صوتها غضب باد « لقد كان تروتسكى محقا »
« نعم ! وهذا ايضا ! الآن أصبح الوقت متأخرا » .

الشيـوعيـون والديمقـراطيـون الاجتماعيون يحملون فى الشاحنات إلى معسكرات الاعتقال . والآن سوف يتحدون ضـد « هتلر » .. وحدة فرضتها المقبرة ! » .

« وجيرترود ؟ هل مازالت فى برلين ؟ »

« لا ! أرسلتـها إلى « مـيونخ » لكى تعرف إن كان تنظيمنا مـا يزال سليما هناك . وقبل أن أرحل تلقيت منها رسالة واحدة .

رجالنا مـازالوا فى مواقعهم ، ولكن والدها يفقد معظم مرضاه غير اليهود رغم أنه يؤيد هتلر »

« لودو ... »

« ماذا ؟ »

« هل حدث أنك أنت و« جيرترود » ... ؟ »

« ماذا ؟ »

« واضح أنها تراك جذابا ، ظننت أنك لابد أن تكون .... »

« ظننت مـاذا أيتـهـا الغـبـيـة .. هل تعتـقـدين أنهـا من صنفى ؟ ربما سـألت أيضـاً إن كنـت قـد مـارست الجنس مع باذنجـانة ترتدى نظارة طبية ! »

« المسألة ليست مسألة صنف يا « لودو » . رفقة . شعور . أشياء كثيرة تصبح مهمة فجأة بالنسبة لمن يعملون معنا . أنت تعرف ذلك جيداً . كل ما أريده هو أن أعرف الحقيقة . »

غير « لودڤيك » لهجته عندما أدرك أنها كانت جادة .

« كان لابد أن تكونى قد عرفتينى جيدا . أنا لست « ريتشارد سورج » ، أم تعقدين أننى هو ؟ »

ابتسمت « ليزا » . كان نشاط « سورج » الجنسى موضوع الثرثرة لا تنتهى فى رئاسة الشعبة الرابعة فى « موسكو » . كان رؤساء أجهزة الاستخبارات يعتبرون « سورج » أقدر عملائهم ، ولكن جنوحه الجنسى إلى جانب عادة الڤودكا كل ليلة قد يكشفاه للعدو ذات يوم .

« لودڤيك ... لا تلعب علىَّ ! »

« قدمت لى عرضاً ... »

« ظننت ذلك »

« رفضت »

« لماذا ؟ »

« لأنه كان يعنى لها أكثر مما يعنى لى . ومن ناحيتى ليست هناك ما يجذبنى إليها . لاشئ بالمرة . هل هذا واضح ؟ أم تراك تريدين الاستمرار فى التحقيق ؟ »

أقترح عليك أن تستعينى بمحققين قانونيين آخرين . سيكونان أفضل منك فى هذا الشأن !» .

« أحبك يا « لودفيك » .

« أعرف .. لذا كفى عن ذلك الآن ! »

حتى بعد ذلك ، وبعد أن مارسا الجنس ، و«لودفيك » منهك .. وسعيد ... عادت « ليزا » إلى نفس الموضوع .

« استيقظ يا « لوجو » ، لم أراك منذ أسابيع ، يمكنك أن تنام فى الصباح كما تريد ... » .

تأوة وفرك عينيه وعلى وجهه علامات الضيق . سعيدة لأنه أطاعها . سألته « ليزا » بأسلوبها البرئ .. المخادع ...

« عندما يكون شخص ما فى بلد غريب ، يعمل كثيرا ، ويشعر فجأة بالعطش ... من المؤكد أن يسمح له بتناول كوب من الماء .....» « عدنا لذلك مرة أخرى ...! »

« أجبنى ! »

« نعم ... مسموح ! »

« وللنساء كما هو للرجال ؟ »

« بالطبع ! »

« دون قيود ؟ »

« قليلة .. إذا كان الماء ملوثا يصبح من الضرورى استخدام فلتر! »

ضحكت « وهذا هو كل شئ ؟ »

« أعتقد ذلك »

« وماذا لو تحول الشرب بانتظام من نفس الكوب إلى عادة ؟ »

« فى هذه الحالة لابد أن نعرف إن كان من يشرب يطفئ ظمأه أو أنه قد أدمن الكوب ! » « شكراً .. يا « هر لودفيك » . والآن دعنى أعرف إن كنت أدمنت كوبا ! اتفقنا » ؟

« لودفيك » قال مقلداً « ستالين » : « أعاهدك أيتها الرفيقة «ليزا» .

« كف ! لست فى حالة تسمح بمناقشة أى شئ جاد هذه الليلة . هيا لننام . »

تأوه قائلا : « كنت نائما ! »

بعد أن أرسلا « فيلكس » إلى المدرسة فى اليوم التالى ، جلس « لودفيك » أمامه الآلة الكاتبة ، أمام كتاب الشفرة ، وبدأ يكتب تقريرا مفصلا ، ولكنه دقيق . تقرير عن الوضع فى ألمانيا .

التزم بالحقائق المجردة . متجنبا إغراء المحافظة على الروح الطائفية المجنونة التى أطلقتها « موسكو » فى المؤتمر السادس للكومنتيرن . أعلن قادة الثورة العالمية أن الديمقراطية الإجتماعية هى العدو الرئيسى وطالبوا بنضال شرس ضد منظماتها . « والفاشية ؟ « هتلر » أولاً ثم

يأتى دورنا » ، كانت تلك هى الإجابة الجاهزة . أى تلميح إلى ماكان يشعر به ، كان يمكن أن يؤدى إلى استدعائه وطرده وربما تصفيته جسدياً ! كان هناك عمل لابد من إنجازه فى أوروبا ، خاصة وأن « هتلر » كان الآن فى السلطة . وكان من المحتمل أن يكون الاستقلال النمسوى هو الخسارة الأولى .

كان الموقف يزداد سوءاً . « لودفيك » كان يعرف أنه لابد من التحرك إلى مدينة أخرى قبل نهاية العام .

كانت السماء خالية من السحب ولا توجد نسمة هواء ، دفء الشمس يوحى بأن الربيع ليس بعيدا . التقرير تم تسليمه بأمان إلى السفارة السوفيتية لينقل سريعاً إلى « موسكو » .

تنفس « لودفيك » نسيم الصباح وسار منتعشا نحو السنترال حسب موعد له هناك . « تيدى » أحد الهنغاريين التابعين له المزروعين فى « فيينا » كان قلقا .

« يستحسن أن تقابله أنت يا « لودو » . إنه سيعمل تحت قيادتك ، وإذا كنا على وشك الوقوع فى خطأ ، فمن الأفضل أن يكون خطؤك . وإلا فإن « بورتنوتسكى » سيقول : يعنى أنك تثق فى كلام الهنغاريين ؟ »

ابتسم « لودفيك » . الخصومة بين البولنديين والهنغاريين الذين كانوا يعملون لحساب الشعبة الرابعة أطلقت التشنيعات من الجانبين كليهما . تساءل بخصوص الرجل الإنجليزى ، ولماذا كان انطباعهم جميعاً جيد هكذا .

عندمـــا دخل « السنتـــرال » رآهم جـــالسين على طاولة فى ركن . تجاهلهم « لــودڤيك » ومضى ليجلس على مسافة تمكنه من رؤيتهم دون أن يلاحظوه . من الواضح أن المرأة هنغارية ، كان لها عينان مـجريتان شرستان وربما كانت إحدى عشيقات « تيدى » . معظم الرجال أمامهم أكواب ماء . كان تيدى يفضل الشرب من الأبريق مباشرة حتى يفرغ . ولكن الإبريق يبدو مملوءا إلى المنتصف المهمة لم تنته بعد .

تفـحص الرجل الإنجليـزى بدقـة وكـان فى قـرارة نفسه سـعيـدا بما لاحظه . النمط التقليدى . يرتدى بدلة من ثلاث قطع . ويبدو قليل الكلام .. وكان ذلك أيضا شيئاً حسنا .

هل هو التحفظ الإنجليزى المعهود .. ؟ أم تراه شخصية انسحابية منطوية ؟ كم هو غريب ! بذلك كـان « لودڤيك » يحـدث نفسـه . أحـيانا تخطئ الأحاسيس . فقد لا يكون الرجل شيئا من ذلك على الإطلاق . ربما كـان سكيرا صـخـابا فى أحـسن حـالات سلوكـه ! من المسـتـحيل الحكم عليه من أول نظرة ، ولكن المظهر إيجابى !

عنـدمـا نظـر إليـه « تيـدى » ، هـز « لودڤـيك » رأسـة وسـار نـحـو طاولتهم . تعانق الرجلان .

« أنا لودڤـيك » .. قـال وهو يصـافح المرأة وينظر مـبـاشـرة فى عـينى الإنـجليزى .

« هانًا » .. قالت مبتسمة عن أسنان جميلة .

« ڤيلبى » ... قال الإنجليزى متلعثما بعض الشئ وهو يمد يده إلى «لودڤيك » .

- ١١ -

« كانوا صغاراً » ، ظلت امرأة من « هانوى » ، متوسطة العمر ، تردد تلك العبارة « الكراهية الشديدة مرسومة على وجوههم .. كانوا صغارا وكلهم شر !

أمرأة حامل ، لا يزيد عمرها عن خمسة وعشرين عاما أخبرت «ساو» كيف كانوا يركلونها فى بطنها . كان طوال الوقت يتكلم عن الأيام الماضية .

« لابد من إحراقكم جميعا أيها الأجانب .. بالغاز ... مثل اليهود. ! .

لم ينسوا الماضى كما تعرف ، كانوا يفكرون فيه طوال الوقت وبتأثر شديد .

كانت الأصوات تتردد فى رأسه .

كان « ساو » يشرب الشاى فى مطبخ « ڤلادى » . التوتر على وجهه الوسيم .

على مدى يوم كامل كان يستمع إلى حكايات مرعبة . أبنة عمه ، أصدقاؤها ، نساء صغيرات وكبيرات ، طلبة المدارس .. كلهم كانوا يروون له بالتفصيل ما حدث فى تلك الليلة منذ أكثر من عام ، عندما قامت جماعة من الغوغاء الفاشست بإشعال النار فى المنزل الذى كانوا

يقيمون به . كان « ساو » قد قرأ عن ذلك فى « الليموند » ولكـن ذلك لم يمهده للحكايات التى سمعها فى « روستوك » بالأمس .

« لا أستطيع أن أحكي لك أكثر من هذا يا « ڤلادى » . تكلم أنت»
نظر « ڤلادى » إلى صديقه « ولماذا تستغرب ذلك ؟ أنت نفسك كنت على وشك الإخـصـاء فى « درسـدن » ذات ليلة .. وكـان ذلك أيام جمهورية ألمانيا الديمقراطية ياله من أسم غريب . جمهورية ألمانيا الديمقراطية . لو استطاعوا أن يفعلوها آنذاك .. كانت مسألة وقت فقط قبل الانفجار . « روستوك » لم تكن أسوأ حالا ، على الأقل لم يقتل أحد . فى « سولنجن » كانوا يحرقون الأتراك .

صرخ فيه « ساو » . صوته حاد ، علامة على أنه كان متعبا وفاقـدا السيطرة على مشاعره . « ماذا تحاول أن تقول أيها المضلل .. ؟ إنهم فى الغرب أكثر وحشية منهم فى الشرق ؟ بمحض الصدفة فقط أن أحدا لم يقتل فى « روستوك » . روح التضامن بيننا هى التى أنقذتنا . كل واحد كان يساعد الآخرين ».

« أعرف ، وليس الفيتناميين فقط ، كانت الأسر الألمانية تقدم المأوى . أهدأ يا « ساو » أرجوك ، أنت هنا بعد طول غياب ..... ومصدوم .. أما أنا فمقيم هنا . لا شك أن الأمر مـرعب ، ولكنه ليس أسوأ من فرنسا أو إيطاليا .

هناك .. يحرقون الأفارقة . الفاشست الجدد ظاهرة أوروبية . الشئ نفسه فى انجلترا والسويد . هذا لا يعنى أن الأمر هنا أقل سوءا ،

ولكن ... أرجوك ... لا تشترك فى الجوقة الألمانية على مشارف الرايخ الرابع ! نحن لسنا بعيدين بعقود قليلة عن الفاشية . لم يعودوا فى حاجة إليها . التاريخ يعيد نفسه مرة أخرى كمهزلة !»

« هذه فى حد ذاتها مزحة ! عبارة ماهرة من الفيلسوف القديم ، ولكنها خرقاء ! « كارل ماركس» يحاول أن يكون « أوسكار وايلد » . عبارة شاردة تتحول إلى حقيقة خالدة ! بواسطة أعضاء الحزب المخلصين . « ڤلادى » ... وفر علينا مواعظك ، كما يردد دائماً عمى المقيم فى « لويز يانا » . ليس اليوم أرجوك ... ! دعنا نتحدث عن أى شئ آخر ! »

صمتنا دقيقة . « ڤلادى » يتنهد ولكنه لا يقول شيئاً .

سأله ساو : « هل تفتقد إلقاءك للمحاضرات ؟ »

« كنت أجد أحيانا أن إلقاء محاضرة واحدة فى اليوم ، أكثر إرهاقا من ممارسة الجنس ثلاث مرات »

« وماذا لو مارست الجنس أربع مرات أو خمس أو ست ، هل كنت تشعر بأنك أقل إرهاقا ؟ » من المؤكد أن اللسان يكون مشغولا فى الحالتين . إن الإشارات الصادرة من المخ هى التى تختلف . أحيانا لا أفهمك بالمرة يا « ڤلادى » ! .

ضحك « ڤلادى » . الخدمة العادية استؤنفت ! عاد « ساو » إلى طبيعته العادية ، ولكن من الواضح أن زيارة « رستوك » قد أثارت أعصابه .

« ما هو الشئ الذى ضايقك وأفسد مزاجك بالفعل يا « ساو » ؟

« النار »

« أفهم ذلك »

« لا ! أنت لا تفهم يا « ڤلادى » . عندما كنت فى السادسة عشرة ، كنت فى علاقة حب مع فتاة .. أسمها « دوا » وكانت تكبرنى بعام واحد . أبوها كان يحارب فى الجنوب . كنا قد أجلينا من هانوى إلى قرية صغيرة تبعد عن « هايفونج » بمسافة عشرين كليومترا . بعد أن ينتهى عملنا فى القرية ، كنا نمشى لمسافة عدة كيلومترات ونجلس على صخرة ، نرى الشمس من تحتنا وهى تغرب فوق خليج « هالونج » . كانت الصخور التى تشبه التنين تعكس ضوء الشمس فى لحظات سحرية وتبدو كأنها قد أصبحت تنينا حقيقياً . ثم تختفى الشمس ، ولعدة دقائق كنا ننعم بحمرة الشفق بينما الماء يغير لونه ، فتهمس « دوا » إنها لوحات الطبيعة . ونغيب فى عناق !

كانت الحرب على أشدها ولكنها كانت أجمل لحظات حياتى ... كل شئ كان يبدو نقيا . بعد الحرب كان من الممكن أن أقول لنفسى : « سأجوب معها العالم ! »

صمت « ساو » متأثرا بتفجر الذكريات ، ثم استأنف حكايته . ذهبت إلى « هانوى » لزيارة والدى بمناسبة العام الجديد . كانوا قد أعلنوا وقف القتال لمدة يومين . سمعت القاذفات فى طريق عودتى . وليومين كاملين كنت لا أستطيع الاقتراب من القرية .

كنا نختبئ فى الكهوف . وتمكنت من العودة فى اليوم الثالث .

لم يكن هناك أى شئ يا « ڤـلادى » . لا شئ سـوى بقـايا منازلنا وأصدقائنا المتفحمة ! « دوا » أحـرقـت حية . كانت تجلس فـى سـيارة « جيب » مع بعض الأصدقاء . كـان الـرمـاد البـشـرى مـازال هناك ويمكن التعرف عليه . لحمها متحجر ، ولكننى تعرفت عليها يا « ڤلادى » ... تعرفت عليها ! » .

كان « ڤلادى » يريد أن يضم صديقه إليه ويخفف عنه ويخبره كيف أختفت كل عـائلة « جيرترود » فى المعـسكرات . كـان بيننا أنا و«سـاو» همـوم مشـتركـة كثيـرة ... أكـثر مما يتـخيل . هـكذا كـان « ڤـلادى» يفكر ولكنه كان عاجزاً عن الكلام .

أمتلأت عيناه بالدموع ، قام من مكانه وسار ببطء إلى النافذة . كانت شجرة الكمثرى العتيقة الملتوية ... الوفـية ، ماتزال هناك فى مكانها ، الشجرة نفسها التى كان فى طفولته يجدها تواسيه عندما يضايقه شئ ... أمر غريب ، الذكريات أعادت لوجهه ابتسامة . فعاد إلى الطاولة .... كان « ساو » يبتسم ثانية .

« لا أظن أن الآلهة كانت تريد السعادة للإنسانية أبداً ! »

« وهل الأمور حقيقية على هذه الدرجة من السوء يا « ساو » ؟

« بـل أسـوأ ! أسـوأ بكثـيـر يا « ڤـلادى » . أنظر إلىَّ مـثـلا ، عندى ثروة ، وزوجة فرنسية غنية ، وطفلان . أستطيع أن أذهب إلى حيث أريد وأن أفعل ما أشاء .

النقود هى جواز سفرى الكونى . لدى ما يكفينى .. لكن هل أنا سعيد ؟ لا »

« ولم لا ؟ »

« أنت الذى يسأل هذا السؤال ؟ »

« نعم ! لم تكن أبدا رجل سياسة ألا ترى أن حياتك نعيم مقارنة بحياة معظم مواطنينا فى الشرق والغرب ؟

لو يملكون قدرا يسيرا مما تملك لما حدث أى حريق فى «روستوك » وهناك شئ آخر يا « ساو » ، تبدو أفضل مما كنت فى السابق . هذه الحياة الجديدة تناسبك . شكاواك كلها لا شئ ! خزعبلات ! أنت محتال كبير يا « ساو » ، تظن أنك لو اعترفت بأنك تحيا حياة سعيدة ، فإن قوة ما سوف تصرعك ! » ضحك « ساو ». « إذن دعنى أعطيك بعض أموالى ولتطبق هذه الملاحظات البصيرة على نفسك » .

« خطأ ياصديقى ! إنك لا تمتلك الرؤية الماركسية - اللوثرية للخطيئة لتجادل بها مثلى . إنها تقاليد مختلفة ! »

« مازلت ماديا يا « ڤلادى » ، وغبياً ! أنا واقعى ، ولدى رؤية .. وهذا هو الفارق . عرضت عليك كل شئ لكى تكون سعيداً . إن كنت تريد أن تنشئ دار للنشر ، فلسوف يجعلنى ذلك أقل تعاسة بدرجة قليلة . »

« مال مدفوع لإراحة الضمير ؟ »

« سمه كما تشاء يا « ڤلادى » ، ماذا يمكن أن تأخذ بدلا من ذلك ؟ »

« أبا ! »

كلاهما كان مأخوذا بسبب حدة لهجة الحوار . « ڤلادى » نفسه كان مدهوشا لإجاباته عن أسئلة « ساو » . و« ساو » متأثر جدا . على مدى سنوات صداقتهما كانا يناقشان أشياء كثيرة بما فى ذلك علاقاتهما الجنسية ، ولكن لاشئ آخر عميقا. مثل ما يقوله « ڤلادى » الآن . حاول « ساو » أن يمسك به بنظرة محدقة ولكن « ڤلادى » أشاح بعينيه حرجا وخجلا !

« لا أعرف لماذا قلت ذلك ؟ أعتقد أنها مسألة مؤلمة ... ويعمق .. ! هم ثقيل .. ألاَّ يعرف شخص أباه ! » .

« فى بلادنا .. التجربة عامة تقريبا ، أنا أحد قلة محظوظة . ثلاثة حروب يتمت شعبنا ! جنود أطفال ... كانوا كلهم يسيرون بشجاعة نحو حتفهم . إلا فى المرة الأخيرة . ثم ، ليس عليك سوى أن ننتظر ، والموت يهبط مثل الصواعق من السماء .

« زاينج » الكونج ! هل تتذكر ؟ أحيانا تكون الذكرى أهم من الشخص نفسه . »

« ليس بالنسبة لى ، الشئ الغريب بالنسبة لى هو أن الأب الذى لم أعرفه أبدا ، أصبح موضوع عبادة ! كانت « جيرترود » تتكلم عنه وكأنه إله .. أعتقد أننى قلت لك ذلك من قبل ، ولكن كان هناك دائما شئ

غريب فى الطريقة التى تشير إليه بها . تعلو وجهها نظرة غير عادية ، ربما كنت أتخيل ذلك ، ولكن كان لدى شعور بأنها تكذب !

« تقصد أنها لم تكن تحب والدك ؟ »

« لا ! أعتقد أنها كانت تحبه كثيرا ، لكن هل كان ذلك حبا حقيقيا ؟ »

« ماذا ؟ »

هز « ڤلادى » كتفيه .

« سألتها ذات مرة إن كان « لودڤيك » بالفعل اسمه الحقيقى .

قالت إنها لا تعرف . كانت تقول الحقيقة وذلك هو الذى أقنعنى بوجوده . ذات ليلة ، عدت من اجتماع حزبى أو ربما من مكان آخر لا أذكر .. وكانت سكرانة .وجدتها تصرخ بلا تحفظ . شديدة الانتقاد لـ « هونيكر » وللنظام .

وكانت تشجعنى على تكوين شبكة سرية من الاشتراكيين المنشقين . وتتكلم عن الماضى وعن « الكومنتيرن » .

تشجعت بأسلوبها فسألتها عن أشياء كثيرة فى تلك الليلة .. وبالتفصيل . كان ذلك قبل وفاتها بثلاث سنوات . لابد أننا كنا فى عام ١٩٨٩ ، عندما أخبرتنى أن « لودڤيك » كان على علاقة بامرأة أخرى وأنها – جيرترود – لم تعش معه أبدا .

مرة أخرى شعرت أنها كانت تقول الحقيقة ، وفى تلك المرة كان ذلك معقولا . إذا كنت أنا نتاج تجربة فاشلة لم تستمر سوى ليلة واحدة .. فليكن ! لم أصدم ! قليل من خيبة الأمل ولا أكثر ! »

تساءل « ساو » بصوته الهادئ « إذن ليس هناك لغز ! » قال فلادى « بل أظن أن هناك يا « ساو » . وذهب إلى الغرفة المجاورة وأنزل صورة « لودفيك » من على الحائط ووضعها على رجل « ساو » . كانت نسخة بالأبيض والأسود حال لونها ، يظهر فيها رجل وأمرأة منكمشين تحت مظلة فى شارع مزدحم .

ورجل آخر أكثر نحولا يجلس على طاولة فى مقهى يدخن سيجارا .

« أنا بالكاد أتعرف على « جيرترود » فما بالك بأن أرى نفسى فى لودفيك » ؟

تأمل « ساو » وجه « لودفيك » بدقة وضحك ، ثم نظر إلى صديقه .

« عندك حق ، ولكنها صورة غبية . يمكن أن يكون هذا الرجل أبى . شئ غريب ! هذه الصورة لا تثبت شيئا . لا شئ بالمرة ! »

« أو ربما كل شئ ! »

ابتسم « ساو » . « وهل أنت مقتنع بأن الحقيقة مهما كانت ، مدفونه هناك فى أرشيف الـ « ك . ج . ب » ؟ »

« نعم ! »

« فى هذه الحالة لن يكون عليك أن تنتظر طويلا . أنا ذاهب إلى «موسكو» الشهر القادم .. فى عمل . لو الملفات موجودة هناك فسوف

تحصل عليها . سأزور « أولان باتور » و« بكين » كذلك . اعطنى شهرين إذن !

« شكراً » !

كنا فى بداية الظهيرة . الشمس فى الخارج ساطعة . « ڤلادى » يذرع غرفة مكتبه جيئة وذهابا . هل يتصل بإيڤيلين تليفونيا ؟ هل يخرج ليتمشى ، كان « ساو » قد انصرف منذ ثلاثة ساعات ، بينما ڤلادى غارق فى مقعده يفكر . كان الماضى بالنسبة للبعض مثل البلد المهجور . ولكن ليس بالنسبة لـ « ڤلادى » . الماضى يؤرقه ، يضغط عليه بشدة ، يقص أحلامه، كان قد طمس أياما بكاملها . الماضى أصبح كابوسا ثقيلا . كانت وسيلة « جيرهارد » للخروج من ذلك هى الانتحار ، لكنه كان مخطئا . كان فعلاً ، مخطئا . الموت ليس المهرب الوحيد . الماضى يمكن أن تعاد كتابته ، يمكن اعتناقه . اكتشافه ، نسيانه ! ذلك ما يفعله الناس معظم الوقت .

كان « ڤلادى » شديد الولع بالجدل ، وشديد الفضول ، ولا يفكر فى الموت بشكل جدى . وكان الانتحار العالمى التاريخى يعتبر عملا من أعمال الغطرسة لا يمكن تصديقه .

واليوم ، وفى حضور « ساو » لم يكن قادرا على كبح قلقه وإخفاء همومه الخاصة بأبيه ، والتى كانت تمزقه منذ أن كان طفلا . أحيانا يفكر ... كيف يمكن أن يكون شكل علاقته بأب ؟ كان يتصور حوارات كاملة . كانت أفكاره عن الأبوة مستمدة فى معظمها من الروايات ،

ولذلك لم تكن ثابتة . كانت الصفحات الأولى من رواية « جوزيف روث » : « رادتكسى مارش » كفيلة بأن تتركه فى وضع قاس وتطرد كل الأفكار العاطفية ويشكر التاريخ الذى حرمه من أب ! ولكن حالته اليوم مختلفة . سخرية « روث » المزعجة لم تتسلل لأفكاره أبدا . كان يفكر فى ابنه « كارل » ، يتخيل إلى أى مدى كان فشله كأب له علاقة بكونه ليس له أب !

جلس إلى مكتبه ، جهز الآلة الكاتبة وقرر أن يكتب رسالة إلى «كارل» . قد يكمل المذكرات وقد لا يكملها . من المحتمل أن تظل مجموعة ذكريات مفككة ومشوشة عن حياته . ولكن « كارل » يمكن أن يفهم . كان دائما قادرا على فك الألغاز . وفى الوقت نفسه ، هكذا فكر « ڤلادى » ، أنه مدين له برسالة .

عزيزى « كارل » .

بعد أن اتصلت بى تليفونيا فى عيد ميلادى ملأنى الندم . لماذا لم أكن ودوداً ؟ نحن الذين كنا قريبين يوما ما ، كنا نتكلم معا بطريقة رسمية وبأسلوب متحفظ . إن ذلك يؤلمنى ... ولذلك كانت هذه الرسالة يابنى . ماذا يمكن أن أكتب لك بعد جفوة أربع سنوات ؟ هناك الكثير الذى يجب أن أقوله ومع ذلك لا أعرف من أين أبدأ .

هل أبدأ من الألم الكبير ؟ أنت تعتقد أن أمك قد تركت البيت لأننى كنت على علاقة بإيڤيلين .

هذا ليس صحيحا . لم يحدث أبدا أن كانت « هيلجا » تُؤثِر الشخصى على السياسى ، هذه حقيقة يا « كارل » وكانت تلك مادة أولى فى عقيدتنا .. أمك وجدتك وأنا .

على أية حال ، أنا أود أن تعرف شيئا . كان رحيل أمك أكبر كارثه شخصية حلت بى . كانت شيئا ثمينا فى حياتى . بعد موت « جيرهارد » كانت « هيلجا » أقرب أصدقائى ورفاقى إلى . كنا نتحدث معا عن كل شئ ، (نعم ! بما فى ذلك إيڤيلين) . كلانا كان يواسى الآخر ويخفف عنه بسبب الخسائر السياسية والشخصية التى لقيناها . قرارها بالرحيل إلى نيويورك كان مفاجئا وغريبا وأصابنى بالخرس ، كان بودى أن أركع أمامها على ركبتى وأتوسل إليها أن تبقى ، أن أقول لها إن الحياة بدونها مستحيلة . ولكن قبل أن أفيق من الصدمة كانت قد ذهبت .

مرة واحدة ، شعرت بالحزن الشديد وبالاكتئاب لدرجة أننى فكرت أن أحتذى مثال « جيرهارد » . ولكنه فارق الحياة لأسباب تتعلق بالكرامة .. أما أنا ، الأقل احتراما لذاتى ، والشديد الإحساس بالوحدة ، فقد أشعر بالأسف لحالى .

عندما كنت أنت فى العاشرة أو الحادية عشرة ، اصطحبناك لمشاهدة أوبرا « البنسات الثلاثة » لبرخت.

أعجبك الممثل الذى كان يقوم بدور « ماكهيث » . كان صديقا قديما « لجيرترود » ، وعندما ذهب إلى غرفة الملابس كان يغنى لك خصيصا . هل تذكر ذلك ؟ لن يغنى بعد ذلك أبدا ... ! فقد وضع نهاية لحياته مثل « جيرهارد » كان فى حالة اكتئاب منذ عودة النظام القديم . لم يكن لديه أية مشكلات شخصية . بالعكس ... كان لديه عروض تمثيل فى « هامبورج » ولم يكن يعوزه المال . لم يكن له صلة بجهاز الاستخبارات ولم يتهمه أحد بذلك . ولكنه لم يكن سعيدا .... باختصار لم يكن قادرا على الحياة فى ألمانيا الجديدة .

كان أكثر شئ يكرهه هو تلك الحقيقة غير المنكورة أن شعبنا قد صوت لصالح الديمقراطيين الاجتماعيين ، وأن كل شئ قد تغير بسرعة ، ولم يعد هناك مكان – على الأقل فى حياته – لمجرد الأمل . لذا اكتشف أن لامعنى للحياة ! حتى فى أشد سنوات هذا القرن حلكة ، عندما بدأ أن الرايخ الثالث سوف يسيطر على أوروبا ، أقدمت قلة من اللذين لهم نفس الأفكار مثلنا .... على تلك الخطوة المتطرفة .

لكن لماذا الآن ؟ لأن كآبة ثقيلة تنخر أرواحنا ، وبعضنا يجد من الصعب أن يغنى أغنية البجعة لهذه النهاية المرة . كان هذا القرن قرن ألم وقبح وكرب !

الميثولوجيا المسيحية تعتبر الانتحار خطيئة . الأنظمة العلمانية اليوم تتعامل معه كجريمة .. وهذا غريب ! لأن الجريمة إذا نجحت فإنك لا تستطيع أن تعاقب مرتكبها الحمقى المسيحيون أكثر اتساقا ، فهم على الأقل يؤمنون بارتحال الأرواح .

أكثر شعرائهم موهبة ، يضع « غابة المنتحرين » فى الدائرة السابعة من جهنم ، بالقرب من مركز « الجحيم ، فى هذه الغابة ، أزهرت الأشجار والشجيرات من أرواح المنتحرين على الأرض ، حتى الأرواح عند « دانتى » ملوثة ،

لأن غابته لا يوجد فيها أوراق خضراء ، ولا أفرع سليمة ، ولا فاكهة .. وإنما أشواك سامة » .

لماذا ينبغى علينا أن نصدق هذا الهراء ؟ إن وضع الإنسان نهاية لحياته ليس إلا خطوة متطرفة ، وهناك بالطبع أمثلة كثيرة لأناس يندفعون نحو تدمير الذات فى حالة جنون لحظية ، أو صدمة شديدة يتخيلون ألا مخرج منها . إنهم فى حاجة إلى مساعدة ، إلى علاج من أى نوع ، ولكن هناك غيرهم ... « جيرهارد » و«كهيث» مثلا ، اللذان فكرا فى الأمر طويلا وبجدية ، ثم توصلا إلى نتيجة : أن الموت أفضل من الحياة فى هذا العالم ، ومهما كان الأمر مؤلما بالنسبة لنا ولمن يخلفهم ،

إلا أن من حقهم أن يختاروا مستقبلهم . إنه تقرير مصير فردى . هل توافق على ذلك ؟

هل يوافق أطفالك فيما بعد ؟ من يعرف ؟!

هل يدهشك أن أفكر على هذا النحو ؟ الآن ؟

هلى ترى أن الأساس المنطقى لتفكيرى أساس أساسى ووجودى إلى حد بعيد ؟ هل تراه يسير عكس إتجاه ميولى الاشتراكية التى يجب أن تلزمنى بأن أعتبر الناس جزءا من مجتمع ... من شبكة ؟ ربما ! ولكن هذا ظرف اضطرارى يا « كارل » . لقد دمروا احترامنا لأنفسنا عن عمد ، ودمروا كرامتنا كبشر ، وذلك أيضا مزق مجتمعنا إربا . أحيانا تكون الخيارات الوجودية هى الحلول الوحيدة أمام الأفراد .

حاول ... وأفهم والديك يا « كارل » على الأقل أنت مدين لنا بذلك ، . هو حقنا عليك !

أعرف أنك غاضب . شاعر بالحرج ! تعتقد أننى «وهيلجا» كنا مسكونين بفكرة مستحوذة علينا ، وأنها قد انفجرت من داخلها ، لذلك أصبحت فى ريبة من كل الأفكار . إلا أنك تعرف جيدا أن « جمهورية ألمانيا الديمقراطية » لم تكن هى فكرتنا . يمكنك أن توجه نقدا كثيراً « لـ » ماركس » ، ولكن أن تعتبره مسئولا عما يسمى

بالتجارب الاشتراكية لن يكون عدلا ! دع ذلك للدهماء !

أتخيلك وأنت تقرأ هذا ! « جمهورية ألمانيا الديمقراطية » ... تجعل الآن من هذا الإسم ، ومع ذلك كان هناك كثيرون على استعداد لأن يجعلوا ذلك النظام فاعلا ! أمك « جيرترود » ، ولكن ليس هى فقط !

مئات الآلاف من البشر الذين يحلمون ببناء بيت جميل بأثاث جميل ... بعد انتهاء أهوال الحرب . ومن أسف أن ذلك لم يتحقق ! أساسات جمهورية ألمانية الديمقراطية وضعت على اكتاف الجيش الأحمر ، والأثاث الذى وجده « أولبرشت » و« هونيكر » كان قطع خردة قديمة من مخلفات سجن لوبيانكا فى «موسكو» . ومع ذلك أسائل نفسى " هل كانوا يسمحون بإحراق الفيتناميين أو الأتراك أحياء ؟ لا أعتقد ! ولو حتى لمجرد الحفاظ على القانون .. والنظام الخاص بهم . لقد اشتهر وطننا الحزين بإرسال الملايين إلى غرف الغاز أثناء الفترة الفاشية .

إحراق العمال الأجانب وأسرهم ترف ديمقراطى جديد ! أعتقد أننا لابد أن نعتاده مثل أى شئ آخر . قادتك يقولون إنها جريمة . ولكن ماذا عن الشرطة التى تركت ذلك يحدث ؟ والأسوء من ذلك ... ماذا عن مواطنينا الذين يقفون متنطعين أو يعبرون الطريق .... تماما كما كان

يفعل أجدادهم فى « كريستال ناشت » فى الثلاثينيات أو عندما كانو يشاهدون اليهود وهم يشحنون فى القطارات إلى المعسكرات ؟

عندما يفقد البشر العاديون إنسانيتهم ، ينعكس ذلك سيئا على الدولة التى هم مواطنوها .

عندما بدأت المظاهرات فى « درسدن » و« برلين » ملأنا الفرح أنا و«هيلجا» . كنا نعتقد أننا نستطيع أن نزيل الخبث من هنا ، بدلا من استيراد الروث من حيث أنت الأن ، ولكن ذلك كان محض خيال .

هيمنه « بون » الحتمية كانت مقررة سالفا بسبب قوتها الاقتصادية ، وفشلنا نحن دون بقية شعوب العالم فى أن نسجل هذه الحقيقة ،كان دليلا على أننا قد التصقنا بالسماء السابعة .. نحب العالم كله . كانت أمك باستمرار دعامة قوية وسندا لى ، جذع شجرة أستند إليه . كنا نتكلم فى كل شئ . لم يكن هناك أسرار سوى سر واحد ، وذلك هو الذى دمرنا فى النهاية ، وبعد أن عدنا أصدقاء .. سوف أخبرك به . ولكن أن أقوله لك الآن ، يعنى أن أفقدك إلى الأبد وأنا لا أريد ذلك . أشعر بالضياع بدون « هيلجا » ، بالشلل ، أعمل بمحرك واحد فقط وقد أسقط وأتحطم فى أى وقت ! هل تفهم ما أقول ؟ أحيانا أتساءل .. هل كان بإمكانى أن أكون لك

الأب الذى تحتاج أو تريد ؟ أذكر أننى ضربتك ذات مرة بعنف على وجهك . الآن لا أذكر كيف كان رد فعلك ، وهذا وحده يدل على أنه كان شيئا بسيطا بالتأكيد .. بعض التمرد الأحمق على سلطتى الأبوية . ولكننى أستطيع أن أتذكر الرعب الذى ارتسم على وجهك . كنت فى الثانية عشرة تقريبا . وكان عنفى الذى لم تتوقعه دليلا على الخيانة التامة على قدر ما كنت تعتقد !

لم تكلمنى لمدة أسبوع . وكان على أن أرجو عفوك عنى وكنت أستغرب من أين جاءت تلك الضربة . وهكذا ترى .. حيث إننى لم أعرف لى أبا ، أن مراجعى محدودة .

القسوة الأبوية تنتقل من الأب للابن حتى تنكسر السلسلة . ولكن أحدا لم يعاملنى بقسوة فى طفولتى . كانت « جيرترود » تعتقد ، وبإصرار ، أن جدك «لودڤيك » هو أطيب وأحن إنسان عرفته فى حياتها . يوما ما سأروى لك هذه القصة عندما أعرفها كلها . عمك « ساو » يساعدنى على تتبع التفاصيل الأخيرة عن طريق اتصالاته بموسكو . وربما يكون ابنك هو الوحيد الذى يستطيع أن يفهم هذا القرن من مسافة بعيدة فى القرن التالى .

لقــد دعــوتنى بالتليــفــون لزيارتك فى « بون » . ليــست مــدينتى الألمانيـة المفـضـلة . لماذا لا نلتقى الشـهـر القـادم فى « ميونخ » ؟ « ليڤينيه » مدفون هناك .

أود أن أراك ، وأن أزور مقابر اليهود . تعبيراً عن احترام يجئ متـأخـرا ، لرجل أهمله التـاريخ . أعرف كـيف يكون الإحـسـاس بذلك . لولا اختـلاف الزمن . كـان « ليڤـاين » يعيش عندما كان هناك أمل . « جيلى فقد الأمل فى رؤية الجنة .. لن يراها أبدا . » أصـبـحنا مـقـودين « فى ظلام أبدى ، ثلج ونار » رغم يقـينى .. أنك لا ترى الأمـور هكذا من شـقـتك فى « بون » . هل ترى ذلك سـرابا آخـر من سراباتى الرومانسية ؟ هل هى يوتوبيا ضائعة فى حقيبة ماضية ؟ ربما تظن أنك محق ... والحقيقة أنك مخطئ ! هل تضحك ؟ أنا أضحك . اكتب لى بسرعة .

مع حبى يا « ڤلادى »

(والدك)

وبعـد أن كـتب عنوان « كـارل » على المغلف البنى ، كـان يفكر فى « ڤـلادى » مـرة أخرى . ربما أزعج الخطاب ابنه أكثـر مما هو منزعج ، ولكن « ڤـلادى » لم يكن فى حالة تسمح له بالاعتـراف بكل شئ . ليس بعد ! ربما بعد عـام . هل يمزق الخطاب ؟ هل يرسل بطاقة عـادية بدلاً منه ؟ من أسف أن « سـاو » كـان قـد سـافـر بالفـعل . كـان يمكن أن

يستشيره في الأمر . في مثل مواقف اليأس هذه ، كان « ڤلادى » يستشير أرفف المكتبة ، وبنفس الأسلوب ، تقريبا ، الذى يلجأ إليه أصحاب التفكير اللاعقلاني .. البحث عن عراف يقول لهم ما يريدون سماعه . «ڤلادى» اختار شاعرا . « پوشكين » ! وقف على مقعد خشبى وتناول نسخة من الأعمال الكاملة من فوق الرف العلوى حيث كان يعيش الشعراء الروس .

جلس على حافة مكتبه وفتح الكتاب . اليوم هو حسن الحظ . ويدأ يقرأ بصوت عال :

حشد من الأفكار الظالمة

تزحم عقلى الكروب ، وفى صمت ،

أمامى ، تفتح الذاكرة لفيفتها الطويلة ،

وباشمئزاز ، أقرأ تسلسل حياتى ،

أرتعد وأنا ألعن كل شئ

وأسفح الدمع المرير ..

ولكننى لا أستطيع أن أمحو تلك السطور الحزينة !

اتبع نصيحة « بوشكين » . أغلق المغلف ووضع طابع البريد عليه

وأرسله . وبينما هو عائد من صندوق البريد ، تحولت أفكار «ڤلادى» إلى أمه .

« أمى ! متى وقعت فى غرام أبى ؟ »

فاجأها السؤال . ولكنها استعادت طبيعتها على الفور .

« في برلين على ما أذكرُ .. نعم ... بالضبط .. فى البار ، بالقرب من « فورشتنهاف » فى « برلين »

« هل سافرتما كثيراً معا ؟ »

« أسئلتك كثيرة يا « ڤيلادى » ، يبدو أننى لن أستطيع أن أشبع فضولك . سافرنا إلى كل مكان . « موسكو » .

« باريس » « برلين » . و« ڤيينا » بالطبع . أذكر أننى كان على أن أقوم بتوصيل رسالة مهمة إليه فى « ڤيينا » فى سنة ١٩٢٤ .

والتقينا فى « السنترال » رغم أنها كانت ملأى بالجواسيس ، جواسيس النازى وعملاء « موسولينى » . وكان « لودڤيك » يعتقد أنه مكان آمن ، لأنهم أساسا كانوا يتجسسون على بعضهم ويحاولون معرفة إن كان الوطنيون النمسويون سيختارون إيطاليا أو ألمانيا .

نعم ، فكر « ڤلادى » ، كان لديها دائما حكايات طريفة لتحويل تفكيره عما يريد أن يعرفه . وذات يوم قالت له بعد أن ظل يلح عليها بأسئلته ، إن والده مارس الجنس معها لأول مرة فى « ڤيينا » فى غرفتها بالفندق ، ذات صباح بارد من شهر فبراير ، وكان يقفان عاريين خلف النافذة يشاهدان الثلج على الارصفة .

التفاصيل أشبعت فضوله في ذلك الوقت ، وأقنعته . ولكن الآن ..
لا ! هو الآن يشك في كل شئ سبق أن قالته له . عقله مشغول
باستمرار في محاولة لفرز ما هو حقيقي من بين الأكاذيب التي أصبح
يعرف الأن أنها كانت تغلب على أحاديثه مع « جيرترود » .

العالم الذي يجعل أمه تروي الأكاذيب ، العالم الذي عرضه للشبهة
الأخلاقية جعله يشعر بالغثيان ! هذا العالم تحول الآن إلى أطلال !

وهذه الحقيقة وحدها .. كان لابد أن تجعله يشعر بالسعادة . لكنه لم
يكن سعيدا ! .

- ١٢ -

كنا فى شهر فبراير من عام ١٩٣٤ ، وفى ذلك العام كانت « جيرترود » قد أمضت عدة أشهر وهى تعمل مباشرة لحساب « لودفيك » و« تيدى » .

لم تنس أبدا شيئا مما حدث هناك ، ومن بين كل حكاياتها ، كانت تلك الحكاية التى لم تتغير أبدا .

كانت « فيينا » قد بدأت فى التحول لتصبح مدينة مقرفة ! الألمان يمزحون قائلين : النمساويون نازيون سيئون ولكنهم معادون جيدون للسامية » وذات يوم روت لى « جيرترود » كيف أمسكت جماعة من ذوى القمصان البنية بعضوين من الحزب الاشتراكى ، أحدهما يهودى والآخر غير يهودى وحبسوهما فى غرفة صغيرة . وكل نصف ساعة تقريبا كان الجناه يندفعون إلى الغرفة ، يقفون فوق الطاولة يتبولون على أيدى الرجلين . كان اليهودى الاشتراكى يجبر على أن يردد باستمرار « أنا يهودى نتن » ، بينما يرد عليه صديقه فى كل مرة بقوله : « وأنا أريد أن أكون ألمانيا » . وهكذا طوال الليل وبعد ذلك اطلقوا سراحهما .

أما « ديفيد فروهمان » فلم يكن حسن الحظ مثلهما . كان يعمل بصناعة الساعات مثل والده وجده من قبله . وذات صباح ، لاحظ جماعة من ذوى القمصان البنية يحومون حول دكانه ، بينهم بن صديق قديم صاحب محل قريب . فى ذلك الوقت كان « فروهمان » يتأهب لفتح

الدكان . وقبل أن يتمكن من ذلك كان أحدهم قد ركل الباب الزجاجي واندفع هو وزملاؤه إلى الداخل . حطموا صناديق العرض وأمسكوا بـ « فورهام » من رقبته وفركوا وجهه في الزجاج المكسور .

كان أحدهم ، يملأه الحقد والكراهية يصيح « فلنقتل اليهودى !» أما « فروهمان » فكان وجهه ينزف وهو يتلوى على الأرض من الألم ويحاول أن يتفادى ركلاتهم . وفى النهاية أعطى أحد المراقبين إشارة خاصة ففر السفاحون الصغار . سرقوا ما سرقوا وحطموا مالم يقدروا على حمله .

« فيلكس » الذى كان يلبس قبعة من الفراء غطى أذنيه ، ويغطى جبهته بلفاع قديم بنى اللون عاد من المدرسة إلى البيت فى اليوم التالى لذلك الحادث وهو فى حالة قلق بالغ .

كان صديقه الأثير « ايريك فروهمان » الذى تخلف عن المدرسة بالأمس قد حضر اليوم متأخرا وكان يبكى طوال ساعات الدرس . وعندما استفزه أحد الأولاد المشاغبين ضربه بعنف . «فيلكس » الذى كان حزينا من أجل صديقه ذهب لإبلاغ المدرس . وأثناء استراحة تناول الطعام ، حكى « ايريك » لزميله « فيلكس » ماحدث لوالده فى اليوم السابق . وما حدث فى المستشفى حيث أجروا له فحصا بالأشعة وضمدو جراحه وكيف أصيب بأزمة قلبية وكانت حالته خطرة .

أم « إيريك » صممت ألا يتخلف الولد عن مدرسته بينما بقيت هى إلى جوار والده فى المستشفى . وفى ذلك اليوم ، بعد انتهاء الدروس ألح « فيلكس » على صديقه أن يذهب معه إلى منزله ، ولكن « إيريك » رفض لأنهم كانوا يحتاجونه فى المستشفى .

ولأول مرة ، أدرك « فيلكس » أن الصلبان المعقوفة ، المزروعة فى كل شوارع « ڤيينا » تقريبا ، كان معناها الخطر والموت !

عندما فتحت « ليزا » باب شقتها ليدخل ، وضع « فيلكس » ذراعيه حولها وانفجر فى البكاء . تركته يبكى وراحت تمسح رأسه بحنان . وعندما هدأ نحيبه سألته برفق ، وفى انفجارات قصيرة قليلة ، روى « فيلكس » لها المأساه التى حدثت لصديقه .

ارتدت « ليزا » المعطف ولبست القفاز ، فى مجال العمل الخاص بـ « لودڤيك » كان من بين القوانين الصارمة ألا تلفت النظر إليها أو أن تتورط فى صداقات محلية ، ولكنها كانت تشعر بضرورة أن تتصرف أمام « فيلكس » مثل إنسان عادى وألا تخفى مشاعر الأمومة .

إن سنوات التكوين فى حياة ابنها لا يمكن أن تقررها تماما مقتضيات الشعبة الرابعة . أخذت « فيلكس » من ذراعه . « هيا ! نحن ذاهبون لزيارة « إيريك » ووالده فى المستشفى » كان الوقت قد فات . والد « إيريك » مات ! الولد وأمه كانا قد غادرا المستشفى وعادا إلى المنزل . واستقلت « ليزا » و« فيلكس » الترام إلى « هيلنجشتاد » .

كان « إيريك » وأسرته يعيشون فى « كارل ماركس هوف » ، وهى مجموعة عمارات سكنية للعمال ، أقامتها الإدارة الاشتراكية فى « ڤيينا ». الناس هنا مرتبطون ببعضهم ، يرعون شؤون بعضهم البعض ، وبينهم شعور قوى بالانتماء إلى مجتمع واحد ، تضامن ضد العالم الآخر ، عالم المستغلين والصلبان المعقوفة ، عالم الأعداء . كان الزعيم

الاشتراكى « أوتو بادر » يتباهى دائما بتلك الواحة الصغيرة فى الصحراء النمسوية الاشتراكية ، فى موضع واحد . كان انتشارها بين الطبقة العاملة يزعج الفاشست الكليركيين .

وكانت البرجوازية تعتبر « ڤيينا » الحمراء تهديداً . لو حدث أن ذهبت إلى « ڤيينا » يا « كارل » أحرص على رؤية تلك الشقق وسوف تدرك أن الإسكان الشعبى لم يؤد بالضرورة إلى فساد مدينى ، أو تضخم اشتراكى متخم بتماثيل هائلة لـ « ماركس » أو « لينين » .

كان الخبر قد انتشر ، وجماعات قليلة من العمال يقفون عند مدخل البلوك الذى يسكن فيه « إيريك » ، وكانوا يتحدثون همسا والحزن يكسو وجوههم . صعدت « ليزا » و« فيلكس » السلم إلى الطابق الثانى حيث كان يعيش صانع الساعات .

المدخل أشبه بمحطة السكة الحديد أجساد فى كل مكان . شقة « إيريك » مزدحمة أيضا .

فى الزحام وجه مألوف . فى البداية تصورته « ليزا » أحد أصدقاء « لودڤيك » القدامى . ولكن عندما اقتربت منه ، جفلت .إذ لم يكن سوى « جوليوس دويتش » قائد « الشوتز باند » . قوة الدفاع التطوعى فى الحزب الاشتراكى النمسوى . كانت صورته تظهر دائما فى صحف الجناح اليمينى ، حيث يوصف بأنه الوحش اليهودى البلشفى !

ليته كان وحشا ! هكذا فكرت بينما هو يودع الجميع ويغادر المكان . عندما رأى « إيريك » صديقه « فيلكس » اندفع مخترقا زحام الغرفة ليعانقه . كانا فى زى المدرسة ...

القميص الأبيض وربطة العنق والبنطلون القصير الذى يصل بـالكاد إلى الركبة والجاكت الذى يغطى البنطلون .ومن الطرف الآخر ، الجورب الطويل الذى يصل قـريبـاً من الركبـة . دخل الولدان غـرفـة « إيريك » وجلسا على السرير محدقين فى الحائط. صامتين .

قدمت « ليزا » نفسها ، كما قدمت العزاء لأم « إيريك » . كانت زوجة صانع الساعات فى حالة ذهول ووجهها قد شوهته الأحزان .

كـانت ترد على عبارات العـزاء بإيماءة واهنة ، لا تـقـوى على فـعل أى شئ سـوى تكرار عبـارة واحدة ، وهى أنهـا لا تصـدق أنها لن تراه بـعد ذلك أبدا ! سـألتـهـا « ليزا » إن كانت تسمـح لابنهـا أن يأتى لقضـاء عطلة نهاية الأسبوع معهم ، تأثرت السيدة بذلك كثيراً ولكنها هزت رأسها .

« أنا أريده إلى جوارى الأن ، الأمور ستزداد سوءا ، لا أريد لابـنى أن يعيـش هنـا أكثـر من ذلك . لى أخت تقـيم هـى وزوجـهـا فى « لندن » ويبدو أنهمـا سـعداء هناك ، كانت تكتب لنا طوال العـام وتتمـنى أن نلحق بهما هناك ، ولكن زوجى كان عنيدا .. « ولدت هنا وسـوف أموت هنا » .. وراحت تبكى ! طفـرت الدمـوع من عـينى « ليـزا » . احـتـضـنت السـيـدة المكلومة وهى تمسح على رأسها بهدوء .

« سـأذهب إلى لندن من أجل « إيـريك » . هذا البلد ليس له مسـتـقـبل هناك شائعات تقول إنه بمجرد أن يسـتولى البروسـيون على « ڤيينا » ، سيـصـبح من الصـعب على اليـهـود أو الاشـتـراكيين أن يـحـصلوا على جوازات سفر . » هزت « ليزا » رأسها !

لم يكن هناك ما تستطيع أن تفعله فى ذلك اليوم أكثر من ذلك . أخذت ابنها من صديقه ، وكان وداعا آخر كله دموع !

وهما يغادران الشقة ، كان الناس مازالوا يتوافدون . كان «فيلكس» يمسك بيدها وقبض عليها بشدة وهما فى طريق عودتهما إلى المنزل .. حتى وهما فى الترام .

« أين أبى اليوم »

حركة يديها الاثنين كانت تعنى أنها لا تعرف .

« ما نوع العمل الذى يقوم به ؟»

« أنت تعرف جيدا ماذا يفعل . يسافر . يبيع أقلام الحبر فى كل أوروبا . يتلقى طلبيات جديدة تمكننا من الاستمرار فى هذا المحل الخاص بالأدوات المكتبية هنا وفى امستردام »

« كيف إذن لم يستطع أن يخبرنى بثمن قلم الحبر منذ أيام ؟ .. لست غبيا ، وأنت تعرفين ذلك . فما سبب إخفاء الحقيقة عنى ؟ »

نظرت إلى عينيه اللامعتين وابتسمت .

« يجب أن تسأله أنت .. والليلة إن شئت .. هذا إذا لم يتأخر طويلاً . »

« أنا متأكد أنه فى « السنترال » ، يتكلم مع أحد أصدقائه . هل نذهب إليه هناك ؟ »

أومأت « ليزا » برأسها . « الجو شديد البرودة ، ولا نستطيع أن نخرج مرة أخرى . أذهب ، لو سمحت ، واغتسل ثم راجع دروسك ! سأقوم بإعداد الطعام ، والدكِ وعد بأنه سيعود الليلة على العشاء .»

كانت أحاسيس « فيلكس » يقظة ودقيقة . كان « لودفيك » في « السنترال » بالفعل حيث تدور مناقشة ساخنة . خبر موت صانع الساعات كان قد انتشر وأصبحت تلك المأساة الأخيرة متداخله مع الموقف السياسي المستقطب بشكل دائم في النمسا . كان « لودفيك » يصغي في هدوء بينما الإنجليزيان يسألان « إيرنست » الكاتب في « أربيتر زيتونج » جريدة الحزب الأشتراكي . كان « فيلبي » يتكلم بهدوء .

صوته شديد الوقار . مهتم بالتفاصيل . راح على مدى ساعة كاملة يسأل ويطلب معلومات من « إيرنست » عن علاقات القوى الحقيقية في داخل قوات الشرطة والجيش .

أعتقد أن ما أسأل عنه يمكن اختصاره في الآتي : « هل توجد خلايا للحزب الأشتراكي في الشرطة ، أم أن عملها العسكري مقصور على قوات الدفاع المعروفة بالشوتز باند ؟ » ابتسم « إيرنست » . ابتسامة مستفزه من شخص لديه شعور بالأهمية . كان هدفها أن يظهر بمظهر من يعرف الكثير ، ولكنه لن يقول . شعر « فيلبي » . بالغريزة ، أنه لا يعرف ، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن هناك شئ لكي يعرفه .

الاشتراكيون ، متعمدين ، نأوا بأنفسهم عن الشرطة والجيش خوفا من استثارة القمع . كان « إيرنست » يحاول أن يخفى هذه الحقيقة . تبادل « ڤيلبى » مع « لودڤيك » نظرات قصيرة سريعة .

إنه يسأل الأسئلة التى يجب أن أسألها . هكذا كان يفكر «لودڤيك» . عقليته تحليلية . كان رفيق « ڤيلبى » وابن بلده شابا اشتراكياً درس فى « اكسفورد » فى ثلاثينياته . هو أكثر حدة وإن كان أقل وضوحاً . كان قد جاء إلى « السنترال » مع الكاتب الذى يعمل فى « أريبترزيتونج » ، وكان النمسوى يحاول أن يقنع صديقه الإنجليزى أن التكتيكات التى يتبعها الحزب الاشتراكى النمسوى هى البديل الوحيد للنازيين والفاشست والكليركيين .

« تلك آراؤك ياصديقى ، غيرك لديه آراء أخرى » . كان « هيوجيتسكل » الديمقراطى الاجتماعى الإنجليزى وكان هناك فى زيارة ، تكلم بصوت عال وبانفعال « أنت تتكلم وكأن هناك احتمالا واحدا ، ولكننى أعتقد أنك على الطريق الخطأ » .

« جيرترود » التى كانت قد وصلت إلى « ڤيينا » هذا الصباح بمعلومات جديدة .. مهمة .. من « برلين » ابتسمت وعيناها على «لودڤيك » .

كانت متأثرة بعدم كياسة « جيتسكل » .

تعال .. تعال يا « إيرنست » ! كفى كلاما تافها ! »

لم يكن لدى « جيتسكل » النية للتوقف عن الجدل « دعنا نحصل على إجابات محدودة عن بعض الأسئلة البسيطة . واحد : إذا كان الفاشست مسلحين ، ويعاملون العمال بوحشية ... ألا تكون قوة السلاح هى الوسيلة الوحيدة لمقاومتهم ؟ أم تراك تعتقد أنت و« أوتو باور » أن الخطر سوف يختفى بمجرد استعراض القوة ؟ »

« نحن متورطون في مباراة شطرنج دقيقة يا أصدقائى الإنجليز ، الأعزاء .. » تكلم « إيرنست » بابتسامة واهنة ، « وأنتم تريدوننا أن ندوس على الرقعة كلها . لن نستطيع أن نفعل ذلك ، لأن العمال لن يقبلوه .. » .

كان جميع الجالسين حول الطاولة يفهمون مغزى الإشارة إلى الشطرنج .

« أنت أيضا سوف تفعل ذلك يا « كارل » ، رغم أن الذين يستخدمونك قد يظنون أن « باور » راديكالى أكثر من اللازم » .

مقالة الافتتاحى بعنوان « شطرنج » فى « آربيتر زيتونج » أصبح مشهورا وكان يثير جدلا واسعا فى أوروبا كلها . كانت « موسكو » بالطبع تستنكره ، وتعتبره استسلاما ذليلاً للبرجوازية ، ولكن فى أماكن أخرى كانوا يأخذونه على محمل الجد .

الفاشست النمسويون ، كقطب معارض لموسكو ، كانوا ينظرون إليها باعتبارها خطرا داهما ، واتهموا « باور » بأنه كان يحاول أن يحدث ثورة .

فى الافتتاحية كان الزعيم النمسوى يرى الديمقراطية مبارة شطرنج، بقواعدها التى من أهمها أن الخصم المهزوم لابد أن يأخذ فرصته لكى يهزم المنتصر . المشكلة كانت فى اللعب مع النازيين ، لأن لاعبهم كان يقول « لا أومن باللعبة ولا بقواعدها ، ولكننى سأشارك فيها حتى أفوز . بعدها سوف أركل رقعة الشطرنج وأحرق القطع وأقتل خصمى أو أسجنه وأعلن أن لعب الشطرنج مرة أخرى خيانة عظمى ! »

إن السماح للاعب كهذا بالمشاركة فى اللعبة أمر لا يقل عن الانتحار كان الحفاظ على الديمقراطية يتطلب استبعاد النازيين . كان ذلك ما كتبه « باور » . ماذا ترى يا « كارل » ؟ ما رأيك ؟ يسارى متطرف ؟

أم تراه واقعى يفهم التطورات الألمانية جيدا على عكس « ستالين » وأتباعه فى الكرملين ؟

قال لى « جيتسكل » وبكل إصرار : « المشكلة ليست فقط فى أن الموالين للنازيين الألمان هم الذين يهددونكم ، إنه ذلك المحتال الصغير « دولفوس » . فهو ، ومعه أعوانه من الفاشست الكليركيين ، كما تشير إليهم على نحو طريف ، لن يلعبوا طبقا لقواعدك . « دولفوس» يكره الألمان. يعرف أنهم يعتبرونه أداة تستخدم ثم يستغنى عنها . ولكنه يخشى جانبنا بالدرجة الأولى . يريد أن يظهر للكل أنه زعيم قوى ... مثل « موسولينى » . سوف يزيح الملك والحصان والطابية ويترك لكم البنادق قليلة الشأن . أى شطرنج بعد ذلك ؟ هه ! »

كان « إيرنست » يشعر بالضيق لتلك المقايضة . كان يظن أن صديقه البريطانـى سيدعمه . عبـس ، نـظر فـى سـاعته وقال لـ : « جيتسكل » إنهما كانا مرتبطين بموعد على العشاء . قاما ، وفعل الآخرون مثلهما . اتفق « لودفيك » و« فيلبى على لقـاء . فى اليـوم التـالى وتصـافحـا فى مودة . تبعته « جيرترود » عند الباب تاركة « فيلبى » منهمكا فى قراءة عدد الأسبوع الماضى من « التيمز » .

فى الخارج ، كان السماء الليلية ملبدة بالغيوم . الجليد الذى كان قد بدأ فى الذوبان قـبل ذلك تحـول الآن إلى ثلج . الليل شـديد البـرودة ، والسير على الرصيف مخاطرة . أمسكته « جيرترود » من ذراعه . كانت تعرف بالغريزة أنه كان متجها إلى « باكر شتراس » حيث تقيم زوجته وابنه . سارت صامتة بجوارة عدة دقائق . بعدها بذلت محاولة ضعيفة لكى تجله يحول وجهته .

« هل نذهب لتناول الطعام فى مكان ما ؟ »

« لا ! ليس الليلة . لقد وعـدت « ليزا » و« فـيلكس » بأننى لن أتأخر . صانع الساعات مات اليوم وابنه أقرب أصدقاء « فيلكس » إليه ، ولابد أن الولد فى حالة نفسية سيئة ! »

كتمت « جيرترود » خيبة أملها . « هكذا هو دائما » .. كانت تقول بينها وبين نفسها .. فى كل مرة أحاول أن أسحبه ، لابد أن يجد عذراً . ثم قالت بصوت عالى : طبعا ... طبعا .. أنا أفهم ذلك .. تحياتى لهما .. آه ..! نسيت .. أعتقد أنه يحبها .»

ثم فتشت فى حقيبة يدها وأخرجت علبة شوكولاته صغيرة مغلفة على نحو أنيق .

ابتسم وهو يتناول الهدية وقبلها فى وجنتيها وقال : « نصفها على الأقل سوف ينتهى به الأمر فى معدتى ! »

كان « فيلكس » الباكى ينتظره عندما دخل الشقة . حمله « لودفيك » وضمه إليه .

« لماذا يابابا .. لماذا تكره اليهود هكذا ؟ »

قالت له إن ذلك كله كان من أخطاء الديمقراطية . قالت له لو أن الأمبراطور كان ما يزال على العرش ، لما وقعت مثل هذه الأحداث أبداً » قال « لودفيك » : « ربما ..! ربما ... ! ولكن الأمر كان أكثر سوءا تحت حكم القيصر فى أوروبا . هل أحكى لك حكاية هذه الليلة ؟ ليست من حكايات جدتى ، وإنما هى عن شئ رأيته بعينى فى « جاليشيا » .

« ماذا ؟ ماذا يابابا ؟ هل نحن يهود ؟ »

« كان والداى من اليهود الأصليين ، ولكن أمك ليست يهودية . معنى ذلك أنك ، فى نظر اليهود الحقيقيين ، لست يهوديا أصيلاً . ولكن لا فرق بالمرة عند النازيين والمعادين للسامية . بالنسبة لهم أنت يهودى ! » .

شعر « فيلكس » برعدة خفيفة .

«لا تفـزعـه يا اجناتى !» . زل لسـانها بالإسم الحقيقـى لـ « لودفيك » قبل أن تسيطر على نفسها . حدق فيها « لودفيك » ولكن « فيلكس » – وقد لاحظ – لم يقل شيئا . كل ما كان يريد أن يعرفه فى تلك الليلة هو لماذا كان زميله « إيريك » بلا أب ! والآن ... يريد أن يعرف كذلك ما إذا كان الرجال ذوو القمصان البنية سيقتلون والده ذات يوم !

« ليـزا » فـعلت المسـتحـيل لكى تحمى ابنها من أهوال ورعب العـالم الحقيقى ولكنه الآن يواجه التاريخ مباشرة . ويبحث عن بعض الإجابات .

« ماذا رأيت فى « جاليشيا » يابابا ؟ بابا ! »

عينا « لودفيك » يملأهما الحزن . ضم ابنه إليه وراح يحكى له عن المذبحة التى شاهدها وكيف كان اليهود يقتلون .. لا لشئ إلا لأنهم يهود !

سأله الولد : « وماذا فعلت يا أبى ؟ »

« فى ذلك الوقت .. لا شئ .. بعد سنوات قليلة ، وكنت فى السادسة عشر ، أصبحت اشتراكيا . أمعن النظر فى المستقبل بدهشة وشغف .. كنا فى شوق للتغيير . وكما ترى يابنى ، كانت طريقة اختيار الموت محدودة بالنسبة للفقراء – عن طريق اللامبالاة والإهمال فى وقت السلم ، ومن خلال العنف فى وقت الحرب .

لقد كبدت الحرب العالمية الأولى كل واحد ملايين القتلى . لم تكن حياة الإنسان تساوى شيئا عند أولئك الجنرالات ، الذين كانوا يستعرضون بقبعاتهم الجميلة وتؤدى لهم التحية ويتناولون أفخر الأطعمة ويشربون أجود الكونياك » .

كان « سينيكا » أول من أثار السؤال فى روما القديمة « ماذا لو أحصى العبيد أنفسهم ؟ » ، ويدأنا نفعل ذلك بالفعل . كان مئات الآلاف ، بينهم يهود ليسوا عبريين مثلى ، كانوا يبحثون عن ملجأ في الثورة . كنا نظن أن تلك هى الطريقة الوحيدة لوضع نهاية لهذا العار . » .

« لكن لماذا يا أبى ... لماذا كل هذه الكراهية ؟ »

« لا توجد إجابة واحدة . منذ بدأت الحياة على الأرض ، والناس لديهم طاقة لا حدود لها على إيذاء بعضهم الآخر . والحكاية مستمرة إلى يومنا هذا . فى أعماقنا نحن أسرى البيولوجيا . إنه الحيوان فينا . تعرف كيف يطرد القطيع أحيانا أحد أفراده أو يقتله عندما يبدو مختلفا أو يشكل خطرا ، وغالبا ما يكون ذلك الخطر متوهما . لماذا يحدث ذلك ؟ هو الخوف الغريزى بالنسبة للحيوانات ، وهو نفس الشئ تقريبا عندما يصاب البشر بالسعار والجنون ويبدأون فى تقتيل بعضهم الآخر » .

قاطعته « ليزا » : « باستثناء حقيقة واحدة بسيطة .. للبشر عقول تفهم . قوة العقل هى التى تميزنا عن مملكة الحيوان » .

« هل تميزنا فعلا ؟ قولى ذلك للألمان الذين يفرون من هتلر » .

« هل نرحل إلى لندن مثل « إيريك » ؟»

قال والده : « ربما ، لكن عليك أن تذهب للنوم أولاً » ظل «لودفيك» صامتا فترة طويلة فى تلك الليلة . كان يجلس مثل الكتلة فى مقعد قديم يحدق فى المدفأة . وكانت « ليزا » تعرف تلك النوبات القديمة ولم تحاول أن تكسر الصمت .

تعرف أنه سوف يتكلم قبل أن ينقضى الليل ولكنها كانت متعبة وتتمنى ألا يطول الانتظار . وعندما قام ليصب لنفسه كأسا كبيرة من البراندى تنهدت بارتياح .

« أصبحت أكره هذه الشقة ... انظر .. ! ستائر قذرة ، كراسى مهترئه ..... ، ..... »

قاطعته : « لودفيك » ... ! هل حان الوقت لمغادرة « فيينا » » ؟

« نعم » أجابها بصوت مجهد .

« هل أوقع الرجل الإنجليزى الكآبة فى نفسك ؟ »

« لا ! كان جاداً جدا ، أما أنا فكنت سبب الكآبة » .

« موسكو » مكتئبة ! « الكومنتيرن » مكئب ! سألنى بالتفصيل عن الانهيار فى ألمانيا ، وعن دور « الكومنتيرن »فى تمهيد الطريق لانتصار « هتلر » . وافقت معه ، ولكن كان لابد أن أدافع عن الخط . الخط دائما ! سألته : هل قرأت كتابات « تروتسكى » عن ألمانيا ؟ . لكى أضعه فقط فى موقع الدفاع . أنكر تماما . كنت أود أن أخبره « لابد أن تقرأها ... « تروتسكى » فهم ، و« موسكو » لم تفهم . ولكن لابد أن الصدمة كانت قوية » .

« هل رأيت « جيرتى » ؟»

« وكـان ذلك مكتئبـا أيضـا . تريد أن تتـرك الحـزب وأن تتـبـرأ من «موسكو» . إنها فى حالة أشبه بالانتحار »

« ولكن ذلك قد لا يكون له علاقة بموسكو ، ولا بالسياسات المجنونة للكومنتيرن » .

« معنى ذلك » ؟

« معناه أنها تريدك . إن رفضك أن تنام معها ، هو الذى يدفعها نحو الانتحار » .

« شئ قاسٍ ، ربما تكون الأمور مختلطة بداخلها ، ولكنها فى ورطة . وهى سياسية . لا تنسى أنها شيوعية ألمانية وحزبها على شفا حفرة من الإنقراض ! لا أحب لأحد من عملائى أن يكون فى مثل تلك الحال . هذا خطر على الكل ! »

« وهل نجحت تهدئتها ؟ »

« سياسيا ! قلت لها إننى متفق معها .. لكن ... ، »

« لكن ؟ .»

« لكننا لا نستطيع أن نبصق فى بئر ماء قد نحتاج أن نشرب منها ذات يوم » .

« إذن أنت تعتـقـد أن « تروتسكى » كـان مـخطئـا عندمـا تخلى عن الكومنتيرن ودعا إلى دولية جديدة » ؟

« التوقيت خطأ . ستكون هناك حرب أوربية جديدة . أنا متأكد من هذا . الاتحاد السوفيتي سوف يتورط فيها . « ستالين » لن يبقى . الحزب نفسه سيجد أن من الضروري إزاحته » .

« هل هذا تفكير الشعبة الرابعة ؟ »

أومأ « لودڤيك » برأسه وحاول أن يقوم من مقعده ولكنه غاص فيه ثانية . رجل متعب . ضحكت « ليزا » وساعدته على القيام .

« وڤيينا » ؟

« السفاحون الكليركيون يعدون العدة للتخلص من الاشتراكيين . بعد أن دمر « دولڤوس » و« هيموهر » اليسار ، سيتخلص النازيون من « دولفوس » ويستولون على النمسا » .

« ولكن الاشتراكيين مسلحون على عكس « الكومنتيرن » فى ألمانيا « الشوتزباند » سوف تقاوم . »

« تكتيكات الشوتزباند كلها دفاعية . ينتظرون أن تختار الحكومة توقيت المعركة . لكى تحقق النصر لابد أن تكون قادرا على اللجوء للدفاع . ولكنك تعرف ذلك جيدا ، أليس كذلك يامستشارى العزيز ؟ أولئك الناس تنقصهم القدرة الطبيعية على تحقيق النصر . يمكن أن أعطيهم ستة أشهر على أكثر تقدير . بعد ذلك سيعلم اليمين « أوتو باور » كيفية لعب الشطرنج ! »

هل مازلت هناك يا « كارل » ؟ أم ترى معدتك قد انقلبت بعد الحديث الذى انتهيت من قراءته لتوك ؟ هكذا كان الأمر دائما عندما يكون السياسيون من الجانب نفسه على سجيتهم . كان « لودڤيك » و« ليزا » يعيشان فى ظروف شديدة التوتر . يعيشان كذبة مزدوجة يعملان لحساب الاستخبارات السوڤيتية ، ويتظاهران بأنهما يديران عملا تجاريا صغيراً . كان يتلقيان الأوامر من « موسكو » التى كانت تحت سيطرة الطاغية الذى يكرهان .. وكانت هناك قلة قليلة من البشر يمكن أن يكونا صريحين أمامها فقط ، وذلك هو الشئ الوحيد الذى أبقى عليهما متمسكين كلاهما بالآخر .

« جيرترود » كانت تؤكد على هذا العامل ، وإن كنت عندما أراجع مذكراتها أجد أنها لم تخبرنى . كان « لودڤيك » و« ليزا » يحبان كلاهما الآخر . وكانت علاقتهما وثيقة . حتى عندما أكتب ، أشعر فى الصميم منى بأن « جيرترود » لم تكن عشيقة « لودڤيك » وأنه ليس أبى . « لماذا كذت علىّ ؟ لست متأكدا » .

أنا فى انتظار معلومات من الأرشيف فى « موسكو » ، والتى قد وعدنى « ساو » بإحضارها .

أعطاهم « لودڤيك » ستة أشهر على الأقل . أخطأ قليلا فى التوقيت . وبينما هو يسير إلى دكانه بالقرب من الجامعة فى الصباح التالى ، لاحظ طابورا من عربات الترام المتوقفة فى « رنج شتراس » فى البداية ظن أن هناك عطلا فى الكهرباء ، ولكن عربة ترام فارغة أخرى وصلت . غادرها سائقها وانضم إلى بقية الرفاق .

« هل أنتم فى إضراب يا رفاق ؟ »

كلهم ردوا بهزة كتف جماعية .

« لا تعرفون »

« لا » أجاب أصغرهم « سمعنا أن الفاشست قد أعدموا عمالاً فى « لينز » . وهناك إضراب عام . نحن فى انتظار تعليمات من الحزب » .

صافحهم « لودفيك » ثم واصل سيره بهمة ونشاط . على نواصى الشوارع كان يرى جنودا فى ملابس وعدة الميدان وعلى الجانبين رجال شرطة على رؤوسهم الخوذات الصلب ويحملون أسلحتهم . كانت وحدات «هيموهر » فى طريقها إلى « راتهاوس » للقبض على رئيس البلدية .

تقدم « لودفيك » صوب أحد الضباط وقال ، وهو يحاول قدر استطاعته أن يقلد لكنه « فيينا » البرجوازية : عفوا ! ماذا هناك ؟ ».

« ومن أنت ؟ »

« رجل أعمال »

« الاشتراكيون قاموا بثورة والحكومة أعلنت قانون الطوارئ » ، من الأفضل أن تعود إلى منزلك » قبل « لودفيك » النصيحة واتجه عائدا إلى المنزل . رأى سائقى الترام . كلهم كانوا منكمشين خائفين . فوقهم تقف وحدة من رجال « هيموهر » تركلهم وتضربهم بنهايات البنادق . شعر « لودفيك » بالغثيان . وبينما هو مسرع فى طريقه كان يرى

الجنود يقيمون الموانع ويمدون الأسلاك الشائكة حول « رنج شتراس » ، ووحدات مدافع الماكينة تتخذ مواقعها على مسافات منتظمة .

« أوتو باور » أنتظر أكثر من اللازم ، والثورة المضادة قامت بالهجوم ... هكذا كان يفكر وهو عائد إلى شقته . كان متأكدا أنها ستكون مذبحة دامية وكان ، بالدرجة نفهسا ، يثق أن « هتلر » سوف يلتهم النمسا ، وأن البروسيين سوف يصلون إلى « ڤيينا » حالا .

بعد ذلك ، وهم جالسون لتناول العشاء . كانت تتناهى إلى اسماعهم أصوات انفجارات مكتومة من ناحية الضواحى العمالية . لقد انتهت مبارة الشطرنج . كان « ڤيلكس » يحدق من النافذة متمنيا ألا يكون « إيريك » قد أصيب بمكروه . وفى الخلفية كان يستمع إلى والديه وهما يناقشان مصير النمسا .

وكان « دولفوس » يختال ، محاولا تقليد « موسولينى » ولكن ذلك لن يدوم ! فتدمير الاشتراكيين ، وهم الحزب الوحيد الذى كان الممكن أن يتصدى لمقاومة « هتلر » ، يعنى فعلا أنه قد حكم على نفسه بالإعدام . وكان « لودڤيك » مقتنعا بأن « هتلر » سوف يضرب بسرعة ويضم النمسا إلى الرايخ الثالث .

قالت « ليزا » وهى تتنهد : « على الأقل فإن تلك هزيمة لا يمكن اعتبار روسيا مسئولة عنها » .

« ربما ليس مباشرة ، ولكن لو أننا لم نسلم ألمانيا لهتلر ، هل كان يمكن أن يحدث ذلك هنا ؟ »

« كم واحد ، في رأيك ، يتكلم هكذا في « موسكو » كما نتكلم الآن ؟ »

« كثيرون . طالما أن الأمر يتعلق بـ « ستالين » .

ثلاثة أيام من العنف في « ڤيينا » . ثلاثة أيام . لم تكن قوات « الشوتزباند » قادر على المقاومة المؤثرة . ثلاثة أيام و « ڤيينا » الطبقة العاملة بين الخرائب والأطلال ، وزعماؤها في السجون أو المنافي . كانت « آربيترزيتونج » تصدر سرا . السجن خمس سنوات لمن يلقى القبض عليه وهو يقوم بتوزيعها . دولفوس منتصر ! أما « هتلر » ، فبعد أن أزعجته ألاعيب « موسوليني » الانفصالية في النمسا ، وانتصاره الظاهر ، فقد بعث بالرسالة التالية للعمال المهزومين :

« أنا واثق الآن من أن العمال النمسويين سوف يقفون وراء القضية النازية ، كرد فعل طبيعي على العنف الذي تستخدمه الحكومة النمسوية ضدهم .»

صرخ « لودڤيك » غاضباً ، واستأنف عمله في هدوء . هذا الرجل يتمتع بخمس أو ست خواص مطلوب توافرها في الجاسوس العظيم : ذاكرة فذة تحفظ ملامح الوجوه ، والأسماء ، والحادثات . موهبة اللغات . قدرات خارقة على الابتكار . السرية . القدرة على الدخول في حوار مع أي شخص غريب مهما كان . أما الخاصية السادسة – التحرر من الضمير – فهي أنه كان يحاول دائماً أن يضلل « لدوڤيك » . وكانت الجماعة في « موسكو » تعرف ذلك ، وهي نقطة الضعف الوحيدة في جاسوسهم الكبير .

فى الأسبوع التالى التقى « ڤيلبى » . كان لقاء طويلاً . «لودڤيك» كان سعيدا بالنتائج ، وقام بإبلاغ الشعبة الرابعة بالشخص الجديد الذى جندوه . لم يكن يفضى بأدق أسراره سوى لمفكرته التى كان يدون فيها أفكاره بشكل غير منتظم .

لفترة طويلة من حياته ، ظل « لودڤيك » يقاوم فكرة أن يكتب مذكراته . كان يعتبر ذلك نوعا من النرجسية والسلوك الفردى .

ولكن « ليزا » عبرت أن ازدرائها لتلك الفكرة وحذرته قائلة إنه كان فى خطر لأن يفقد أدميته . كم كانت محقة هو الآن يستخدم المفكرة كوسيلة لعزل نفسه عن ضوضاء الطاولات المجاورة فى مقهى ما أو صخب المسافرين فى لقطار .

كان منظر الصفحة البيضاء يدعوه للدخول إلى عالم هادئ ، إلى جزيرة العزلة الاختيارية فى بحر صاخب .

٢٠ فبراير ١٩٣٤

قابلت « ف » اليوم مرة أخرى ولكننا اتفقنا على ضرورة تجنب المقاهى التى كانت تمتلئ بالدخلاء والمكائد . وبدل ذلك أصبحنا نلتقى على الجسر بالقرب من « سكوتن رنج » . اقترحنا أن نتمشى على شاطئ « الدانوب » . كان الجو باردا ولكنه مشمس وبعد ثلاثة أرباع الساعة وجدنا دكة يمكن للجالس عليها أن يرى المواجهة الحجرية

لـ « كارل ماركس هوف » . جلسنا نرقب الأطلال التى كانت « ڤيينا » الاشتراكية . الأحداث هنا أقنعت « ف » بقضيتنا .

كان هادئا . لا أثر للعاطفة أو الاستغراب في صوته . وكان قراره نهائيا . هو معنا . سألته عن « جـ » ، الإنجليزى الآخر فابتسم . قال إن « جـ » كان انطباعه على النقيض تماما . تدمير الاشتراكيين أقنعه أن الدولة لا يمكن تحديها بشكل مؤثر . كان تعليق « ف » على الأمر أنه رد فعل إنجليزى قح قال « ف » إنه التقى قائدا سريا للشوتزباند ، وكان يتباهى بانضباط رجاله . لا سلب ولا نهب ولا غنائم . منتهى الانضباط . « ولذلك خسروا ! » ، ضحك عندما قلت ذلك . رويت له قصة سمعتها من أحد الشيوعيين من « ڤيينا » . عندما كان جنود « هيمو يهر » يتقدمون صوب إحدى الحدائق ، أعطى قائد «الشوتزباند» الأوامر بالاستسلام . لماذا ؟ لأنه كان لابد أن يطأ الحشائش فى الحديقة ويخالف القانون الذى يحظر السير على الحشائش .

ضحك « ف » لذلك ، واتهمني باختلاق القصة ولكنها كانت حقيقية . بعد ذلك أخبرنى «ف» أنه حضر حفل عشاء فى « لندن » منذ سنوات ، حيث كان أحد الجنرالات النمسويين المتقاعدين لا يكف عن الكلام عن جرائم الاشتراكيين النمسويين . كان «ف» يتذكر كلماته بحذافيرها : « ذات يوم كنا سنضع حدا لكل ذلك الهراء بالطريقة السلمية أو الشريرة . أرضيات « باركيه » وحمامات حديثة للعمال ! وربما وضعنا السجاد الفارسى فى حظائر الخنازير وقدمنا الكافيار للحيوانات » .

كان تعليق « ف » أنهم كانوا لا يفرقون بين العمال والخنازير وهذا شئ غريب . قال لى إن « بيرك » كان قد أشار إلى ما أسماه بـ : « الجماهير الخنزيرية » وإن الراديكاليين ردوا على ذلك بقبول التصنيف وكانوا يطلقون على صحفهم أسماء مثل « الخنزير » و« رجل الخنزير » ... إلخ .

بعد ذلك تكلمنا عن انهيار القيم البرجوازية الليبرالية فى « النمسا » . وكان مندهشا لقولى إن ذلك كله كان يرجع إلى نظرة نخبوية للثقافة . وبعد ذلك أعطيته محاضرة مختصرة عن « برجوازية ڤيينا » . استعدت كل ذكريات المناقشات مع « ليزا » وأصدقاء آخرين قبل الحرب . عندما كنا طلبة ، كنا نقف بالساعات ننظر إلى السقف ونناقش معنى لوحة « كليمت » : الفلسفة .

هل كانت تعنى فعلا انتصار النور على الظلام كما كانت تصر وزارة الثقافة ؟ أم تراها كانت شيئا أكثر غموضا ؟ كانت الأرض ذائبة فى انصهار الفردوس والجحيم . والبشرية المعذبة طافية فى الكون دون هدى . الرسم أثار « ليزا » كانت غاضبة . إنه يعبر عن عقل الإنسان يقظ . هذا الوجه – كما قالت لنا – كان هو القلب الحقيقى للوحة . كان « كليمت » يقول إن « داس ڤيسن » * ضرورة لكل الجنس البشرى . وهكذا استمر الجدال ، نحن أيضا كنا نتكلم عن تجاوزات البرجوازية النمسوية .

* المعرفة Das wissen

ضحك « ف » ولكنه قال إن ذلك لا يبدو تفسيرا ماديا لنقاط ضعف الانتلجنسيا النمسوية . ووضع على وجهه سمت ناظر المدرسة وتكلف صوته وقال : حاول مرة أخرى . وضحكنا نحن الاثنين .

أخبرت « ف » أن البرجوازية فى النمسا لم تكن قادرة مثل نظيرتها فى فرنسا أو إنجلترا ، سواء على تدمير الأرستقراطية أو الاندماج معها ، ولذلك ظلت معتمدة على الإمبراطور والبلاط ، بعيدة دائما ، ولذلك حرمت من أى نصيب فى احتكار حكم البلاد . وبعد أن تنازلت عن السلطة ، بحثت عن الملجأ فى الفن الذى اكتسب وضعية الدين . ذكرته بتعليق « كارل كراوس » الصاعق عن مجال العمل بالنسبة لليبرالية « ڤيينا » ، وكونه محدودا بالباركيه فى المسرح ليلة الافتتاح .

التنازل الليبرالى ترك الطريق مفتوحة أمام الفاشست الكليركيين. الامبراطور كان يدافع عن اليهود ضد الحملات الكاثوليكية المعادية للسامية . وفيما بعد ، كان الاشتراكيون يدافعون عن القيم الليبرالية التقليدية . الآن ، لا سبيل لتحجيم الفاشست .

أوروبا يمكن أن تقاوم فقط لو أنها ردت بالحرب .

سألنى « ف » : « حرب أهلية باتساع أوروبا كلها ؟ »

أومأت برأسى .

بعد ذلك سألنى بالتفصيل عن الانهيار الألمانى ، ولماذا لم يقاوم قادة الحزب الشيوعى الألمانى التعليمات الانتحارية التى جاءت من «موسكو » ؟ ولأول مرة كنت أرى « ف » قلقا بدرجة كبيرة . حكيت له عن مناقشة دارت بينى وبين أحد الزعماء الرئيسيين للحزب الألمانى وأحد

مؤسسى « الكومنتيرن » . كنت أعرف أن ذلك الزعيم شديد الانتقاد لسياسة « موسكو » سرا . « لماذا لا تقول ذلك علنا ؟ » سألته . « دع العالم يعرف لماذا تم تسليم العمال الألمان صراحة لـ « هتلر » بأيدى « الكومنتيرن » مازال رده مطبوعا فى ذاكرتى كما لو كان بالأمس : « لا أستطيع أن أفعل ما تريد بسبب وجود الاتحاد السوفيتى . أعرف جيدا أننا ضحينا بالحركة الألمانية لكى نتجنب الصراع مع « ستالين » . وربما نضطر للتضحية بالحركة فى دول أخرى كذلك . وفى النهاية سوف تنتصر الفاشستية على العالم الرأسمالى ، وحينئذ سيكون هناك صراع هائل بين الفاشستية والاتحاد السوفيتى » .

« ف » كان مندهشا : « هل قال ذلك فعلاً ؟ » هززت رأسى « ألا يفهم ذلك المجنون أن الفاشستية قائمة فى كل أوروبا ، ناهيك عن أمريكا ، وأنهم سيكون لديهم الموارد الكافية لتدمير الاتحاد السوفيتى خمس مرات وربما أكثر ؟ »

بعد ذلك سأل إن كان من الممكن أن يذهب إلى « موسكو » . قلت له إن ذلك مستحيل . واجبه هو أن يعمل فى الغرب . كنا فى حاجة إلى معلومات من الدوائر العليا فى كل من ألمانيا وبريطانيا . وبناء عليه ، كان يجب أن يتخلى عن كل ما يربطه باليسار . كان لابد أن يكون شخصية جديدة : متغطرسة ، متفوقة ، مسيطرة ، وكذلك بعض الفأفأة فى الكلام ! كان عليه أن يختلط بالدوائر الصحيحة ، وإلا فإنه لن يكون له فائدة بالنسبة لنا . يقول إن ذلك أسهل مما أتصور . والدى له صلات ممتازة . سوف نرى .

أبلغته أن تلك كانت آخر مرة نلتقى فيها فى مكان عام .

- ١٣ -

قامت « إيفيلين » من النوم وهي تشعر بالغضب . كانت غاضبة لأن « فلادى » لم يعجب بفيلمها . غاضبة لأنه لم يكن لديه الشجاعة ليقول ذلك في وجهها وقبل كل شئ ، غاضبة لأنه رفض - وبكل إصرار - رغبتها في أن تنام معه .

قفزت من السرير وسارت نحو الحمام بنشاط ، أضاءت النور وتأملت جسدها العارى فى المرآة الطويلة . همهمت عابسة : « ليس شيئاً بالمرة ! » ماذا حدث له ؟ هل يعتقد حقا أننى لم عد أصلح للرجال ؟ حمقاء بلغت سن اليأس ؟ أم لأننى لم أعد أهتم بذلك ؟

شعرت ، فجأة وهى تنظف أسنانها بالرغبة فى مواجهة « فلادى» فى عرينه . فكرت فى البداية أن تتصل بالتليفون ، وأن تنذره ، ولكنها وضعت السماعة قبل أن يرد . لا .... ! لم تكن فكرة جيدة !

لابد من مفاجأته !

الأحد . والساعة فى منزلها المكون من ثلاث طوابق تعلن السابعة . أرتدت بنطلونا واسعا من الحرير لونه رمادى وسويتر من الكشمير الأسود . توقفت وهى مارة من أمام المطبخ . جذبتها رائحة القهوة النفاذة . تعرف ماذا يمكن أن يقدم لها فى شقة « فلادى » ... فهل تتناول بعض القهوة قبل أن تخرج ؟ ولكن ذلك قد يستغرق وقتا طويلاً ...

الرغبة الجنسية غلبت الرغبة فى القهوة . نزلت مسرعة إلى سيارتها . « إيڤيلين » كانت تحب « برلين » فى مثل تلك الساعة من الصباح . الشوارع خالية بالفعل . لو لم تكن غاضبة من « ڤلادى » لفضت المشى . ولكنها كانت تقود سيارتها المرسيدس عبر « الكودام » بسرعة ثمانين كليو مترا . وبعد عشر دقائق تقريبا كانت أمام عمارة « ڤلادى » . لم تقفز من السيارة لتندفع على السلم . جلست قابضة على عجلة القيادة . لماذا جاءت إلى هنا ؟ أجابها صوت داخلى : لكى أطرد شبحا .... لكى أطرد شبحاً .

ضحكت « إيڤيلين » .أحيانا كانت تتصور علاقتهما غليانا مندفعا قبل الأوان ، ولكن ليس اليوم . على أية حال ، لم تعتبر علاقتها بـ «ڤلادى » ميتة بشكل دائم . هل يمكن أن تكون مخطئة ؟ هل كانت تخدع نفسها ؟ هل كان « ڤلادى » شبحا إذن ؟ هل كانت ذكريات خمس سنوات مازالت تطاردها لأنها اتخذت وجهة خطأ لدرجة الكارثه ؟

ماذا كانت تفعل هنا ؟

فى البداية كان الأمر مختلفا .وكان هو أيضا مختلفا لدرجة كبيرة . كان مرحا . تتذكر أول يوم تحدثا فيه معا .

« دعينى أسألك عن شئ يا « إيڤيلين » .. هل تريدين أن تدمرى حياتى الزوجية ؟ » .

« لا ! » ، وكانت مأخوذة ومدهوشة لمباشرته .

« حسن ! يمكن إذن أن تنشأ بيننا علاقة ، ولكن لابد أن أشرح لك قوانين اللعبة » .

بعد عدة أسابيع قالت له إنها كانت تريد طفلاً !

سألها « لماذا ؟ .. إنها فكرة مجنونة ، هل تدركين كيف سيؤثر ذلك على حياتك ؟ »

« أريد طفلا ! سيكون ذلك ثورة فى حياتى ! »

« ثم ثورة مضادة فيما بعد ! »

فى تلك الأيام ، كان التوتر بينهما يجد متنفسا له فى الضحك . ترى هل يكون ذلك هو السبب ؟ هل كانت تريد أن تعَيش الذكريات الجميلة مرة أخرى ؟

تدخل صوتها الداخلى ثانية ... « إنه « ساو » أليس كذلك ؟ «ساو» الثرى الذى يعيش فى « باريس » . أنت تريدين الحصول على المال من أجل فيلمك القادم . و« ڤلادى » ليس سوى قناة توصيل ... أليس ذلك صحيحاً ؟ »

ثم قالت لنفسها : لا ! لا ! لست شكاكة إلى هذا الحد !

« إننى أشعر نحوه بشئ ما . ولكننى لست متأكدة من كنهه ، ولا من سببه . »

وبمجرد أن فتحت باب السيارة وهمت بالنزول اجتاحتها ذكرى معينة فراحت تقهقه . كانت قد مارست الجنس معه مره ... ثم .. لا شئ لمدة أسبوعين . فشلهما فى تكرار التجربة جعلهما منزعجين ، حادى الطباع . كلاهما مع الآخر . كانت « إيڤيلين » قد كسرت ذلك الإخفاق بأن دخلت مكتبه فى « همبولت » مرتدية معطفا عسكريا بنى اللون على

اللحم : أغلقت الباب بالمفتاح وخلعت المعطف وسألت بأنعم صوت يمكن تخيله : هر « مايور » ! هل أنت قادر على فعل شئ أكثر من انتصابة ليلة واحدة ؟ نظرة عدم التصديق الممزوج بالرعب التى ظهرت على وجهه جعلتها تضحك حينذاك كما كانت تضحك الآن ! انتعشت علاقتهما لفترة بعد ذلك الحدث كما كانت تطلق عليه ، وتعلقت به .

مازالت تفتقد « ڤلادى » القديم . الزعيم المنشق ذو العين السامة واللسان الحاد ، المجادل العنيف الذى يشرع قلمه كالسيف ويصدر كراسات تصيب النظام بالفزع ، البروفيسور المتحمس الذى يستطيع أن يغرس فى نفوس طلابه حب الأدب الروسى والأدب الصينى .

وبعد أن شحنت نفسها بدأت صعودها الطويل نحو الطابق الثالث . ضغطت على الجرس . لا أحد ! بدأت تطرق الباب . كان «ڤلادى » قد قضى معظم الليلة السابقة فى مراجعة بروفة ترجمة صينية لمقال « أدورنو » ، عمل يتقاضى عنه أجرا ويستمتع به . لذلك كان فى سبات عميق منذ ساعات فلم يسمع الجرس ولا الطرقات ، « إيڤيلين » مستقتله على الباب ، تدق بيد وتضغط على الجرس بالأخرى فى الوقت نفسه. اخترقت الدقات العالية المتواصلة لوعيه ببطء .. من ؟ ماذا ؟ نظر فى ساعته الملقاة على الطاولة الجانبية المجاورة للسرير .

السابعة والنصف ! كان « ڤلادى » يلعن ويسب ذلك المزعج وهو يقوم متثاقلاً من السرير ويسير مترنحا نحو الباب .

« إيڤيلين ! لماذا بحق الله ؟ »

« لا تحاول ألاَّ تكون كريماً معى ياڤلادى .. تبدو مرهقا .. محطماً ! أنا فى حاجة ماسة لقليل من القهوة ! »

« إيڤيلين » جاء صوت « ڤلادى » هادئا مراوغا « ماذا تفعلين هنا فى السابعة صباحاً ؟ »

« شعرت برغبة في أن أراك .. أليس ذلك سببا كافياً ؟ » هذه المرة ، اخترق الغضب هدوءه الظاهرى فصرخ : « ليس فى مثل هذه الساعة ! اللعنة ! ألم يكن بوسعك الانتظار إلى ما بعد الظهر ؟ أرجوك ... انصرفى ! »

« لا ! »

« لماذا ؟ »

« لأن الدافع الملح الذى جاء بى إلى هنا غلاب . أنا سعيدة لأنك غاضب ! أكره تظاهرك بالهدوء . مازلت كما أنت . لماذا لا تعود إلى السرير وتتركنى أصنع بعض القهوة ! »

« ليس لدى قهوة »

« لا أصدقك . » شهقت وهى غير مصدقة .. « ماذا تشرب فى الصباح إذن ؟ بولك ؟ »

كشر غضباً واستهزاء وخرج من الغرفة . تبعته فى الممر حتى غرفة النوم . عاد إلى السرير وأحكم حوله اللحاف .

« سأعاود النوم . أما أنت فبإمكانك البقاء إن أردت . إقرأى ، استمعى إلى شئ من الموسيقى ، مارسى العادة السرية .. أى شئ ولكن أتركينى أنام . سوف نتحدث فيما بعد . أو يمكنك الذهاب إلى منزلك والعودة بإبريق من القهوة ، أو خذى حمام أوْ أذهبى للتمشية ثم عودى بعد ذلك ... أى شئ .. أى شئ ... لكن اتركينى أنام »

« أهدأ أرجوك ! فقد بدأت تكرر نفسك . لن أدعك تنام . أنا نفسى لم أنم تقريباً »

« لماذا ؟ وبمفردك ؟ »

« أنا دائما بمفردى .... تغيير ... ! »

خلعت ملابسها ودخلت معه تحت اللحاف . « ڤلادى » تجمد ! أدرك أن هناك مواجهة لا محالة . منذ حفل العشاء المزعج إياه ، لم يكن قد كتب لـ « إيڤيلين » أو فكر فيها ، ولم يكن يريد أن يراها ... ولو للحظة ! كانت تنتمى إلى ماض فقد بريقه .. ماض كالح ، مختلط بآمالهم وأوهامهم وبرحيل « هيلجا » ، رغم أنه كان يعرف أن « إيڤيلين » لم تكن المسئولة عن ذلك ، نظر إلى وجهها الغائم . القناع اختفى . عادت الطالبة النزقة التى لمست شغاف قلبه منذ خمسة أعوام .

كان منزعجا ومستاء لأنه يعرف أنها مزيفة .. غشاشة ! هذه المسعورة المتهورة ، الساعية دوما لأن تحدث صدمة .. كانت حكاية طويلة . جزء من طموحها تكوين الثروة . وأن تنشئ مهنة جديدة فى هذا البلد المفتوح على مصراعيه حيث الصناعة الأكثر نموا ورواجا هى صناعة الفحش والفن الداعر ، ولكنه لم يكن يريدها أن تجرب ذلك كله عليه .

أما « إيڤيلين » فكانت هى الأخرى منزعجة ومستاءة لاستقامته الأخلاقية والرغبة الدائمة فى أن يكون كل شئ كما ينبغى ! من داوعى السخرية أن يكون يهوديا ولد ونشتاء فى أوروبا ويصبح ألمانيا إلى هذه الدرجة ! هروب « هيلجا » إلى أمريكا صدم « ڤلادى » صدمة شديدة . جرح لا يندمل . وكانت « إيڤيلين » تعتقد أن من الأفضل أن تتركه وحده يعالج كبرياءه الجريح . ولو رأى أنها كانت مخطئة في ذلك لكان من واجبه أن يقول لها ذلك . لماذا لا يسمح لها بممارسة أخطائها الخاصة الآن ؟

لم تعد طالبة عنده . كانت تقول لنفسها أحيانا إن الرفض هو أقوى مشاعر ذلك الرجل المنغلق .

كانت الأشهر الثلاثة الأخيرة قبل انفصالهما موجعة . كان ينامان معا ولكن كجثتين ! لم يمارسا الجنس أبدا . وأصبح ذلك طقسا غريبا وشاذا . « إيڤيلين » تشعر بتقلصات شديدة فى معدتها بعد كل ليلة تقضيها معه على هذا النحو . وأخيرا هربت .

عندما راقبت مزاجه الصارم انسابت منها الذكريات التعسة مرة أخرى فلعنت نفسها . ودون كلمة واحدة قامت من السرير وارتدت ملابسها . كان « ڤلادى » يراقبها صامتا .

« لا تذهبى يا إيڤيلين ! سأحلق ذقنى وأرتدى ملابسى ونخرج للنزهة بعض الوقت . »

عبرت وجهها نظرة حزينة . « ماذا حدث لنا يا « ڤلادى » ؟ لقد كنا قريبين من بعضنا الآخر ! »

ويـــدل أن يـرد عليهـا ذهــب إلــى مكتـبه وعــاد بنسخة من طبعة « سوهر كامب » الصادرة فى عام ١٩٨٠ : « جيساميلتى شريفتن » * لـ « أدورنو » .

« كنت أراجع الترجمة الصينية لهذا الكتاب الليلة الماضية .

انظرى أى جوهرة نفيسة قد وجدت . حذفوها من الطبعات السابقة ، الله وحـده يعلم لماذا . ربمـا كانـت تلمـس وترا حسـاسـا فـى حياة « أدورنو» الخاصة »

وتركها ممسكة بالكتاب بينما ذهب إلى الحمام . شئ غامض . لماذا يترجم « أدورنو » إلى الصينية ؟ لابد أن هناك أشياء أخرى أكثر عملية كان بإمكانه أن يقوم بها . فقدان وظيفته فى « همبولت » يمكن أن يكون مفيدا إن كان ذلك سيخرجه من الجيتو الخاص به . يمكن بكل سهولة أن يصبح كاتب رأى فى جريدة ، أو متـحـدثا فى إحدى الإذاعات ، أى شئ يجعله يتوقف عن تفحص أمعائه !

« إنتهيت ؟ مارأيك ؟ »

استلقت على السرير وراحت تقرأ الجزء الذى حدده لها .

« إن الألـم الناجم عن انهـيـار العـلاقـات الجنسـيـة ليس كـمـا يبـدو بالضـبط . فـهـو ليس خوفـا من انحـسـار الحب ، وليس نوعـا من الحب النرجسى الذى وصفه « فرويد » بعمق .

* الأعمال الكاملة Gesammelte Schriften

يدخل هنا أيضا الخوف من سرعة زوال مشاعر الفرد . ولذلك تظل هناك مساحة صغيرة للنزوات العفوية التى قد تبقى ، ويعتز بها الفرد ويشعر معها بالفرح حتى وإن سببت له الألم . إنه فى الواقع يشعر بالآثار الأخيرة والتى تكون موجعة عندما يدافع عنها حتى لا يصبح هو مجرد شئ .

والخوف من حب شخص آخر يكون أقوى من الخوف من فقدان ذلك الشخص . والعزاء هو أننا بعد سنوات قليلة لن نكون قادرين على فهم عواطفنا ، ويصبح بإمكاننا أن نلتقى المرأة التى نحب بلا شئ أكثر من دهشة وحب استطلاع عابر يمكن أن يصيب الطرف الآخر بالدهشة كذلك .

إن العاطفة التى تخترق العقلانية ، وتبدو أنها تساعد النفس على كسر سجنها الضيق تصبح تجديفا كاملا إذا دخلت حياة الفرد ثانية عن طريق سبب مخز .

ومع ذلك ، فإن العاطفة ذاتها ، وبشكل لا مفر منه ، عندما تعبر الحدود الثابتة بين شخصين تصبح مضطرة للتفكير فى تلك اللحظة ، وعندما تخضع لها مضطرة كذلك للاعتراف ببطلان ذلك الخضوع . والحقيقة أن الفرد كان يشعر دائماً باللاجدوى وأن السعادة تكمن فى الفكرة اللامعقولة لإنجراف العاطفة أو الحماس وفى كل مرة يفشل فيها يعتبرها المرة الأخيرة ، يعتبرها الموت !

إن سرعة زوال الشئ الذى تتركز فيه الحياة بكاملها ، تخترق ذلك التركيز نفسه . وقبل كل شئ ، فإن المحب غير السعيد عليه أن يعترف بأنه لم يكن يحب سوى نفسه عندما كان يعتقد أنه ينسى نفسه . لا صراحه تقود إلى خارج دائرة الذنب لما هو طبيعى ، وإنما التفكير فقط فى كيف أنها دائرة مغلقة » .

كانت تقرأ ذلك للمرة الثالثة عندما ظهر « ڤلادى » يرتدى « سويتر » برقبة وبنطلون جينز حائل اللون وحذاء رياضة قديما .

« حسن ؟ »

« إنها صعبة يا ڤلادى » .. مثلك تماما ! ما هى الفكرة التى تزعجك فى ذلك ؟ »

« الخوف من سرعة زوال مشاعر الإنسان »

« وصلتنى الرسالة ! »

ضحك « ڤلادى » المشكلة معك يا « إيڤيلين » أنك تأخذين كل شئ بشكل شخصى »

« والمشكلة معك يا « ڤلادى » هى أنك منذ سقوط جمهورية ألمانيا الديمقراطية أصبحت ميالا للحزن إلى حد ما » .

« فى أشياء وأشياء »

« معنى ذلك ؟ »

« فــى الــذكــرى الأولى لوفــاة الحــائط كــانت هناك سلسلة أحــداث مؤسفة » .

« ليس « ڤــلادى » الذى يمكن أن يكون خــجــولا هكذا ! حــتــى فى حالتك الراهنة »

« حاولت أن أمارس الجنس و .... »

قاطعته « إيڤيلين » : « مع من ؟ »

« مع واحدة لا تعرفينها بالتأكيد » .

« واحــدة من مــتــحــولات « أدورنو » ربما ... ! على أية حــال .. مــاذا حدث ؟ »

« تــلك هــى النقطـــة الأســاســية . لــم يحـــدث شئ . لا تضــحكى يا «إيڤيلين» . الأمر لا يدعو للضحك ! »

« هل حاولت مرة أخرى منذ ذلك ؟ »

هز « ڤلادى » رأسه .

« تعنى أنك على مدى السنوات الثلاث الماضية كنت تعيش كالراهب ؟ »

« ليس بالضبط ! فالرهبان كما تعرفين يعيشون دائما حياة جنـسية كامــلة ومتنوعة . على خـلافهم .. أصبحت عزبا . وهذا يقلقنى . فكرت فيك كثيرا ولم تكن لدى رغبة فى أن أراك » .

« وهذا يؤكد فكرتي يا « ڤـلادى » . أعتـقـد أننى أعـرف مـشكلتك ياصـديقى . لقد توقفت عن حب نفسك ونسيت كيف تتلقى الحب . فرط الجنسـيـة يصـيب بالمرض ، ولكن عـدم وجـودها بالمرة ... ؟ شئ غـيـر طبـيـعى . لقـد غـصـت فى بركـة رثاء الذات . « ڤـلادى » ! عـقـدة الاستشـهاد .. أحكمت قبضـتها عليك . كل ذلك يمكن أن ينتهى بنوبة من ممارسة الجنس .... ممتعة ... وطويلة ... ومهدئة ! وأنا أقبل التحـدى ! ڤـلادى ! حـائط « بـرلـين » أو لاحـائط « برلين » .... هيـا ... اخلع ملابسك ! »

ضحك « ڤلادى » « وهو كذلك .... ولم لا ؟ »

وسقطت الملابس وكان السرير يصرخ تحت ثقل الجسدين .

« كنت قد نسيت جسدك » .... همهم وهو يداعبها ويتحسس دفئها الذى كان قد نسيه .

بعد ذلك نظر إليها مترقبا .. جلست وضحكت .

« هه ! لم يكن شيئا ! أليس كذلك ؟ ثلاثة من عشرة للأداء وعشرة من عشرة للمجهود ! سنفعل ذلك كثيرا ! » ابتسم « أعتقد أننا لابد أن نخرج لنتمشى يا « إيڤيلين » ...

ولو لنرى ضوء الشمس ! »

« لابد من ارتداء شئ ثقيل .. الجو بادر فى الخارج » لبسا ثيابهما بـسـرعـة . تناول المعطف الأخضـر القـديم من على المقـعد وألقـاه على كتفيه . « إيڤيلين » ضحكت .

« مازلت تحتفظ بهذا الأثر القديم من ألمانيا الديمقراطية ! لماذا لا تبيعه لأحد الباكستانيين أصحاب المحلات الصغيرة بالقرب من بوابة « براند نبورج » ؟ يمكن أن تحصل على ثمن أكبر من ثمن صور « أولبرشت » و« هونيكر » وأعلام جمهورية ألمانيا الديمقراطية ! »

ابتسم « ڤلادى » مرة أخرى .

« لا تسخرى يا « إيڤيلين » . أنا أقف أحيانا وأتكلم مع أصحاب تلك المحلات نتناول الشاى معا . مرة سألت أحدهم وكان شابا فى الثلاثين ... لماذا يبيعون كل تلك الأشياء . هل تعرفين ماذا قال ؟ أمى ضاعت ، وأنا ضعت ، فماذا بقى لنفعله سوى أن نبيع بقايا هذا البلد الضائع ؟ »

وانفجرت « إيڤيلين » فى الضحك موافقة على ذلك .

« ورغم أنك قد قررت كل شئ ، أقول أيضا إن المعطف قد ضاع ! »

« أنا لم أقرر شيئا .... ولا كلمة ... ودعك من المعطف . هناك أشياء يجب ألا يفرط المرء فيها ... هذه الخرقة البالية لا تقينى البرد ، ولكنها تعيد لى كثيرا من الذكريات الدافئة ! »

الآن تراه « إيڤيلين » كما رأته أول مره . قاعة محاضرات مزدحمة ذات مساء بارد من نوفمبر . كان ذلك منذ سبع أو ثمان سنوات . رغم أن القاعة كانت مزودة بالتدفئة إلا أن البروفيسر « مايور » لم يخلع المعطف . مايجعل ذلك اليوم ماثلا فى الذاكرة ليس ملابس « ڤلادى »

ولا سلوكه ولا حركته الجسدية وإنما الموضوع . كان يتكلم عن « هينى » بحميمية فاجأت المستمعين ، ثم بعد ذلك أدهشتهم ليس « هينى » الشاعر ، وإنما « هينى » المؤرخ للثقافة الألمانية . « هينى » مؤلف « الدين والفلسفة فى ألمانيا » ، الكتاب الذى كان يعتبره « ڤلادى » نصه المدرسى .

إحدى نتائج النزعة المحافظة فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، هو أنها حفظت التعليم فى مرحلة ما قبل الفيديو ، مع عادة الاهتمام بالكلمات الطويلة . أما إحدى المزايا الجدية للانتصار الغربى فهو أثر الڤيديو فى كسر الاحترام القديم للثقافة الراقية فى وسط أوروبا ، بما فى ذلك التقليل من شأن أولئك الكتاب الذين كان الغرب يحترمهم طالما أنهم كانوا منشقين عن الأنظمة الشيوعية .

أولئك المؤلفون أنفسهم ، يستجدون الآن أن تترجم أعمالهم ، وبدأوا يفهمون أن تمردهم الطويل ضد الواقعية الاشتراكية قد تركهم بلا سلاح ضد العدو الجديد ... واقعية السوق .

« ڤلادى » يتذكر كيف أنه بعد أن انتهى ، ران صمت طويل ، ثم فجأة دوى تصفيق غير عادى ، أدهشه وكان مفاجأة له .

ابتسم ، وهى أيضا لا حظت كل شئ آخر عنه بما فى ذلك المعطف الأخضر .

« ڤلادى » . كانت تفكر بصوت عال ، « ألا زلت تتذكر تلك القطعة من « هينى » ؟

« أية قطعة » ؟

« عن التقشف الألماني . تعرف ... عندما فسر بداية الإصلاح كتمرد على بيع الانغماس الذاتى ، مما يدل على أن الليبيدو الجمعى لدينا قد تجمد »

ابتسم « ڤلادى » . أخذها من ذراعها وهمس في أذنها بكلمات « هينى » .

« نحن الشماليون ، دمنا أكثر برودة ، ولا نحتاج لكثير من الانغماس في خطايا الجسد كما أرسلها « ليو » في اهتمامه الأبوى بنا . مناخنا يجعل من السهل علينا ممارسة الفضائل المسيحية ، وفى ٣١ اكتوبر من عام ١٥١٦ ، عندما علق « لوثر » أفكاره ضد الانغماس الذاتى على باب كنيسة القديس أوغسطين ، ربما كان الخندق المائى الذى يحيط بـ « ويتنبرج » قد تجمد ، وكان بالإمكان التزلج فوقه ، وهذا نوع من المتعة شديد البرودة ، وبالتالى فليس ثمة خطيئة » .

راحت « إيڤيلين » تمسد شعره .

« على الأقل فإن ذاكرتك ما زالت موجودة ! »

« هل قرأت الكتاب ؟ »

« لا ! » اعترفت « إيڤيلين » . « لم يكن هناك سبب لذلك . محاضرتك قالت كل شئ . شعرنا بأننا عرفنا ما فى الكتاب ، .. وبدقة .. » .

كانت الإجابة " « حمقى . ! أغبياء ! كيف يمكن أن أنقل جمال اللغة ؟ كان لابد أن تلتقطوا ولو بعض العبارات لبث الحيوية فى سيناريوهات أفلامكم »

« ڤلادى » .. هل تكره أفلامى ؟ »

« لا ! ولكنها ليست قوية بما يكفى لكى أكرهها ! وتلك هى المشكلة . مازلت مبتدئة . تقلدين الموضة الغربية لجذب اهتمامهم . أريدك أن تبدأى الاستماع لصوتك الخاص . أصواتنا يا « إيڤيلين » هذا ما نحتاجه . وأعتقد أنك قادرة عليه . أنا متأكد ! »

« إيڤيلين » لم ترد . تملكها غضب شديد فى البداية . ياله من متعصب أبله . هكذا كانت تفكر . كم أكرهه !

سارا فى صمت قرابة ربع الساعة إلى أن أدركت هى أنه كان على حق ! وبقى ذلك الإدراك يزعجها للحظات قليلة . ثم عانقته ! « شكرا يابروفيسور ... نصيحة مفيدة ! »

دهش « ڤلادى » واستراح لرد فعلها . وللحظة كان يتصور أنها سوف تبدأ دورها مرة أخرى وتفضحه أمام المارة . وقبل أن يهدئها أكثر من ذلك فاجأهما صوت مألوف .

« إيڤيلين » ... و« ڤلادى » ! أليس صباحاً جميلا ؟ ! كانت « ليلى كروزبيرج » متدثرة بشال أحمر ، تضع على وجهها صندوقا من الألوان والأصباغ ، وقفت أمامهما منتظرة ردا . لا رد ! وأخيرا هز « ڤلادى » رأسه قليلاً ، وافتعل ابتسامة باهته . « إيڤيلين » عانقت «ليلى » .

« ليس بعيدا عن المكان الذى رسمت فيه « القبلة المختلسة » .

كنتما تستلقيان دائما على الحشائش .. تحت شجرة الصفصاف بالضبط .

وكان وصفا نموذجيا بالنسبة لى . كل مساء من أغسطس فى ذلك العام . كأنكما تتخذان وضعكما أمامى لكى أرسمكما . نفس حركات الجسد .. ثم أطول قبلة رأيتها فى حياتى " هل هى زيارة لهذه البقعة إحياء للمناسبة ؟ سألتكما عدة مرات قبل ذلك إن كانت اللوحة قد أعجبتكما ولكنكما لم تردا على ! »

تساءلت « إيڤيلين » فى غير حماس « لو أنها لم تعجبنى ... فلماذا أعلقها على جدار غرفة نومى ؟ »

« أعرف ذلك يا « إيڤيلين » ، أنا أسأل « ڤلادى » .

اعتراف « إيڤيلين » فاجأ « ڤلادى » .

« موجودة على الحائط طوال الوقت ؟ »

« نعم »

« ولماذا لم تخبرينى ؟ »

« الهر .. البروفيسور « مايور » .. هل خذلتك ذاكرتك تماما ؟ »

هل نسيت فعلا كيف خرجت من غرفتى وأنت تقول إننى قد أصبتك بالقرف وإنك لا تريد أن ترانى بعد ذلك ؟ فى اللحظة نفسها تقريباً التى

كنت أبلغك فيها بأننى قد حصلت على عمل فنى يصور جسمك المستلقى بطريقة رائعة ؟ !

« عمل فنى ؟ »

فجاء صوت « ليلى » حزينا : « لم يعجبك إذن يا « ڤلادى » ؟ »

« لست ناقدا فنيا يا « ليلى » ، ومع ذلك فقد كنت أرى أن أسلوبك مرتبك . لا يمكنك أن تتزوجى من « سكيلية » و« بيكاسو » فى وقت واحد . إنهما ... »

صرخت « إيڤيلين » : « اسكت يا « ڤلادى » ! إنك تقول ذلك فقط لكى تعاقبنى . لماذا تؤلم « ليلى » ؟ مازلت أتذكر انطباعك الأول عن الرسم . « .... م ... م ... م ... غيــر عــادى ! ألوان ثرية ! الخطوط تنقصها الرقة إلى حد ما ، ولكنه جيد ! يعجبنى ! « فماذا غير رأيك ؟ »

« لا أستطيع اليوم أن أتكلم فى ذلك .... عفوا يا « ليلى » ! عن إذنك » .

وانصرف على مهل !

- ١٤ -

كان « كارل » قد قرأ رسالة « ڤلادى » عدة مرات ، ولكن على انفراد دائما ، كان يفعل الأن في غرفته بالفندق . كان في « ميونخ » للقاء أحد الناشرين . و« كارل » سوف يلحق به فيما بعد لتناول العشاء معا .

انتابته فجأة رغبة ملحة لتبرير نفسه ، الأمر الذى لم يحدث من قبل . لماذا كان يريد أن يدافع عن تاريخه أمام « ڤلادى » ؟ لماذا يريد أن يبرر نفسه ؟ هل شعر فجأة بعدم الأمان ؟ لقد حدث تغيير في زعامة الحزب ولم يكن « كارل » يستريح للرجل الجديد .

كان صخابا ، قلقا ، مندفعا ولا يصلح لأن يكون مستشارا . وكان « كارل » يخشى أن تجعل السلطة الحزب الديمقراطي الألماني يضل طريقه . كان يشعر أنهم فى حاجة إلى القوة لكى يناضلوا ضد نسيان الزمن . كان يود أن يوضح أفكاره . وفى أوقات كتلك كان يفتقد « ڤلادى » ، لديه ساعة قبل العشاء فتح أوراقه وكتب . :

عزيزى « ڤلادى » ،

سعدت لأنك كتبت إلى . وها أنذاك أكتب لك لأؤكد أننى لا اعتبرك ولا أمى مسؤلَيْن عن الانفصال . أزعجنى ذلك كثيرا ولكن ذلك كان فى الماضى . هل تذكر كيف كنت تسخر من فتور حماسى وعدم قدرتى على اتخاذ قرار بشأن مقصدى النهائى ؟ حسن ! الآن .. قررت ..

ولكنك ما تزال غاضبا لأنك لا توافق على قرارى . هل تريد أبنا أم ذيلا ؟ إن ما يصيبنى بالجنون من جيلك هو رفضك قبول حكم التاريخ . في وقت ما ، كان التاريخ يتحرك إلى الأمام باندفاع .. نحو أفكارك الخيالية . ثم بعد ذلك كنت تنظر إليه كعملية موضوعها . بروليتاريا العالم التى لا تقهر والتى جمعت بينها الطبقة ضد عدوها . والآن أصبح التاريخ بغيا .

أنظر إلى العالم من حولك يا « ڤلادى » . أنظر فقط !

المزارعون الفقراء فى « رواندا » يقتلون جيرانهم الفقراء باسم القبيلة . الصرب الروس الأرثوذكس يقتلون مسلمى البوسنة ، والكروات الكاثوليك يقتلون ويقتلون .. بأيدى الطرفين الآخرين . تقدم ؟ !

أنا لا أنكر عليك ذكرياتك وماضيك يا أبى ، لكن ، أرجوك ، لا تنكر على مستقبلى ! لا أريد خيالات ومثاليات لا تتحقق . أريد حياة هادئة ، حكومة معقولة ، أمرأة أحبها وتحبنى ، طفلين ، ونظام نقل عام يعمل بكفاءة ، ودراجة قوية - بهذا الترتيب . هل هو شئ مضجر ربما ؟! ، ولكنى أفضل أن أشعر بالضجر وأن أعيش حياة عادية ، على أن أكون فى حالة استثارة دائمة وأرى الملايين من حولى يختفون . العقل لابد أن يحل محل الجمود الفكرى والأيديولوجيا . أرفض أن أنافس من أجل تاريخ يدمر كل تاريخ « أقل » منه .

أنت غاضب ! وتعتقد أننى عنيد . وتعتبر أفكارى عملا طفوليا ضدك وضد « هيلجا » . تعتقد أن الكائنات الغريبة قد اغتصبت عقلى ! تعتقد أننى مستهلك تماما بدوافع عملية .

وبسبب ذلك كله أصبحت تحتقر أفكارى وأرائى السياسية .

أنت تظن أنك .. وأنك أنت وحدك على حق . وترفض أن تتحمل أية مسئولية عن هذا القرن اللعين الذى سيطرت عليه « الفكرة » .

والحقيقة ياعزيزى « ڤلادى » أن الأفكار الخيالية التى حاربت من أجلها أنت وجدتى « جيرترود » وجدى « لودڤيك » (الذى تقول الآن إنه قد لايكون جدى) – الوحيد الذى ناضل ومات من أجل أهداف حقيقية قد لا يكون لها علاقة بنا – كانت طواحين هواء . أعرف أن ذلك سيزعجك كثيرا ، ولكنه ما أشعر به . ماضيك ليس عديم الأهمية بالنسبة لى ، لكنه لا يعلمنى شيئا . ورغم ذلك أشعر بأننى قريب جدا منك ، وبأننى فى حاجة إليك ، ويمكننا أن نتناقش وجها لوجه .

سأكون فى « برلين » قريبا . وأنا سعيد لأن الشقة القديمة مازالت موجودة هناك . فلا تقلق من فضلك بهذا الصدد . يمكن أن نذهب معا ونبحث عن شقة جديدة .

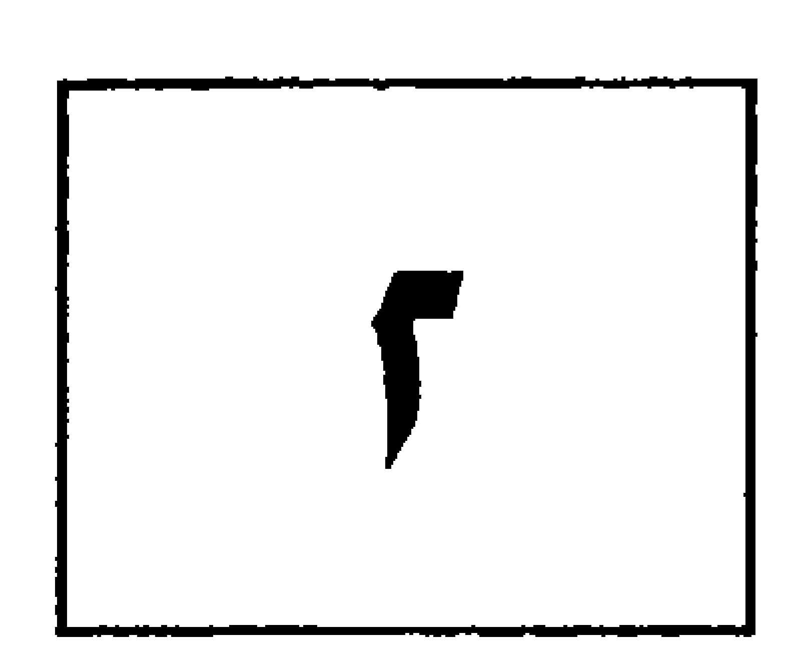
« هيلجا » كتبت تقول إنها قد تعود إلى ألمانيا . بدأت تكتشف أن نيويورك « صعبة جدا » – أخيراً !

أنا مسرور حقا ! وأنت ؟ أرجوك .. اكتب أو اتصل تليفونيا . والأفضل أن يكون لديك جهاز « فاكس » وجهازا للرد على المكالمات

التليفونية . ذلك سوف يجعل الاتصال أكثر سهولة . عندما انتشر استخدام التليفون ، ظن الناس أن زمن كتابة الرسائل قد ولى ، ثم ظهر « الفاكس » ، وعدنا مرة أخرى ، أقصد بقية أوروبا فيما عداك . من أين تحصل على أشرطة آلتك الكاتبة هذه الأيام ؟ سمعت أن المصنع قد توقف !

مع حبى !

« كارل »


٢

- ١٥ -

فى سبتمبر ١٩٣٦ ، كان قد مضى على الحرب الأهلية الإسبانية عدة أسابيع . أرض " سرڤانتس " أصبحت ساحـة للصراع الأوروبى . كنت بين رأيين يا " كارل " : أكتب أو لا أكتب عن إسبـانيا . بدا ذلك وكأنه ينتمى إلى ماضى بعيد وكنت أخشى أن أستنفذ صبرى : ثم ذهبت وشاهدت " الأرض والحرية " لـ " كن لوتش " المخرج الإنجليزى . مفارقة غريبة : انجلترا هى أكثر البلدان تخلفاً وعزلة فى قارتنا الأوروبـية ، ومـع ذلك هــى التــى تـقدم لنــا مــثل " كن لوتش " .

ولاحظت بعد ذلك فى شهادة التقدير أن معظم الأموال قد جاء من أوروبا ، الأمر الذى يدعو للأطمئنان . إلا إننا لابد أن نعبر عن أمتنانا لهم لأن الفكرة قد نبتت فى انجلترا .

كانت السينما مزدحمة بالشباب وتمنيت لو أنك جالس جوارى .

الفيلم ضعيف ، ولكنه أعاد كل الذكريات القديمة والمناقشات التى كنت قد سمعتها من " جيرترود " وأصدقائها فى " برلين " ، وكان معظمهم قد حارب ضمن لواء " تايلمان " .

كانت " جيرترود " تتحدث دائماً عن " كولليور " وهو منتجع على البحر .

ذات مرة ، وكنت فى السابعة عشرة ، كان هناك صديق قديم لجدتك اسمه " والتر " .. يعمل فى " باريس " ضمن البعثة التجارية . كنا سنقيم عنده وذهبنا جميعاً إلى " كولليور " كنقطة لقــاء . كانــت قريبة جداً

من إسبانيا ، دون أن تكون مدينة حدودية بكل ما يعنيه ذلك . هادئة جداً حتى فى ذروة فصل الصيف عندما جاء " لودفيك " إلى هنا مع " ليزا " و " فيلكس " لقضاء عطلة قصيرة . كان " فيلكس " يعتبرها جنة الله على الأرض .

والآن ، كانت " ليزا " و " فيلكس " قد عادا إلى " باريس " وأصبحت " كولليور " مهجورة ، باستثناء السكان المحليين و "لودفيك" والرجلين اللذين جاءا من " موسكو " ، أصدقاؤه القدامى ، " فريدى لانج " و " شميلكا ليفيتسكى " . قدموا أنفسهم للمحليين كأصدقاء يعملون بالتجارة وكان كل همهم صيد السمك والطعام الجيد . الغرباء دائماً يعتقدون أن من السهل خداع السكان المحليين . لكن ذلك لا يحدث دائماً ولم يكن الصيادون فى " كولليور " استثناء . فقد أحبوا " اللامات الثلاث " .

قبلوا أن يكون " لودفيك " وأصدقاؤه مغرمين بالصيد ويقبلون على النبيذ المحلى والمطبخ الفرنسى - القطالونى ، ولكنهم لم يصدقوا أبداً أن رجال الأعمال الثلاثة كانوا هناك لمجرد قضاء وقت سعيد . كانوا يعرفون أن أولئك الأجانب كانوا على علاقة ما بالحرب الأهلية الدائرة فى البلد المجاور .

" كولليور " التى يحتضنها هلال من التكوينات الصخرية الخلابة، كانت مغطاة بكتل صغيرة من السحب فى ذلك اليوم .

كان روتين " لودفيك " بسيطاً . " اللامات الثلاث " يخرجون من الفندق فى الصباح الباكر . يسيرون حتى الشاطئ ثم يجلسون فى صمت يراقبون الصيادين وهم عائدون بمحصولهم الليلى . مجموعة متنوعة من الأسماك.كان ذلك الصيد يحدد طبيعة ونوع الحساء الذى

سيقدم مساء . " فريدى " يشعل غليونه ، وهى إشارة لهم جميعاً فيقفون، يتبادلون مزاحاً سريعاً مع الصيادين ثم يمضون بنشاط نحو حافة الشاطئ لبدء تمشيتهم المعتادة بحذاء المرتفعات الصخرية . وبعد ساعة تقريباً ، كان يمكن أن تراهم يتناولون إفطارهم فى المقهى المواجه للفندق وهم منهمكون فى قراءة الصحف الصباحية . بعد ذلك يختفون طوال النهار فى سيارة " لودڤيك " الستروين السوداء . كان عادة يأخذهم إلى " بورت بو " لتكليفات محددة مع عملاء من إسبانيا . واليوم كانوا فى طريقهم إلى قرية فى البرانس الفرنسية ، حيث كان السكان وهم أقل من ثلاثمائة شخص ، موالين لقضية الجمهوريين فى " أسبانيا " مهارات " لودڤيك " التنظيمية حولت القرية الجبلية الصغيرة إلى مركز قيادة سرى ، على درجة كبيرة من الأهمية ، متصل بميادين القتال فى " قطالونيا " .

هنا كانت توجد ورشة متوسطة الحجم ، لإنتاج جوازات السفر السويسرية والفرنسية ، والبريطانية وبطاقات الهوية الألمانية والإيطالية وكذلك العملة . وبالقرب منها ، خياط متخصص فى تفصيل الزى الرسمى ، وفى الغرفة المخفية على السطح ، عامل لاسلكى ، يتصل " لودڤيك " عن طريقه بـ " إسبانيا " والشعبة الرابعة فى " موسكو " . أما فى خارج القرية فكانت توجد مزرعة كبيرة . كان " لودڤيك " قد اختار ذلك الموقع الريفى بعناية شديدة . المبانى المحيطة به تبدو متداعية ، وكأنها مهجورة ، ولكن فى داخلها، كان " لودڤيك " يشرف على ابتكار أسلحة متخصصة . كان يتم إصلاح وتطوير مدافع الماكينة والمسدسات وتجربتها ثم إعادتها لعملاء الشعبة الرابعة فى " إسبانيا " و " فرنسا " و " البرتغال ".

" فريدى " و " لڤيتسكى " المعجبان بالعملية نظراً إلى " لودڤيك " وتبادلا الابتسام . كلاهما كان يفكر فى أيام الدراسة فى " بدڤوشويسك " حيث كان " لودڤيك " أقلهم أنضباطاً .

بدا صوت " لودڤيك " متعباً وهو يقول : " هيا نتناول مشروباً وبعدها نواصل العمل " .

قام أصدقاؤه من مقاعدهم ، أطفأوا غلايينهم . ثم ساروا على مهل نحو المبنى الخارجى . كان " لودڤيك " يقف أمامه وعندما اقتربوا ابتسم . تذكر أم " شميلكا ليڤيتسكى " وهى تصرخ فيهم لأنهم ألقوا بأبنها الوحيد فى النهر بملابسه كاملة . ولمدة أسبوع كامل ، كان شميلكا " ممنوعاً من اللعب معهم ، وبدلا من ذلك ، أرسل ليتلقى دروساً خاصة من الحاخام ! شرح " لودڤيك " الترتيبات الإدارية والتموينية للعملية ، وترك رفيقية من الشعبة الرابعة يتحدثان مع العمال المتخصصين على راحتهم لكى لا يؤثر على انطباعاتهم الأولى .

بعد ساعات قليلة ، وأثناء الغداء المكون من الخبز الطازج وجبن الماعز والنبيذ الأحمر المحلى ، كان الرجال الثلاثة يتبادلون المعلومات. كان " لودڤيك " يعيش خارج الاتحاد السوڤيتى منذ عام ١٩٢٩ ، وعلى مدى الأيام الثلاثة الأخيرة كانوا يناقشون الأزمة الأوروبية والتخلص من عملائهم . كان " لودڤيك " متلهفاً للاستماع لأخبار الوطن ، وبعد ذلك كان عليه أن يقدم تقريراً سريعاً لـ " جيرترود " عن ذلك الاجتماع . الحوار التالى عبارة عن نتف من مفكراتها ، وقد أضفت بعض الجمل التوضيحية من أجلك يا " كارل " ، ولكن صوتا داخل رأسى يقول لى أنك لن تصل إلى ذلك المدى . وإن حدث ، أرجوك حاول وأفهم أن ما تسميه " الشوعية التاريخية " كان هو الحياة اليومية بالنسبة لأولئك الناس .

كانوا هم المادة الإنسانية ، ولن يصدقوا أبداً أن الفكرة لن تهزم إلا مؤقتاً .

قال " ليڤيتسكى " إنها فرصتنا الأخيرة ، إذا انتصر الفاشست فى " إسبانيا " فإن " هتلر " سوف يستولى على أوروبا وسوف يقوى " ستالين " نظامه .

" فريدى ؛ يتكلم بصوت هادئ ، ولكن سلطته واضحة لا تخطئها عين . كان كواحد من المراقبين الرئيسيين للشعبة الرابعة يعرف كل شئ تقريباً ". لو استولى " هتلر " على أوروبا ، فإن " ستالين " سيعقد صفقة معه " .

" لا ! " كانت لهجة " ليڤيتسكى " تعكس ما انتابه من رعب . " أنت تذهب بعيداً جداً يا " فريدى " . حتى " ستالين " لا يمكنه أن يصل إلى هذا ... الحزب ممكن ! "

" لا تكلمنى عن الحزب ، لقد أصبح أداته . لقد أطلعت على تقارير الاستخبارات الألمانية . أقاموا قنوات اتصال معنا . تقريران منها يشيران إلى أن المارشال " توكا شيڤسكى " يعمل لحسابهم " .

قال " لودڤيك " بازدراء " هذا تزييف واضح ، ورغم ذلك فأنا واثق أن شخصاً واحداً فى " موسكو " يريد ، وبكل قوة ، أن يصدقهم . هل أنا محق أم ترانى مخطئاً يا " فريدى ؟ "

" محق يا صديقى ! "

" ستالين . " ليڤيتسكى " صدم بالفعل " ولكن لماذا بحق السماء ؟ إن " توكا " هو أفضل من لدينا ! "

" ولذلك يريده صبية " هتلر " أن يخرج . يعرف كل استراتيچيتهم

العسكرية من الداخل . في وقت باكر من هذا العام وأثناء المناورات كان يوضح على الخريطة كيف وأين سيهاجم الألمان الاتحاد السوڤيتي ، وكيف يمكن أن تكون مقاومتهم "

" أعرف ذلك كله يا ڤـ .. ڤـ .. ڤريدي " . كـان " ليڤيتسكي " يتلعثم أحياناً عندما يستاء ... " ولكن لماذا يريد زعيمنا الكبير أن يتخلص منه ؟ "

" غيور من مكانة " توكا " في الجيش الأحمر . وقلق في أعماقه خشية أن يتحرك " توكا " في حال حدوث أية أزمة " ، كـان ذلك رد " لودڤيك " . " كما أنه لم يغفر أبداً لـ " تـوكـا " عـدم شجبه لـ " تروتسكي " . لهذه الأسباب ، فإن قائدنا العسكري العظيم سوف يلقى القبض عليه قريباً بكل تأكيد ، ويتهم بالتجسس لحساب الألمان .... فردريك ؟ "

" أخشى ذلك ، ولن يكون الوحيد ، إنهم يريدون التخلص من كل الذين عملوا تحته كذلك "

" ليتني مت أثناء حربنا الأهلية "

أعاد " فريدي ؛ إشعال غليونه وهو يراقب وجه صديقه . كانت عيناً " لودڤيك " ممتلئتين بالحزن ، ولفترة صمتوا جميعاً . كان ذلك يحدث عندما يتحدثون عن " موسكو " .

قال " فريدي " : " لماذا يريدونك أن تعود إلى موسكو يا " لودڤيك " ؟ جلسة تحقيق ؟ "

" لماذا ؟ "

" في ظاهره يبدو الطلب غير معقول . كنت خارج البلاد لمدة سبع

سنوات . إسبانيا مهمة جداً بالنسبة لمستقبل أوروبا . أنت تعرفها أكثر من أى شخص آخر . "

تساءل " لودفيك " : " لكن .... ؟ "

قال " فريدى " : " لكن لابد أن ترفض الطلب . كان أحد صبية ستالين يسأل عنك . كان يريد أن يعرف لماذا كان أخوك يحارب مع البولنديين ضد الجيش الأحمر فى سنة ١٩٢١ ، وأعتقد أنك إذا عدت فسوف يحتجزونك هناك " .

" إن كان لابد أن أموت ، فإنى أفضل أن أذهب لقتال الفاشست " .

قاطعهم " ليفيتسكى " : " لودفيك مطلوب فى " أسبانيا " . هو الوحيد الذى يعرف أماكن جواسيسنا الذين يعملون إلى جانب " فرانكو " قال " فريدى " : " لدى فكرة أفضل ، سوف أرسل تقريراً بذلك فوراً . وجودك فى أوروبا ضرورى ولا يمكن الاستغناء عنه . يمكن أن نناور ، إذا أرسلت " ليزا " و " فيلكس " إلى " موسكو " فى إجازة قصيرة لزيارة الأقارب والأصدقاء . ولسوف يكون ذلك تعبيراً عن صفاء ضميرك وأنك لا تخشى شيئاً .

" لو حدث شيء لهما يا " فريدى " فلن أستطيع أن أعيش "

" لن يحدث شئ إن هما عادا بسرعة "

" متأكد ؟ "

" تمام التأكد ! "

" سأفكر فى ذلك ! "

وهم عائدون بالسيارة إلى " كولليور " كانت السماء صافية . أوقف "

"لودفيك " السيارة بالقرب من منعطف وقفز منها الرجال الثلاثة لرؤية الدقائق الأخيرة من غروب الشمس .

قال " لودفيك " وهم عائدون إلى السيارة : " فريدريك ... منذ ثلاثة أيام وأنا منتظر أن تقول شيئاً ... "

" ماذا ؟ "

" لماذا لم تتكلم أنت أو " شميلكا ؛ عن المحاكمة ؟ هل صحيح أنكما أجريتما تحقيقاً مع " زينوفييث " و كامينييف " ؟ وهل يمكن أن يكون ذلك حقيقة ؟ "

هل سبق أن سمعت بتلك الأسماء يا " كارل " ؟ " روز نكرانتز " و " وجلدن شتيرن " الثورة الروسية ؟ مؤسساً حزب " البلشفيك " مع " لينين " رفاقه المقربون . " كامينييف " كان أيضاً صديقاً شخصياً مقرباً ، وعندما فكر " لينين " بأنه قد يقتل ، ترك لديه مخطوط " الدولة والثورة " ، وهى كراسة بعيدة كل البعد عن اللينينية . الرجلان كلاهما كان معارضاً لانتفاضة اكتوبر ، وكانا يعتبرانها مغامرة . كانا قريبين من المنشفيك .

إذاعا التاريخ الذى كان يخطط البلشفيك للاستيلاء على السلطة فيه .

أصيب " لينين " بصدمة . طلب طردهما ولكن اللجنة المركزية رفضت بعد ذلك عفا عنهما ولكنه لم ينس .

بعد موت " لينين " أنضما إلى " ستالين " ضد " تروتسكى " ولكنهما أنضما للأخير فى معارضة متحدة لكى يهزموا " ستالين " . وبالطبع فإن الدكتاتور لم يثق فيهما بعد ذلك أبداً ، وعندما

قرر " ستالين " أن يمحو معظم لجنة " لينين " المركزية كانا أول القائمة . وهناك شئ آخر " كامينييف " كتب مقالاً ممتازاً عن " ميكافيللى " استخدم ضده أثناء المحاكمة . الأمير قضى عليهم كلهم .

لم يجب أى من الرجلين . ثم بدأ " ليڤيتسكى " يتكلم ، وقد شوهت الذكريات وجهه .

" ڤريدى وأنا استجوبناهما على التوالى "

" أيكما كان أكثر قسوة ؟ "

" أنا "

" أنت ؟ "

كان "لودڤيك " مندهشاً بالفعل . " شميلكا ليڤيتسكى " كان الأقل قسوة من بين أعضاء العصابة القديمة . كان غير مقتنع بالمرة . لابد أنها كانت فكرة " ڤريدى " أو طريقته ليقول للبلاشفة القدامى إن الحكاية كلها كانت مهزلة .

وعرف " ڤريدى ؛ بالغزيرة أن " لودڤيك " قد ضمن دوافعه . نظر الرجلان كلاهما للآخر .

أعترف " ڤريدى " لرفيقه القديم : " كان شيئاً مرعباً ! تعرف ...

... قبل ذلك كنا نضحك لأنهما كانا يوافقان دائماً معاً على كل شئ توأم سياسى ! لم يكن ذلك سيئاً . نظر " زينوڤييث " فى عينى مباشرة وقال : تعرف أكثر من الآخرين أن كل ما نحن متهمون به ليس سوى حزمة أكاذيب . لماذا إذن تفعل ذلك معنا ؟ .. على الأقل .. لا يجب أن تمتهن ذكاءنا ! "

هز " كامينييف " رأسه موافقاً تماماً . حتى في سجن " لوبيا نكا " لم تتغير شخصيتيهما . كنت أريد أن أقول لهما الحقيقة . كنت أريد أن أصرخ أنه مهما حدث فلا يجب أن يعترفا ، ولكننى لم أستطع حتى أن أرد على " زينوفييف " . كان يتم تسجيل كل شئ ويبلغ به " ستالين " وكنا مراقبين . ولذلك واصلت "

" كيف استطعت أن تجعلهما يعترفان لماذا اعترفا ؟ "

" بسيطة ، قلت لهما إنهما إذا تحديا إرادة " ستالين " في المحكمة فسوف يأمر بإعدامهما على أية حال ، ولكنه سوف يعاقب أسرتيهما كذلك . وإذا اعترف بجرائمهما فلن يحدث شئ للأسرتين ، ونجح ذلك بالنسبة لهما .

" كان ذلك بسيطاً بالنسبة لهما يارفيق ! .. بسيطة ؟ قلت لهما ذلك ؟ أنت ؟ أخبرت رفيقى " لينين " القدامى أن يموتا والأكاذيب على الشفاه ؟ من أجل ماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ "

" لم يكن أمامى أى ضياء آخر . كنت ستفعل الشئ نفسه لو كنت في " موسكو " يا " لودفيك " ، أو لو كنت قد عانيت المصير نفسه مثلهما "

" لم يقل لك كل شئ يا " لودفيك " "

" خبرنى أنت إذن يا " شميلكا " ، قل لى كل شئ " .

" قد يأخذ ذلك وقتاً طويلاً ، وقد نموت جميعاً قبل أن أنته "

كان " لودفيك " يفكر وهو يدير محرك السيارة ويناور منعطفات الجبل . " إننا لا نتعلم شيئاً من الماضى ... عندما ولدت ثورتنا لم نكن نتكلم عن شئ سوى عن الثورة الفرنسية . كيف يمكن تجنب أخطائها . وعندما بدأوا يقتلون شعبهم كانت أيامهم قد أصبحت معدودة . "

ضحك ڤريدى : " زعماؤنا لم يقلقهم ذلك أبداً يا " لودڤيك " .

من المؤكد أنك تتذكر المؤتمر العاشر للحزب . كنت موجوداً . أليس كذلك ؟ "

هز " لودڤيك " رأسه فى أسى " نعم كنت هناك ، وسرت وراء " توكا " إلى كرونشتاد "

وكانت " كرونشتاد " يا عزيزى " كارل " قلعة فى جزيرة بالقرب من " بتروجراد " كما كانت تسمى حينذاك . قاعدة بحرية . كانت حصناً ثورياً فى سنة ١٩١٧ وكان ؛ تروتسكى " قد كسب البحارة إلى جانب البلشڤيك " . والآن كان البحارة يريدون الخبز والحرية . وكان ذلك جميلاً . كان كل واحد يريد ذلك ، ولكنهم هددوا البلشڤيك بالسلاح . وقرر المؤتمر العاشر للحزب بالإجماع سحق التمرد .

قال " ڤريدى ؛ " كنت أعتقد ذلك ، هل تذكر حديث "لينين " ؟ "" أى جزء فيه ؟ "

قال " لودڤيك " مقاطعاً : عندما تكلم " لينين " عن " ثيرميدور " .

هل تتذكر ؟ كان علينا أن نقضى على تمرد " كرونشتاد " لئلا يكون مثل " ثيرميدور " بالنسبة لنا " .

قال ڤريدى : " كان ذلك هو الدرس الذى تعلمناه من الفرنسيين ، تجنب " ثيروميدور " مهما كان الثمن ! " .

اشتعل غضب " لودڤيك " : " ستالين " هو " ثورميدور " بعث مجدداً بشارب چيورچى أنتجه القتل الجماعى . قيصر فى ثوب شيوعى ولكن بدون طبقة حاكمة تحجمه .

قال " ڤريدى " : " " بوخارين استخدم نفس الكلمات معى . الكارثة

أنه ليس لديه ولو أوقية واحدة من ذكاء " نابليون " " .

قال " لودفيك " : " لكنه أكثر دهاء ، بالإضافة إلى ذوق مدمن لدم الأعداء المتوهمين " .

ولم يقل أحد شيئاً أكثر من ذلك حتى وصلوا إلى ؛ كوليور " . وفي وقت متأخر من تلك الليلة ، بعد أن أكلوا السمك الذى تم صيده صباحاً، توجه " لودفيك " صوب " فريدى " .

" كنت إلى اليوم أعتقد بالفعل أننا إذا انتصرنا فى إسبانيا فإن وضع " ستالين " فى الحرب سيصبح ضعيفاً ، ولربما تخلصوا منه .

ولكن من الطريقة التى تتحدث بها ، لم أعد متأكداً من ذلك "

" أنت متشائم جداً يا " لودفيك " . التوسط يزدهر فى حال الركود والهزيمة . إن انتصاراً فى " إسبانيا " قد يغير كل توازن القوى فى أوروبا ، قد تنتشر موجة منُ التفاؤل وتصل إلى " موسكو " ولا يدرى أحد ماذا يمكن أن يحدث . حتى بعض أتباع " ستالين " غير راضين . لا تفقد الأمل ! .

سأل لودفيك : " شميلكا ؟ " .

" ربما كان " فريدى " محقاً ، فهو على علم بالدوائر الداخلية أكثر منى ، لكن .... " ، قال " ليفيتسكى " وهو يهز كتفيه .

السؤال الحقيقى هو ما إذا كان بإمكاننا الانتصار فى "إسبانيا" وأنت هنا أكثر المتمرسين فى الميدان . تقاريرك المتزنة والدقيقة تحظى بتقدير كل من فى الشعبة ، فما هو ردك يا صديقى ؟ "

أجاب " لودفيك " : " لست متأكداً ! "

قال فريدى بسرعة : " لماذا ؟ لقد حصلنا على الضوء الأخضر من

الشارب الكبير من أجل السلاح والمال "

قال " لودفيك " : " نعم ، أعرف ذلك ، فى مقابل طلبه من الجمهورية أن تشحن كل احتياطيها من الذهب إلى " موسكو " لكى يكون فى أمان . هذه هى الدولية المفرطة ! على أية حال ، التسليح وحده لن يكون كافياً . نحن فى حاجة إلى زعيم يمكنه أن يوحد كل القوى الجمهورية ويفهم فى الاستراتيچية العسكرية والسياسية . أنت تعرف أن الـ " پوم " * قد طلب من الحكومة أن تستدعى " تروتسكى " من منفاه المكسيكى . "

أنفجر " ڤريدى " ضاحكاً ... " ستكون تلك أسرع وسيلة لتوحيد " ستالين " و " هتلر " و " دالادييه " و " تشمبرلين " .

نعم ! شئ مضحك ولكن المشكلات حقيقية . الفوضويون مصممون على إحراق الكنائس وقتل القساوسة . وأعضاء الـ " پوم " ليسوا من القوة لكى يوقفوا تلك الحماقات . الحكومة ضعيفة والفرع الإسبانى فى الدولية الشيوعية يفهم الجبهة الشعبية على أنها استراتيچية لتدمير خصومة من اليسار . من ناحية آخرى فإن اليمين متحد بدرجة أو أخرى، أهدافه بسيطة : الدفاع عن الكنيسة وممتلكاتها ضد الأعمال الوحشية ، الدفاع عن إسبانيا ضد خطر " البلشڤيك " وتتعهد إسبانيا لكى تحارب إلى جانب " هتلر " و " موسولينى ؛ فى أوروبا . وهى خطة ناجحة حتى الآن . جانب كبير من اليمين لا يثق بـ " فرانكو " . ولكنهم يكرهون الجمهورية "

قال " شميلكا ليڤيتسكى " بضعف : " ولكنك يا " لودڤيك " متشائم جداً ، إن معظم الناس يؤيدون الجمهورية "

* poum – الحزب الماركسى المتحد والذى كان قوياً فى قطالونيا ومتعاطفاً مع تروتكسى . وقد قتل زعيمه " اندريه نين " بأيدى عملاء ستالين .

" ربما ! ولكن إلى متى ؟ إن الجدل يسير على هذا النحو : الوسيلة الوحيدة لأن نكسب الحرب الأهلية ، هى أن نقوم بالثورة أولاً . نصادر ملكية الذين صادروا الملكية ! هذه هى وجهة نظر الـ " بوم " والفوضويين والاشتراكيين اليساريين وغيرهم كثير ، أما رجال " موسكو " أو الرفاق كما يطلقون عليهم ، والديمقراطيون الاجتماعيون والليبراليون الشرفاء يردون : لن تكون هناك ثورة حتى نكسب الحرب .كلاهما مخطئ ، كلاهما محق . الموقف الضد غبى ومتحجر . غير ديالكتيكى . " لينين " أو " تروتسكى " كان لابد أن يفهم ذلك ، ولكن ليس تلك المجموعة . إنهم يتخيلون التاريخ نهراً قوياً . لا يمكن إيقافه . فى طريقه إلى البحر . لو أن الحال هكذا ، لما كانت هناك حاجة لنا . إنك تحاول أن تقول لهم إن التاريخ مجموعة من المجارى المائية ، وإن تدفق أى من هذه المجارى إلى النهر يتوقف على عدة عوامل . المجرى الخاص بنا قد يجف ، ولكن هذا الاحتمال مستبعد إلى الأبد "

" لدينا تعليمات جديدة يا " لودڤيك " . من الكرملين مباشرة "

كان فى صوت " ڤريدى " شئ ما أزعج " لودڤيك " ونبه إلى أن تلك التعليمات الجديدة كانت لاختبار ولائه . وكان " شميلكا " ينقل نظره بينهما . نظر " لودڤيك " مباشرة فى عينى " فريدريك " الرماديتين .. " أنا مستعد للأسوأ "

" وحدة جديدة تم إنشاؤها خارج الشعبة الرابعة بهدف واحد : وهو التخلص من قادة الـ " پوم " فى إسبانيا واغتيال تروتسكى فى المكسيك"

" لودڤيك " ذهل ! نظر إلى وجهيهما فى صمت . هل يمكن أن يظلا صامتين ؟ هما مثله قد حاربا تحت قيادة " تروتسكى " .

كان " ڤريدى " ملحقاً بوحدة خاصة فى قطار تروتسكى مهمتها

الوحيدة الحفاظ على حياة قائد الجيش الأحمر . كان " فريدى " و " شميلكا " يعرفان ماذا كان يشغل " لودڤيك " .

قال " لودڤيك " هامساً : " ربما يكون الوقت قد حان "

صاح الرجلان فى صوت واحد : " لا .. ! "

" ولم لا ؟ نحن نخدم مصالح من ، عندما ننفذ عمليات القتل التى يأمر بها " ستالين " ؟ "

قال ڤريدى : " المسألة ليست بهذه البساطة ، وأنت تعرف ذلك أحسن من كلينا . إذا انتصرنا فى إسبانيا " فسيكون ذلك ضربة لـ " هتلر " . كنت ترسل إلينا التقارير على مدى ثلاث سنوات وأكثر ، وبها طلب واحد ... ملح ! كتلة ضد " هتلر " مع أى واحد وكل واحد على استعداد لمحاربة الفاشية . والآن تريد أن تستبعد "ستالين" من جبهتك المتحدة !"

" ستالين هو الذى مهد الطريق أمام " هتلر " ، و" تروتسكى " كان على حق . "

" طبعاً ! كان تروتسكى على حق بالنسبة للفاشية ، ولكنه للأسف بلا قوة ، " ستالين " هو الذى يسيطر على الجيش الأحمر ، وهذا الجيش هو الذى يمكن أن يحارب الفاشية . ولذلك فإن أية نزوات رومانسية للقطيعة مع " موسكو " تصبح غبية ! لا تظن أننا لم نناقش ذلك كله فى الشعبة .
"

" وفى الوقت نفسه نحن نقتل " البلشڤيك " القدامى ، ونعدم الفوضويين وأعضاء الـ " پوم " ونسمح بقتل " تروتسكى " ونراقب كل شئ فى صمت بينما يكيد " ستالين لـ " توكا شيڤيسكى " ، أكبر وأذكى قائد استراتيچى فى أوروبا "

إذا كنا نفعل ذلك كله ، فلن نكون قادرين على هزيمة الفاشية .
سيكون منهاجنا من نفس النوع "

« لن نظل ساكتين ، لماذا ؟ لابد من تحذير " تروتسكى " من مؤامرة جادة لقتله . يمكن أن تفعل ذلك عن طريق اتصالاتك فى امستردام . صديقك " سنيڤليت " قريب من ابن " تروتسكى " . وفى " موسكو " سوف نحاول أن نحذر " توكا شيڤسكى " و الآخرين . "

" لاشك ! كما ساعدتم " زينو ڤييڤ " و " كامينييڤ " .

" فريدى " ... ألا تفهم ؟ الوقت فات . إلا إذا ...

إلا إذا ... استعد لمفاجأة !

توقف لودڤيك لحظة ثم انخفض صوته ليصبح همساً ..

" إلا إذا استولى ؛ توكا شيڤسكى " على السلطة "

" مستحيل . البونابرتية تقتل الثورة "

" الثورة ماتت من زمن يا صديقى ؛

" أنا متفق معك يا " لودڤيك " ، لكن الوقت متأخر جداً "

قال " شميلكا " متلعثماً .

استمروا فى الكلام حتى جاء الليل تقريباً . لا أحد منهم كان يعرف أن كان سيرى الآخرين بعد ذلك . تذكروا " إيلان " أوائل العشرينيات . كانت الأمور سيئة ولكن الأمل لم يكن قد ضاع تماماً . كان ذلك قبل انتصار الفا سرين . قبل أن يتلون العالم بدم الأبرياء . قبل أن يجد الرسام النمسوى مهنة أخرى ، وبالنسبة لهم ... وأهم شئ ... قبل أن

يستولى الطالب الچيورچى السابق على جهاز السلطة فى " موسكو " .

كان زمنا ، كانت فكرة الموت كهروب من قبح العالم لم تدخل عقولهم بعد . " فريدى " اعترف بأنه كان مستمراً فى العمل لحساب الشعبة الرابعة لأن الاستقالة كانت تعنى الانتحار ، كانت تعنى الاعتراف بالذنب ، وهو فى مهنتهم يعنى الإعدام .

قال " لودڤيك " رداً على ذلك : " أنا أعرف ، ولكن المؤكد أن أحداً منكم لن يترك حياً . أنتم شهود على ما يحدث . بعد جريمة القتل ، يحول القاتل اهتمامه نحو المشاركين الذين شاهدوا الفعل " .

" ماذا إذن ؟ " تساءل " ليڤيستكى " .. " الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة هى أن تسلم نفسك للغرب . ستكون حياة أسوأ من الموت " .

قال " لودڤيك " : " هناك بديل آخر . أن تختفى تماماً . تعيش وتقاتل بأسلوب مختلف " .

رد " فريدى " : خيال ضيق الأفق ، الشخص الوحيد الذى حاول أن يفعل ذلك كان هو " تروتسكى " و" موسكو " سوف تقتله . وإذا فعلنا ذلك سيقتلوننا . السؤال الأهم ، هو كيف ندحر الفاشية . أنت موافق على ذلك يا " لودڤيك " . دعنا نظل موطدى العزم على هدف وحيد . هزيمة الفاشية أولاً ثم بعد ذلك " ستالين " . " سورچ " موافق على ذلك أيضاً .

" أين سورچ ، هل مازال فى الصين ؟ " .

هز " ڤريدى ؛ كتفيه . كان " ريتشارد سورچ " قد أوفد من الحزب الشيوعى الألمانى ليلتحق بالشعبة الرابعة . كان جده صديقاً لـ " ماركس " و " إنجلز " . كانت ثقة " سورچ " بنفسه مجاورة لطيشه ، وكان قد

تسلل إلى داخل أعلى الدوائر النازية فى ألمانيا وسجله نظيف . ومن ناحية حصوله على أكثر المعلومات سرية ... فإنه كان أذكى جاسوس سوڤيتى .

تعال يا " ڤريدى " ، أريد أن أعرف " .

" إنه فى أمان فى طوكيو ، مع فتيات الجيشا ، وشبكة غير معقولة .

لقد اخترق السفارة الألمانية " .

ضحك " لودڤيك " ، وصفق بيديه ، كانت علاقات " سورج " الجنسية موضوعاً لتعليقات بذيئة فى الشعبة .

ابتسم " لودڤيك " : اخترق ؟ ومن هى السيدة المحظوظة فى السفارة ؟ "

" لا أحد فى السفارة . لمرة واحدة كان محترفاً ، ولم يخلط بين العمل واللهو . يرسل إلينا بتقارير رائعة لدرجة أن " الشارب " يعتقد أنه يكذب ! "

راح " لودڤيك " يفكر مرة أخرى . " ستالين " وحش غريب . وهو مثل آخرين ، يستخدم دهاءه للتخلص من خصوم أكثر ذكاء ، لا يستطيع أن يصدق أن هناك طغاة آخرين أكثر منه شراً ... " ستالين " يعتقد أنه يستطيع أن يخدع أي شخص آخر . من هنا رفضه قبول تقارير الاستخبارات التى تذهب أبعد من أحاسيسه المحدودة "

هز أصدقاؤه رؤوسهم موافقةً . كانوا سيغادرون فى تلك الليلة وكان ؛ فريدى ؛ يحاول أن يهدئ الأمور .

" هل تتذكر النهر عند بدڤوشوليسك يا " لودڤيك " ؟

عندما وقفنا على الشاطئ ننتظر أن نقفز في الماء البارد ، كنا نعرف دائماً أننا سوف نصل إلى الشاطئ الآخر . أليس كذلك ؟ "

" نعم ! " أجاب " لودفيك " بصوت كئيب ، " ولكن الماء كانّ ينساب في النهر ... وليس الدم ! "

كان " لودفيك " يتحرك في قنوات الأفكار في قرنه . كان يود أن يختفي الكسوف الذي أصاب حياته ، وأن تشرق الشمس ثانية . يود أن تنتصر الجمهورية الإسبانية لأنه كان يفهم أكثر من كثيرين ممن كانوا يحاربون من أجلها ، كان يفهم الأثر العالمي لنصر مثل ذلك . فإذا كان عمله قد جعل نصراً مثل ذلك ممكناً ، إذن لأصبح من المجدي الاستمرار بقوة لسنوات أخرى قادمة . وعندما بدأ القطار يتحرك ، كان يفكر في " فريدي " و " شميلكا " . كيف استطاعا البقاء داخل هذا الأتون ؟ .. كيف ؟

بدأ يحلم ثانية . " فرانكو " فر إلى ملجئه في روما محطماً ذليلاً ! العلم الأحمر يرفرف متحدياً فوق مدريد وبرشلونه وبرجوس وفالينسيا . مجموعة متوالية من ردود الأفعال . انتفاضة شعبية في إيطاليا . " موسوليني ؛ يسقط . جمهورية ديمقراطية في روما . " هتلر " في موقف دفاعي . انشقاقات في قلب النخبة الألمانية . احتمال وقوع انقلاب لـ "ا ليونكر " * في " برلين " . ثم إحياء لحركة العمال الألمان . وحدة الاشتراكية والشيوعية ضد الفاشست . اضرابات ضد النازية .

كان الحلم ينتهي دائماً في " موسكو " ! العنكبوت في الكرملين يرحل، وشبكته تزول . قيادة جديدة تضم الحرس القديم وأفضل الجديد . تروتسكي يستدعى من منفاه المكسيكي ليتولى مسئولية الجيش الأحمر . إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين . و ... ستالين ! ستالين .. القيصر البدين سيكون في القفص متهماً بالقتل !

* Junkers – الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية البروسية .

وجهه شاحب شحوب الموتى ، جبهته المنخفضة أكثر انخفاضاً عن ذى قبل ، يرتدى سترته الطويلة الرمادية وبنطلونه الرمادى ، ولكن حذاءه لن يلمع بعد الآن حيث لن يكون هناك من يلمعه . والحكم ؟!

والقطار يقترب من " باريس " ، حيث كان " فيلكس" و " ليزا " ينتظران عودته بقلق ، تنهد " لودفيك " وهو يستمع لصوته الداخلى . جاء صوته بارداً وقاسياً وواقعياً . لا يستطيع أن يتحمل نزعة عاطفية أو "رومانسسية "

ليت الأمر يكون هكذا ، ولكنه لن يكون . لا تنتظر . لا تأمل تبعثر . اختف . الغضب يحتدم فى ؛ برلين " و " موسكو " . اهتياج مجنون يجتاح إسبانيا . فى كل مكان ، تدق القلوب صماء عن أى نداء !

عيون لا تعرف الرحمة تخترق كل شئ مثل رياح سيبيرية باردة ، أعمار غضة تحصد قبل الأوان .

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً . عندما وجد " لودفيك " نفسه متعباً ، ولا يستطيع أن يتنفس ، يضغط على جرس الباب الخارجى لشقته فى الدور الأخير . كان غائباً لمدة خمسة أسابيع تقريباً . نظرت " ليزا " من ثقب المفتاح ، تنهدت بارتياح وفتحت مزلاج الباب . ترك حقيبته تسقط على الأرض وضمها فى صمت . انثالت دموع الارتياح على خديها . مسحها وقبل عينيها ثم جبهتها العريضة .

" بابا ! "

اندفع " ڤيلكس " يرتدى " البيچاما " فى الممر فرفعته ذراعان قويتان عن الأرض .

" كنت أخشى ألا تعود أبداً ! "

" وعدتك أننى سأعود هذا الأسبوع ، وها أنذا ، والآن دعنا نعود إلى سريرك "

عندما دخل إلى غرفة ابنه الصغيرة لاحظ " لودفيك " طبعة فرنسية من " الحرب والسلام " على الطاولة بالقرب من كوب الماء . كان " فيلكس " قد قرأ " آنا كارينينا " قبل ذلك ولكن باللغة الروسية .

" إنها صعبة بالروسية .. لماذا تقرأها بالفرنسية ؟ "

" ماما تساعدنى بشرح الكلمات الصعبة وأنا نفسى أترك الأجزاء المملة ". تعجبنى المعارك "

" والمشاهد الغرامية ؟ "

" لا بأس بها " قال " فيلكس " وأدار رأسه قليلاً . ثم روى لأبيه كيف أن المدرس لم يصدقه عندما قال للتلاميذ فى المدرسة إن كتابه المفضلين هم " تولستوى " و " شيكسبير " .

" رويت لهم قصة " انا كارينينا " بالفرنسية ، وتلوت عليهم خطبة " مارك انطونيو " من " يوليوس قيصر " بالروسية "

ضحك " لودفيك " .

" هل اعتذر ؟ "

هز " فيلكس " رأسه .

" إنهم لا يعتذرون أبداً . هل يعتذرون ؟ "

" بابا ! هل صحيح أن " تولستوى " كان يكره " شيكسبير " ؟ "

" للأسف نعم ! "

" لكن لماذا ؟ "

" لست متأكداً . ربما كان الكونت العجوز يغار من موهبة أرقى "

" مازلت لا أفهم ! "

" عندما تبلغ الخامسة والعشرين أو حتى الثلاثين أقرأ " تولستوى " ثانية . سوف تفهم . أنا اعتدت أن أقرأ وأعيد قراءة " تولستوى " وفى كل مرة كنت أعرف شيئاً جديداً عنه . كان رجلاً أخلاقياً لدرجة شديدة ، أعتقد أنه تأثر بسخرية " شيكسبير " ، سخريته من الحياة . كلبيته . كان يعتقد أن " شيكسبير " لا أخلاقى ! . لم يفهم أن ذلك كان جزءاً من عبقريته الخلاقة ككاتب . ربما على القدر نفسه من حسه الأخلاق . كان من عادة " تولستوى ؛ أن يقول إن " هارت بيتشرستو " ... أكثر موهبة من " شيكسبير " . "

" من هى ؟ ماذا كتبت ؟ "

" كتاباً عن حياة الزنوج الأمريكيين . " كوخ العم توم " .

كتاب جديد ، لكن هل يقارن " بشيكسبير " ؟ شئ غريب ، ولكن الكونت كان جاداً فى ذلك .. والآن اطفئ النور ونم ! "

تبادل الأب والابن القبلات . فكر " فيلكس " فى أن يحصل على نسخة من " كوخ العم توم " بالروسية .

بعد ذلك ، فى الليلة نفسها ، " ليزا " أخبرت " لودفيك " بمكالمة " جيرترود " التليفونية . " كانت تبدو فى حالة هيستريا . أحد الأشخاص من موسكو أخبرها أن " البلشفيك " القدامى كانوا يعذبون فى السجن . كانت تريد أن تفر الآن . هدأتها ولكن لابد أن تراها غداً . لدرجة أنها تكلمت عن الانتحار .. !

" الأمور سيئة فى " موسكو " . يريدون أن أعود .

" شميلكا " يقول لا يجب أن أعود ، ولكن لكى أجعلهم أقل شكاً يقترح رحلة قصيرة تقوم بها أنت و " فيلكس " .

أنا لست متأكدة "

قالت ليزا " أنا ! ، " فيلكس " لا يستطيع أن يبقى هنا بمفرده .

ولذا سوف نذهب . ولا كلمة أخرى . هذا نهائى . إن لم نفعل ذلك فمعناه هروب قبل أن نكون مستعدين ، وهذا أكثر خطورة . "

لم يتقرر شئ . ظلا يتجادلان طوال الليل . فى مرحلة من الحديث ، وعندما عجز عن إحراز أى تقدم فى ما كان يعتبره جدلاً عقلانياً ، فقد " لودڤيك " أعصابه وصرخ فيها قائلاً إنها رأس فجلة أوكرانية .. عنيدة .. وأصر علي أنه لن يخاطر بحياة " فيلكس " من أجل أى شئ فى العالم ، طالباً منها أن تطيعه .

" لن أرجوك أكثر من هذا يا " ليزا " . أنا لا أتكلم الآن كحبيب ، وإنما كرئيس لكل العملية الاستخبارية فى أوروبا . أمرك بألا تأخذى " فيلكس ؛ معك إلى " موسكو " . "

ظلت " ليزا " هادئة رافضة أن تستسلم . " يمكن أن يحدث لك أى شئ هنا . العدو قد يقتلك . جماعتنا يمكن أن تأمر بتصفيتك . ماذا يحدث بعد ذلك لـ " فيلكس " ؟ سأشعر بمزيد من الأمان إن هو ظل معى "

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عندما اعترف " لودڤيك " بالهزيمة . أدار ظهره لها ، وراح فى النوم .

- ١٦ -

إلى : البروفيسور " ڤيلاديمير مايور "

برلين

من : " ساو "

موسكو - ١٩٩٤

صديقى العزيز

هذه ضربة قاسية قصمت ظهرى ، وليتك تشاركنى همى . إن أحداً من أصدقائى الآخرين لن يفهمنى ، وربما لأنه لا يوجد بينهم صديق حقيقى مثلك . وقبل البداية أود أن تعرف أننى كنت دائم التفكير بك فى الشهور الأخيرة ، ولم أنس رجاءك . لكننى كنت خارج " موسكو " معظم الوقت منذ آخر لقاء بيننا . أشترى وأبيع . أساعد فى تدفق السلع من سوق لأخرى ، وهل هناك شئ آخر يستحق العناء هذه الأيام يا صديقى ؟ أرجوك لا تجب عن هذا السؤال . حالتى لا تسمح بذلك .

كان بودى أن أكتب لك من " بكين " . ولكن رفضك أن أشترى لك جهاز " فاكس " جعل ذلك مستحيلاً . كتابة الرسائل عملية مضجرة هذه الأيام ، ناهيك عن أنها عبء ثقيل ، وجهاز الفاكس فقط هو الذى أحيا ذلك الفن القديم . ولكن عداءك للتكنولوچيا الحديثة يعنى أن أكتب هذا الخطاب وأرسله بالفاكس إلى " سوزان " ، لكى ترسله هى إليك بالبريد .

وعندما أعود إلى " برلين " سأقدم لك وصفاً مفصلاً لمغامراتى فى " منغوليا " ، وكيف كان الكوريون الشماليون يريدون أن يدفعوا لى الثمن " هيرووين " ... وبالمناسبة ... فإن شوارع " بيوج ياج " مليئة بالعاهرات . حاولت أن أجرب واحدة لكى أرى - فقط - إن كانت ستبدأ نشاطها بتلاوة بعض " الإرشادات الأولية " التى تلقتها عن الرئيس المحبوب " كيم إيل سونج " ، أو عن ابنه الوريث العزيز " كيم جونج إيل " ، ولكن قد يسرك أن تسمع أننى قاومت الإغراء .

والآن إليك قصتى ...

عدت إلى " موسكو " منذ شهر ، وبعد ثلاثة أيام من وصولى ذهبت إلى الشقة القديمة التى كنت أشارك فيها بعض الأصدقاء . ارتباطنا بهذا المكان ارتباط عاطفى . كما أنها مازالت تستخدم لإيواء زائرين من مدن أخرى ولذلك كنا نحتفظ بها . كان المصعد معطلاً فصعدت خمسة طوابق على السلم . لم يكن الباب الخارجى مقفلاً بالمفتاح ، وعلى الفور أدركت أن هناك شيئاً ما خطأ .

ودخلت . وجدت جثثهم على الأرض . لا أثر لدماء . لا أثر لمعركة . اثنان من أصدقائى القدامى ، أقرب الأصدقاء الذين بدأت معهم شراكة تجارية ... بيزنس ! وجدتهما مقتولين . فكر فى الأمر يا " ڤلادى "، لقد نجونا من الحرب . لم ينجح الأمريكان أن يقتلونا بالقنابل أو النابالم . أفراد العصابات الروسية دخلوا وشنقوهم . كانت مفاجأة . لم يأخذوا شيئاً من الدولارات التى كانت مخبأة تحت المرتبة . لم يلمسوا شيئاً . ولابد أن القتلة كانوا يتوقعون شيئاً من ذلك . وواضح أنهم كانوا شركاء لأصدقائى فى التجارة . ولكن .. من هم ؟ فى البداية أصابنى الفزع ، وإذا كانوا قد قتلوهم فلماذا لم يقتلونى ؟ فكرت فى

طفلى فى " باريس " . وفى أصدقائى ، وفيك بخاصةً . كنت أريد أن أستقل سيارة أجرة إلى المطار ثم أغادر على أول طائرة ، تلك المدينة المريضة .. الميتة ! أغادرها .. وإلى الأبد !

تبخرت كل الذكريات الحلوة . ثم بدأت أشعر بالخزى لجبنى . وشعرت بالغضب . تذكرت الضمانات الباهظة التى دفعناها - إتاوة - لعصابة " يلتسين " على مدى الشهور الماضية ... بالدولار ... والين ... من أجل الإسراع بعملية الإصلاح . هل تفهم ؟ لماذا يجب أن أتركهم يهربون بجريمتهم ؟ ذهبت مباشرة إلى " الرأس الكبير " . كان " القيصر بوريس " مشغولاً بأشياء أخرى . كان يواجه برلماناً يعارضه باستمرار . والحل ؟

يدمره لكى يكتسب قوة جديدة للرئيس . لابد أنك شاهدت ذلك كله على شاشة التليفزيون ... أمر مدهش .. كيف دمروا " بيتهم الأبيض " بدعم من قادة الغرب ؟

هل تذكر ذلك " الماجور " الأمريكى الذى كان يدافع عن تدمير " بن ترى " ، تلك المدينة الصغيرة بقوله : " إن تدمير " بن ترى " كان هو الطريقة الوحيدة لإنقاذها ؟ "

حرب الأمس ! هكذا بالضبط يحاول " يلتسين " إنقاذ الديمقراطية الروسية . شاهدت ذلك كله على شاشة الـ " سى - إن - إن " فى غرفتى ، ولكننى كنت عاجزاً عن التركيز ... فأمامى على الأرض جثتان ! جثتا صديقين . وأخيراً أغلقت التلفزيون وبدأت أتصل تليفونياً بكل من أعرف فى بطانة " يلتسين " . معظمهم كان مختبئاً ، كلهم لا يثق فى النتيجة النهائية . ولم يدهشنى ذلك . وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة نجحت فى الاتصال بـ " أندريه ك . " المصرفى الخاص بالقيصر . طلب منى الحضور مباشرةً لمكتبه فى الكرملين . كنت دائماً أتمنى أن أرى

الكرملين من الداخل ... ولكن – بالتأكيد – ليس فى الثانية صباحاً . ذهبت – على أية حال – وأمضيت ثلاث ساعات مع " أندريه " . فى الأيام الخوالى ، عندما كنت أعرفه وهو شيوعى إصلاحى ، لا يعتقد أن شخصاً مثل " جورباتشوف " يمكن أن يصل إلى السلطة ، كان يرتدى – عادةً – بنطلوناً من القطن ، أزرق اللون ، " وسويتر " ولكنه فى تلك الليلة كان يرتدى " جاكت تويد " وبنطلوناً رمادياً ، وربطة عنق فراشية الشكل ! شعره مصفف بعناية ، وشاربه الصغير المضحك منمق بدرجة مقززة ... وكان فى حالة بهجة ... يملأ كأسه باستمرار ... وكان الويسكى هو الذى يتكلم .

قال " لقد جعلنا روسيا بلداً آمناً للاقتصاد الحر ... انتصرت الديمقراطية ... إن نهاية مرعبة لأفضل من رعب ليس له نهاية ! أليس كذلك يا " ساو " ؟ موافق ؟ هه ؟ إننا نعلم شعبنا أن من الضرورى أحياناً أن تدفع ثمناً باهظاً لكى تجنى ثمار المدنية ! كان من الواضح أن " أندريه " قد عرف الخوف ، وهاهو الآن يريد أن يثأر من كل الذين اختزلوه إلى تلك الحال . رغباته المخبأة تحت السطح ظهرت ، وكانت الآن عصية على الاحتواء . قال هراء كثيراً . تركته يتكلم لبعض الوقت . الآن يمتزج الخواء الداخلى بالغضب فى داخله ، ولكنه ذلك ساعد على أن تكون تبذلاته أكثر وضوحاً من ذى قبل .

تمنيت أن أنزع ربطة عنقه وأمزقها وأغمرها فى كأس الويسكى وأسد بها فمه لكى يتوقف عن الثرثرة . كان صوته يوشك أن يدفعنى إلى الجنون . ثم توقف أخيراً وفتح زجاجة جديدة .

نظرت فى عينيه وسألته : من قتل زملائى ؟

تغيرت النظرة على وجهه وبدا قلقاً فأدار عينيه بعيداً عنى !

وراح يبدى أسفه . لم يحاول أن يدعى أنه لم يكن على علم بجريمة القتل . تعرف يا صديقى أنه كان يعلم . ففى ساعات الأزمة كانوا يسلمونه آلاف الدولارات .

صرخت فيه . طلبت إجراء تحقيق . قال لا داعى لذلك .

أصدقائى قتلوا بأيدى عصابة من ضباط الجيش ، كانوا مغتاظين لدورنا فى تجارة السلاح . وقال إنهم كانوا ، الناس أنفسهم الذين يحاولون الاستيلاء على السلطة . نصحنى بالحذر !

" نحن الآن فى مرحلة انتقالية يا " ساو " . وأنت تعرف ذلك جيداً ... فى أوقات كهذه ، لا أحد بمأمن ، ويؤسفنى موت أصدقائك . ولكن لا تحزن أرجوك . انج بنفسك !

أقترح عليك أن تغادر " موسكو " غداً . "

لطمته على وجهه بشدة . لم أتمالك نفسى يا " ڤلادى " . تهاوى فوق أحد الكراسى . سألته مرة أخرى ولكن بصوت هادئ .. من الذى قتل أصدقائى ؟ زعم فى البداية أنهم كانوا جماعة من الجناح المعارض للإصلاح فى الجيش . وعندما سألته عن الأسماء هز كتفيه ، وكنت أعرف أنه يكذب " هددته بأننى سوف أعلن كل شئ على الملأ إذا لم يتم اتخاذ إجراء ما ، وحذرته بأن محامى لديهم تعليمات بنشر كل شئ إذا حدث شئ لى . " سينشرون كل شئ بما فى ذلك اسمك وأسماء خمسة آخرين من بطانة الرئيس " .

وهنا أنهار . ووعد بتحرى الأمر . أخبرته بأن كل الذى أريده هو معرفة الأسماء . وانصرفت .

بعد يومين قال إن معلوماته السابقة كانت خاطئة . أخبروه بأن القتلة

كانوا من مهربى المخدرات وتم القبض عليهم وأودعوا السجن . قالوا للشرطة إن الڤيتناميين كانوا مدينين لهم بأموال . حدقت فى عينى " أندريه " الخائفتين . كان مثلى تماماً يعرف أننا لم نهرب المخدرات أبداً . وانخرط فى البكاء .

أقسم أن لا أحد منهم كان يعرف المسئول عن الجريمة . أعطانى معلومات كاذبة لكى أتركه . شعرت بأن ذلك هو كل ما يمكن الحصول عليه من معلومات للوصول إلى الحقيقة . ولكن قبل أن أغادر حذرته بأننى سوف أكشف العصابة كلها إن لم يخبرنى بالأسماء . وأوضحت له أن قتلى سوف يؤدى إلى نشر كل المعلومات فى " الليموند " ، صباح اليوم التالى .. وأن لدى المحامين تعليمات صريحة إننى أروى لك كل ذلك لكى تفهم أننى عندما طلبت من " أندريه " أن يحضر لى كل الملفات التى كنت تريدها من أرشيف الـ " ك . جـ . ب " كان على استعداد لأن يساعد . لم يعد التاريخ يعنى شيئاً لهم : إنهم على استعداد لأن يبيعوا كل شئ ... ولكننى لن أدفع !

استقبلنى جنرال من الـ " ك – جـ – ب " كان يريد أن يناقش الأمر كله معى ، فأخبرته بأن الأوراق التى كنت أريدها مطلوبة لصديق . هز كتفيه وسلمنى إياها . كل الملفات التى تريدها موجودة معى ... حتى المتعلقات الشخصية لذلك الرجل ... " لودڤيك " !

غريب جداً حجم تلك الأشياء التى يحتفظون بها فى الملف .

كانوا فعلاً يعنون ما يقولونه عندما يضعون على ملفات الناس خاتم " يحتفظ إلى الأبد " . توجد – حتى – حقيبة سفر وسوف أسلمها لك عندما أعود إلى " برلين " بعد شهور قليلة ... علنى أحقق لك ولو قدراً ضئيلاً من السعادة يا صديقى !

لم أشعر أبداً بالحزن فى " موسكو " قدر ما شعرت به فى هذه الرحلة . وليس لأن أصدقائى ماتوا ، فمنذ الانهيار وجميع الناس هنا يعيشون في خواء . النخبة المثقفة عاجزة عن الدفاع عن الثقافة القديمة . ما تبقى منها تم تدميره ، لا محاولة لاستعادة أو حتى اختراع ماض مشترك ، سوى محاولات الحمقى الذين يمجدون القيصرية والكنيسة . هذا شعب مطحون . مثل ألمانيا بعد معاهدة " فرساى " . صديقتى القديمة " زينايدا " انفجرت باكية عندما كنا نتحدث فى الأسبوع الماضى ، وذلك ليس أمراً غريباً فى " موسكو " ، وكان على أن أمسك يدها وأخفف عنها . تصورت أنها كانت تبكى لأنها فى حاجة إلى نقود أو طعام ... وكنت على وشك أن أعطيها بعض الدولارات عندما نظرت فى عينى وهى تقول : أنت لا تعرف سبب بكائى ... هل تعرف ؟ هززت رأسى . جففت عينيها وأخرجت من حقيبة يدها قصاصة مكرمشة من جريدة وقدمتها لى صامتة . كانت عبارة عن نتيجة استطلاع رأى نشرته جريدة " إزقستيا " اليومية ، أجرى على فتيات فى السادسة عشرة من العمر ، فى جميع المدن الكبرى ، عن العمل الذى يفضلنه بعد الانتهاء من الدراسة . أربعون فى المائة من الفتيات اخترن " دعارة العملة الصعبة " ، وقالت " زينا " إن النسبة كانت أكبر من ذلك بكثير فى دول البلطيق .

تعرف يا " ڤلادى " أن الأحوال في بلدى كانت سيئة بعد الحرب . نساء كثيرات تحولن إلى الدعارة فى " هانوى " ... ولكنهن كن يشعرن بالعار . وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، وبعد كثير من كؤوس النبيذ ، اعترفت " زينا " أن ابنتها كانت واحدة من الفتيات . " إيرينا " ابنة الثامنة عشرة . صدمتنى المفاجأة . فأنا أعرف البنت ، وهى جميلة وذكية

ومتفوقة فى دراستها وليست فى حاجة للتفكير فى الدعارة .

فتاة مثلها فى " هانوى " كانت تتمنى أن تصبح مترجمة فى الخارجية أو شيئاً من هذا القبيل ... ولكن ليست " إيرينا " .

عندما صرخت فيها أمها ، صرخت البنت فى وجهها .. « ولم لا يا أمى ؟ .. » إنه دخل غير خاضع للضرائب ؟ ثم لماذا تصرخين فىّ هكذا ؟ عندما تذهبين للعلاج بالصدمات الكهربية لابد أن تكونى مهيأة لذلك ! "

ولم تجد " زينا " ما تقوله .

كانت السماء صافية فى ذلك اليوم ، وشديدة الزرقة ، ولكننى لا أعتقد أننى سأعود إلى " موسكو " مرة أخرى ... أبداً ! المدينة ملأى بالخطر .. وبالوعيد .. مدينة مرعبة .. ستنفجر ذات يوم قريب ، ومن الأفضل أن يظل المرء بعيداً . نظرت من النافذة . حتى القمر وهو مكتمل يبدو مثل ثمرة اللفت !

أتمنى أن تكون بخير . وأن يزايلك الاكتئاب . رغم أن هذا الخطاب البائس ليس من المحتمل أن يرفع من معنوياتك .

لابد أن تعرف كيف تعلو فوق كل الاضطرابات العصبية التى ابتليت بها ألمانيا الديمقراطية القديمة . ! فاهم ؟! أراك قريباً يا صديقى ! اهدأ ولا تخف !

صديقك

« ساو "

- ١٧ -

لفترة طويلة بعد الثلاثينيات ، وحتى بعد موت الطاغية " جوزيف ستالين " ، المصاب بجنون العظمة ، فى عام ١٩٥٣ ، كانت " ليزا " عندما تحاول أن تتذكر ، رحلتها الأخيرة إلى " موسكو " لاتستطيع أبداً أن تنظر إليها من منظور مباشر أو أن تراها فى ضوء عادى ولم يكن ذلك بسبب الأدرينالين الذى يندفع فى كيانها فقط ، ولا بسبب الحلق الجاف ولا طعم النحاس فى فمها.. إذا كانت قد شعرت بذلك كله من قبل .

كان الأمر يبدو وكأن الرعب الذى عاناه كل المواطنين قد تقطر وانتشر فى جو " موسكو " ليحول المشاهد والأصوات إلى نسيج فيلم تجريبى برك من الظلال السوداء ، خلفية من الصراصير والهسيس ووجوه مثل الاقنعة كانت تتذكر الزيارة كسلسلة من الأحداث ذات المنطق الخاص بزمان ومكان لايمكن استعادتهما .

ظلت تقول لنفسها تذكرى لاتفشى سر الدهشة أو الخوف أو الغضب إنها ثقوب يزحف منها الموت كنا فى شهر مايو من عام ١٩٣٧ ، وكان عبور الحدود عند " ايدكهونن " فى " لاتفيا " قد مر دون مشكلات وكانت تلك هى اللحظة التى تكرهها " ليزا " دائماً حرس الحدود السوفيت لديهم تعليمات مشددة باستجواب الأجانب ربما كانوا قد أبلغوا بذلك لابد أنهما كانا قد استجوبا .. أو ربما كان يجب أن يستجوبا على أية حال لم تكن قلقة لذلك بالرغم من جوازات السفر التشيكية المزورة . حتى الحقائب لم تفتش .

" فيلكس " طفل برىء لايمكن أن يكون موضع شك وكان نائماً عندما كان القطار يقترب من " موسكو " صباح مبكر ، و " ليزا " يستقبلها ضوء الشمس وسماء صافية وفى الخارج كانت أشجار البتولا والحور على الجانبين كالعادة كأنها حرس ريفى أمين .

أنزلت النافذة وأخرجت رأسها مغمضة عينيها وهى تستنشق الهواء النقى ذكرها ذلك بأوقات أكثر دعة وشعرت بالسعادة فجأة .

ولكن الحالة استمرت أقل من خمس ثوان فكرت أنها رأت جذع شجرة بتولا ملطخة بالدماء رفعت الشباك مرة أخرى وجلست ونبضها أسرع من ذى قبل .

" استيقظ يافيلكس " لقد وصلنا تقريباً : "

كانت تقول بينها وبين نفسها وهى مقطبة إن الحياة فى " موسكو " نفسها لابد أن تكون عادية هناك عدد لايحصى من الموظفين والجواسيس والشرطة السرية والبشر العاديين .. كلهم يحاول أن يكون مواطنا صالحا أو عضوا فى الحزب مع مشاعر الولاء المظللة ، كلهم يعمل بشكل دائم فى الخلفية وأحيانا بعيداً عن النظر ، لكنهم أبدا لم يكنوا بعيدين عن عقل البلاد بشكل عام !

كان الزعيم يريد أن يكون كل مواطن صالح جاسوساً ، وهاهم الآن يراقبون ويكتبون التقارير ويتنافسون ليروا من الذى يستطيع أن يبلغ عن أكبر عدد من أعداء الشعب .

إذا تمخض نشاطهم عن تحقيق يبتسمون لأنفسهم ، ولكن إذا أدى التحقيق إلى حكم بالسجن ، ناهيك عن محاكمة وإعدام فإنهم يشعرون بالبهجة ويظنون أنهم فى أمان تام مساكين ... ! أغبياء .. ! . هكذا

كانت تراهم ! .

توقف القطار .

كانت تتساءل بينها وبين نفسها ما إذا كان " فريدى " قد تسلم برقيتها ثم وهى تنظر فى بحر الوجوه المحيط بها .. ما إذا كان قد بقى فى هذه المدينة بشر ، بشر طيبون لايفكرون فى الشر !

" ليزا ! ليزا ! من هنا ! "

كان " فريدى " . وجهه جعلها تشعر بالاطمئنان أمسكت بذراع " فيلكس " وفجأة وجدا نفسيهما ... مرفوعين من على الأرض بواسطة مارد ضخم ضاحك ، يرتدى معطفا إلى جواره كان يقف ابنه " آدم " ، الذى كان من نفس عمر " فيلكس " تقريباً كان الولدان لايفترقان عندما كان " لودفيك " مزروعاً فى " موسكو " ! كان لديهما دائما أشياء كثيرة يتحدثان عنها ، لكن فى حضور الكبار تبادلا الابتسام " .

أهلا بكما فى " موسكو" لقد كبرت يافيلكس ... أصبح أكبر منك يا آدم ... لابد أنه الطعام فى فرنسا ! " .

همهم " آدم " ساخراً ، وابتسم " فيلكس " أصابتهما أفكار الكبار بالإحباط تجاهل " فريدى " الولدين وهو يكمل كلامه " لوجئتما منذ عشرة أيام لكنا قد اصطحبناكما لمشاهدة الاستعراض الكبير بمناسبة أول مايو " .

سأله " فيلكس " : هل كان تروتسكى موجوداً ؟ "

تجهم وجه " فريدى "

وواصل ؛ فيلكس " : " و " زينوفيف " ؟ " كامينييف " ؟ ، لا ؟

بالطبع لا ! أعداء الشعب : عفواً ياعم " فريدى " ! " نظر " آدم " إلى صديقة نظرة كلها رهبة . " فريدى " تنهد ! أما " ليزا " فكانت مدهوشة أول مرة تسمع " فيلكس " يقول شيئاً من هذا القبيل . ماذا حدث للولد ؟ ولماذا هنا فى " موسكو " حيث يلقى بالناس فى سيبيريا بسبب أسئلة أقل حدة ؟

حدقت فى ابنها صامتة أما هو فرفع حاجبية فى دهشة ساخرة ثم قرصته من ذراعة بينما كان فريدى يضعهما فى سيارة " زيم " سوداء ويقودها خارجا من المحطة كانت الشوارع خالية تقريباً ، ورغم ذلك كان يقود السيارة ببطء ماتزال مختلفة عن " باريس " و " برلين " : كانت " ليزا " تفكر وهى تنظر بحب إلى الرجل الذى يقود السيارة بهما إلى الفندق ورغم أنها كانت تعرف أن الخوف يسيطر على المدنية ، إلا أنها كان من المستحيل أن تقاوم صيف " موسكو " .

بمجرد أن أصبحوا مستقرين آمنين بالسيارة ، قررت " ليزا " أنه كان الوقت المناسب لتعرف من كان لايزال هناك من أفراد المجموعة القديمة .

" هل مازال أحد من أصدقائنا فى موسكو ؟ "

" كلما رأيت عدداً أقل من الناس كان أفضل ! " " لودفيك أخبرنى أن أتبع تعليماتك فى كل شىء يا " فريدى "،لكن أنا أعرف أن " ليفيتسكى " فى " باريس " ... لكن " ليفى " ؟ " لارين " ؟ " .

" ليفى مات ! حذر " بوخارين " من أن " ستالين " كان يريد أن يتخلص منه واقترح على " بوخارين " ألا يعود إلى " موسكو " بعد رحلته التالية إلى الخارج كان يمكن أن يكون ذلك كافياً . ولكن " ليفى " تمادى . أخبر " بوخارين " بأن يذهب إلى المكسيك واحد من دائرة

" بوخارين " تكلم . " ليڤى " أختفى !

لم يكن هناك حاجه لعمل تحقيق اعترف بكل شئ ولعن " الشارب " أعتقد أنه كان يريد أن يموت بسرعة .

أطلقوا عليه الرصاص منذ ثلاث ليال والنتيجة أننا أصبحنا كلنا محل شك ، وبخاصة " لودڤيك " ! "

شحب وجه " ليزا " . " ميشا ليڤى " مات : كان شابا طلق المحيا عندما التقته أول مرة فى " چنيف " طفرت الدموع من عينيها وكانت تمسحها بعنف وجه عليه آثار دموع قد يثير الشك فى الفندق فى " موسكو " .

كان "ميشا " أول من يموت من اللامات الخمس ، و"لودڤيك " لم يعرف حتى أنه كان قد ألقى القبض عليه .. تكلمت بهمس مخنوق : " الأمر مرعب والكلمات عاجزه عن التعبير ياڤريدى " " أعرف كان يريد أن يذهب قال لى فى العام الماضى أنه لم يستطيع تحمل المحاكمات والإعدامات كان يريد بشدة أن يسافر إلى الخارج ويقابل " لودڤيك " ، ولكن كان من الصعب ترتيب ذلك . وهو كما تعرفين لم يكن يتكلم سوى الروسية .

أما " لارين " فموجود فى " موسكو " سيحضر غداً مساء ليراك مضت السيارة خارج " ساڤوى " ، وكان على " ليزا " و" فيلكس " أن يتظاهرا بأنهما هنا بغرض السياحة .

" سأحضر لآخذك فى الصباح يا" ليزا " . " الزعيم " يريد أن يراك لبضع دقائق ، فيلكس يمكن أن يجيء أيضاً يمكن أن يلعب الشطرنج مع " آدم " فى مكتبى أثناء ذلك وهناك شئ آخر ... " ليزا " كونى فى غاية الحذر الدكتاتور الآن فى غاية العنف والاندفاع !" همست " ليزا "

" ... و البروليتاريا ؟ "

" تم سحقها إلا أنني واثق أن كل شيء سوف يتم تصحيحة في النهاية ! "

" هل أنت واثق فعلاً يافريدي ؟ "

" بالطبع : هذا الوحل لايمكن أن يستمر إلى مالانهاية ! " الشارب " لايمكنه أن يدمر الاتحاد السوفيتي ! " كان " فيلكس " و " آدم " قد استمعا إلى الحوار صامتين ، وعندما تركا السيارة ، ضغط " فيلكس " على يد " آدم " وكأنه يريد أن يقول له : أعرف .. لاتقلق : لن أخذلك ! " نلتقي غداً " ، قال " آدم " وهو يقوم من المقعد الخلفي ويجلس في المقعد الأمامي بجوار " فيردي " .

كان الفندق نصف مشغول تقريباً رجال أعمال متناثرون ، وفد شيوعيين أمريكين وكانوا كلهم يحدقون فيها وفي " فيلكس ؛ ويحاولون أن يضعوا هذين الاثنين في ترتيب الأشياء أمرأة وحيدة وطفلها ! لايمكن أن يكونا هنا لعمل تجاري هل كانت شخصية مهمة في زيارة ؟ ! كان بعضهم يبتسم لها ويلوح بالتحية . وكانت " ليزا " تومىء بوقار تقدمت نحو المصعد الجميع يبدو عليهم التوتر رغم كمية الفودكا التي يبدو أنهم كانوا قد استهلكوها . كم هو مختلف عن فندق " لوكس " في ذلك الوقت من عام ١٩٢٦ عندما كانت " الدولية " تعني شيئاً ! وعندما كان الرفاق من كل أنحاء العالم مازال يحدوهم الأمل ! يتجادلون ويتصايحون لم يكن كل شيء قد تحطم آنذاك ، رغم أن كل العلامات كانت تشير في اتجاه "ستالين " كان " لودفيك " قد قال لها أن "ستالين " سيفوز وكانت الحرب الأهلية قد جعلت الناس على الجانبين كليهما حزاني ومحبطين وفاقدي الاهتمام بالسياسة .

انتزعت نفسها من هذه الافكار بأن قالت لـ " ڤيلكس " أن يذهب يستحم وبينما هى تمشط له شعره بدأت تفكر فى أول لقاء لها مع " لودڤيك " وجدت نفسها تتذكر " ڤيينا " كانت عيناً " فيلكس " تلمعان مرة أخرى وهو يرتدى البيجامة . " قال لى أبى إنهم كانوا يرددون قصيدة لـ " پوشكين " عندما كانوا أطفالاً " .

" أية قصيدة ؟ دعنى أتذكر ! "

" قصيدة تتكلم عن القيود "

" طبعاً .. طبعاً ! " قالت " ليزا " مبتهجة ثم رفعت صوتها لصالح من كانوا يتسمعون : " كانت قصيدة ضد الاستبداد القيصرى . رسالة إلى " سيبيريا " لا أستطيع أن أتذكرها كلها ولكننى سوف أحصل على نسخة منها غداً من العم " ڤريدى " و ..... " .

" أرجوك يا أمى : ولو بضعة سطور قليلة ! .. " أنا واثق أنك تستطيعين إن حَاولت . كنت أعتقد أحياناً أننى نسيت قصيدة ما ، فيطلب منى المعلم أن أفكر وأفكر .. وأفعل .. وفى النهاية أتذكرها ".

" سأحاول ، لكن الآن هيا إلى السرير – لقد أمضينا يومين كاملين فى القطارات .. هيا إلى النوم .. هيا ! " وكان " فيلكس " ينكمش تحت البطاطين وهو ينظر إليها مترقباً .

فكرت " ليزا " الولد على حق : بدأت بعض كلمات " پوشكين " تزحف إلى وعيها ، فراحت تردد بصوت هادىء ثابت :

الأمل صنو المحنة ،

فى صمت الظلام السفلى

يلقى فى قلبك الشجاعة

اليوم المرجو سيجىء .

والحب والصداقة يتدفقان عليك

عبر البوابات السوداء ،

حتى حول ألواح الطباعة ،

تنساب موسيقاى حرة ،

جلس " فيلكس " فى سريره ، عيناه تلمعان لأنه تذكر أيضاً الأبيات الأخيرة التى كان " لودفيك " يرددها عادة منذ سنوات قليلة ، وكانت الأم والابن يتكلمان فى تناغم .

القيود الثقيلة سوف تسقط ،

والجدران ستنهار أمام كلمة ،

والحرية ستحييك فى النور ،

والإخوة سيعيدون لك السيف !

" ليزا " تذكرت " ميشا " فراحت تبكى فى صمت قبلت " فيلكس " وأطفأت المصباح ولكن الظلام لم يبدد أحزانها لن يأتيها النوم ، وبعد ساعة من القلق والتقلب فى الفراش قامت كان الولد غارقا فى النوم وكانت " ليزا " مضطربة أكثر من ذى قبل ، كانت تعرف أن إعدام " ميشا " لابد أن يكون قد مزق فريدى مثلها تماما !

ولكنه كان يتكلم عنه عرضاً ! وكأن " ميشا " قد خسر مباراة فى الروليت وحتى لو كان " بوخارين " تحت التهديد ، فكيف يمكن أن يتغير

أى شىء ؟

" فريدى " و " آدم " أنضما إليهما وهما يتناولان الإفطار

" لدى مفاجأة لك تنتظر فى بهو الفندق "

" لارين ؟ "

" لا : لارين سيأتى فى المساء . صديقة قديمة لك يا " ليزا " وابنها كان يلعب دائماً مع " آدم " و " فيلكس " منذ خمس سنوات تقريباً عندما كنتم فى " برلين " تتذكرين ؟ النازيون قتلوا زوجها ! "

أشرقت عينا " ليزا " : " هانز وولف ! "

" نعم ! ، وأمه " منة "

" ليزا سعيدة ومدهوشة فى نفس الوقت .

" منذ متى وهما فى موسكو ؟ "

" منذ وصول " هتلر " إلى السلطة كان من السىء أن تكون عضواً فى الحزب الشيوعى الألمانى ، ولكن زواجها من شاعر يهودى حتى وإن كان قد مات ، كــان يعنى المعسكرات والموت عاجلاً أو آجلاً ! "

عندما غادرا صالة الطعام شعرت " ليزا " بارتجافة . كانت هـى "و منًا " قريبتين من بعضهما الآخر كانتا تتحدثان معاً فى كل شىء تقريباً وذات مرة فى حضور " لودفيك " كانت " ليزا " قد فضفضت لها كيف كانت ترى " ستالين " قبيحاً ومنفراً :

قالت : " لماذا ليس له جبهة "

ضحكت السيدتان أما "لودفيك" فكان يتلفت حوله فى المطعم بعصبية

قائلاً لهما إن ملاحظات أو تعليقات كتلك يمكن أن تؤدى إلى طرد فورى من الحزب وضحكت عليه انذاك .. ولكن " ليزا " الآن تشعر بالخوف لو أن "منة " كانت قد أبلغت عند ذلك التعليـــق القديم ، فقد لايسمح لها بمغادرة " موسكو " !

" ليزا : ڤيلكس ! "

قامت " منة " وعانقت " ليزا " وقبلتها من وجنتيها بحرارة ثم جاء دور " فيلكس " جَفل الولد قليلاً واستدار نحو " هانز " وتصافحا كما يفعل الكبار وتبادلت الأمان الابتسام .

قال " ڤريدى " وهو يغمز : " عدتما صديقين ! هه ! "

ولكنه تعرض لنظرة قاسية من " آدم " و " ڤيلكس " و " هانز " لدرجة أنه ذهب وتوارى خلف السيدتين .

" ليزا : تبدين فى صحة جيدة . " فردريك " أبلغنى بأن الشعبة قد استدعتك ! ... ونحن نريد أن نستعير " فيلكس " و " آدم " اليوم إذا انتهيت من موعدك فى حدود الثالثة أو الرابعة تعالى لتناول الشاى معنا ... أو يمكن أن نعيده نحن إلى هنا .. "

كانت بهجة " منة " هادئة ومصطنعة إلى حد ما . نظرت " ليزا " إلى ابنها كان ما اقترحته " منة " أمرا عادياً ، إلا أن قلبها كان يدق بسرعة أكبر نظرت إلى ابنها .

" موافق ياڤيلكس ؟ "

" نعم ! "

" عظيم ! اتفقنا : سأحضر " ليزا " إلى شقتك بين الثالثة والرابعة ..

وإذا تأخرت سأتصل تليفونياً ! "

وبعد أن شعرت " ليزا " أنها كانت في أمان في السيارة ، بدأت تتكلم مع " ڤريدى "

" الآن .... والولد ليس هنا دعني أخبرك ببعض الأشياء هل تعلم أن " موسكو " قد استأجرت عصابة من القتلة بهدف وحيد وهو تصفية الشيوعيين المعارضين ؟ "

قتلوا " ناڤاشين " أثناء تمشيته الصباحية في غابة بولونيا في يناير كان ينوى أن يلقى كلمة . "

قال " ڤريدى " : " أعرف : لكن أية كلمة ؟ كانت أهم دحض للمحاكمات وإدانة لها . ربما أفضل من " تروتسكى " لأنه كان يعرف أكثر . الزعيم بنفسه قرأها وأمر بأعدامه "

" سلاتسكى ؟ "

" لا ! بل " ستالين " ! "

" أنت تعرف كل شيء عن ذلك إذن ! "

" طبعاً ! "

" و .... ؟ "

" ولاشيء ! نحن نخوض في الدم والروث يا " ليزا " ! "

و " لودڤيك " يعرف ذلك جيداً . لن يستمر طويلاً ، ستكون حرب جديدة مع ألمانيا لابد من إزاحة " ستالين "

"لكن من الذى سيزيحه ؟ لقد أزاح هو كل من كان يستطيع أن يزيحه

، والآن يتم تجهيز "بوخارين" أيضاً لاستقبال رصاصة الجلاد .

" هو لايخشى " بوخارين " ، إنه يلعب عليه مثل البيانو ، لكنه يشعر أن " بوخارين " يمكن أن يكون الرئيسى الصورى إذا قام تمرد أحكم تدبيراً وهكذا فإن " بوخارين " سوف يتبع الآخرين . "

" ونحن يا " فريدى " ؟ "

" أنتما الاثنان لابد أن تحاولاً وتظلا على قيد الحياة .

قولى ل " لودفيك " أن يتحاشى أى استعراضات بطولية ! ذات يوم سيكتب أحد عما حدث لرجالنا قبل أن ندخل ... أريدك أن تكونى فى غاية الحذر استمعى ولا تتكلمى كثيراً .. أجيبى عن الأسئلة المباشرة ولا تتطوعى بأية معلومات . مجيئك إلى هنا بالولد نزع كل أسلحتهم ، طمأنهم . توقفوا عن توجيه أى أسئلة سخيفة لى عن " لودفيك " كانت " ليزا " قد التقت " سلاتسكى " قبل ذلك ، ولكن ليس فى ظروف كتلك لم تستطع أن تخفى ابتسامة عندما دخلت غرفته . كان يرتدى حلة زرقاء اللون مزينة بأزرار نحاسية كان يشبه البوابين الواقفين أمام فندق " متروبول " . هكذا كان الزى الرسمى الذى يرتدية رئيس الاستخبارات العسكرية الخارجية . فكرت ...

كم تغير : تصرفه رسمى ولكنه يحاول أن يتكلف بصعوبة ، كان جزء منها يود أن ينفجر بالضحك .. كان يشبه المهرج فى ذلك الزى . كان "سلاتسكى " على علم بوجودها ولكنه كان يريد أن يتركها واقفة لدقائق، تظاهر بالانشغال عنها بملف مكتوب عليه " سرى للغاية " " ليزا " فهمت اللعبة فكرت للحظة أن تجلس فى المقعد الخالى المواجه لمكتبة لكى تحدق فى عينيه مباشرة ولكن تحذير "فريدى" منعها من ذلك، وبدلاً من الجلوس

سعلت بصوت خافت .

" أنت هنا إذن ! تفضلى بالجلوس لك أصدقاء كثيرون هنا فى الشعبة . أتمنى أن تكونى محل عنايتهم . " .

ابتسمت " ليزا " وهزت رأسها .

" بالنسبة لى ، كنت أحبذ أن يكون زوجك هو الجالس أمامى رغم أنه ليس جميلاً مثلك ... " كان " سلاتسكى "يحملق فى صدرها وهو يضحك ضحكة عميقة .. فاسدة ! ثم أشعل سيجاراً ظلت هى صامتة . فوجئت بسعلة صادرة من ركن مظلم بالغرفة لم يكن لديها فكرة أن هناك شخصاً آخر فى المكتب وعندما استدارت رأت رجلاً وجهه مملوء بالبثور ... ربما كان فى أو آخر العقد الثانى .. نهض من مقعده .

" هذا هو الرفيق " كيدروف " . "

" أعتقد أننا التقينا قبل ذلك فى المنزل منذ ست سنوات تقريباً " .

هز " كيدرف " رأسه .

" هو الآن كبير المحققين وهو الذى سحق " راديك "أليس كذلك يا " كيدروف " ؟ ذلك الكوزموبوليتانى القذر كان يظن أنه يستطيع أن يلعب علينا أليس كذلك يا " كيدروف "؟ لقد قومته على الفور .. أليس كذلك ؟ " يا " كيدروف " ؟ " ابتسم " كيدروف " وهو يحاول أن يتجنب نظرات " ليزا " .

كانت " ليزا " تفكر .. هذا الولد ابن اثنين من " البلشفيك " كانا يعملان بالقرب من " لينين " فى سويسرا شك " سلاتسكى " أن يكون

تفكيرها قد ذهب إلى شيء من ذلك فانقض عليها باسئلته ليجعلها تلجأ إلى الدفاع .

" ماذا كان رأى " لودفيك " فى محاكمة " راديك " ؟ "

" لا أعرف ، لم نناقش ذلك أبداً ! "

" تعالى ياعزيزتى ... تريدين أن تفهمينى أن زوجك الذى كان يعرف " راديك " جيداً ظل صامتاً ؟ "

" قلت إنه لم يناقش الأمر معى أبداً . "

بعد ساعة أخرى من المبارزة غير الحاسمة أوحى " سلاتسكى " بما يعنى انتهاء جلسة الاستماع .

" متى تعودين إلى " باريس " ؟ "

" الأسبوع القادم "

" أبلغى " لودفيك " بأننى أريده أن يعود إلى هنا ، تلك المسألة الاسبانية سوف تنتهى نهاية سيئة قولى له أن ينسى أوروبا أريد رجالنا المجربين هنا لحماية قلعتنا الشيوعية "

" سأبلغة أيها الرفيق " سلاتسكى " شكراً وحظا سعيداً أيها الرفيق " كيدروف "

تكلم " كيدروف " بصوت ناعم : " أبلغى " لودفيك " أننا نقدره جيداً وبأننى أتطلع للقائه . "

أصابتها ابتسامة " كيدروف" بالتجمد حدقت فيه كان الطموح ينضح

منه بشكل تلقائى سيرتفع كثيراً قبل سقوطه ، هكذا كانت تفكر " ليزا " .

أنطلقت مباشرة إلى غرفة " ڤريدى " ، ولكن قبل أن تنطق بكلمة واحدة وضع أصبعه على شفتيه ليذكرها بأن المكتب لم يكن آمناً .

" حسن ! كيف سارت الأمور ؟ "

" بشكل جيد جداً ... كان الرفيق " سلاتسكى " فى منتهى الطيبة لم أكن أعرف أن " كيدروڤ " قد حقق مع راديك "

" كان جزءاً من سير الجهاز ! ولكنه هو الذى دمر " راديك " فى النهاية إنه فى غاية المهارة " أغمضت عينيها فى ألم أما " فريدى " فكان يتكلم بمرح مصطنع .

" الغداء ! "

ولحظة أن كانا بالسيارة ، انفجرت " ليزا "

" ذلك الولد .. الحقير .. النذل .. يتباهى بنجاحه أما بالنسبة لـ " سلاتسكى " فقد تحلل إلى أبعد مدى أريد أن أخرج من هنا يا " ڤريدى " ... وأريدك أن تخرج أنت و " لارين " أيضاً . "

مسح " ڤريدى " على وجهها برفق " من الأفضل أن نموت هنا يا " ليزا " فى الخارج سوف يعيش المرء فى خوف دائم ماقيمة الحياة إذا كنت باستمرار فى حالة خوف من الموت ؟ وبالمناسبة لاتكونى بهذه القسوة فى حكمك على " سلاتسكى ! "

" كـيف تقـول ذلك ؟ لم يكـن ودودا أبداً ولا غيـر هـجـومـي .. وإنما لكي يسبـح بمجـد " كيـدروف " ، كل شيء يصيبني بالغثـيان ، لو عاد " لودڤيك " سيقتلونه أليس كذلك يا " ڤريدى " ؟ "

هز " ڤريدى " رأسه " و بالمناسبـة ، " سلاتسكى سوف يكون مـعنا على الغداء "

" لا أصدقك ! "

" لابد أن تصدقيني ! "

كانت " ليزا في حالة صدمة من النغمة العادية ، لدرجـة أنها ظلت بقية الرحلة عابسة مقطبة الجبين تنهد " فريدى " عندما أوقف السيارة بالقرب من نادى الكتاب أخذها من ذراعها وهمس :

" أنت لاتعـيشين هـنا ولايمكنك أن تفـهمي كيف أصبـحت الأمـور " اصطحبهما مرافق إلى غرفة صـغيرة خاصة ، حيث كانت توجد طاولة بثـلاثة كراسى مـعدة لتناول الغداء كان فـوقـهـا أطبـاق صـغـيرة من المشـهيات بينها الكافيار والسمك المدخن بأنواعه ولحوم باردة وسلاطة وزجاجة " ڤودكا " . وقبل أن تعلق " ليزا " على ذلك الترتيب غير المعتاد دخل " سلاتسكى " الغرفة اتجه نحوها مباشرة وقبلها في وجنتيها .

" دعيني أخمن ! كنت تفضـفضـين لـ " ڤريدى " كيف أنني قد تغيرت وبعـد أن كنت ذات يوم ظربانا حقـيـراً منتن الرائحـة أصبـحت فـارا من فئران المجارى . أليس كذلك ؟ " " ليزا " ابتسمت رغما عنها وواصل ؛ سلاتسكى " كلامه :" كما ترين ياعزيزتي : مازال هناك قلة من الأذكياء في الاسـتـخـبـارات السـوفـيتـيـة رغم عـشـر سنوات من حـسن السـيـر والسلوك ، لم أعـد قـادراً على اكـتـسـاب ثقـة الرفـيـق " سـتـالين " في الأسبوع الماضى فقط ، فى :" لينتجراد " تم إعدام ثلاثين شـابا شيوعياً لانهم كانوا يطرحون أسئلة كثيرة ! في كل مرة كانوا يسـألون سؤالا

عادياً بالنسبة لكل شيوعى ، كانوا يعتبرون مخربين تروتسكيين وهكذا قبل أن يطلق عليهم الرصاص هتفوا " عاش تروتسكى ! " كانوا صغاراً . ربما كانوا قد سمعوا عن تروتسكى من آبائهم ! ... ڤودكا ؟ ! "

كانت " ليزا " مدهوشة . حاول " فريدى "بصعوبة أن يخفى ابتسامة عندما لاحظ دهشتها البالغة ثم استدار نحو " سلاتسكى " .

" صديقتنا ساءتها تصرفاتك أمام " كيدروڤ " حسن ! حسن ! أنا متفق معها كان تصرفاً جيداً " قالت " ليزا ببطء ، مدركه أن المشهد السابق الذى شاركت فيه كان فقرة تمثيلية : " ربما كان يجب أن نحجز طاولة فى نادى الممثل " ضحك الرجلان وكانت " ليزا " تفكر مازال بامكانهما أن يضحكا حتى وهماً يعيشان رعباً لايمكن تخيله .. كل يوم ! ثم تساءلت بصوت عال : " وكيدروڤ ... هل كان جزءاً من المشهد أيضاً ؟ "

تغير وجه " سلاتسكى " « الشاب مؤمن تماماً ؛» "ستالين " يلتقى ؛ كيدروڤ " كثيراً هذه الأيام يريد أن يسمع كيف يتصرف أعداؤه أثناء التحقيق وقبل إعدامهم مباشرة وهكذا فإن " كيدروف " يؤمن بحق المحققين المقدس ويعتقد بالفعل أنه سوف ينتهى به المطاف عضواً فى المكتب السياسى . "

" لابد ! على أية حال ... هناك آخرون مثله "

" كسيدروف يعرف أشياء كثيرة ياعزيزتى ... وأكثر مما يجب !

معظم المعارضين لم يعترفوا بشىء . بل شجبوا " ستالين "والجهاز . حكوا عن جرائمه بالتفصيل " كيدروڤ " سمع كل شىء .

وسيأتى دوره قريباً ! وسيعدم ! وكونه لم يدرك ذلك بنفسه ، دليل على محدودية ذكائه ! "

" هل تريد أن يرجع " لودڤيك " فعلاً ؟ "

" هل أنت مجنونه ؟ قولى له أن يبقى فى الخارج بقدر مايستطيع وإلى الأبد إن أمكن ! خلال عام واحد سيصبح أمثال " كيدروف " مسئولين عن كل شىء . " لودڤيك " أسطورة فى الشعبة والاساطير القديمة لابد من تحطيمهما حتى يستطيع خدم الوقت الجدد أن يبنوا أنفسهم ! كيف حاله الآن ؟ "

" بخير ! "

" أقصد صحته يا " ليزا " ! تفكيره ! ماذا يرى ؟ "

نظرت " ليزا " إلى " فريدى " للاسترشاد ما إذا كان آمناً أن تجيب عن سؤال " سلاتسكى " . " هز فريدى " رأسه .

" إنه مكتئب تماماً !فقد هزتنا المحاكمات حتى النخاع ! من رأى " لودفيك " أنه كان لايجب علينا أن نحظر " المنشفيك " ، وهو يرجع الانهيار إلى هذا القرار ، ولكننى لست متأكدة ! الشىء الوحيدالذى يحافظ على بقائه هو " أسبانيا " إذا انهزم الفاشست ، فإن ذلك كما يتصور لابد أن يكون بداية لسلسلة من التداعيات فى إيطاليا ... وحتى فى ألمانيا ، وإذا حدث ذلك ، كما يرى " لودڤيك " ، فإن " ستالين " الوحش الذى انجبته الهزائم فى أوروبا ، والذى منع العمال السوفيت من الاشتغال بالسياسة ، سوف يسقط أيضاً . "

قال " سلاتسكى " بابتسامة حزينة : " وسوف يكون ذلك جيداً بالنسبة له يا " فريدى " ! هه ! ؟ "

" لودڤيك مازال قادرا على الحلم ، وما أراه ليس سوى كوابيس ...

بل أكثر سوءاً . ليته يكون على حق وأكون أنا المخطىء ، وإن كنت أخشى العكس هل أخبرك " فريدى " كيف جعلت " سمير نوف " و " مارشوفسكى " يعترفان ؟ "

نظرت " ليزا " إليهما فى رعب ! ... " أنتما ؟ "

وهز كلاهما رأسه .

" كان " لودفيك " مقتنعاً بأن لا " مارشوفسكى " ولا " سمير نوف " يمكن تحطيمهما . لسبب ما كان متأكداً من ذلك . وعندما قرأ أعترافاتهما بكى . وكنت أنت ؟ "

نظر " فريدى " بعيداً . و " سلاتسكى " روى لها القصة .

" كان يبكى يا " ليزا " ؟ بكى ؟ ماذا تظنين كان وقع ذلك علينا ؟ عندما بدأت التحقيق كان رأسى مليئاً بالشعر .

أنظرى إلىَّ الآن ! حققت معه لمدة تسعين دقيقة .

" دخل وكان يعرج ، فهو جريح حرب . كنت قد خدمت تحت قيادته ولكنه نسى .

" أيها الرفيق " مار شوفسكى " ... لدى أوامر بأن أحقق معك !

" هكذا ؟ أنت يا ابن القحبة ! ؟ كان ذلك رده علىَّ .

ثم ، وهو ينظر إلى باحتقار شديد واصل كلامه ..

" لن اتحدث مع أمثالك نفاية من أحط مستوى !

خدم القيصر كانوا أفضل منك ، كيف يجرؤ " مثلك " على استجواب شخص " مثلى " ؟ نوطان من أنواط العلم الأحمر ؟ هه ؟ هل سرقتهما ؟ وتدعونى بالرفيق ؟ الرجل الذى قبلك كان يدعونى بالحقير ! وبعدو

الثورة : أنا ؟ لقد ولدت فى أحد سجون القيصر والداى ماتا فى أحد منافى سيبيريا ! أصبحت بلشفيا فى الخامسة عشرة .

هل تريد أن ترى أوسمتى ونياشينى ؟! "

وهنا قام وعرى صدره يا " ليزا " . كان صدره مليئاً بالندوب من كل لون وحجم ، كنت على وشك البكاء .

" أيها الرفيق " مارشوفسكي " لقد حاربت تحت قيادتك على جبهة طشقند ، وهكذا حصلت على نوط العلم الأحمر . "

وكان لابد أن أرسل فى طلب سيرتى الذاتية من الأرشيف قبل أن يقتنع بما قلت حملق فىّ ." أرى أنك كنت شيوعياً ذات يوم ... وثوريا كيف أنحدر بك الحال لتصبح كلباً بوليسياً ؟ دعنى أقول لك شيئاً يا " سلاتسكى " لقد أخذونى مرتين لمقابلة " ستالين " وفى المرتين حاول أن يرشونى بصقت فى وجهه ذكرته بما قاله عنه تروتسكى ... فى وجهة : حفار قبر الثورة ! .

كان ذلك عندما استدعوك يا " سلاتسكى " .. والآن أكمل مهمتك .. لن أعترف ! "

" تكلمت وتكلمت يا " ليزا " ، أذكره بالثورة ، وبالحرب الأهلية وحقيقة أننا محاطون بعالم من الأعداء ، وبصعود " هتلر " إلى السلطة وقلت له إن المسألة الآن ليست " ستالين " ، وإنما إلى أى مدى يمكن أن يبقى الاتحاد السوفيتى .

وبدأنا نحن الاثنين نبكى !

بعد ذلك قال : " إن كان اعترافى سوف يقوى الاتحاد السوفيتى يمكن أن أفكر فى ذلك بجدية . " شعرت وكأننى أريد أن أقول له : " لا ! لاتفعل ! " ولكن كل شىء كان يتم تسجيلة ! بعد ذلك قابل "سمير نوف "

فى اليوم نفسه ، وتكلم معه ولكننا واصلنا . وعندما أدرك " سمير نوف " أن " مارشوڤسكى اعترف ... أنهار ! "

وهنا تكلم " فريدى " لأول مرة : رغم أن " سمير نوف " حاول أكثر من مرة أثناء المحاكمة أن يجعله يسحب أعترافه ، إلا أن الإدعاء كان يمنعه دائماً " .

نظرت " ليزا " إلى الرجلين . عيونهما مليئة بالدموع .

قال " سلاتسكى " : قولى لـ " لودڤيك " أن يبقى فى الخارج يا " ليزا " وحذريه أن رجلاً جديداً سوف يرسل إلى السفارة .

صديق " كيدروڤ " ، وسيكون باسم " سييجل جلاس " ومهمته ستكون التجسس على " لودڤيك "

" ليزا " لم تحب " سلاتسكى " أبداً ، ولاحتى فى السابق ولكنها عانقته عندما نهض من مكانه .. " وداعاً يا " ليزا " ، تحياتى إلى " لودڤيك " ، لست أدرى إن كنا سنلتقى مرة أخرى أم لا ! "

كان هناك صمت مرهق بعد أن انصرف "سلاتسكى ؛ مازالت "ليزا " لاتستطيع أن تصدق أن " ڤريدى " أحد اللامات الخمس فى بيدڤوشوليسك ، وصديق طفولة " لودڤيك " كان هو الرجل نفسه الذى دمر " سمير نوف " نظرت إليه .

ولكى يتجنب نظراتها أشعل سيجاراً ، ثم بلا خجل قدم لها واحداً رفضت .

" خذنى إلى شقة " مِنَّة " يا " ڤريدى "

لم تتكلم معه فى السيارة ، ولكن عندما أقترب من الجسر صرخت فيه : أوقف السيارة يا " ڤريدى " .... الآن ! "

ضغط بقدمه على الفرامل ونظر إليها .

" أليست هذه " كرو پسكايا " التى تسير نحو الكرملين ؟ هل يمكن أن ألحق بها لأسلم عليها ؟ إنها تعرف لودڤيك و ... "" فيلكس " شحب لونه . " نعم ، هى أرملة " لينين " . لكن أنظرى الآن ! إنها متبوعة . لا يتركونها لحالها أبداً . وإن تركتك لتلحقى بها وتقبليها فلن تغادرى موسكو أبداً ... على أية حال .. هى كلبة .. غبية ! "

" فريدى ! " وبدأت " ليزا " ترتعد غضباً .

" كيف تجرؤ أن تتكلم عنها بهذا الأسلوب ؟ لقد عانت الكثير فى حياة " لينين " ، والآن ... "

" اسمعى .. إنها الشخص الوحيد الذى كان يمكن أن يستنكر المحاكمات ويدينها ويجد من يستمع إليه فى الداخل وفى الخارج وبالطبع كان يمكن أن يدس لها السم ويشخص الأطباء الحالة بسكتة قلبية أو شىء من هذا القبيل .. ولكن ذلك كان سيترك أثراً على الأقل ! ..... وبدل ذلك كله كانت تتقدم بتوسلاتها سراً ! "

" ماذا تقول ؟ "

" ذات يوم فى العام الماضى استدعيت أنا و"سلاتسكى " إلى مكتب " ستالين " لم يكن ذلك أمر غير عادى . " زينوڤييڤ " وكامينييڤ ؛ كانا يحاكمان بتهمة الأرهاب والتجسس إلى آخر ذلك الهراء كان يريد أن يعرف ماذا يقولان عنه لذلك لم نعتبر الطلب أمراً غير عادى "

"وعندما دخلنا طلب أن نجلس فى الركن أريدكما أيها المقاتلان (فى الحرب الأهلية) أن تراقبا فى صمت سوف تتعلمان كثيراً ! " وبعد خمس دقائق دخلت " كروپسكايا " وقف واستقبلها بأدب ركعت على ركبتيها : " جوزيف ڤيسار يونوڤيتش " قالت بصوت مكسور " زيجونييف " و " كامينييف " كان أقدم رفاق " لينين " أتوسل إليك أبق

على حياتيهما . تكلمت عن الرجلين عن قوتهما وضعفهما ، أسهاماتهما من أجل الحزب ... وكان يستمع إليها فى صمت وعندما انتهت ساعدها على النهوض . " أيتها الرفيقة كروپسكايا ، أنا لست القيصر . أرجوك لاتتوسلى إلى هكذا ! هذا يزعجنى ! "

بعد ذلك قال إن البلشفيين الكبيرين كانا " خونة " .. وذكرها بما كان " لينين " قد قاله عنهما على مشارف الثورة .

" كان " ڤلاديمير ايليتش " هو الذى طلب طردهما من الحزب . " وبعد حوار طويل وعدها " ستالين " بأنه سوف يبقى على حياتيهما إن هى شجبت سلوكهما علنا وفعلت وأعدما ، كان لابد أن تفهم أفضل من ذلك . ولذلك قلت أنها كلبة .. غبية !

وأنا أسف لذلك هى أيضاً ضحية ولابد أن ذلك كان مؤلما بالنسبة لها . لابد أنها تفكر باستمرار ماذا كان يقصد بذلك وماذا حدث وتعرف أن " لينين " فى الأشهر التى سبقت موته كان يعرف مايجرى "

" انتهى كل شىء الآن يا " فريدى " أليس كذلك ؟ لقد دمر الثورة ! "

وصلا إلى شقة "منَّة " ودعها " فريدى " .. لا تنسى . ؛ " لارين " سوف يصحبكما أنت و" فيلكس " الليلة للعشاء غرفته آمنة ولكن الحذر أفضل لن أحضر الآن ، قولى لـ " آدم " أننى فى انتظاره "

انفجرت " منَّة " ضاحكة عندما دخلت " ليزا " شقتها وضحكت مرة أخرى عندما رأت نظرة حيرة مرسومة على وجه " ليزا " وقالت على سبيل التوضيح وهما ماتزالان أمام الباب الخارجى : شعور بالارتياح ياعزيزتى ... لقد عدت ! وهذا رائع فى " موسكو " الولدان كانا يلعبان معا فى سعادة ... تفضلى ... "

تبادلت السيدتان الابتسام ودخلتا المطبخ الصغير لا أحد منهما كان متأكدا إن كان هناك ميكروفونات للتجسس مثبتة فى الشقة أم لا .. كلاهما حذر لذا حرصا على ألا تنجرف المناقشات إلى اتجاهات خطرة !" أنا و " هانز " سعداء هنا لوكنا فى ألمانيا لما بقينا على قيد الحياة عندما ألقى القبض على " مايكل " أعتقدنا أن ذلك سيكون لأسابيع قليلة ثم قال أصدقاء أنها بضعة أشهر ثم ذات يوم أبلغنا أن " مايكل " قد أعدم رميا بالرصاص بينما كان يحاول الهرب "

" و " هانز " ... كيف ؟ "

" كان ذلك منذ ثلاث سنوات لقد فهم ما حدث . كان فى التاسعة آنذاك ولكنه شعر بأنه قد أصبح مسئولاً عنى كنت اسمعه يبكى ليلا فى فراشه ويردد اسم والده ، ولكن ليس أمامى أبدا : كان هو و " مايكل " قريبين من بعضهما آخر مجموعة قصائد له كتبها من أجل " هانز " وكان يقرؤها له قبل النوم مازال يحتفظ بها تحت وسادته . " وتناولت " ليزا " قلما من حقيبة يدها و دونت بضع كلمات على ورقة ووضعتها أمام " مِنَّة " .

" هذه المدينة ليست آمنة بالنسبة لك " لودفيك " متأكد أن ؛ ستالين " يتفاوض سراً مع النازى قابلنا بعض العملاء الذين حملوا رسائل إلى ألمانياً لا أريد أن أخيفك .... ولكن هذا المكان خطر .. "

كانت " ليزا " تعرف أنها قامت بمغامرة ، ولكنها لم تكن تريد لـ " هانز " أن يعانى أكثر من ذلك قرأت " مِنَّة " الورقة بابتسامة حزينة ، وإيماءه عرفان وأحرقت الورقة .

أمسكت بيد " ليزا " وقبضت عليها بشدة ثم همست فى أذنها .

" شكراً ! بعض الألمان المنفيين هنا لديهم اعتقاد أن شيئاً كبيراً

سيحدث قريباً مجموعة كبيرة من الألمان تم القبض عليهم بالفعل على اعتبار أنهم " أعداء الشعب " " كيبنبيرجر " و " هيرش " عذباً بالفعل لابد أن أتظاهر بأن كل شيء على مايرام لاأريد لـ " هانز أن يقلق . كان سعيداً فى نوفمبر الماضى وهو يشاهد الدبابات والجنود يمرون أمام " ستالين " فى الاحتفال .

كان يراها درعنا ضد " النازية " وتبادلت المرأتان النظرات ثم تكلمت " ليزا " بصوت مرتفع غير خائف : " هذا يوم جميل ، لماذا لانأخذ الولدين للتمشية على شاطىء النهر ؟ "

كان الولدان قد رجعا وبدآ شوطاً جديداً لم يكونا متحمسين للخروج ولكن جهداً مشتركاً من الأمين أقنعهما فى النهاية .

تركوا الشقة كلهم . اليوم فى نهايته والغروب يقترب ، وكانوا يسيرون وسط ظلال ذهبية بعد ظهيرة اليوم " هانز " وفيلكس تخلياً عن أدعائهما بأنهما قد كبرا وراحا يلقيان بأغصان صغيرة فى النهر ويهرعان لرؤية الفائز منهما .. بينما كانت " منّة " تفضفض و "ليزا " تستمع إليها . " لو استطيع مغادرة هذا المكان لفعلت من الغد لدى أبناء عم يعيشون فى " بلتيمور " ولكن قد يلقى القبض على لو حاولت أن أراسلهما فى هذه الظروف " .

" يمكننى أن أكتب لهما نيابة عنك "

" لست متأكدة ربما كانوا يرغبون فى المساعدة ولكن " مايكل " كان شيوعياً ... رغم أنه قد مات ! هل يسمح لى الأمريكان بالدخول ؟ "

" أعتقد أنهم لابد أن يوافقوا . يسعدنى أن أحاول إن أردت "

مخاطرة كبيرة ! ولو فشلت سينتهى بى الأمر فى سيبيريا وبـ " هانز " فى ملجأ للأيتام ! " .

ظلت المرأتان تتكلمان حتى الغروب كان وقت الفراق ! تصافح "هانز" و "فيلكس " بحرارة وتعانقت " منَّة " و " ليزا " .

والآن كانت " ليزا " متأكدة أن لا أحد منهما يمكن أن يعود "ستالين" فى السلطة .

وفى وقت لاحق من تلك الليلة ، فى غرفة " لارين " ، كانت " ليزا " تسأله عن زوجته وعن طفله اللذين لم تلتق بهما أبداً . " أين هما يا " لارين " ؟ "

" عند حماتى فى الريف "

" كلمنى عنهما ! "

" اسمعى يا " ليزا " ... انسى كل شىء عنهما !

وانسى كل شىء عنا جميعاً . تأكدى " فقط أن " لودفيك" و "فيلكس " وأنت على قيد الحياة . الحكاية هنا باختصار هى من يوقع بمن ؟حرب البقاء ! لو أنه يموت ! يختفى من على وجه الأرض !

هل تعرفين قصدى ؟ إذن لابد أن يعيش بعضنا . " ليفيتسكى " ، " لودفيك " ، " فريدى " ، أنا ، الآخرون .. قد نبقى على قيد الحياة قولى لـ " لودفيك " إننا هنا فى " موسكو " نحلم بأن نموت فى معركة ضد أعدائنا . " هتلر " ... " فرانكو " ... " موسولينى " من ذا الذى يريد أن تنتهى حياته بيد شعبنا ؟ "

وفجأة .. كانت الكراهية تشوه وجه " لارين " كان هو الوحيد بين " اللامات الخمس " الذى لم يشارك فى الحرب الأهلية .

" لارين " كان دائماً أخلاقيا . كانت لديه حيوية أكثر مما تتطلب الثورة ، ولكنه كان يكره العنف .

ومثل " لودفيك " كان ذا عقلية مستقلة تقبل أية نظرية تجبره الحياة على التوافق معها . كان ينفر من الجمود الفكرى .

" سأقول لك شيئاً يا " ليزا " .. كلنا نعرف أنه سوف يقتلنا ! نحن شهود على جرائمه . لماذا ... لماذا لاتوجد الشجاعة لدى أى منا ليقتله ؟ هناك حالات يمكن أن يبرر فيها الإرهاب الفردى أليس كذلك يا "ليزا"؟".

ربما ! ولكن أنظر إلى المسألة من جهة أخرى إنه سيموت يوماً ما . هل مجرد موته سيغير مايجب تغييره ؟

يالبؤس الماركسية إن نحن آمنا بقدرات فرد !

" لودفيك " يعتقد أن المسألة أعمق من ذلك ... أعمق بكثير ! "كان فيلكس على الأريكة غارقاً فى النوم . بدأ " لارين " يتكلم عن " لودفيك " وعن حياتهما عندما كانا أطفالاً . مدينة " جاليشيا " الصغيرة بدأت تصبح حية مرة أخرى ، وعندما أغمضت " ليزا " عينيها نصف إغماضة وهى تستمع إلى " لارين " كانت تتخيل النهر والاشجار على ضفته ، وتتخيل " لودفيك " ولداً ، وهو يقفز ويسبح إلى الشاطىء الأخر .

" أذهبى إلى بلدك يا " ليزا " ولا تعودى أبداً "

" لقد أصبح هذا بلدى يا " لارين " ! "

" أعرف ! لكن حافظى على نفسك وقولى للعالم ذات يوم كيف كان شعبنا يقتلنا .. وقولى لـ " لودفيك " .. قولى له ألا يعود ابدا ! " عندما بدأ القطار المتجة إلى " براغ " يبتعد عن " موسكو " كانت تشعر كانها " أورفيوس " يخرج من " حادس " *

شعرت أنها كانت مراقبة . أى التفاتة للخلف قد تكون أيماءة قاتلة. دقة قلب ثابتة ، تنهيدة أرتياح ، توتر أقل فى كتفيها ... أى شىء من ذلك قد يثبت أنها من أعداء الدولة .

قالت لنفسها .. كنت أحب هذه المدينة دائماً !!

*(Hades – مثوى الأموات فى الميثولوجيا الإغريقية والمترجم) .

- ١٨ -

. ستوافقنى يا " كارل " أن لكل واحد فى ألمانيا شجرة عائلة سياسية : هى موروثات التاريخ الساعة التى ننساها عند الخطر بالنسبة لنا كأفراد وبشر .

لكل واحد فى ماضيه شئ يغضبه أو يجعله يشعر بالحرج .

هناك أشياء عن جيرترود لابد أن أحكيها لك .

هل ستقرأ هذا بعد ثلاثة أشهر من الآن ، أو فى وقت ما من القرن القادم بعد أن تكون قد نثرت رمادى على " الوانسى " وفصصت هذه اللفافة التى كتبت بخط اليد ، ونسختها على ورق خال من الحامض وأتمنى أن يكون مازال سليما ؟ هل تقرأه وحدك ؟

أحاول أن أروى لك هذه القصة بترتيب الأحداث وليس بالترتيب الذى عرفته ، لكى تتمكن من مشاركتى الجهل الذى بدأت به . هناك حيلة فى الحكى ، لكنك ستفهم القصة كلها فى النهاية . لا تقفز مباشرة إلى الفصل الأخير . أريد أن تشاركنى الحالة التى كنت أشعر بها وأنا أحاول أن أجد صوتا لابد أن تستمع إليه .

قبل حلول ليلة رأس سنة ١٩٥٦ بعشرة أيام ، أقنعتنى " هيلجا " بتنظيم سهرة فى شقتنا . كنت قد عارضت الفكرة فى البداية ، ولكن " جيرهارد " وأصدقاء آخرون شاركوها الضغط علىّ فلم أستطع المقاومة .

الشقة كبيرة .. وكانت " جيرترود " فى " موسكو " . كانت حصتها من الفودكا الروسية والكافيار موجودة كما هى . وكان البلد كله

فــى حــالة ترقب وانتظار . لم يكن قد مر سوى أشهر قليلة على خطاب " خروشوف " فى المؤتمر العشرين للحزب فى " موسكو " ، والذى كان قد أدان فيه " جرائم ستالين " . كان رد فعل الهنغاريين على الخطاب هو العصيان المسلح . كانوا يـريدون هنغاريا حرة ديمقراطية . كان فيلسوفهم الماركسى الكبير " جورج لوكاتش " يؤيدهم وأصبح وزيرا فى الحكومة الجديدة ، ولكن " خروشوف " الذى كان فى حالة عصبية خشية انتـشـار المرض ، أرسل الدبابات السـوفـيـتـيـة . " لوكـاتش " لجـأ إلى السفارة اليوغوسلافيه ، وتم سحق التمرد .

ورغـم الأعـمال الوحشية التى وقعت فى " بودابست " ، كان الأمل ما يزال حيا . كان الناس شرقى " الإلبى " يتوقون إلى التغيير . كـانوا فـى شوق للخلاص من حالة كونهم دمى بشرية ، سئموا أدوار المـمـثلين الثانويـين فى فانـتازيا كبـيرة كانت قد بدأت الآن تربك مؤلفيها .

كـانت سنة مليـئة بالإثارة ، ولكننى كنت أريد أن أقـضى ليلة رأس السنة الجديدة مع أمك . كنت أحـبـها كـثيرا ، لدرجـة أن أى شئ آخر كان يبدو عديم الأهمية وكنا قليلا ما ننفرد بالشـقة . بدا الأمر مؤسفا أن تكون ملأى بالأصدقاء فى مثل هذا الوقت !

ضـحكت عندما قلت لها ذلك كله ، وكانت ضـحكة خافتة من الحلق لا من الفم . كنا مـسـتلقـيين فى السـرير فى وقت مـتـأخـر بعد الظهـر ، وفى حالة خدر ما بعد المباشرة الجنسية . كـان الأمر دائما أكثر اسـتـرخـاء عندما تكون " جيرترود " خـارج البلاد . دفنت رأسـى فى صدرها أمـرح فى عبق جسدها .

" أنت جـمـيلة ! رائحـتك حلوة مـثل زهـرة ليلك طازجة ! " لـم يكن من السهل تحويل انتباه " هيلجا "

" يمكن أن نمضى أول يوم من أيام السنة الجديدة معا . بمفردنا . فى الفراش . لكن لابد أن ننظم سهرة ليلة رأس السنة . كل الدلائل تبشر بالخير .

" معنى ذلك ؟ "

" فجأة .. لم يعد الخوف يجمدنا ! "

" قولى ذلك للهنغاريين ! "

" ڤلادى ! لا أعذار ! نعم أم لا ؟ "

كانت الآن جالسة فوقى . يداها متجهتان صوب رقبتى وكأنها ستخنقنى رضخت . ضحكت " هيلجا " ، تعانقنا ومارسنا الجنس لنصدق على الاتفاق .

" ڤلادى ! ... "

" ... م ... م ... م ... ! "

" وعدت بأن تجعلنى أقرأها يوما ما ! لماذا ليس الآن ؟ "

" لأنها مرتبكة ، لم أنته منها بعد ، ولن تعجبك ! "

" وماذا فى ذلك ؟ "

تنهدتُ . قمت من الفراش وذهبت إلى المكتب . راحت يداى تقلبان فى الأوراق المختلطة إلى أن استخرجت ورقة مكتوبة بخط اليد . أعطيتها لـ " هيلجا " وذهبت أبحث عن ملابسى . وضعت الورقة على صدرها وهى تراقبنى أثناء ارتداء ملابسى ثم قفزت من الفراش ، تناولت بنطلونها الأزرق والچاكت ولبستهما . أحيانا أفتقدها يا " كارل " ... أكثر مما

تتصور ! وقرأت القصيدة مرتين :

إلى " ب . ب "

الليالى الطويلة المسهرة ولت

أصبحت صفحة بيضاء ،

الصور العشوائية تتدافع ،

والأفكار العليلة تطفو ،

معظم الليالى على هذه الحال

ثم مرة كل شهر

لا ..! أنا أبالغ ...

مرتان كل ستة أشهر ...

شرارة ..

القلم ينزلق على الورق

وسرعان ما تمتلئ صفحة ،

ويتم عمل عام كامل ..

هل كان الشئ نفسه بالنسبة له ؟

أم ترى كانت كلماته تزأر فوق الصفحة ،

مثل شلالات نياجرا ؟

فى الأسبوع القادم ..

سأزور قبره مرة أخرى ،

وأجى مستقر هيجل العجوز وأنا مار

وعلى الرخامة الجديدة الباردة

سأنثر الزهور الحمراء ،

وأتعهد بأن أطهر وطننا !

١٨ برلين ، ١٢ أغسطس ١٩٥٦

وقبل أن تقول لى رأيها فى هذه الهدية الصغيرة سمعنا طرقا على الباب . تناولت ساعتها من فوق الطاولة للمجاورة ، السادسة ! لابد أنه " جيرهارد " . منضبط لدرجة الإزعاج ! لا أحد غيره يمكن أن يجئ قبل نصف الساعة .

أخذت القصيدة معها إلى الغرفة المجاورة ورحبت بـ " جيرهارد " سمعته يسألها : " مارأيك ؟ "

" ليست رديئة ! لست واثقة من السطور الثلاثة الأخيرة ... ولكنها معقولة بشكل عام ! "

" هل يمكن أن أقرأها يا " ڤلادى " ؟

أعطته القصيدة . قرأها بسرعة وأعادها إليها .

" احرقها يا ڤلادى " ليست جيدة ! بداية مفرطة فى العاطفة . كان " برخت " يكره ذلك ! "

هكذا فعل " جيرهارد " . اكتفيت بالابتسام . أخذت الورقة من يده ، كرمشتها فى قبضتى ووضعتها فى المدفأة وأحرقتها .

" هيلجا " صرخت فى وجهى .

" لا ياڤلادى ...أيها الأحمق ! "

ولكن صرختها كانت عبثا . كنت أعرف فقط أن القصيدة فى رأسى وأن صيغة أفضل سوف تخرج ذات يوم . ولم يحدث ... كما ترى ... ولكننى تذكرت . أمك سوف تؤكد أن ما قرأته هو ما كتبته طيلة تلك السنوات .

قلت لها : " كان " جيرهارد " على صواب وأنت مخطئة يا عزيزتى " هيلجا " سوف ننجح فى مهامنا إذا كنا موضوعيين تماما ، واعين بأنفسنا وناقدين لها . على خلاف أولئك الذين يحكموننا " هز " جيرهارد " رأسه وهو يشعل غليونه ... خجلاً ..! كان فى التاسعة عشرة . أكبر منى ومن " هيلجا " بعام واحد . والغليون كان له أسابيع قليلة !

اعترضت " هيلجا " : " لكن أيها الرفاق كلاكما يندفع عكس اتجاه الآخر . النقد عندكما لابد أن يكون مدمرا ... مثل الهواء الذى يدخل مقبرة محكمة الإغلاق ! "

قال " جيرهارد " دون أن يبتسم : " تعبير جيد ! هكذا بالضبط ! نحن نريد أن نطفئ كل شئ فى هذه المقبرة الستالينية تساءلت " هيلجا " بحزن : " كل شئ ؟ كل شئ ؟ بما فى ذلك أساسات جمهورية ألمانيا الديمقراطية ؟ "

قال " جيرهارد " بسخرية " ... وتلك بالذات ! " طرقات شديدة على الباب الخارجى قطعت حوارنا . ضوضاء وصوت ضحك . كنت دائما أخشى الجيران المتعصبين للنظام ، لذلك قمت مسرعا وفتحت الباب.

فى البداية لم يكن سوى صمت ! بعد ذلك كان هناك " إيريك " و " هيدى " و " هيلين " و " ألكساندر " و " ريتشارد " ... كلهم فى معاطف عسكرية قديمة ، يقفون فى وضع " إنتباه " .

تجاهلوني كلهم ... تماما ! نظروا من فوقي ودخلوا منتظمين بخطوة الأوزة . وبعد أن أصبحوا داخل الشقة خلعوا معاطفهم وارتموا على الأرض ... وضحكنا كلنا !

كانت الغرفة واسعة ومرتبة ، الضوء الرمادى القادم من النوافذ كان قد اختفى تقريبا . كان على الطاولة بعض النسخ من مجلة الحزب الشيوعى الإيطالى الأسبوعية ريناسكيتا مكدسة بجوار تمثال نصفى لـ " لينين " وبجوارها " ساموڤار " روسى قديم وكان الآن يغلى بالشاى .

وبمجرد أن صبوا الشاى فى الأكواب الزجاجية وقدموه للجميع أطلق " جيرهارد " نداء " انتباه ! "

سيطرت على الاجتماع جدية جماعية . أعتقد أنك تعرف هذا الشعور يا " كارل " ربما يحدث ذلك فى حالتك ، عندما يخاطبكم قائدكم فى مناسبة هامة ! أما بالنسبة لنا فقد كان ذلك نتيجة الاعتقاد بأننا سنغير جمهورية ألمانيا الديمقراطية ... والعالم ! كنا جميعا أعضاء فى الجناح الشبابى للحزب الحاكم ، وكنا نعرف أن هذا التجمع الصغير غير قانونى ! وأنه لو أكتشف ، فسوف يكون نصيبنا جميعا الطرد من الرابطة ... ومن الجامعة والنفى الداخلى أو إرسالنا للعمل فى المصانع . كان كل واحد من الموجودين يعرف أن مستقبلنا يمكن أن يتحطم وأن حياتنا يمكن أن تدمر ! كل واحد كان يعرف المخاطر ، ... ورغم كل شئ ، كنا مستعدين لإلقاء أنفسنا فى دوامة التاريخ ! كنا نريد أن نصلح شيوعية ألمانيا الديمقراطية وأن نعيد بناءها ، شيوعية معادية لأذواقنا وآمالنا وطموحاتنا ، وأن نحل محلها شيوعية إنسانية .

سحق الدبابات الروسية للتمرد المجرى قوى فينا الشعور بأن النظام لن يستطيع الاستمرار بالأسلوب القديم نفسه أكثر من ذلك . ولكن الناس لم

يتخلوا تماما عن الإحساس بالخوف ، ولا كانوا واثقين بالكلية أنهم على الطريق الصحيح . كانوا واثقين من شئ واحد فقط .. وهو أنهم لن يمكنهم البقاء صامتين وسلبيين أمام الجرائم التى يتم ارتكابها باسمهم . لم يعد كافيا أن يغطوا آذانهم ويدندنون بصوت رتيب مثل الأطفال، كى لا يسمعوا أكاذيب النظام .

ثم جاء صوت جيرهارد المرتجف إلى حد ما : أيها الرفاق ، مازال عددنا قليل ، ولكنه ، لا شك ، سوف يزيد . نحن مربوطون بمقود طوال حياتنا . " ڤلادى " كان محظوظا لأنه ، على خلافنا جميعا ، لم يولد فى ألمانيا النازية . نحن نعيش قرنا حزينا . الأحداث فى " موسكو " و " بودابست " تجعل الصمت مستحيلا . لابد أن نجعل أصواتنا مسموعة ، أن نقيم صلة برفاق لهم نفس الأفكار فى أماكن أخرى من ألمانيا الديمقراطية وأن نعمل من أجل يوم تصبح فيه ألمانيا الديمقراطية ، ديمقراطية بالفعل .

لقد شيد البيروقراطيون الذين يتلفون أرواحنا هرما من الأكاذيب والنفاق، ولو لم نحطم عالمهم ، فلسوف تأتى قوى جديدة أكثر شرا وفسادا . "

واستمر حديث من هذا النوع قرابة أربع ساعات ، لم يتخلله سوى فترات راحة قصيرة لتناول البيرة والخبز والجبن ولحم الخنزير .. كان كل منا يتكلم بمرارة مازجا معرفته الشخصية بالمأساة بتجربة العالم الجمعية .

فى هذه الليلة لم يتكلم أحد بحماس زائد ولا بعاطفة مفرطة تقريبا . لم يكن هناك رعد أو برق . كنا نحث بعضنا الآخر على البوح بهدوء وبدون تسرع مع إعطاء أنفسنا مهلة للتفكير والتأمل . كان رفضا واعياً للديماجوجية التي ميزت الفترة النازية التى شب فيها كل منهم . فقد كانت

النازية أسلوب حياة خبروه كلهم على نحو مباشر . الأحاديث الإذاعية التى لاتنتهى ، التواجد الإجبارى فى المؤتمرات النازية صارمة التنظيم ، الكراهية العمياء لأعداء الرايخ داخل وخارج ألمانيا .

كيف أكتب ذلك كله دون أن أزعجك يا " كارل " ؟ . هل تتذكر صديقى الإسرائيلى « چولوتز » ؟ كان جل ما يخشاه هو أن يتذكر والديه وهما يستدعيان ذكريات المدينة البولندية التى غادراها سنة ١٩٣٦ ، الأن لا يوجد هناك يهود ! و " چو " لم يكن يريد أن يعرف . ولكنك سوف تعيش فى ألمانيا يا " كارل " ، وهذا هو سبب إعتقادى بأنك تريد أن تعرف ، أم تراه لأننى أريدك أن تعرف ؟

بعد منتصف الليل كنا قد استنفذنا كل الكلمات . وكان وقت اتخاذ القرارات . هل نكون منظمة للعمل السرى ؟ هل لدينا الموارد المادية والمعنوية لتوزيع جريدة سرية ؟ أم تراه من الأحكم أن نقصر أنفسنا على إعداد وتوزيع ما نيفستو ، ودعوة جيل حائر خائف لحمل السلاح ؟

كان " هيلين كوشنر " هو الذى جعلنا نركز تفكيرنا على العالم خارج حدود شقة جدتك .

" اليوم ألقى القبض على والتر چانكا "

ظهرت الصدمة على كل الوجوه . كان " چانكا" ... واحدا من أبرز الناشرين المحترمين فى ألمانيا الديمقراطية . عرف سجون النازية فى شبابه . النازيون ضربوا شقيقة " ألبرت " حتى الموت ، وكان " ألبرت " عضوا شيوعيا فى الرايخستاغ السابق ، هرب إلى " براغ " وذهب إلى إسبانيا ليحارب فى صفوف لواء " ثايلمان " وبعد تلك الهزيمة هرب إلى المكسيك مع " أنا سيفرز " ، وهناك أسس جريدة شيوعية . كان ماضيه معروفا بشكل جيد . وكان واحدا من النخبة المثقفة فى ألمانيا الديمقراطية .

قاوم محاولات " أولبرشت " أن يجعله يتماشى مع الأفكار السائدة ، وكانت دار النشر التى أنشأها واحة للعقول الناقدة .

فكرة أن يكون " چانكا ... فى أحد سجون ألمانيا الديمقراطية ، أشعلتنا كلنا بالغضب .

سألته بصوت مخنوق : " وكيف عرفت ؟ "

" أمى كانت مع " آنا سيفرز " هذا المساء " والتر " هو ناشر أعمال " آنا " ، وقد جاءتها رسالة تحذير تليفونية مجهولة " كان " جيرهارد " يفكر حائراً بصوت عال : " ولماذا " چانكا " ؟ من الصعب أن تجد شيوعيا أكثر إخلاصا منه فى "برلين " كلها " أجابت " هيلين" " لأنه نشر لـ : " لوكاتش " ، ولأن " لوكاتش " لم يكتف بتأييد تمرد بودابست الكلام فقط ، بل أصبح وزيرا فى حكومة " ناجى " . هذا يتبعه أن الرفيق لو كاتش لابد أن يعتبر خائنا ومرتدا . المنطق الأولبرشتى يدين ناشره ! " " والشاعر الذى كان يمكن أن يقلب هذا المنطق المعوج رأسا على عقب قد مات . لماذا يموت " برخت " ويبقى " أولبرشت " على قيد الحياة ؟ " لوكاتش " تكلم فى جنازته . لماذا لايخرجون جثة " برخت " ويحاكمونها ؟ "

الفكرة أبهجتنا كلنا ، قمنا .. أنا و " ريتشارد " و " ألكساندر " وأخذنا وضع الشرطة السرية .

ڤلادى : أيها الرفيق " برخت " ، لدينا أوامر باقتيادك إلى السجن !

جيرهارد : أنا ميت !

ريتشارد كلهم يقولون ذلك ... خذوه !

يقومون : برفع جسم " جيرهارد " ويضعونه " ، على الأريكة)

ڤلادى : والآن ... انظر يا " برخت " ، تعرف أنك ميت ونحن نعرف أنك ميت . ولكن الدولة أمرت بالقبض عليك .

جيرهارد : هذا متأخر قليلا ... أليس كذلك ؟

ڤلادى : الوقت لا يتأخر هنا أبد !

جيرهارد : ولماذا تلقون القبض على جثتى ؟

ريتشارد : اسأل زوجتك !

هيلجا : يقولون إن " لو كاتش " تكلم فى جنازتك يا " بيرتى " و " لوكاتش " خائن كما هو معروف لنا جميعا ..

جيرهارد : أعرف أنه ألف كتابا بعنوان " تخريب العقل " ، بين فيه كيف حرضت أساليب التفكير اللاعقلانية على ظهور الفاشية والرجعية . لم يفهم " أولبرشت " الحجة ... ولكن ...

" كفى تهريجا ! كفى ! أرجوكم ... ! "

شئ ما فى صوت " هيلجا " جعلهم يتوقفون . نظروا إليها كلهم .

" لقد أخبرتكم بالقبض على " چانكا " لكى تفهموا ما نواجهه !

ولكنكم بدل ذلك بدأتم التمثيل .. ألا تقدرون المخاطرة التى نقوم بها ؟ "

" لا أحد هنا أسير ادعاء زائف . نحن نتكلم منذ أسابيع . لابد أن نفعل شيئا . إن كنت قد غيرت رأيك يا " هيلين " فنحن نتفهم ذلك .. بإمكانك أن تذهبى " .

ولكن " هيلين " ردت عليه بسرعة : " لاتكن غبياً يا " جيرهارد " ، أنا أريد أن أناقش ما يجب علينا أن نقوم به . وحيث إن أحدا منكم لم يأت باقتراح محدد ، فهل لى أن اقترح عليكم مشروع " ما نيفستو " مختصر ؟ شئ يمكن أن يقرأه ويفهمه أى واحد . أقترح أن يقوم " ڤلادى " بإعداد مسودة وأن نلتقى الأسبوع القادم لمناقشته وإقراره . اتفقنا ؟

الجميع هزوا رؤوسهم بالموافقة .

قالت " هيلين " : " ممتاز ! و الآن يمكن أن ننصرف جميعا "

قالت " هيلجا " : دقيقة واحدة من فضلكم .. الأسبوع القادم ستكون ليلة رأس السنة . بعضنا أقنع " ڤلادى " يترتيب سهرة . لماذا لا نلتقى فى اليوم نفسه ... فى الصباح ونناقش " المانيفستو " وتبقون جميعا للمشاركة فى الإعداد للسهرة ... اتفقنا ؟ "

" نعم " تمتموا دون حماس .

وبعد أن انصرف رفاقى المتآمرون فى تلك الليلة ، بقيت وقتا طويلا جالسا إلى مكتبى ، وجهى بين راحتى أحدق فى الورقة البيضاء المثبتة على الآلة الكاتبة . وفى الغرفة المجاورة كانت " هيلجا " غارقة فى النوم . قلت لنفسى : " لقد بدأنا مهمة طويلة .. وخطرة .. إن لم يسحقنا الزعماء المحليون فإن " موسكو " ستقوم بذلك ، وحينئذ ... ؟

وبدأت أصابعى تتحرك ببطء وتشكل عنوانا على الورقة البيضاء .

مانيفستو ميلاد جمهورية ألمانيا ديمقراطية حقيقية .

إن عقدا من الحكم الشمولى والنظام الحديدى قد سلب شعبنا قدرته على التعبير وتنظيم نفسه . وعندما يحدث ذلك ، إلى جانب مافعلته الفاشية الألمانية بأمتنا ، فلابد أن تكون النتائج مأساوية إن هذه الأمة تصبو إلى أن تقرر مصيرها بعيدا عن كل قوى البيروقراطية الخانقة ويد الرأسمالية الميتة ، التى تحكم الجزء الغربى من بلادنا .

بعد نهاية الحرب ، كان مواطنو ألمانيا الديمقراطية تحدوهم الآمال فى الحرية والمساواة والأخوة الدولية ، ولكن ذلك كله اصطدم منذ البداية بالأهداف البيروقراطية لموسكو وللرجال الذين أرسلتهم لإدارة هذه الدولة . لقد أكتشف العمال حينذاك أن من يدعون بالفاتحين الاشتراكيين كانوا مجرد كذبة ، فى عام ١٩٥٣ طالبنا بالتعددية الحزبية وبحقوق اتحادات العمال ، وبحرية الصحافة ، ولكن اشتراكية جمهورية ألمانيا الديمقراطية لم تستطيع أن توفر لمواطنيها الحقوق التى ينعم بها جميع مواطنى ألمانيا الغربية بشكل تلقائى والحقوق التى أعلنت " روزا لكسمبرج " أنها ضرورية لأى نظام يدعى أنه اشتراكى . انتفاضة العمال تم سحقها . الناس أصبحوا مروعين ومتجهمين .

اللامبالاة سائدة . وكان هذا الفشل هو الذى جعل خطاب مروجينا ضربا من الهذر ...

عندما انتهيت من المسودة الأولى للما نفيستو كانت الساعة الثالثة صباحا تقريبا ، وكان البرد الشديد فى الخارج قد اخترق الشقة .

وأثناء العمل لم أكن أشعر كيف أصبح جسمى باردا . كنت أرتجف وأنا أخلع ثيابى لأندس فى الفراش . أما " هيلجا " فكانت تنام نوما عميقا وتتنفس بانتظام . الحرارة المشعة من جسدها لايمكن مقاومتها . إنها حبيبتى ورفيقتى وصديقتى . كنت أفكر . وهى وفية وحنونة . ويمكن

الاعتماد عليها . أخبرها بكل الأشياء التى لم أعترف بها لأى شخص آخر. ربما كانت أمى تعرف ذلك بالغريزة ولذلك لا تحبها " جيرترود " الغبية . احتصنتها . نائمة ما تزال ولكنها استدارت واحتضنتنى . وفى دقائق قليلة غزانى دفئها . وقبل أن أعود للتفكير فى أحداث اليوم غلبنى النوم .

بعد أسبوع ، صباح يوم ليلة رأس السنة الجديدة ، وافق الاجتماع على المانفيستو. وانتهينا من ترتيبات نسخة . وأعددنا قائمة بأسماء المتعاطفين الذين سيرسل إليهم فى كل المدن الرئيسية وبالطبع ليس عن طريق البريد .

كنا على مدى أشهر ... فى نقاش لا يتوقف . كانت ثرثرتنا تبدو لنا أحيانا كأنها جلبة لا معنى لها . العمال ، الديمقراطية ، الحرية ، البيروقراطية ، الدكتاتورية ، الانتلجنسيا ... كلمات ... كلمات ..! الآن قررنا أن نستخدمها لكى نفعل شيئا ، لنتحرك إلى الأمام ، لنواجه التاريخ لنكشف عن السماء الزرقاء الصافية تحت السحب الرصاصية .

بدأ الناس يتوافدون مبكرين ، وفى الساعة العاشرة كانت الشقة قد امتلأت أجساد صغيرة منتشرة فى كل مكان . أرواح شابة يساعدها مخزون " جيرترود " من الفودكا الروسية ، كلهم نشطون وسعداء . وفى حجرة الجلوس كان شاب يقف على طاولة يقلد " أولبرشت " ومشاهدوه يضحكون دون أى أثر للتوتر عليهم . ابتسامة رضا على وجهى وأنا أهمس فى أذن " جيرهارد " .

" فى العام الماضى ما كانوا ليجرؤون . إنها روح المؤتمر العشرين للحزب ! " . كان " جيرهارد " يدخن الغليون ويحاول أن يأخذ سمت الوقار ، هز رأسه مصدقا على كلماتى .

" البشائر مشجعة بالنسبة لمحاولاتنا "

وفى المطبخ، حيث كان الضيوف يصبون النبيذ الملداقى لأنفسهم ، كانت امرأة فى أواخر العقد الرابع فى قمة تألقها وتدفقها! "

" أنتم تعتقدون أننى أصنع فنى فى مكانة أعلى مما يستحق . لاأوافق على ذلك . إن وظيفتى الوحيدة هى أن أكتسب ثقة قرائى بأن أحكى لهم أحلامى ، وليس أحلامكم أو أحلام ألمانيا الديمقراطية ولا أحلام ذلك الماعز الذى يحكمنا ! إن الفن الجماعى الذى تسيطر عليه الدولة ليس له أية قيمة فنية .

للأدب قيمة جوهرية فى ذاته ، مستقلا عن أى شئ آخر " رفيقها نو الشعر الأبيض ، الذى يكبرها بعقد أو أكثر قليلا ، كان يضحك لما تقول . " خطأ آخر يا عزيزتى ! ما تقولينه ينطق على الروائع ، على الأعمال الاستثنائية . أما بالنسبة للباقى فالفن منتج مثل أى شئ آخر . سلعة من إنتاج العقل البشرى بغرض الاستهلاك السريع وهى سلعة ناضبة . نفاية الواقعية الاشتراكية ليست أفضل ولا أسوأ من نفاية الرأسمالية عندما اكتشفت أن الجمهور الذى كنت أكتب له لم يعد موجودا توقفت عن الكتابة . "

ردت عليه صديقته : " كنت مملوءا بالتفاهات إذن ... وأنت مملوء بها الآن ! "

الصخب المنبعث من الغرفة المجاورة قطع ذلك الحوار الحاد منبها جميع الموجودين إلى أن منتصف الليل سيحل بعد دقيقتين . وبينما كانت الأجراس فى الراديو تدق إعلانا بقدوم العام الجديد ، انفجر الكل فى الغناء . ثم طلب " جيرهارد " السكوت !

" أيها الرفاق ، فلنشرب نخب برتولد برخت ! "

" فى صحة برتولد برخت ! "

" فى صحة الحرية ! " ، قال آخر .

" فى صحة الحرية ! " ، ردد الجميع وراء ه !

وقبل أن تدق الساعة الثانية بقليل أعلنت أنا و " هيلجا " خطوبتنا قلت لهم " أيها الرفاق ، لماذا الالتزام بشئ واحد إن كان من الممكن الالتزام بشيئين ؟ "

وتوالى الضحك وتوالى تبادل الأنخاب ، ولكننى فى الصباح كنت قد نسيت كل شئ عندما عادت " جيرترود " . أخبرتها بكل شئ . بدأت تناديني بـ " ڤلاديمير " ... علامة أكيدة على أنها كانت غاضبة ." لست مشعوذة وحيدة يا " ڤلاديمير ... . أنا أمك . وقد تأخرت نصف ساعة بالفعل عن إجتماعى . ومن المؤكد أنك قد أهنتنى بما فيه الكفاية ... ولمدة يوم كامل . ألا يمكن أن نكمل غدا صباحا أثناء الإفطار ؟ "

وقبل أن أرد كانت قد خرجت من الغرفة وغادرت الشقة . كان هدفى هو استثارة رد فعل غاضب تظهر أثناءه بعض الحقائق الخافية ... ولكن أملي لم يتحقق !

مرت أسابيع وهى مستمرة فى عبوسها . أصبحت علاقتنا باردة برود الجليد منذ أن قدمت إليها زوجة ابن لاترضى عنها .

" ليس خطأ " هيلجا " أن تكون ابنة قس لوثرى . أبوك كان برجوازيا . وبقى حبك له "

" أبى اختفى فى بلسن "

" كان من الأفضل إذا لو أن أباها كان قد مات ؟ "

" لماذا كان لابد أن تتزوجها ؟ "

" كان من الضرورى ... "

" لماذا ؟ هل هى حامل ؟ "

"وهل تعتقدين أن ذلك كان يمكن أن يكون سببا كافيا ؟ "

: " وهل هى ؟ "

" لا ! "

" حسن ! "

محاولات " هيلجا " لتطبيع العلاقات بينهما فشلت هى الأخرى . لم تكن " جيرترود " وقحة أبدا . ولكنها كانت مصممة على الاحتفاظ بدرجة مؤلمة من التعامل الرسمى . وبعد عودتها بأيام قليلة أعلنت بكل وضوح أن الشقة شقتها وأنها هى - وليست هيلجا - المسئولة عن كل شئ !

ورغم كل هذا الجدل إلا أننى كنت حتى الان أرى " جيرترود " جميلة وحساسة وذكية ... مع كل انفجاراتها المزاجية .

بدأت أرى فيها جانبا كان مفاجأة لى . ذات يوم بعد الظهر ، انتهزت فرصة غياب " هيلجا " وطلبت من" جيرترود " أن تتكلم معى بصداقة عن بعض الأمور . نظرت إلى كأننى شخص غريب عنها ورفضت أن تجيب .

لماذا كانت هكذا ؟ استطعت أن أدرك أنها كأم يهودية جيدة ، كانت تكره أن تتدخل امرأة أخرى فى حياتى ، وترفض ذلك . أو ربما لأننى فعلت ذلك من وراء ظهرها . وربما كانت فكرة أن يشاركها شقتها اثنان فى سن الشباب ، موجودان بصفة دائمة فى غرفة النوم الصغيرة بجوار غرفتها ، تجعلها ثائرة ومتوترة .

وربما كانت همساتنا الليلية النشطة وعواطفنا المشبوبة تشعرها بالغربة فى بيتها . قد يكون ذلك طبيعيا ، ولكن هل كان هو كل شئ ؟ أم ترى كانت هناك أسباب أخرى دفينة ؟ شئ له علاقة بماضيها ، شئ يخيفها ؟

لا يمكن أن تكون مسألة طموح . لم يكن لديها أية خطة تتعلق بعملى ، وكان آخر شئ تريدنى أن أسلكه هو أن أتبع خطوات أبى .

كنت أنا كل ما يصلها بماض كله حرمان وخسران ! جعلها غير سعيدة ولكنه - أيضا جعلها صلبة ! ربما كانت نادمة على الثمن الذى دفعته مقابل إصدارها ولكنها كانت تمتلك ذلك الإصدار وكانت تستخدمه . جعلت أيامى صعبة بسبب " هيلجا " . أحيانا كانت مناقشاتنا أقرب إلى الاستجواب ! هدوؤها كان سلاحا .. كان درعا لجسمها . كنت أحدق خلسة فى تلك العيون الرمادية الفاتحة وأتساءل ماذا ترى ؟

وعندما بقيت " جيرترود " عنيدة ، رافضة تماما أن تشاركنى الحديث ، حررت نفسى من عبء كل ماكنت أكتمه داخلى طيلة الأسابيع الستة الأخيرة . دافعت عن حبى لـ " هيلجا " . لم ترنى " جيرترود " أبدا على هذه الدرجة من الرقة والحنان . وقد دعم ذلك تحيزها من " هيلجا " . براءة ابنها انتزعت منه ، بيد تلك الشقراء المغوية . قالت شيئا كهذا ورددت عليها بالمثل .

" لقد فقدت طهرى يا أمى عندما كنت فى السابعة عشرة تقريبا ، مع صديقة لك ، رفيقة مخلصة كانت تقيم معنا ... هل تتذكرين ؟ "

" أنت كذاب ... أيها النغل ! "

لقد استطعت أخيرا أن أترك أثرا عليها . أصبحت أكثر هدوءا لأننى كنت سعيدا بنفسى .

" حيث إنك أثرت مسألة شرعيتى يا أمى ، هل يمكن أن تحكى المزيد عن ذلك ؟ ماذا كانت حقيقة علاقتك بـ " لودڤيك " ؟ "

" قلت لك مليون مرة إنه مات ! "

" ومن الذي قتله ؟ "

" لماذا تنظر إلى هكذا ؟ "

" من قتله ؟ "

" ييدزوف ! كان رئيسا ل " إن – كي – ڤي – دى " * في سنة ١٩٣٧ "

" نلعب على بعضنا مرة أخرى ! ستالين هو الذى قتله ... لكن من الذى ضغط الزناد ؟ "

" لا أعرف ! "

" لابد أن شخصا ما فى موسكو يعرف . ألم تحاولى أبدا أن تعرفى ؟

" الذين يعرفون ماتوا أيضا ! "

" النظام كله مات يا أمى . ماكشفه " خروشوف ...

" بعضنا لم يكن فى حاجة إلى حديث " خروشوف " يا" ڤلاديمير " ، كنا نعرف .

" بالطبع ! كنتم تعرفون ومع ذلك واصلتم ، ما كان شئ يهم سوى إنقاذ أنفسكم ! "

* اسم جهاز الاستخبارات من ١٩٣٤ – ١٩٤٣ والذى أصبح الـ " ك . جـ . ب " من١٩٥٤

" هل نسيت احتفالات يوم النصر فى سنة ١٩٤٥ ؟ الاستعراض الكبير في " موسكو " ، وكيف كنت أنت و أصدقاؤك تهتفون للجيش الأحمر ؟ كنتم تصفقون بأيديكم مثل الآلات . وعندما كانوا يلقون بالأعلام النازية المأسورة أسفل ضريح " لينين " بدأ الكل يبكى . لقد هزمت الفاشية ، رغم أنه لكى يتحقق ذلك ، كان على كثير من الشيوعيين أمثالى أن يعقدوا حلفا مع الشيطان . لماذا تعتقد كان بكاؤنا فى ذلك اليوم يا " ڤلاديمير " ؟ "

كنت رغما عنى متأثرا بذكرى ذلك اليوم فى " موسكو " .

" حزنا على رفاقنا الذين ماتوا "

بالطبع ..نعم!لكن لإحساسنا بالارتياح لأن الاتحاد السوڤيتى بقى . ربما لم يكن جلدى يستحق البقاء ، ولكن الاتحاد السوڤيتى كان لابد أن يبقى ، إن كان لابد من سحق " هتلر " ! ما كان أحد ليعرف ما كان يمكن أن يحدث لولا الجيش الأحمر ! كانت أوروبا كلها ستسقط بالتأكيد ! "

تمنيت لو أن " هيلجا " كانت حاضرة لتشهد تلك المشادة . وجدت أنه كان من الصعب أن أقنع أمك بأن أمى كانت مأجورة حزبية مكلومة ، باعت روحها لـ " ستالين " . ورغم ذلك كنت أتساءل ماذا كانت " هيلجا : ستقول أمام نقاش يعادل " ستالين " بالاتحاد السوڤيتى . جدتك كانت تتميز بجرأة ووقاحة يا " كارل " أقصد أنها لو كانت تريد أن تدافع عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، فكيف بحق الجحيم يمكن أن تترجم ذلك كله إلى تلقينى كيف أحب .. ومن أحب ؟ وإذا كانت كل الوسائل حيوية ومهمة بالنسبة لأهدافك ، فهل لديك تفويض مطلق ؟ هذا شئ غير مقبول .

كانت تذكرنى بـ " جيرد هينبخ " ، بروفيسور متسلق كان يقوم بتدريس الأدب الألمانى فى " همبولت " ، عضو مخلص للحزب ومتخصص فى أغتصاب النساء ! تقدمت مرة سيدة شابة بشكوى ضده للسلطات ، ووصفت أسلوبة وصفا تفصيليا ... " تعالى إلى مكتبى بعد المحاضرات ، حيث أقوم بقراءة " جوته " كما ينبغى أن يقرأ " وعندما فعلت طلب منها أن تسلم على قضيبه ! ركلته بعنف وجرت . ! كان والد الفتاة يشغل منصبا كبيرا فى الإستخبارات العسكرية وتم إجراء تحقيق . وتلقى " هينبخ " إنذارا .

هل تتخيل ماذا قال لزملائه يا " كارل " ؟ بصوت هادئ يدعى الورع الكاذب قال لهم : " لا بد أن تعذرونى يارفاق . أصولى ونشأتى الريفية مختلفة عنكم . لقد نشأت فى أسرة بروليتارية فى " ودنج " ، كان والداى شيوعيين يعملان تحت الارض أثناء الفترة النازية . كلاهما مات فى " راڤينز بروك " خبأنى عامل معدن وأسرته كان من عادتنا أن نشرب ونتكلم بألفاظ بذيئة ونزنى أثناء الحرب ولكننا بقينا على قيد الحياة . أرجوكم ... اغفروا لى عدم لياقتى الاجتماعية . ربما لوكنت قد ذهبت إلى " موسكو " أو لوس انجلوس " أو چنيف " كان يمكن أن يكون سلوكى أكثر تهذيبا ورقيا ! ولكن هنا فى " برلين " ، تحت حكم " هتلر " .. عشنا حياة لاتعرف التهذيب " ورفض أن يجيب عن أسئلة المحقق وترك الغرفة ! لم يتغير أبدا . أكره هذا النوع من الديماجوجية وأحتقر أمثاله .

كانت " جيرترود " هى التى حكت لى هذه القصة ، ولكن تفكيرها لم يكن يختلف عن تفكير " هينبخ " .

وفــى ذلك الـعـام ، وقـعـت فـى شـرك شـجار عنيف فى الجامعة مع " جيرد هـينبخ " حاولت أن أقنعه بأن يستـخـدم نفوذه نيابة عن " إيڤا سيكرت " ، وكانت مـحـاضرة لامـعة وقـعت ضـحيـة لحملة من المضايقات منظمة من الحزب ونتج عنها إزاحتها من منصبها . كانت " سيكرت " متهمة بأنها من أتباع " لوكاتش " و " تجميل روايات الروائى الإنجليزى الـرجعى (هكذا !)" سير والترسكوت " ، وهى تهمة لم تحاول حتى أن تنـكــرهــا ! ووقــع ستون طالبا ، كنت أحدهم ، بيان احتجاج . قال لى " هينبخ " وعلى وجهه ابتسامة متفضلة : " ربما كان ذلك يلائمك يا مـايور " .. ولكن ليس بالنسبة لى .. عملى كبـروفـيسـور للأدب الألمانى هو أن أعلمكم جميعا ، أساعدكم على اكتساب الفـهم النقدى للغتنا وأدبنا . ولهذا السبب تحديدا يجب أن نبعد السياسة عن الجامعة "

" ولكن الدولة قد أدخلت السياسة يابروفيسور " هينبخ " بتحويل بعض المفكرين إلى شبه شياطين ويطرد إيڤا سيكرت ! " ابتسم " هينــبخ " وهـــو يهز رأســة غير مصــدق ســذاجة الطالب الذى يقف أمامه .

سألته رافضا أن أستسلم : " لو أن منزلا أمسكت به النار ، أعتقد أنك ستساعد فى عملية الإطفاء "

" أبدا يا عـزيزى " مـايور " ... سـوف أجـرى نحـو أقـرب تليـفـون لاستدعاء الإطفائية .. أنا بروفيسور وليس رجل إطفاء ! " بدأت أصرخ : أنت حقير يا " هينبخ " ! خنزير ! عديم المروءة ! أمثالك فعلا عرفوا كيف يعـيـشـون بأنفـسـهم ينجـون تحت حكم النازية أليس كـذلك يا " هر بروفيسور " ؟ "

ظل هادئا ، رغم امتلاء عينيه بالكراهية !

" أخرج من مكتبى يا " مايور " ! "

وبينما أنا خارج أضاف فكرة طرأت له " وبالمناسبة ... ليس هناك ما يدعو لمثل هذا التهور يا " مايور " فأنا لم أنم مع زوجتك ! "

عندما عادت جيروترود إلى المنزل فيما بعد ، فوجئت بأن وجدتنى حليق الذقن تماما - ففى نوبة استياء من لاشئ .. وكل شئ أزلت لحيتى - ولكنها كانت حائرة وقلقة لمظهرى .

" ماذا ؟ ما هى المشكلة يا أمى ؟ "

" ڤلادى ! هل هناك شئ لم تخبرنى به ؟ "

فزع ! حتى فى ليلة رأس السنة المشئومة تلك ، لم يكن لدى أى أسرار سياسية خافية على " جيرترود " . النزاع حول زواجى المدبر بسرعة كان فى جزء منه محاولة شبة واعية لإخفاء حقيقة أننى و " هيلجا " كنا متورطين فى نشاط سياسى سرى . أكثر من مرة ، كنت على وشك أن أقول لها كل شئ ، ولكن شيئا ما كان يمنعنى . ثم أن الشجار بسبب " هيلجا " أقنعنى أنها كانت مجرد حيزبون ستالينية كئيبة ، وكنت سعيدا لأننى لم أكشف سرنا

" ڤلادى ؟ "

" ماذا يمكن أن أكون قد أخفيت عنك ؟ "

" اسمع يا ڤلادى ! هذه ليست أمورا للمزاح . يمكن أن تدخل السجن أو أن تموت ! الآن ... قل لى كل شئ ! " " ماحجم ما تعرفين .. ؟ وكيف ؟ "

" انسى كيف ! فهو لايخصك . ما أعرفه هو أنك وآخرون قد وزعتم ما نيفستو يدعو لإسقاط جمهورية ألمانيا الديمقراطية .

" ليس صحيحا يا أمى ! لقد دعونا إلى تحول ديمقراطى فى ألمانيا الديمقراطية وإنها نظام الحزب الواحد ، وذلك شئ بعيد عن أن يكون

دعوة لإسقاط جمهورية ألمانيا الديمقراطية . إنها الوسيلة الوحيدة لتدعيم وتقوية الجمهورية ، وقد أدرك العمل أنفسهم ذلك سنة ١٩٣٥

" هل نسختم المانيفستو ؟ "

" نعم ! "

" كل كلمة ؟ "

" كل كلمة ! "

" دعني أقرأه ! "

وهكذا وقعت فى الفخ ! لم يكن أمامى سوى أن أعطيها نسخة منه .

بعد ذلك كانت تقول إن جزءا منها كان فخورا بى ! أعاد الحدث ذكريات عن " لودڤيك " وبلاغته ، وعن حوارات لو أنها كانت قد نقلت لأدت إلى سجنهم فى الحال ... وربما الموت فى معتقلات سبيريا !

تلك كانت أسوأ الأوقات ، ومع ذلك فإن بعض الشيوعيين المناضلين خاطروا بحياتهم وشجبوا " ستالين " وأدانوه . ماذا كان يمكن أن يصنع " لودڤيك " بابنها ؟

أعطيتها المانيفستو ، وكنت أحوم حول مقعدها وهى تصنع نظارتها الطبية على عينيها .

" أجلس يا ڤلادى " .. لا ! من الأفضل أن تترك الغرفة حتى أنتهى من قراءته لست فى العاشرة الآن ، لكى تنتظر معرفة رأيى فى حل فروضك المدرسية ! "

كنت مطمئنا لأنها هدأت . ابتسمت لنفسى وانصرفت . لمحتنى وأنا أبتسم وضايقها ذلك .

وضعت " المانيفستو " على الطاولة وحملقت فى صورتى أنا و " هيلجا " على المدفأة . " أتمنى أن أتحدث معها . لأقول لها إننى أحبك جداً ولا يمكننى ألا أكون غيورة ... ولكى أشجعها على أن تمنحنى حفيدا ! " لم أصدق أذنى السلام أخيراً ! حربنا الأهلية الصغيرة انتهت . لم تستطع أن تخفى إعجابها أثناء قراءتها للمانيفستو .

وبعد ذلك ، أخبرت " هيلجا " فى الليلة نفسها أنها كانت معجبة برؤيتى السياسية وعباراتى القاطعة . كان هناك وضوح فى التفكير ، وعنوية ... تراها منعشة . قالت لنا إن أفكاراً مماثلة كانت تدور همساً فى موسكو حيث كان أعضاء الحزب قد بدأوا يتخلون عن خوفهم .

كانت " جيرترود " قد أدركت عددا قليلا من الذين نجوا من العشرينيات ، كانت تعرف رجلين وأمرأة من دائرة " لودفيك " لم يكتشفوا لأنهم كانوا قد تركوا الشعبة الرابعة وعملوا بالتدريس لعدة سنوات قبل الرعب . كانوا ، على نحو لافت للنظر ، مازالوا على قيد الحياة ، ويسعدهم أن يروا " جيرترود " قضوا مساء كاملا وهم يتكلمون عن " لودفيك " والآخرين الذين تبدأ أسماؤهم بحرف " اللام " .

كان المدرسان جزءا من لجنة " قدامى البلشفيك " التى كانت تضم أرملة " بوخارين " ، والذين قابلوا " خروشوف " وطلبوا منه إطلاق سراح كل الذين سجنوا بالخطأ !

أعطاهم " خروشوف " كلمة ، ووعدهم أن يطلق سراح السجناء ، قبل أن نغادر "موسكو " بيوم واحد ، كان بعض المفرج عنهم قد وصلوا إلى العاصمة ، فى تلك الأيام يا " كارل " كان الإصطلاح المستخدم

بشكل عادى هو " إعادة التأهيل " كما لو كان السجناء مرضى تحسنت صحتهم أو مجموعة من الكراسى القديمة المخلعة التى تحتاج بعض الغراء والتنجيد لتعود صالحة للاستخدام . كان الشئ نفسة سوف يجرى عمله بالنسبة لبقية الكراسى ، لو لم يجدوهم زائدين عن الحاجة فى سنة ١٩٣٧

ولولا رحلتها إلى " موسكو : لكانت " جيرترود " قد أصيبت بالشلل من شدة الخوف ، ولفعلت أى شئ لحماية ابنها . نعم ! أى شئ ! كانت الآن تعرف أن المسألة مسألة وقت .

ما تفعله " موسكو " اليوم سوف تقلده ألمانيا الديمقراطية حرفيا فى الغد . و" ڤلادى " قد ينتهى به الأمر عضوا فى المكتب السياسى .

كان صوت عضو المكتب السياسى القادم يقص أحلامها .

" جيد ؟ "

نظرت إلى وابتسمت .

" ما رأيك يا أمى ؟ "

" أنا متفقة مع كل شئ تقريبا . إذا حذفت الإشارة إلى نظام متعدد الأحزاب يمكن أن أوقعة معكم ! "

" ولكن ذلك أساسى . كانت " " روزا " محقة فى ذلك " ولينين " مخطئا .. ، على أية حال إذا كنت تقبلين بحق وجود الأقلية داخل الحزب ، فكيف تنكرين عليهم حقهم فى تكوين حزبهم المستقل ؟ أرأيت يا أمى ؟ "

" أرى يا " ڤلادى " ، ولكننى لست موافقة "

" حسن ! لا مشكلة . المناظرة سوف تستمر ..

" ممتاز ! والآن .. خبرنى عن شئ .. كم عدد المتورطين منكم ؟ ومن الأخرون ؟

ترددت . لم أكن أريد أن أخبرها .

" ڤلادى "

" لا أستطيع أن أخون ثقتهم . لقد تعهدنا السرية .. ولكن من الذى أخبرك بخصوص المانيفستو ؟ "

" عضو رفيع المستوى فى الحزب . ومثلى ، كان إنطباعة جيدا .

ظن أنه عمل طلابى . بعض التحريات فى : "همبولت " أكدت أنك قد تكون مشتركا معهم . ليس هناك شئ محدد . فهمت ؟ ولكننى عرفت في الحال أنك لابد أن تكون . هكذا ... إحساس ! من الآخرون ؟

" ولماذا تريدين أن تعرفى ؟ "

" حتى أستطيع القيام ببعض التحريات . وماذا لو أن أحد زملائك المتآمرين كان يعمل لحساب جهاز الاستخبارات ؟

" خيال مفرط ! "

" ربما ! ولكنه ضرورى لنجاح مشروعكم . أرجوك ... كن واقعيا بعض الشئ يا " ڤلادى " ! "

قمت وبدأت أتحرك جيئة وذهابا . رأتنى أضع يدى على رأسى وأرفعها عدة مرات ، وكان ذلك يضايقها دائما .. علامة أكيدة على توتر أعصابى .

لم أستطع أن أفهم سبب توترى ... من ستة أشهر فقط وثقت بها تماما ، وقلت لها كل ماكانت تريد أن تعرف . وذهبت لأنام بقلب مطمئن . هذه الثقة من أبن وحيد لأم وحيدة قد تساعدك على فهم أسباب توبيخى لنفسى دائما ، لأننى شككت فى كلمتها لى أن " لودفيك " كان أبى !

وقبل أن أشرح أسباب رفضى سمعت صوت مفتاح يدور فى ثقب الباب الخارجى . بدأ قلبى يدق بسرعة . لأجد أنها " هيلجا " عادت . ستتوقف أمى عن إزعاجى فى حضورها . لقد بخست " جيرترود " حقها .

عندما دخلت " هيلجا " الغرفة ، وقفت " جيرترود " ورحبت بأمك بأدب ولياقة جعلتنا نصمت مشدوهين . تناولت معطف " هيلجا " وضعته على الأريكة .

" أذهب واصنع لـ " هيلجا " كوبا من الشاى يا " ڤلادى " .. ألا ترى أنها مرهقة ؟ "

اندفعت إلى المطبخ عاجزا عن النطق لشدة الدهشة .. فى غيابى حدث تطور كبير . كانت " جيرترود " جالسة إلى جوار " هيلجا " ... تقبل رأسها !

" اغفرى لأم عجوز سوء تصرفها ياعزيزتى ! " ، بدأت بصوت ناعم ... " هذا الولد هو الشئ الوحيد ذو القيمة الذى أتركه فى هذا العالم ، ولم أكن أريد أن يشاركنى فيه أحد ، لو حتى فى مقابل سنوات قليلة أخرى . الآن أرى أنكما تحبان بعضكما ... ... كثيرا .. فهلا عفوت عن أم مفرطة فى الحماية وغفرت لها ضعفها الإنسانى ! هل نصبح أصدقاء ؟ " " هيلجا " ذاهلة ... مصعوقة ! بضربة واحدة جردتها " جيرترود " من كل أسلحتها . احتضنت " " جيرترود " ، فتنهدت السيدة العجوز وراحت تمسد شعر " هيلجا " بيدها .

كان ذلك هو المشهد الذى لا يصدق الذى وجدته أمامى عندما عدت من المطبخ بكوب الشاى ، وبالطبع كان تأثرى شديدا . أعتقدت أن مسلكى السياسى هو الذى ربح " جيرترود " .. بعد ذلك ، كنا نجلس أنا و " هيلجا " فى الليلة نفسها مع " جيرترود " نجتر ذكريات الماضى . ودون تفكير كثير قلنا لها كل ما كانت تريد أن تعرفه . فكرت " جيرترود " فى بقية الأسماء وباركت المشروع .

وفى تلك الليلة ، شعرت أنا و " هيلجا " لأول مرة ... أننا كنا فى بيتنا !

- ١٩ -

وبينما كنت أقلب ذات يوم في محتويات مكتب " جيرترود " ، وجدت مغلفا يضم مجموعة صور غير عادية لها . صور بالأبيض والأسود . في واحدة منها كانت تقف على شاطئ منبسط خال ، ولكن الذى فاجأنى كان ماترتديه من ملابس غريبة . تنورة وچاكت مناسب وبرنيطة قش كبيرة .. وكانت تضحك في الصورة .كانت تبدو سعيدة بالفعل.وفي صورة أخرى كانت مع امرأة أخرى لا أعرفها . وفي ثالثة ، كانت تتأبط ذراع شاب حاد الملامح يرتدى نظارة طبية . يبدو شكلة مألوفا لى إلى حد ما ... ربما أكون قد التقيته في " موسكو " ذات يوم .

عندما رأت الصورة معى انتزعتها منى غاضبة وتركت الغرفة .

كنت كلما ذكرت لها أمر تلك الصورة ، وألح في ذلك تتكتم الأمر وتغير الموضوع بأسلوب غير ودى .

كنت قد نسيت ذلك الحدث تماما ، عندما تطوعت هي مساء أحد الأيام وردت لى حكاية تلك الصور . في سنوات وجودها الأولى في " موسكو " كانت " جيرترود " قريبة جدا من " زينوڤييف " ، على نحو خاص . قد تكون علاقة حب ، رغم أننى لا أملك دليلا على هذا التخمين . هزها بشدة خبر إعدامه سنة ١٩٣٦ ، وكان على " لودڤيك " أن يستخدم كل قدرته على الإقناع ليمنعها من أن تنهى حياتها بيدها .

سألته ، إن كان لم يسمح لها بالانتحار ، فلماذا لا تشجب " ستالين " واستبداده وتقطع علاقتها بموسكو علنا ؟ لم يكن " لودفيك " غير متحمس لهذا الرجاء بالضبط ، ولكنه أقنعها بالانتظار ستة أشهر ... وبعدها يمكن أن يناقشا الأمر مرة أخرى . ثم أرسلها فى إجازة طويلة للاستجمام والاستشفاء على ساحل " نورفولك " فى انجلترا ، حيث يمكن أن تكون بعيدة عن عيون موسكو المتلصصة !

لم يكن لديها أية فكرة عن المكان الذى ستذهب إليه ، ولا مع من ستقيم . وبمجرد وصولها إلى " لندن " ، جاء شخص ألمانى إلى المحطة ، قدم لها بعض الطعام ثم أخذها بسيارته إلى محطة أخرى ، ومنها استقلت القطار إلى " نورويش " ولدهشتها ، كان الرجل الذى ينتظرها فى محطة " نورويش " هو " كريستوفر براون " .. حبيبها القديم أيام موسكو . ابتسم ... وصافحها . ثم أخذها بالسيارة إلى منزل أسرة "براون " الواسع الجميل فى قلب " ويلز " .. تلك المدينة الساحلية الهادئة . كانت ثلاثة أسابيع رائعة . كنت عندما استمع لحديثها أود أن أذهب إلى هناك لمجرد رؤية المنزل والشاطئ ، وحتى الان لم أتمكن من القيام بهذه الرحلة ، ربما تتمكن أنت ذات يوم !

كان "براون " متزوجا من " أولجا " ، وهى لاجئة سياسية روسية ، وكان كلاهما يعمل لحساب " لودفيك " " أولجا " ابنة عم دوق روسى كبير كان ابن شقيقة القيصر . فى سنة ١٩١٧ كانت أسرتها قد أخذتها بعيدا عن موسكو على غير رغبتها ، ولكن ليس قبل أن تترك مجوهراتها وخطابا فى مغلف بنى سميك كتبت عليه " إلى " لينين " واللجنة المركزية للبلشفيك . "

كانت مع الثورة منذ البداية . لو بقيت وانضمت لـ " البلشفيك " فلربما كان " ستالين " قد قتلها مثل الأخرين .

وفى بريطانيا ، عملت بنصيحة " لودفيك " ولم تكشف حقيقتها أبدا فى العلن . ماتت مؤخرا ، فى سنة ١٩٨٢ بعد أن عمرت طويلا . وبعد موت " لودفيك " قطعت هى و " براون " كل صلة لهما بـ " موسكو " وهددا بفضح أمر عملائهما لو حاولوا الاتصال بهما مرة أخرى . لا أعتقد أن " جيرترود " كانت تحب " أولجا " أو حتى تكرهها . وكما تتخيل يا " كارل " ... عندما سمعت ذلك كله كنت مفتونا بـ " أولجا " .. مسكونا بها . ما الذى يجعل امرأة شابة مثلها تقطع علاقتها باسرتها وتؤيد الذين أعدموا خالها القيصر وأسرته ؟

حاصرت " جيرترود " بالأسئلة ، ولكنها لم تقل إلا القليل ، باستثناء مناسبة واحدة عندما سألت " أولجا " رأيها فى القيصر .

قالت " أولجا " بحدة : " لقد قتل الفرنسيون والإنجليز ملوكهم ؟

فيم نختلف عنهم ؟ على أية حال كان يمكن إنقاذ حياتهم لو أن أبن عمتنا " چورچ الخامس " قد قل لجوءهم هنا ، ولكنه رفض ، وهكذا قضوا ! "

كانت " جيرترود " مفتونة بهدوء انجلترا . كانت ألمانيا وإيطاليا والبرتغال تحت كعب الفاشست ... تحت سيطرتهم ... وكانت إسبانيا فى مخاض حرب أهلية .. فرنسا على شفا حفرة من حربها الخاصة مع الجمهورية تحت حكومة جبهة شعبية ، وفى حالة خوف دائم من " هتلر " وطابوره الخامس داخل البلاد . أما روسيا فكانت تصفى الرجال الذين صنعوا الثورة ، " الكوادر التى كان يمكن إبادتها فقط خلال الحرب الأهلية " بعبارة " ستالين " الباردة .

الاضطراب في كل مكان . ولكن انجلترا ، سرة أوروبا ، كانت قوية ، وبقيت هادئة . وبعيدا عن كل شي ، استطاعت " جيرترود " أن تستعيد توازنها .

لم يكن لديها أخبار عن والديها أو عن "هيني " شقيقها المحبوب ، سوى أنهم ..... على قيد الحياة ويحاولون الخروج من ألمانيا . كانت تفكر فيهم كثيرا وتتمنى لو استطاعت استخدام شبكة الشعبة الرابعة لكي تنقذ " هيني " ، ولكن " ليفيتسكي " عارض الفكرة على اعتبار أنها خطرة وخاطئة ، وأنها يمكن أن تؤسس سابقة سيئة . وافقت على ما قال ولكنها بكت على انفراد . كان على أحد شواطئ " نورفولك " ، أن أدركت ذات يوم أن أهم شئ في العالم بالنسبة لها هو هزيمة النازيين . حتى لو كان ذلك يعني تنحية كل شئ جانبا في هذه اللحظة ... " هتلر " لابد أن يهزم ! أما " ستالين " فلابد أن ينتظر مؤقتا !

كان " كريستوفر " و " أولجا " مستمتعين لدرجة كبيرة . وذات مرة ، أثناء عطلة نهاية الأسبوع صدمها حديث استمعت إليه أثناء الغداء . كانت أسرة " براون " تستضيف مجموعة من الأصدقاء . رجال من أصحاب النفوذ وزوجاتهم . قدموا " جيرترود " إليهم كصديقة قديمة من " برلين " ، فجأة أصبح الرجال الإنجليز في حالة انتباه ... يسألون أسئلة ودية عن أمجاد الرايخ الثالث . وكانو كلهم بلا استثناء سعداء بإنجازات " هتلر " كما كانوا مقتنعين – كما نقلت " أولجا " إلى لودفيك " في عدة مناسبات – أن النخبة الحاكمة سوف تعقد صفقة مع " هتلر" بغرض عزل الإتحاد السوفيتي .

في الصباح التالي أخبرها " براون " أنهم كانوا يتوقعون زوارا آخرين ولكن من الخارج ، فانزعجت " جيرترود " . كان لها زمن طويل في " اللعبة " يكفي لكي يجعلها تعرف أن الشعبة الرابعة كان يتم تطهيرها .

هل يمكن أن يكون القادمون إلى هنا قد جاءوا لتصفيتها ؟ أم تراهم يحملون لها رسالة من " لودفيك " ؟ لم تستطع أن تفسر خوفها لـ " هيلجا " أو " كريستوفر " . لم تعرف ماذا كانا يظنان بالفعل ، وكان " لودفيك " قد حذرها ألا تشرك أحدا فى شكوكها .

وصل الرجلان بعد الظهر . أدخلوهما الحديقة حيث تناولا الشاى . قدما نفسيهما : " مايكل سبيجل جلاس " و " كلاوس ونتر " . كان الثانى هو الأفضل فى مظهره شيوعى ألمانى فى أوائل العقد الثالث ، متوسط الطول ، حسن المظهر ، يرتدى قميصا أبيض اللون وبنطلونا بنيا . كان يتصرف بتلقائية أكثر من " سبيجل جلاس " الذى كان يرتدى حلة بنية اللون رديئة التفصيل وقميصا أبيض اللون وربطة عنق غريبة الشكل . الشكل التقليدى للعملاء السريين فى أول مهمة رسمية خارجية . الرجال الجدد من الشعبة الرابعة !

كان " سبيجل جلاس " بنفس طول " ونتر " وإن بدا قصيرا لامتلاء جسمه .... يرتدى نظارة طبية سميكة العدسات بإطار مذهب " جيرترود " لم تتكلم معى عنه كثيرا ، ولكن كان واضحا من طريقة كلامها أنها كانت قد وقعت فى غرام " ونتر " . نعم ... كنت محقا !

كان الوجه فى الصورة مألوفا ! كان " ونتر " مايزال صديقا وعندما كنت طفلا كان يصحبنا أحيانا إلى مناسبات خاصة مثل سيرك موسكو القومى .

كان الرجلان قد سافرا من " باريس " إلى " نورفولك " .. فقط لمقابلة " جيرترود " ظل " سبيجل جلاس " يسألها لمدة ساعتين عن " لودفيك . رأيه فى محاكمات موسكو ، الحرب الدائرة فى إسبانيا والموقف فى ألمانيا ... وهكذا . سب " ستالين " ، ولكن كان من الواضح أن

ذلك فخا ، ولذا لم ترد عليه " جيرتردو " بالطريقة نفسها .. ، بل وبخته وهددت بإبلاغ الشعبة فى موسكو .

غادر الرجلان فى المساء نفسة ، رغم أن " ونتر " عاد وقصنى عدة أيام معهم فى " ويلز " .

كان حينذاك أن أدركت " جيرترود " أن " لودفيك " فى خطر . أرسلت إليه رسالة ، وفى ظرف ثمانيه وأربعين ساعة تسلمت تصريحا بالعودة إلى " باريس "

كانت القصة كما روتها " جيرترود " تبدو مملة . كنت أعرف اللهجة الصوت ذاته ، الذى تتكلفه مع الأعزاب عندما تقرر أن تمتعهم بحكايات عن تاريخها لنضالى : يرتفع صوتها قليلا ، تتسع فتحتا الأنف قليلا ، العينان تلمعان ببريق متعصب إلى حد ما ، ولكن ذلك كله ليس سوى قناع !

كنت أعرف ذلك منذ زمن بعيد ، لأن حكاية تروى بهذا الأسلوب لن تكون الحكاية نفسها أبدا . الأحداث ، الأشخاص ، ودورها الخاص ... كل ذلك كان مختلفا دائما ... وطبقا لجمهور المستمعين !

هذه المرة لم يكن هناك سوانا . أنا وهى . ولكنها كانت قد لبست القناع القديم وكنت أعرف أنها كانت تخفى الحقيقة . أية ذكريات كانت تحاول أن تتكتم ؟ ولماذا ؟

حاولت ، ولكن لم يكن من السهل أن أستخرج نفسها الحقيقية من المارة ! لم أكتشف الحقيقة أبدا . ربما لم يكن هناك شئ يمكن اكتشافه . ربما كانت علاقتة بـ " ونتر " هى التى ألقت الضوء ، وبخاصة على تلك الفترة الريفية فى انجلترا ... ربما !

- ٢٠ -

كان « لودڤيك » بمفرده فى شقة « باريس » . لم يكن التواجد منفردا أمرا غير عادى بالنسبة لجاسوس . كان يذهب عادة إلى أماكن خطرة ويقضى أوقاتا طويلة ، وكان يعتقد أحيانا أنه لن يعود منها أبدا ... ولكنه هنا .... فى المطبخ .... يفتقد « فيلكس » و« ليزا » .... سكون الصباح جعله يشعر بالقلق !

حدق بحنين فى صورة لثلاثتهم معا أثناء رحلة تزلج . كان متنكرا فى ملابس دب قطبى . هذه الذكرى جلبت ابتسامة لعينيه ولكنها سرعان ما تلاشت . كان ذلك المكان هو بيتهم الصغير ، ملاذهم من العالم الكئيب . كانوا يشعرون بالسعادة والدفء عندما يكونون هنا معا . جلس يحدق فى السقف الأبيض وهو يشرب قهوته الحقيقة كانت واضحة أمامه ، سواء كانت معتمة أو شفافة ، مجهولة أو جلية . كان « لودڤيك » يفكر عشرون عاما وهو يعتقد أنهم متورطون فى حرب أهلية كونية بين قوى الخير وقوى الشر . إذا لم تنتصر الثورة العالمية فلا بد أن تكون الثورة المضادة حتمية . والاتحاد السوفيتى لن يبقى إلا إذاخرجت إسبانيا وألمانيا وفرنسا - وتلك مجرد بداية - من سلسلة الرأسمالية العالمية بالضبط كما فعل الروس .

منذ عام ١٩٢٨ عندما سحقت المعارضة ، أدرك « لودڤيك » أن الثورة فى الأمبراطورية القيصرية السابقة كانت قد بدأت فى التحلل كان من جنود الحرب الأهلية . وعرف كل ما ينبغى معرفته عن الظروف الصعبة رأى الفاريين وهم يعاقبون ، وشاهد المحاكمات والإعدامات السريعة للسجناء البيض . لم يكن هناك ما يبرر ذلك . ولكن فى ظروف

التصرف ، حتى أولئك الذين يعتبرون أنفسهم يقفون إلى جانب العدل ، يرتكبون أعمالا وحشية . لابد من إنقاذ الثورة مهما كان الثمن ، وتجارب الحرب العالمية الأولى القاتلة قللت قيمة الحياة الإنسانية ... جعلتها رخيصة بالنسبة للجانبين .

كانت تلك المرحلة قد انتهت منذ زمن بعيد . جيوش « تروتسكى » انتصرت فى الحرب الأهلية . ولم يكن هناك سبب لاستمرار القيود على الديمقراطية فى داخل الحزب وخارجه ، وبالتالى فإن الوضع قد أصبح أكثر سوءا . كان رعب « ستالين » يدمر الحزب « البلشفى » القديم . لماذا فشل « لودفيك » ، أستاذ التكتيك والاستراتيجية الذى كان إلمامه بالمنطق محل حسد الشعبة الرابعة كلها ، لماذا فشل فى أن يدرك أن عقله سيصاب بهذا الارتباك عاجلا أو آجلا ؟

لماذا ؟ لأنه كان يفتقر إلى شجاعة أن يصبح مستقلا . أن يقطع الحبل السرى الذى يربطه بالشعبة الرابعة كان احتمالا مرعبا ، وقفزة فى المجهول ، ومع ذلك لم يتأخر طويلا . بدأ يفقد كل التعاطف مع تلك الشخصية الرسمية التى يجسدها .

الضربة الأخيرة لم تأت من « ستالين » وإنما من « ليون بلوم » رفض الزعيم الاشتراكى الفرنسى أن يساعد الجمهورية الإسبانية أصاب « لودفيك » باكتئاب شديد أكثر مما سببته جرائم « ستالين » فى قطالونيا . كان « عدم التدخل » هو الاسم الذى أعطوه لجبنهم . ماذا يمكن أن يتوقع المرء من الإنجليز غير ذلك ؟ الإنجليز الذين كان يسيطر على طبقتهم الحاكمه بعض المعجبين ، سرا وعلنا ، بفرانكو وهتلر وموسولينى .

كانت الصفوة الإنجليزية الحاكمة يائسة من قدرة قوات المحور على القضاء على « البلشفية » ، ولكن « بلوم» كان رجلا مهذبا .. واشتراكيا .

وقد أصبح رئيسا لوزراء فرنسا على رأس جبهة شعبية اكتسحها العمال الفرنسيون فى العام الماضى .

لو ساعدت فرنسا الجمهورية الإسبانية بقدر ما كان « هتلر » و « موسولينى » يساعدان « فرانكو » لانتصرت الجمهورية الإسبانية . ولكن الوقت متأخر جدا الآن ... «بلوم » يقف إلى جانب «عدم التدخل »!

كانت ضربة موجعة ... موجعة ... ألم يفهم « بلوم » أنه قد وقع دون قصد شهادة وفاة الجمهورية الفرنسية أيضا ؟

صباح يوم أحد . الشوارع أسفل الشقة هادئة . السماء زرقاء والشمس تتدفق داخل حجرة المعيشة . من جانبه كان « لودفيك » يفضل ذلك الفندق المتواضع فى « سيلشى» ، الذى مارس منه الكثير من أعماله التنظيمية منذ اثنى عشر عاما تقريبا . وببطء شديد ، وهو مستمر فى تحديقه فى السقف الأبيض برزت إلى ذهنه قائمتان . الأولى تشرح بالتفصيل أسباب الانسحاب :

١ - الثورة قد تدهورت وبدرجة عصية على الإصلاح .

٢ - الجمهورية الإسبانية تخسر الحرب الأهلية و «بلوم» لن يتدخل .

٣ - لو خسرت إسبانيا ، فسوف يغزو « هتلر » الاتحاد السوفيتى ، ولن يكون « ستالين » قادرا على الدفاع عنه .

أما القائمة الثانية فهى خانة خالية فى ذهنه . لا شئ فيها . لا يمكنه أن يجد سببا واحدا يدعوه للاستمرار أكثر من ذلك . أرعبته الفكرة!

هبطت عيناه من السقف ليرى صورة فى إطار موضوعة على مكتبه ، يظهر فيها « ليزا » و « فيلكس » .

كلاهما يرتدى أكثر الملابس أناقة . ولكن الصورة جعلته يضحك . ثم راح فى صمت يفكر فيهما في « موسكو » . كان قد تلقى رسالة من « فريدى » تقول : « كل شئ على ما يرام » ، ولا شئ أكثر من ذلك كيف يمكن أن يكون كل شئ « على ما يرام » ؟

كان صباحا جميلا لدرجة أن « لودڤيك » تخلى عن فكرة عمل فنجان آخر من القهوة لنفسه وقرر أن يذهب لتناول الإفطار فى المقهى . وهو يضع الچاكت على كتفه رن الهاتف . ثم توقف . ثم إن مرة أخرى ...... ثم توقف .... جلس « لودڤيك » وهو يتنهد . الشعبة تحاول الاتصال به ..... لابد أن يرد بعد الرنة الثالثة ، وربما كان «مايكل سبيجل جلاس » ، الرجل الجديد فى السفارة !

كلب صيد ذكى ونشط ومتحمس لأداء واجباته أكثر مما يجب . مجرد رؤيته تصيب « لودڤيك » بالغثيان . ولكنه لم يكن « سبيجل جلاس » بدل ذلك سمع نبرة هادئة . أحد عملائه القدامى .

« لودڤيك ؟ »

« حسن ! لقد عدت إذن . المكان نفسه فى ظرف ساعة ! »

اللقاء مع جيرترود سيكون مؤلما . كان قد استطاع أن يعزلها عن العيون المتلصصة ، ولكن كيف يمكن أن يكون رد فعلها لو أنه أخبرها بقرار القطيعة مع « ستالين » ، ولكى يفعل ما منعها من فعله منذ أسابيع قليلة ؟ قرر أن يبقى صامتا الآن . وهو يقترب من مكان اللقاء بالقرب من « سان ميشيل » ، كان « لودڤيك » يبتسم لنفسه . هو متأكد أنه سيجدها ترتدى بلوزتها الزرقاء الكالحة ونظارتها الدائرية ذات الإطار المفضض . ولكن اتضح أنه لم يكن مصيبا فى التوقعين .

المرأة التى استقبلته ترتدى تنورة أنيقة لونها أصفر شاحب وچاكت يتناسب معها ، ولدهشته ، قبعة زرقاء مصنوعة من القش . النظارة القديمة أيضا استبدلت بشئ آخر لابد أن يكون من أحدث طراز .

« ما رأيك فى مظهرى ؟ »

مرة أ

سألته بعد عناق وقبلات متبادلة على الخدين . هز رأسه .

« عندما التقيتك أول مرة يا « لودڤيك » كنت ترتدى حلة من ثلاث قطع ، تظهر منها ساعة جيب بسلسلة ذهبية مشبوكة فى صديريتك منظر رجل الأعمال ! »

« خطأ ! كنت أستاذا للغات الحديثة فى جامعة « تشارلز » حلة رجل الأعمال كانت شيئا فجا . ولكن ثيابك جميلة ... « أولجا » أم « كريستوفر » ؟ »

« كريستوفر »

« اعتقدت ذلك . الشمس ما تزال طالعة . هل نتمشى على شاطئ النهر قليلا ؟ »

« بالتأكيد »

كان « لودڤيك » فى حيرة إلى حد ما لمظهر « جيرترود » الجديد . هل يمكن أن تكون هذه المرأة نفسها ، هى التى كانت تهدد بالانتحار منذ أشهر قليلة ؟ كانت تبدو مرحة واثقة من نفسها . قرر أن يقترب من الموضوع ببطء .

« خبرينى عن انجلترا »

« أولجا قالت إنك تعرف انجلترا جيدا . وقالت إنك ذهبت إلى لندن للمرة الأولى سنة ١٩٢١ لمساعدة الأيرلنديين ، صحيح ؟ »

« نعم ! كانت تلك فكرة « لينين » . تعرفين أنه كان يتابع انتفاضة عيد الفصح جيدا فى سنة ١٩١٦ ، تعاطف مع الانهزامية الثورية لـ « كونوللى » . عرضت أن أساعد . نعم ! كانت ذلك عندما التقيت « أولجا » للمرة الأولى . كانت فى الثامنة عشرة ، وكانت جميلة .

« أعرف . حكت لى قصتها . وهكذا جندت ابنة أخت دوق روسى كبير لحساب البلشفيك » .

« لم يكن أمرا كبيرا هكذا . كانت بالفعل إلى جانبنا . وكان من الواضح أنها مرشحة . هل تثقين بـ كريستوفر ؟ »

« تماما »

وشحب لونها قليلا .

« واثقة إلى أية درجة ؟ »

وسارا عدة خطوات قبل أن تجيب عن سؤاله .

« أنا واثقة .... واثقة فقط »

« هل نمت معه مرة أخرى ؟ »

« لودفيك ! » .

« ردى على يا جيرترود ! »

« مرة واحدة . كان يوما جميلا مشمسا . والشواطئ خالية تماماً و .... »

« لا أريد التفاصيل .... هل « أولجا » تعرف ؟ »

« لقد أخبرها »

« و ..... »

« جاءت ذات ليلة إلى غرفتى . تحدثنا معا . وكان الأمر عاديا »

« ماذا قالت ؟ »

قالت إن « لودفيك » أرسلك إلينا للراحة وللعلاج والآن قد حصلت على الأمرين . أعتقد أنك لابد أن تغادرينا » . أنا آسفة حقا يا « لودفيك » . لقد تم كل شئ بشكل عفوى . لم أخطط لشئ . لم يكن أحد منا قد نسى تلك الأسابيع فى موسكو بعد وفاة « لينين » .

« أنسى ذلك .. هل حضر أحد من « موسكو » إلى المنزل فى وجودكم ؟ »

« نعم »

تجمد « لودفيك » . كان قد حظر على « أولجا » و « كريستوفر » أن يتصلا بالسفارة و « جيرترود » هناك .

« لماذا ؟ »

« أولجا » قالت إنها تحمل رسالة من شخص ما . قالت ربما كانت منك . وكان لابد أن نراهم . »

« من هو ؟ »

« شخص ما من السفارة فى موسكو . سبيجل جلاس ؟ قال إنه صديقك . علاقة منذ العشرينيات ، وإنه لم يكن قد رآك من

سنوات ...... ويريد فقط أن يعرف أحوالك . سأل مئات الأسئلة عنك . رأيك فى المحاكمات ...... في إسبانيا ..... فى ألمانيا ... كل شئ ! »

« وستالين أيضا ؟ »

« بالطبع ! »

« وهل قلت له شيئا ؟ »

« لا .... ولكنه حاول أن يجعلنى أقول . سب « ستالين » ولكن لا « أولجا » ولا أنا استجبنا له . وهذا هو كل ما حدث . كان بصحبة رفيق ألمانى .. شاب لطيف .... ودود بالفعل . لم يذكر اسمك أبدا . كان يتحدث عن الموقف العالمى وحبه الشديد للطهى فقط . وكان « كريستوفر » معجبا به . »

« وأنت ؟ »

« الألمانى « كلاوس ونتر » أبهجنا جميعا . لودفيك .. أرجوك .. أنا تعبت .. هل يمكن أن نجلس فى مكان ما لنشرب شيئا ؟ »

« المدام تفتقد شاى بعد الظهيرة ؟ »

ضحكت غير مدركة أن « لودفيك » كان فى حالة مزاجية سيئة . كان يعرف أن شيئا ما فيها قد تغير ، وأنها لا تقول الحقيقة كلها . وهذا ما جعله أكثر تصميما على التوغل فى الموضوع . وكان أن فهم أثناء تناولهما الليمون المثلج . وضعها فى امتحان بسيط . فى سياق الحديث عن « ليزا » أشار عرضا إلى « ستالين » كحفار قبر للثورة . كان ذلك بالنسبة لـ « لودفيك » تعليقا بسيطا جدا . لا أحد من أصدقائه المقربين كان يمكن أن يعلق عليه ، ولكن « جير ترود » بدت مراوغة إلى حد ما .

ظل ينظر إليها إلى أن شعرت بأنها مضطرة للكلام .

« لقد أصبح عصرنا البطولى شيئا من الماضى يا « لودفيك » . فهمت ذلك الآن . نحن خياليون ! ليس هذا زمن العواطف النبيلة . لابد من مقاومة الرعب الفاشي . كان كريستوفر و « أولجا » مقتنعين أن الطبقة الإنجليزية الحاكمة سوف تعقد صفقة مع « هتلر » . وهذا يسقط الاتحاد السوفيتى . هذا هو كل ما حصلنا عليه يا « لودفيك » .

« إذن فالخيار الذى نقدمه لعمال العالم هو البربرية أو البربرية ! الرعب الفاشستى أو الرعب الستالينى »

« لا يوجد أى تعادل بين النظامين »

« ربما بالنسبة لك ! ولكن بالنسبة للضحايا .. ؟ هل تفضلين أن تقضى على أيدى جلادى ستالين أم سفاحى « هتلر » ؟

قولى .... أجيبيى !

« يوجد أحيانا وجه شبه بين الأضداد .... إنه الضعف . فلسفة الشفقة هى التى تجمع بينهما . فلسفة لا يمكن أن تقرر أى الضدين الخير وأيهما الشرير . وهذا مالا يمكن قبوله »

من الأفضل أن تكون المقص عن أن تكون الورق .. ! هكذا كان يفكر « لودفيك » . كل ذلك الهراء التى تلقى به كان يأتى مباشرة من رجال الماكينة الجديد فى « موسكو » لقد تم اختراقها بواسطة مذكرة بيروقراطية رسمية . كان قد سمع كلاما مشابها فى إسبانيا النتانة غزت وعى الثوار ! .... وبعمق . نظر فى عينى « جيرترود » ولكنها نقلت

بصرها بعيدا .. « أعـرف يا « جـيـرترود » . صـعب ، ولكن قـولى لى كـل شئ . لا حاجة للتهرب أو أنصاف الأكاذيب . أم تراهم قد أخبروك أننى عـدو حقـا ، وأن عليك أن تقـدمى تقـريرا لهم بعـد كل لقاء مـعى ؟ كنت أعتقد ذلك . حسن ! حظا سعيدا ياصديقتى العزيزة . أتمنى أن تظلى على قيد الحياة ! »

وقام من مكانه كأنه سيغادر . وانطلقت من حلقها صرخة مـخنوقة . « لودڤيك »

بدأت « جيرترود » تبكى . فكرت فى الماضى ، الأخطار المشتركة التى واجهاها . أحاديثهما المـختلسة . وكيف أنقد حياتها أكثر من مرة ، وكيف كان شيئا مهما بالنسبة لها . لم يتغير أبدا .

شاعر فيلسوف فى شرك عمل قذر . التاريخ أجبرهم جميعا على أن يختاروا . لم تستطع أن تقنع نفسها بالقطيعة معه .

جلس «لودفيك » وراح يربت على يدها رغم أنه كـان ثائرا بداخله، غاضبا لاستسلامها ورضوخها لموسكو .

كان ينظر إلى الأمر بشكل شخصى جدا عند أى سقوط أخلاقى لأى من رجـاله ، أو من الذين دربهم وعلمـهم . . . . وداثمـا يلوم نفسه .

تكلمت : « أنا أسفة يا « لودڤيك » ، كانت تحاول أن تهزم دموعها . « لم يقل كل شئ أبدا أمام « أولجا » . مرة وكنا . بمفردنا قال عنك هذه الأشياء المروعة » .

« هل قال إنهم شكوا فى أن أكون أعمل لحساب الألمان ؟ »

« نعم ! »

« إذن الأمر خطير ! والآن أرجوك لا تفزعى ! حاولى أن تتذكرى كل شئ ! » .

وعلى مدى ساعتين بعد ذلك راح يسألها ويستخلص منها المعلومات . وفى نهاية الجلسة ابتسم .... أعداؤه فى موسكو يتخبطون ، لابد أنهم كانوا شديدى الرغبة فى استمالة «جيرترود » .

« وهل قلت لـ « أولجا » شيئا من ذلك ؟ »

هزت رأسها خجلة .

« كنت فى حالة رعب شديد يا « لودفيك » ، ... ولا بد أن أتكلم مع أحد » .

« إن أول درس علمته لك هو أن تتغلبى على الرغبة فى الكلام مع أى شخص . هذه نقطة ضعف قاتلة فى عملنا » قالت : « أولجا » غضبت وقالت أنا أأتمنه على حياتي . ليس أكثر عمالة للألمان منى ومنك ! هذه هى طريقة « ستالين ، التى ستوصل كل شئ إلى نهايته ذات يوم . ساعدتنى كثيرا يا لودفيك »

« بالنسبة لها طيشك لا قيمة له . لقد آمنتها على حياتى أكثر من مرة ، ولكن كان من الخطأ أن تتكلمى . ما كان يجب أن تتكلمى أبدا مع « سبيجل جلاس » . ما كان يجب أبدا أن تتكلمى مع « أولجا » .

لا تفعلى ذلك أبدا مرة أخرى » .

« لن أفعل ! أنا أحبك يا « لودفيك » !

« غلطة أخرى . . . . »

اتخذ وجه « لودفيك » مظهرا متجهما ، مظهر رجل مضطرب

الجـوانح . بعـد ذلك ، كـان لديـه مـوعـد فى تلك الليـة مـع « سبيـجل جلاس » ، رتب أن يلتقى « جيرترود » فى اليوم التالى وسار ببطء عائدا إلى شقته .

« لودفيك » يفكر ... لماذا أجبن ولا أستطيع أن أواجه التاريخ عينا لعين ؟ على مدى أكثر من عام السؤال ذاته يمزقنى .

كيف يمكن أن نعيش وأحلامنا ميته ؟ والحالمون أيضا ؟

باستثناء « تروتسكى » الذى يواصل أحلامه فى منفاه المكسيكى العمل مع « ستالين » لم يعد خيارا جادا . إنه يفكر ويتصرف بأسلوب قطاع الطرق . يدمر كل البدائل المتاحة له بشكل منظم .

إنها أسوأ سنوات عمرى . أسوأ منها تحت حكم القيصر من جوانب كثيرة بالنسبة لنا . « ستالين » قتل وسجن عددا من الثوار أكثر مما فعل « نيقولا » . الرفـاق الألمـان الذين هـربوا مـن « هتلر » أعدمهم « ستالين » . الآن ... طلبت الـ « جـ . ب . يو » * من شرطة « براغ » أن تلقى القبض على السياسى الألمـانى « جير ليفتش » الموجود بالمنفى بتهمة أنه عميل للجستابو . « جيرليفتش » النائب الديمقراطى الاجتماعى السابق ، هو الآن شيوعى منشق ورئيس لجنـة للمثقفين فى « براغ » أنشئت لمعارضة محاكمات « موسكو » .

ستالين يريد أن يصفيه . من هو « سبيجل جلاس » ؟

* الشرطة السرية التى أدمجت فى جهاز الاستخبارات فى سنة ١٩٣٤ (المترجم)

- ٢١ -

إنه لمن دواعي الشرف أن ألتقي بأسطورة يارفيق ! لقد كنت مصدر إلهام لنا جميعا من على البعد ، ولزمن طويل لدرجة أننا كنا نتساءل إن كنت موجودا بالفعل . إن الإنسان ليحتاج إلى أعصاب قوية تتحمل مثل هذا النوع من الوجود الذى نعيشه ، وقدرا كبيرا من الحماس الثورى . ألا توافقنى على ذلك ؟

جلسوا فى مطعم مزدحم . كان « لودفيك » يحاول أن ينظر فى عينى « سپيجل جلاس » اللتين شوهتهما العدستان السميكتان . وكان « سلاتسكى » و« فريدى » قد حذرا « لودفيك » ألا يستهين بذلك الوحش . « سپيجل جلاس » ما زال فى بدلة السفر الخاصة بجهاز الـ « إن - كى - فى - دى » مما أدهش « لودفيك » . لن تجد الاستخبارات الألمانية صعوبة فى التعرف على مهنته .

« أنا موجود ! »

« لودفيك » الذى كان يعرف أن « ليزا » و« فيلكس » قد غادرا الاتحاد السوفيتى منذ أيام قليلة ، وكانا الآن آمنين فى « براغ » ، لم يكن فى حالة حذر . قال « لودفيك » بصوت يعبر عن إحساس بالتفوق وهو يعيد ملء كأس صديقه بالنبيذ : « قل شيئا يا « سبيجل جلاس » ، ما عدد المحاولات التى استهدفت حياة الرفيق « ستالين» ؟

ارتعد « سبيجل جلاس » قليلا ، لكن دون أن يفقد رباطة جأشه . كان ذلك هو السؤال الملغوم المفضل لدى « لودفيك » ، الذى يطرحه على رجال الآلة ! وكان « سبيجل جلاس » فى حيرة .

« تعال يارفيق ! لقد جئت من « موسكو » مباشرة ، وأعتقد أن لديك معلومات من « ييزوف » . حسن ! أريد أن أعرف إذن كيف تحسنون

حراسة قائدنا العظيم المحبوب أيها الرجال .إن سفينتنا قد تتحطم بدون الربان العظيم . والآن قل لى ... كم محاولة ؟ »

« ولا واحدة على قدر علمى ! »

قال « لودفيك » بغضب مصطنع : « ماذا ؟ لقد قرأت عددا من التقارير الداخلية عن إعدامات كثيرة . الخونة الذين حاولوا قتل « ستالين » ، وأنت جالس هنا بهدوء وتقول أن لا شئ من ذلك قد حدث ! انتبه يا سبجيل جلاس ! »

« أعتقد أنك لم تفهمنى ! » وكانت هناك ومضة باردة فى عينى رجل الآلة ! لم أقل إنه لم يكن هناك مخططات . أكرر . لم تكن هناك محاولات فعلية ! »

« ولماذا كان يخطط أولئك المتآمرون لقتله ؟ »

« عملاء للجستابو . متسللون تروتسكيون ! »

« فهمت ! هل جئت من « موسكو » مباشرة إلى هنا ؟ »

« نعم ... بالطبع ! »

« لماذا تكذب ؟ »

شحب وجه « سبيجل جلاس » . ولكنه لم يحول بصره .

كان صوت « لودفيك » يعلو : « أنت تزور لندن » وتقول لأحد قدامى العاملين معى إننى عميل للجستابو . أنت تخالف الانضباط باندفاعك فى أحد منازلنا الآمنة فى انجلترا وتعتقد أن عمليتنا مهلهلة ، لدرجة أن مغامرتك الحقيرة سوف تظل سرية . »

أزاح « سبيجل جلاس » نظارته وفرك عينيه « سنفعل ما يجب فعله وأنت تعرف ذلك جيدا »

« بالطبع ، الأوامر لابد أن تنفذ ، ولا شك أن أوامرك تتضمن تجنيد بعض المرتزقة من الروس البيض . تحتاجهم للقضاء على الشيوعيين القدامى . متى انضممت للحزب ؟ »

« فى سنة ١٩٢٨ »

« لابد أنك تتذكر إذن أيام كان يمكن لأعضاء الحزب أن يتناقشوا معا . بالضبط قبل أن ينضم إليه المرتدون والمخبرون والوصوليون بأعداد كبيرة . تجنيد « ستالين » . « البلشفيك الجدد » .... هكذا كانوا يطلقون على أنفسهم ، وهم يحشون بنادقهم لقتل أولئك الذين صنعوا الثورة . »

كان « سپيجل جلاس » صامتا . كان يعرف أن « لودڤيك » يقول الحقيقة ولكنه لم يستطع أن يفهم تماما دوافع ذلك الرجل الذى كلفته « موسكو » بتصفيته ، وكان الرجل المحكوم عليه يتكلم مرة أخرى .

« ما هى الأوامر التى لديك بخصوصى يا « سبيجل جلاس » ؟ من المؤكد أننى لو كنت عميلا للجستابو فسوف أقتل فورا ... »

« أرجوك يارفيق احاول وسوف تفهم . الأوامر لدى جاءت من أعلى مستوى ..من القمة ... كل المطلوب هو أن تعود إلى « موسكو » مجرد نقل .. لا أكثر ! »

« أعرف لماذا أنقل ستة أقدام تحت الأرض هنا بدلا من « لوبيانكا » ؟ » .

« أرجوك يارفيق ! لابد أن أطلب منك الآن رسميا أن تقدمنى إلى شبكة عملائك فى أوروبا ، خاصة فى ألمانيا وإسبانيا » .

« الشعبة الرابعة تعرف ماذا تريد « موسكو » أن تعرف » .

« نحن فى حاجة إلى المعلومات لكى نحارب البربرية الفاشية »

« نعم ! نعم ! أعـرف ! موسـكو لديها كـل المعلومات . وإذا كان « بيزوف » يريدها فليذهب إلى « سلاتسكى » .

« أنت عنيد ومتعجرف أيها الرفيق « لودڤيك »

« عندما بدأنا هذه المغامرة يا رفيق « سپيجل جلاس » ، كنا نعرف ما نقاتل من أجله . انتصار الاشتراكية فى كل الكرة الأرضية » ، بعضنا ما زال يؤمن بذلك . أنت وأصدقاؤك من الروس البيض لستم سوى عصابة من القتلة . لقد أحضرت لك قصاصة نشرتها الجريدة القيصرية « فاز راچدنيا » التى يصدرونها هنا فى « پاريس » ، بعد محاكمة وإعدام الستة عشر الذين كان من بينهم « زينوڤييڤ » و « كامينييڤ » فى العام الماضى . هل تتذكر المحاكمة ؟ كالعادة .... تم إرسال نسخة إلى مكتب « ستالين » . هل أطلعوك عليها فى « موسكو » ؟ هز « سپيجل جلاس » رأسه .

إذن سأقرأها عليك :

نشكرك يا ستالين !

ستة عشر نذلا ..

ستة عشر قاتلا لأسلافهم .

لقد التأم شملهم بهم ..

ولكن لماذا ستة عشر فقط ؟

اعطنا أربعين .

اعطنا المئات

اصنع جسرا عبر نهر موسكو

جسرا بلا أبراج ولا أضواء هادية ..

جسرا من الجيف السوفيتية ..

وأضف جثتك إلى الآخرين ..

هذا بالضبط ما يفعله زعيمك يا عزيزى الرفيق « سبيجل جلاس » .. باستثناء الجملة الأخيرة .. أليس كذلك ؟

سأله سبيجل جلاس بصوت قاس:« والحزب ؟ ماذا عن الحزب ؟»

« الحزب الذى صنع الثورة مات . زعيمك مشغول بقتل كل رفاق « لينين » . ما تدعوه بالحزب ليس إلا آلة بيروقراطية ضخمة ، بنيت بحيث يمكن لقلة أن تتلاعب بها . حتى هذه الآلة قد تم تخريبها بشدة . كان هناك أكثر من ثلاثمائة ألف مقبوض عليهم فى الأشهر الأربعة الأولى من هذا العام فقط . هل علمت بذلك يا « سبيجل جلاس » ؟ كل ما تعتقدونه أنتم الرجال الجدد هو أنكم أذكياء . لابد أن يختفى الآخرون وتبقون . كلكم يعتقد ذلك ، ولكن قلة قليلة هى التى تنجو . منذ ثلاث سنوات وأنا أتكلم مع « ستالينيين » متحمسين مخلصين مثلك .. معظمهم مات ! »

« ولماذا تظل عضوا حتى الآن يا « لودفيك » ؟

« سؤال جيد ! كنت أعتقد أن انتصارا فى إسبانيا يمكن أن يقلب المد عبر أوروبا كلها ، ولكن إسبانيا ضاعت ! الجيش الأحمر يقف بين « هتلر » وغزو أوروبا . نعم .. ! الجيش الأحمر . لقد تم تجريده من أفضل جنرالاته بفضل قائدك العظيم ، لكنه ما يزال حصننا قويا ضد زحف الفاشية ! » .

« ومـا الذى يجـعلك واثقا من أن « سـتالين » لن يعقد صفقة مع « هتلر » لكى يعزل فرنسا وبريطانيا ؟ »

« إنه يحاول بكل جـهده ، كـما يعـرف كـلانا ، ولكنه سـيفـشل « ستالين » لم يفهم أبدا المعنى الحقيقى للفاشية »

رغمـا عنه ، نظر « سـيـيجل جـلاس » إلى خصـمه نظرة إعجـاب «لودڤيك » تنهد .. ولا تظن أنهم سوف يتركونك بعد أن نفذت لهم تلك المهام القذرة ! المسألة كلها واضحة الآن . « ياجودا » يتخلص من جماعة من البلشڤيك القدامي ، ثم يحاكم على أنه عميل فاشستى ! يحل محله « ييزوڤ » الذى يريد أن يقتل المزيد من الكلاب الضالة . بعد ذلك يتم إعـدام « ييزوڤ » ومسـاعديه . صـلى لكى تقوم حـرب يا « سييجل جـلاس » ، إنها الشئ الوحيد الذى يمكن أن ينقذك من الهلاك ! أدفع الحساب ! أنا ذاهب ! »

وانصـرف « لودڤـيك » وجلس « سـيـيـجل جـلاس » منتظرا النادل ليحضر له الفاتورة . كانت عيناه تلمعان بالدهشة فى موسكو ... كانوا أحيانا يحضرون أمامه السجناء بعد ضربهم وبعد أن يكونوا قد فقدوا القدرة على الكلام . يقفون أمامه والدم يـنزف من جـباهـهم .. وكان « سييجل جلاس » يبدو مبتهجا . أثارة طيف الخيال. ألعاب نارية تنفجر الآن فى رأسه . بدأ يطير . كان يود أن يرى «لودڤيك » في ذلك الوضع . كان يريد أن يسمع هسيس السياط ، يريد أن يذل الرجل الذى انشق عليه منذ لحظات .

وقال لنفسه « لا يوجد مخبأ له على هذا الكوكب ! » .

- ٢٢ -

عاد « ساو » إلى شقته فى شارع « موريللو » أكثر بؤسا . كان حزينا لفقد صديقين عزيزين ، مصدوما لمعرفة أنهما كانا قد أصبحا تجارا للرقيق الأبيض على نطاق واسع ! أعطاه بعض حاشية الرئيس اسم رجل شرطة يعرف من يقتل من لأتفه الأسباب فى روسيا الجديدة . وقبل أن يغادر « موسكو » أعطوه أسماء القتلة . لقاء ألف دولار قال له الشرطى نفسه إنه يمكن العثور عليهم .. وإعدامهم . هز ساو كتفيه .. قتيلان آخران لن يحلا المشكلة ! لماذا قتلوا أصدقائى ؟

فى البداية كان « ساو » يعتقد أن رجل الشرطة كان يتهرب من السؤال ، ولكن الأمر لم يكن كذلك . كان فقط ، يريد أن يشرح لـ « ساو » كيف تسير الأمور فى « موسكو » .

« كل شئ للبيع يا سيد « ساو » هل أخبرك بشئ ستضحك له ؟ يوجد هنا مخرج سينمائى أمريكى . استطاع أن يحصل على بعض الملابس الرسمية القديمة الخاصة بالـ « ك . جـ . ب » وطلب تصريحا بتصوير فيلم فى « لوبيانكا » فى البداية أعتقد رؤسائى أنه كان سياسيا ورفضوا . عرض عليهم الأمريكى سيناريو الفيلم ، كان فيلما جنسيا . كلهم ضحكوا .. ! ولكنهم الآن يتفاوضون ، منذ ثلاثة أسابيع ، على الثمن .

القصة الحقيقية ظهرت في النهاية كان القتلة ينتمون إلى جماعة من تجار السوق الحرة . أخصائيو العلاج بالصدمات الذين أسسوا تجارة ضخمة فى الرقيق الأبيض . اللحم البشرى ! . كانوا يصدرون الداعرات

الروسيات إلى تايلاند ودول الخليج ، بغايا التليفون البلطيقيات كان عليهن طلب كبير في شمال أوربا ، والأولاد الرومانيون كانوا مرغوبين في كل أوروبا الغربية.

كان لدى شركاء « ساو » المقتولين مؤسسة منافسة ، وكانت في طبيعتها أكثر تعددية من الناحية الثقافية . كانوا يستخدمون الشبكة الڤيتناميه القديمة . ويعملون بتصدير اللحم البشرى من كافة جمهوريات الاتحاد السوڤيتى السابقة . أصبحت التناقضات متفجرة وبدلا من الاعتماد على السوق ، أصبح التجار الروس يستخدمون القانون لحسابهم . إلا أن خسارة « ساو » المعنوية تم تعويضها جيدا ، بما عاد إليه من أرباح باهظة كوسيط في ثلاث صفقات مربحة ، تشمل روسيا والصين وإيران . كلها كانت تتضمن بيع وشراء الصواريخ . نصيب « ساو » الذى بلغ مليوني دولار تقريبا ، كان في أمان في أحد بنوك « لوزان » ، وكان قد وصل ليجد رسالة من مطلقته « مارى لويز » تخبره بأنها قد أخذت الأطفال إلى منزل والدها في « بريتاني » ، مع تعليمات بألا يتوانى في « باريس » ، وأن يلحق بهم على وجه السرعة.

اتصل بها « ساو » تليفونيا وتكلم مع الأولاد ووعدهم بأنه سيذهب إليهم في ظرف أيام قليلة . رغم طلاقهما كانت العلاقات ودية ، على الأقل لأن والد زوجته الضابط الكبير في الاستخبارات الحربية الفرنسية ، كان هو الواسطة التي تساعد « ساو » لكي يجد لنفسه مكانا في تجارة السلاح .

بعد أسبوع لم يكن قد استطاع أن يخلع نفسه من « باريس » بدأ يذهب إلى أماكن العزوبة القديمة بحثا عن أصدقاء ڤيتناميين قدامى ولكنه ، على نحو غريب ، لم ينجح . وبدلا من ذلك كان يجلس صامتا في

مطعم ڤيتنامى قديم يتحدث مع العمال . كان قد حاول أن يتصل تليفونيا بـ « ڤلادى » عدة مرات ولكنه لم يجده بالمنزل أبدا . كان بوده أن يضع نفسه فى أول طائرة إلى « برلين » ولكنه يشعر بالتزام بواجب الذهاب إلى أسرته فى « بريتانى » .

قبل أن يذهب إلى المحطة مباشرة . حاول الاتصال بـ « ڤلادى » مرة أخرى . وفى هذه المرة كان حظه أفضل .

« تحياتى يا صديقى ! »

« ساو ! أين أنت ؟ »

« لقد رجعت . معى الملفات التى تريدها . لم أحصل عليها بثمن زهيد يا « ڤلادى » كما تعرف ! أعتقد أنها ما تريد . موجودة معى . كنت أود الحضور إلى « برلين » ولكن « مارى لويز » والأطفال فى انتظارى فى « بريتانى » .

« لست فى عجلة ! كنت أنوى المجئ إلى « باريس » فى الشهر القادم و ... »

« فكرة جيدة : نقضى الكريسماس معا . والدى سيحضر من « هيو » . وهو دائما يود أن يلتقى بك . اتفقنا ؟ »

« سأسجل ذلك فى مفكرتى ! »

« ڤلادى ! »

« نعم ! »

« هل تذكر أيامنا الباكرة فى درسدن ؟ »

« بكل تأكيد ! »

« مـرة وأنا فى حـالة من القـومـيـة المـتطرفـة ، كنت أحكى لك عن الأخـوات « ترونج » وكـيف قـدن حـركة مـقـاومـة فى سنة ٤٠ مـيـلادية ، طردت الغزاه الصينيين . وأتذكر أنك ضحكت وقلت : أنتم الڤيتناميون تتحدثون دائمـا عن الأخـوات « ترونج » البائـسات . لماذا لا تتحدثون عن العـام التـالى لذلك ، عـنـدمـا عـاد الصـيـنـيـون ؟ » « ڤـلادى » ضحـك على الجانب الآخر وقاطع صديقه : ولماذا تخفى حقيقة أن الأخـوات « ترونج » ألقين بأنفسـهن فى النهـر بعد عـامين واختفين تمـامـا ؟ .. أنكر كـيف أنك صـدمت فى البـداية ثم بـدأت تضحك بعد ذلك . على أية حال ما الذى يجعلك تتحدث عن ذلك الآن ؟ »

« كنت أفكر فيك وفى الأخـوات « ترونج » منذ أيام قليلة وأنا جـالس على انفراد ، أتناول طعامى فى مطعم فيتنامى .... ووجدتنى أضحك . »

كان فى نبرات « ساو » شئ ما نبه « ڤلادى » إلى أن صديقه القديم لم يعد الشخص نفسه الملئ بالحماس .

« ساو ! هل هناك شئ ؟ »

« لا أعرف يا « ڤلادى » ، لقد سئمت أن أكون هكذا سهل التكيف ، متقبلا لكل شئ أى شئ . لم أعد أستمتع بكونى ڤيتناميا جوالا »

« لا أفهم ! »

« لقد كـونت ثروة كبيرة هنا . أسـتطيع أن أعـود إلى « هـيـو » أو «هانوى » وأعـيـش مـا تبـقى لى من سنـوات فى سـلام وطمـأنينة هل تفهمنى ؟ »

« بالطبع . ! وماذا يمنعك ؟ »

« الأولاد ! »

« هل أنت متأكد أنك لا تخدع نفسك ؟ تريد أن ترجع ولا تريد أن ترجع ! بعد « باريس » ... هل يمكنك فعلا أن تعيش في « هانوى » ؟ كن أمينا مع نفسك ! »

« ربما كنت محقا ! ولكنني لا أريد أن أدفن هنا يا « ڤلادى » . أريد أن أعود إلى أسلافي »

« آه ! الآن فهمت . تريد أن تعود للأخوات « ترونج » ، ولكنهن دفن أنفسهن في نهر ! »

« لماذا تسخر من صديقك القديم يا « ڤلادى » . أنت لا تفهمني ، لأن أمثالكم الذين يعيشون في بلادهم لا يعرفون كيف هي ! » « كم أنت مخطئ يا « ساو » ! أنا ظاهرة بلا جذور ولدت في فرنسا على ما أعتقد . طفولتي الباكرة في روسيا . نقلت وزرعت في جمهورية ألمانيا الديمقراطية وأنا في الثامنة . والآن ذهبت ألمانيا الديمقراطية هل أنا ألماني ، روسي ، يهودي ، غير يهودي ... أم ماذا ؟ ليس لديك مشكلات من هذا القبيل لا أعرف مم تشكو .. ؟ لو كنت في مكانك لقضيت نصف العام في ڤيتنام والباقي في أوروبا . لا تدعى أنك رجل أسرة ! أنت لست في « باريس » يا « ساو » ! »

« لي ابن في هانوى ! »

وللحظات قليلة كان « ڤلادى » في حالة ذهول وصمت : !

« كم عمره ؟ »

« ثلاث سنوات »

« والأم ؟ »

« ماذا عنها ؟ »

« من هى ؟ »

« امرأة ڤيتنامية ، وأنا أحبها يا « ڤلادى » ! »

« وهذا يعقد الأمور . دعنى أعيد صياغة نصيحتى . أعتقد أنك لابد أن تقضى معظم وقتك فى « هانوى » ، وبضعة أشهر كل صيف فى ما سوف يصبح « ڤيللا مارى لويز » فى « بروڤنس » .

هذا بالطبع إذا كانت تريد أن تظل صديقة ! .. » وإلا عليك بشقتك فى باريس » .

« لا داعى لهذه السخرية ! »

« أنا واقعى يا « ساو »

« هل تعتقد أننى يجب أن أخبر « مارى لويز » الآن ؟ »

« بالطبع ! لماذا تؤخر المصيبة ؟ سوف تشعر بتحسن . »

« أنت لم تحب « مارى لويز » أبدا يا « ڤلادى » .. أليس كذلك ؟»

« التقيتها مرة واحدة »

« أجب عن سؤالى .. »

« لا ! »

« لمــاذا ؟ »

« لم أقتنع أبدا أنها مهتمة بك فعلا ! كانت سكرتيرتك . « ساو » أنت أخذتها معك إلى الهند الصينية فى رحلات عمل . جعلتها تشاهد المعالم هناك . بما فى ذلك أرصدتك الضخمة فى البنك السويسرى حدث ما كان لا بد أن يحدث . فى البداية أصبحت سكرتيرتك للسرير . ثم زوجتك ! النموذج ليس أصيلا ! بالطبع هناك حالات تصلح بها فيها الترتيبات الجديدة » .

« أعتقد أنك مخطئ يا « ڤلادى » . كانت مترددة جدا فى البداية وكان على أن أعمل جاهدا .... كان على أن أتبعها مثل .... »

« مثلما يتبع الذباب الروث ! »

« ڤلادى » .. أنت لست منصفا معها ! »

« لقد أنجبت طفلا فى « هانوى » ، وقعت فى حب أمه ، وأنا لست منصفا مع زوجتك الفرنسية . أرجوك يا « ساو » لا تفقد قدرتك على رؤية الأشياء من منظورها الصحيح » .

بدأ « ساو » يضحك . «لقد أبهجتنى .. أريد أن أطير إلى برلين ! »

« لا تكن جبانا يا « ساو » . اذهب إلى « بريتانى » يا صديقى واجعلها ديان بيان فو الخاصة بك .. »

« أنا أحب أولادى يا « ڤلادى » !

« وهم يحبون هداياك ! وحيث إنهم لا يرونك كثيرا ، فلن يشعروا بالقرب منك . ولكن الآباء الذين يقومون بدور « سانتا كلوز » على مدار العام يصبحون فكرة تستحوذ على أطفالهم . لذلك قد أكون مخطئا . عندما تغادرهم سوف يصيبهم الجنون ، ويتمنون أن يعيشوا معك فى « هانوى » . وهذا ممكن . هل « حبك الجديد » فى « هانوى » مستعدة لأن تكون أما لهذين الأثنين أيضا ؟ »

« لا أعرف ! لم أسألها لأن الفكرة لم تطرأ لى أبدا .. وأنا واثق أن ذلك سيكون رائعا ! »

« حسن ! إذن اذهب إلى بريتانى ! »

« هل وقعت مرة فى الحب يا « ڤلادى » أقصد الحب فعلا ! أم تراه ما زال مفهوما برجوازيا مجردا ؟ »

« ساو .. أنت أحمق ! لقد أحببت « هيلجا » وما زلت ! »

« إذن أنت تعرف شعورى نحو « لينا » .

« هذا إذن اسمها »

« نعم ! حتى وأنا أتكلم معك يا « ڤلادى » أراها أمامى ..»

« ولماذا لم تقل لى ذلك من قبل ؟ »

« لا أعرف .. لم أكن أريدك أن تعتقد أن علاقتى بـ « لينا » كانت فاسدة على أى نحو ، ولا بد أنك ... حسن ! أنت تعرف ما أقصد .. » .

« نعم ! وأعتقد أنك أحمق كبير ! من الأفضل أن تذهب لتلحق بالقطار المتجة إلى « بريتانى » . اتصل بى تليفونيا عندما تعود ، واحك لى كيف كان كل شئ ... وهناك شئ آخر يا « ساو » ..

« نعم ! »

« أنت مازلت في قبضة مرض الحب ... أليس كذلك ؟ »

« بلى ! »

« انتظر دقيقة إذن ... سأقرأ عليك شيئا ... ساو ! »

« نعم » .

« استمع إلى أنشودة الشاعر »

« أنا استمع . . . »

«هل يجنح الخيال أكثر نحو امرأة مكتسبة أم امرأة مفقـودة ؟ إن كان إلى المفقودة ، فلتعترف بأنك قد خرجت من متاهة كبرى .. بدافع من كبرياء ، وجبن ، وفكرة غبية ، وشئ ما كان يسمى الضمير ذات يوم .. وأن الذكرى إذا عادت تكون الشمس فى حالة كسوف ، والنهار مظلم ! »

« رائع « ياڤلادى » ! من الشاعر ؟ « برخت » ؟ »

« لا .. لا .. إنه شاعر أيرلندى .. ييتس ! »

« هل تعتقد أنه مترجم إلى الڤيتنامية ؟ »

« لست متأكدا ! ولكن الترجمة الصينية جيدة ! »

« سوف أرسل إلى « لينا » مجموعته بالإنجليزية ، وهي سوف تترجمها إلى الڤيتنامية لدار النشر الجديدة الخاصة بنا »

« ساو ! آمرك بأن تتوقف عن الحلم . إلى « بريتانى » يا صديقى .... وداعا ! »

« تشاو « ڤلادى » ! شكرا ! »

لعدة دقائق لم يتحرك « ساو » من الكرسى الذى كان قد كمن فيه وهو يكلم « برلين » . كان منزعجا لأن « ڤلادى » قال إن « مارى لويز » قد تزوجته من أجل ثروته . لم يكن لدى « ڤلادى » فكرة عن الأوقات الجميلة التى قضياها معا . لم يستطع أن يدرك كيف كانت العلاقة جيدة فى الفراش ! شئ كان مفتقدا فى علاقتهما . كانت « مارى لويز » ترى « ساو » رجل أعمال ناجحا ... ولا أكثر من ذلك ... و« ساو » كان يشعر أنها لم تفهم أبدا عمق اشمئزازه الداخلى من عمله . عندما كان يشكو من الحياة التى اضطرته الظروف أن يحياها كانت تبدى قليلا من التعاطف .... لم يكن لديها فكرة عن أى شئ يتكلم فيه . وكان ذلك هو الذى أدى إلى طلاق سلمى ، وإلى تسوية مالية سلمية بالقدر نفسه . والد مارى تأكد أن ابنته ستعيش فى رغد !

- ٢٣ -

لم أكن أود أبدأ أن أصبح عبئا على حياتك « ياكارل » ولهذا السبب كنت أحاول دائما أن أنأى بك عما أصبح نهجنا فى الحياة أنا «وهيلجا» بعد أن أسسنا لجنة للعمل من أجل ألمانيا الديمقراطية كان من الصعب علينا أن نعود مـرة أخـرى للحيـاة العـادية . فى التسـعينات ، حـقق كـتابى « مانيفستو من أجل ألمانيا جديدة » نجاحا سريا بالغـا ، رغم أنه لم يكن بمثــل انتشار كتاب « البديل » د « باهرو » .

كـان يبدو تطورا فى قـدرة طبيـعية على كيـفيـة تطوير هذا النظام البائس ، وكان أصعب قليلا مما يتخيل الناس .

أصـبـحت حـيـاتنا غـيـر مـتـرابطة .... رغم تكرار الاضطرابات والأشياء اللانظامية إلا أن أسلوبا معينا بدأ فى التبلور .

بدت حياتنــا خاضعة لدورات مــن المصادفات ولكنهــا كانت فى الحقيقة تكتسب تماسكا غريبا. أصبحنا ممثلين محترفين ؟ ولدهشة زملائى وطلابى من غير السياسيين فى « همبولت » كان يبدو أننى قد تغيرت . وكما قالوا لى ، أصبح سلوكى أكثر امتثالا .

سافرت أنا وأمك كثيرا إلى الغرب * هل تتذكر ؟ لاأعتقد أنك كنت تجد متعة كبيرة فى ذلك . كنت تود دائما أن تكــون مثل بقية الأطفال . هل أنا محق يا « كارل » ؟ أم تراك كنت تفهم كل شىء وأصبحت شديد الرغبة فى أن تصبح مواطنــا عاديا فى الغرب ؟ أتمنى أحيانا أن تتكلم عن ذلك كله قبل أن أموت .

* المقصود ألمانيا الغربية ، حينذاك (المترجم) .

كـان ذلك في مـارس من عـام ١٩٨٤ عنندمـا اتجـهت جـدتك نحـو الأسوأ ! « أشعر بالتعاسة « ياڤلادى » أنا مستعدة لأن أموت ! » كانت جيرترود راقدة في الفراش . وفى الخارج كانت براعم الربيع الأولى قد بدأت تظهر على أشجار الزيزفون . كـان الطبيب قد حضر وحقنها بمسكن للألم . وكنت أنت « وهيلجا » في « درسدن » لقضاء نهاية الأسبوع .

جلست على كرسى أنظر إلى المرأة الذابلة دقيقة الحجم . كانت ملازمة للفراش منذ عام تقريبا وأصبح من الصعب التعرف عليها .. « أنا أعرف ياأمى ! »

منذ أن عقدنا سلما بيننا منذ ثلاثين عاما تقريبا ، كانت الهدنة مستمرة هل تعرف أنها كانت مـؤيدة لنشاط لجنة ألمانيا الديمقراطية ، وأن كل الأعضاء الجدد كانوا يحبونها ؟

كـان لدينا شبكة مكونة من أربعـمـائة عنصر من المـؤيدين لنا ، منتشرين في أرجاء البلاد . كان معظمـهم مـن الشباب الشيـوعى الذى ترك الحزب . وبعضهم كان من أبناء كبار المسئولين الحزبيين .

كان كل هم « جيرترود » هو أن تعرفهم جميعا . وهى التى كتبت المانيفستو العام الشهير الذى أكسبهم شهرة سيئة داخل صفوف أجهزة الأمن والاستخبارات ، وقـدرا كبـيرا من الاحترام فى ألمانيا الأخرى بين الخضر والجماعات التى على يسار الحزب الديمقراطى الاجتماعى والذى أقام – طبعا – علاقات جيدة مع هونيكر وجماعات السلطة .

عندما هنأناها على أسلوبها الرائع وقدرتها على المناظرة والتنفيذ ، اكتسى وجهها تعبـيرات البطـولة والإقدام والحـق أقـول « ياكارل » إننى كنت أشعر أحيانا بأن لجنة ألمانيا الديمقراطية كانت على وشك الأنهيار بسبب القصور الذاتى والإجهاد الشديد . دائماً كانت هى المنقذ ، بأحاديثها المشجعة وقدرتها على إيجاد المطابع التى يمكن أن

تنشر المواد المحظورة فى مقابل عملة ألمانيا الغربية ، ورفضها قبول الهزيمة » .

لن أعيش طويلا « ياڤلادى » تذكرنى بعطف ، ولاتنسى ! »

« كيف تفكرين فى شىء كهذا ياأمى ؟ »

« كل مافعلته كان من أجل القضية « ياڤلادى » وهذا يجب ألا تنساه أبداً » .

موجة رعدية مفاجئة تبعتها عاصفة ممطرة كانت تضرب ألواح النوافذ بدا ذلك وكأنه يعطي تأكيدا مقدسا لرسالة «جيرترود» .

ضوء الشمس الصباحي حل محله ضوء رمادى كئيب تسلل إلى غرفة النوم .

وفجأة ... تنبهت عيناها ورأيتها تحدق فىَّ .

« هذه هى أمطار الربيع ياأمى ، وهى دائما تذكرنى بـ « موسكو » غمغمت .. « نعم ! موسكو ! تعرف ياڤلادى » ... موسكو تذكرنى دائما بـ « لودڤيك » الصغير كان من عاداته أن يستمتع وأن يواسى ويشجع وينصح ويكتشف ماحدث فى جلسة سرية للمكتب السياسى .. وبعد ذلك كنا نضحك دائما ... مازلت أرى عينيه تلمعان . الثلج يتساقط فى الخارج ... ولكن فى الداخل .... "

وأغمضت عينيها . مشيت على أطراف أصابعى حتى نهاية الغرفة .. وفى الحال فتحت عينيها وبدأت تكلمني قبل أن تكتشف أننى قد اختفيت. عادت إلى أيام طفولتى ، و " موسكو " أيام الحرب ، عندما كان كل واحد يعرف أن أهم شى فى العالم هو هزيمة الفاشية . لاشىء آخر كان له أهمية . لم يظل ذهنها مركزا على مرحلة بعينها ، ولكنه بدأ يجول . عينا " لودڤيك" الزرقاوان المبتسمتان ! وبدأت « جيرترود » تبكى الذكريات .

" سامحنى يا لودڤيك " ... سامحنى ! "

" أمى ... أعتقد أنك نمت ... من الذى يجب أن يسامحك ؟ "

" أبوك "

" لماذا ؟ "

" ماكان يجب أن أبقى على قيد الحياة ! "

" أمى ... هل تخبريننى بشىء ؟ "

هزت رأسها بضعف .

هل كان " لودڤيك " أبى فعلا ؟ "

كان من الواضح لى أننى قد آلمتها بشدة ... كأننى لدغتها ! عاد الوجه العجوز إلى الحياة للمرة الأخيرة .

" لماذا ؟ لماذا تسألنى الآن ؟ "

" عندما نظرت فى المرآة هذا الصباح رأيتك... ولكن ليس لودڤيك " " ولد غبى ! كل ما نعرف هو أنك لا بد أن تكون صورة طبق الأصل من " أبو لودڤيك " . لك حاجبا أبى ، يوم ولدت نظرت فى وجهك ورأيت " لودڤيك " ينظر إلىّ "

صدقتها ! كان فى طريقه كلامها شىء أقنعنى بأنها كانت تقول الحقيقة أمسكت يدها الصغيرة الذابلة وقبلتها .. وهذه المرة كانت قد نامت بالفعل ! عندما أعدت يدها بهدوء إلى الفراش ، شعرت بالحياة تنحسر عنها . سارعت إلى التليفون لأستدعى الطبيب .

ماتت قبل عيد ميلادها الرابع والثمانين بأسبوعين بالضبط ! كنت أحدق فى الغرفة الجرداء . خالية من اللون ما عدا الستائر الرمادية الداكنة

التى تغطى اطر النوافذ ، تلك الستائر التي كانت تحبها لأنها تذكرها بغرفة نومها فى منزل والديها فى " ميونخ " كانت بالضبط من نفس عمر ألمانيا الديمقراطية ، وكانت قد فقدت كثيرا من لونها ... ولكنها ماكانت لتتخلص منها أبدا !

وكأن الطبيب كان قد انصرف منذ ساعات طويلة . كنت أجلس فى غرفتها أنظر إلى جسدها المسجى . صور من طفولتى وأيامنا الجميلة التى نعمنا بها معا تمر بارقة أمامى . شعرت بالذنب . ربما كانت قسوة بالغة أن أسألها عن أبى ، أن أنكأ جراحها . ولكننى كنت شغوفا بأن أعرف الحقيقة .

كنت أحدق فى الصور المعلقة على الحائط . من بينها صورة كبيرة لى وأنا بين ذراعى " جيرترود " . الصورة نفسها التي كنت تضحك عندما كنت تراها دائما وأنت طفل . كان عمرى ثلاثة شهور . قبل أن تجىء إلى " موسكو " مباشرة . كنت أحب صورة الأسرة القديمة منذ أيام طفولتها فى " ميونخ " . الأجداد والخال الذى لم أره . صورة لى فى الثامنة عشر أبدو فيها جاد الملامح ، وأرتدى ربطة عنق وچاكت أنيقا .

بعد الظهر جاء مجهزو الموتى للدفن وأخذوا " جيرترود " . وحيدا فى الشقة بكيت لأول مرة . وفى تلك الليلة جافانى النوم .

قمت من الفراش ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهابا . كنت أنت " وهيلجا " فى الطريق قادمين من " درسدن " ، ولكن وصولكما سيكون فى الصباح . رجعت إلى غرفة " جيرترود " .

بعد ساعة ، كنت ما أزال مرهقا غارقا فى مكتب " جيرترود " الصغير الضيق . حاولت أن أفتح الدرج السرى ولكنه كان مايزال مغلقا بالمفتاح . هكذا كان دائما . منطقة محظورة . فتحته عنوة ودقات قلبى تتسارع . أى كنز سأجد ؟! أول شىء وجدته ... صورة فوتوغرافية

قديمة وخطابات في مغلفات حال لونها بفعل الزمن . الصورة لم تكن مألوفة . " جيرترود " و " لودفيك " مشبوكا الذراعين أمام مقهى قديم .

أواخر العشرينيات ؟ " برلين " أم " فيينا " ؟ مستحيل معرفة أيهما ! بدأت أنظر في الخطابات متمهلا . بعضها من أم " جيرترود " واحد من " ليزا " بتاريخ ١٩٢٥ ليس به شيء مهم . ثم وجدت رسالة موجهة إليّ . هذا خطها . كانت قد كتبتها منذ ست سنوات .

ولدى العزيز

ستجد هذه الرسالة بعد أن أموت . كل ما يخصني موجود هنا في هذه الشقة . وهو الآن ملكك . الشيء الوحيد الذي أعتز به هو بروش صغير كان في البداية ملكا لجدتي ثم لأمي فيما بعد . إن كان لك ابنة اعطه لها ، وإلا فلتحتفظ به لأطفال " كارل " . لا أريد أن يذهب خارج أسرتي . أحيانا أعتقد أن حياتي كانت فشلا ذريعا . كل شي ضاع بلا أمل . كنت أظن أن الحياة بعد الحرب ستكون مختلفة حدث ذلك إلى حدما .. ولكنه لا يكفي .

عندما أفكر الآن في السنوات التي تلت الثورة ، السنوات التي كنت لاجئة فيها إلى بلاد أخرى ..... والتي كانت فترة اختبار موجعة لكل الاشتراكيين عندما كان الظلم والجوع مخيمين ، تلك كانت أغني ... وأصعب سنوات عمري . هل تفهم " يافلادي " ؟ أتكلم الآن عني وأنا في العشرينيات من عمري . لا يهم كيف كانت ظروفنا صعبة ، فقد كانت أرواحنا قادرة على التكيف ورؤانا متقدة . عالمنا الآن رمادي ، ورغم ذلك أفضل هذه الكآبة الرمادية على ما هو هناك على الجانب الآخر من الحائط المرعب . لا أستطيع أن أوطد نفسي على قوانين الغابة الرأسمالية والبقاء للأغني ! ربما غادرتنا الرمادية يوما ما ، وتستطيع

أن تبنى أنت وأصدقاؤك عالما أفضل . أقول ربما ! فأنا لا أعرف . لم أعد متأكدة ... انتهت الثقـــة العميـــاء بالمستقبل وخلفت مكانها فراغا ... هوة كبيرة يمكن أن تمتلىء بأى شىء ، القضية الاشتراكية أحدثت ضررا كثيرا لنفسها وللآخرين ، لدرجة أن الجرح أصبح شعارنا الأكثر صلة بالحــالة . هل تذكر تلك الكلمات ؟ قلتها أنت فى أحد اجتماعات لجنة من أجل ألمانيا " ديمقراطية " واختلفت معك علنا ، ولكننى كنت فخورة بك بينى وبين نفسى . أبوك كان مسرورا . أشك أن تكون على صواب ، ولكننى أتمنى أن تكون مخطئا . على أية حال ، أنا أعرف أنك ستفعل ما هو مفيد للحركة .

لقد أخبرتك بالفعل كيف أشعر بأننى قريبة من " هيلجا " و " كارل " كنت محقة بالنسبة لها ، وأتمنى أن تكون قد غفرت لى كل تجاوزاتى السابقة . إنها شخص رائع ، وأتمنى أن تظلوا جميعا سعداء ، بصرف النظر عما يحدث فى العالم الرمادى الخارجى . " كارل " ولد شديد الذكاء ، وإن كنت أعتقد أن وجودك فيه إكراه وقسر بالنسبة له . أفكارك لا تعجبه ، ربما لذلك تميل إلى عقابه . لم أتدخل أبدا عندما كنت على قيد الحياة إلا فى مناسبة واحدة . قلت لـ " هيلجا " إنها لابد أن تتكلم معك وتطلب منك ألا تقمعه كما كنت تفعل . وأعتقد أنها تصورتنى حمقاء تتدخل فيما لا يعنيها . لم تحبنى أبدا ...! هل أحببتنى يا " ڤلادى " ؟ ومع ذلك أنا لا ألومها . أتذكر مرة عندما تسللت إلى الشقة بهدوء ولم يكن أيكما على علم بذلك ، سمعتك تدافع عنى ، و " هيلجا " تقول " جيرترود ستموت والحائط فى دماغها " ، وضحكت أنت . ضحكت بهدوء . والآن وقد قضيت ، يمكنك أن تضحك بلا خوف ، قهقه فلن أسمعك ! لاأريد لهذا الخطاب الذى هو آخر اتصال بينى وبينك أن يكون مليئا بالمرارة وتبادل الاتهامات . لقد أحببتك دائما ... وكثيرا جدا ،

وكل شيء كنت أفعله .... أكرر ... كل شيء كان بقصد حمايتك ولضمان أنك ستعيش سعيدا . لو أنني لم أحمل بك لكان تصرفي مختلفا ، ولربما كنت قد مت مع « لودفيك » ، أو بعد ذلك بفترة وجيزة . ولكنني كان لابد أن أعيش لأنك كنت في بطني .

مارأيك « يا ڤلادي » ؟ هل تفضل ألا تكون قد ولدت ؟ أعرف أنك « وهيلجا » كنتما تنظران إلى كحزبية مأجورة ، ولكنني لم أكن غير ناقدة . لم أكن مؤيدة ولا موافقة على طول الخط . كنتما تطلبان الرفض الكامل للروح وللمنطق ولممارسات الحزب . وذلك ماكنت أعارضه بشدة . والآن سوف أقول لك لماذا ... منذ قيام جمهورية ألمانيا الديمقراطية وإعادة تأسيس الحزب ، كان هناك شريحتان تقتتلان للاستيلاء على روحه . الكوزمو بوليتان كما كانوا يطلقون علينا والمقصود بهم اليهود والألمان الذين جاءوا من الأتحاد السوڤيتي وأوربا الشرقية والألمان الذين جاءوا من الاتحاد السوڤيتي وأوربا الشرقية والألمان العائدون من المنفى ، والكوادر التي شاركت في الحرب الأهلية الإسبانية أو خدمت في الجيش الأحمر . أما المجموعة الثانية فكانوا يعتبرون أنفسهم شيوعيين وطنيين وألمانا بالضرورة . حتى في داخل الحزب ، كانت قوميتهم تخيفني أحيانا كانوا في صميمهم يفضلون « فرانز جوزيف شتراوس » على « بريجينيف » أخالك تضحك وأنت تقرأ هذا وتسخر مني : ياله من خيار ياأمي ! روث البقر أم روث الخيل ! « هذا ماسوف تقوله . أليس كذلك ياعزيزي « ڤلاديميرو » ؟ لكن الآن ، وقد بدأت تأخذ القساوسة اللوثريين مأخذ الجد ، دعني أذكرك بما قاله « أولبرشت شونهر » لقطيعه كمطران في « برلين » ... مدينتنا .. » إننا لانريد أن نكون كنيسة بجانب الاشتراكية . ولاكنيسة ضد الاشتراكية ، نريد أن نكون كنيسة داخل الاشتراكية .. داخلها « ياڤلادي » ! داخلها ! أتفهم ؟

إن بذور القومية تنبت في كل مكان بينما بذور التنين .. الفاشية تظل هاجعة !

عندما يستيقظ الوحش مرة أخرى سنكون فى حاجة إلى قوة موازنة منظمة وقادرة على سحقه . وهذا يمكن أن يأتى من الداخل فقط .

لقد كتبت كثيرا . طول العمر لك ولنويك يابنى .

« جيرترود »

وأنا أقرأ رسالتها « ياكارل » كنت مقتنعا بأننى استمع إلى جرس مشروخ . لم يكن السر موجودا ، وكنت أعرف أن هناك سرا لديها ..! وقد تأكد لى ذلك لأنها كانت تحاول تبرير نفسها من خلال وجودى الجنينى فى رحمها !

أن تكتب ذلك ، كان معناه أنها كانت تدرك حجم الجرائم التى ارتكبتها . كانت تعرف ماتفعل . لماذا لم أضغط وألح عليها قبل أن تموت ؟ ربما تظن أننى كنت أخشى ماقد أعرف ، ولا أستطيع أن أثبت أنك مخطىء فى ذلك ، ولكن ربما كانت هناك مهارة ما ، اكتسبتها « جيرترود » من الأماكن الخطرة التى عاشت فيها .. موهبة حربائية .. تجعلها تمر دون أن يراها أحد .. أو على الأقل تخفى مالا تريد أن يظهر أعتقد أن ذلك نجح بالنسبة لـ « لودفيك » أيضا ، رغم أنه كان يعرفها أفضل من معظم الآخرين .

دفنوها فى المقابر القديمة خلف المسرح ، بالقرب من المكان الذى يرقد فيه « برخت » كان هناك أكثر من مائة شخص جوار القبر الذى كان مسيجا بالزهور وعلمين أحمرين . كنت أنا ، وأنت ، وهيلجا ، واقفين صفا نصافح أصدقاء جيرترود مودعين ! معظم الوجوه كان مألوفا ، كان هناك رفاق قدامى من مناضلى الحزب الألمانى قبل الحرب ، الذين رجعوا مع جيرترود من موسكو بعد الحرب . وكانت بينهم أرملة « فالتر أولبرشت » التى قبلتنى . هل تراها كانت تعرف من تقبل ؟ عدد قليل من زملائى فى « همبولت » ظهروا ، كانوا يضعون أشرطة سوداء

حول أذرعهم .. ولكن من كان أولئك الغرباء ؟ كان هناك حوالى عشرين رجلا وامرأه لم يسبق لي أن رأيت أحدا منهم قبل ذلك . يرتدون ثيابا مدنية ولكن سلوكهم ومظهرهم كان يشى بأنهم من أمن الدولة . كان من الواضح أن هناك ممثلين لوحدات الشرطة السرية والاستخبارات الخارجية .... وبينهم « ونتر » الذى كان قد أصبح رجلا عجوزا فى العقد السابع من العمر . كانت كتلة شعره الأبيض تميزه عن الآخرين رغم أنه كان يرتدى ثيابا مختلفة أيضا .

قالت لى «جيرترود» إنه كان أمينا لمتحف الفن الذى كانت تعمل به . جاء إلينا وقدم نفسه إلى «هيلجا» كلاوس ونتر ، كنت زميل «جيرترود» . علاقة قديمة جدا ، تقبلى خالص عزائى !

ربما كان بإمكاننا أن نلتقى .... على فنجان قهوة يابروفيسور « مايور » .

« سيكون ذلك جميلا يا «هر ونتر » هل كنت تعمل مع أمى فى المتحف؟» .

ابتسم وهز رأسه .

ضغطت « هيلجا » على ذراعى وهو منصرف : « أنا لاأثق به « يافلادى » هل لاحظت عينيه ؟ :

« ليس بالضبط ! لماذا ؟ »

« عينا قاتل ! » .

« هيلجا » أحاسيسك الداخلية أصابها الجنون هذه المرة ! لقد أصبحت مثل مرضاك . »

وقبل أن تجيبنى توليت أنت أمرنا ورحت تدفع والديك برفق نحو باب

الخروج . هل تذكر ماذا قلت ؟ « أرجوكم ... كلا كما .. دعوا جدتي ترقد في هـــدوء ، انتظـــرا حتى تعودا إلى المنزل وابدآ الجدل ! » .

احتضنتك وقبلتك في وجنتيك . بدا عليك الحرج كشاب في الرابعة عشرة ، ولكنني أعتقد أن أبداء حبي لك على هذا النحو العلني كان يجعلك سعيدا .

كان هناك اجتماع مساء يوم الجنازة لجمـــاعتنا الســـرية . فكـــرت « هيلجا » أن تلغيه ولكنني صممت قائلا إن « جيرترود » كانت تكره أن يلغي اجتماع سياسي بسببها . الشقة مزدحمة ....وكان عدد الحضور أكثر من أربعين من النشطاء .

قلت لهم : أيها الرفاق لدينا رسائل تأيـــيد من « وولـــف بيرمـــان » و« رودلف باهرو » رسائل يريدان أن نطبعـها ونوزعـها في جمـهورية ألمانيا الديمقراطية . سوف أقوم بتمريرها عليكم ، وفي نهاية الاجتماع ، بعد أن تكونوا قد قرأتموها يمكن إجراء تصويت . اتفقنا ؟ حسن !

الكلمة الآن ل « جيرهارد » .

« جيرهارد » الذي كان يفتـــرس الأرض قام . خلـــع نظارته ،وبدأ يتكلم . أبلغ الحضور أنهـــم قد تلقـــوا دعوة للمشاركة في أيام السلام العشرة التي دعت إليها الأبرشية السامرية للمساهمة في « نداء برلين » من أجل « تحويل السيـــوف إلى شفرات للمحاريث » .

وكانت تلك بداية تحركنا من أجل السلام الذي أزعج كلا من الشرق والغرب .

« ستيفان كراڤتشوك » « وستيفان هييم » و « رادولف شنايدر» وقعوا النداء و ....»

قاطعتـــه « جيــزيللا » : « دقيقـــة واحـــدة يا « جيرهارد » قبل أن تواصل . لابد أن نوضـــح موقفـــنا من الكنيسة . هل سنعمـــل معهم ؟ أقصد نحن ! نـحن الاشتـراكيين اللاحزبيين أو المـاركسـيـين ، ليس هنـــاك أى مبرر أخـــلاقى فى هذه المرحلة لأن نرتبط بالكنيسة ! » .

« لماذا ؟ » .

« لأن الهيئة الكهنوتية للكنيسة متواطئة مع النظام ! وقد عقدوا سلامهم مع الإدارة منذ زمن بعيد » .

قال « جيرهارد» .. « إن أفراد الأبرشية السامرية لهم نفس العلاقة بالكنيسة ، كما هى علاقتنا بالحزب : إنهم منشقون يبحثون عن مساحة نقدية . يريدون الحرية والإنسانية والتسامح . أنا أعرف ما ستقولين نحن بالطبع نريد أكثر من ذلك ، ولكننا نريد أيضا مايطالبون به . أليس كذلك ؟ نحن لن نكسب هذه المعركة بمفردنا » واستمرت المناظرة حادة ثلاث ساعات تقريبا ، وفى النهاية ، امتنعت « جيزيللا » عن التصويت ... لم تصوت ضد !

وهكذا وضعنا مسودة رسالة تؤيد « نداء برلين » .

صرخت « جيزيللا » بعدأن صوتوا : جيرترود كانت ستقف ضدكم جميعا فى هذا الأمر ! » .

ضحكوا كلهم . بعد ذلك وقف جيرهارد واقترح نخبا !

« فى صحـة « جيـرترود » التى لم تعـد مـعنا ، ولكننا تعلمنا منها الكثير ، أكثر مما كنا نتصور » .

وردد الحاضرون اسمها ... « جيرترود » !

بعد ذلك ، فى الليلة نفسهـا جلست وحـــدى أبكى ، لــم أكن أريد

أن أوقظ أمك أو أن أزعجك . « هيلجا » لم تكن نائمة راحت تمسد شعرى وتحثنى ... أن أتكلم .

« كنت أفكر فيها . أحاول أن أعرف كيف كانت وأنا طفل لاأستطيع أن أتذكر مناسبة واحدة ضحكنا فيها معا .

أقصد بمفردنا . كانت تضحك مع الأصدقاء .. ليس معى أبدا ، لماذا ؟ » .

تنهدت « هيلجا » وضمتنى إليها بشدة ، « لم أحبها أبدا « ياڤلادى » ! أنا متأسفة ! كنت دائما أشعر أنها تحتفظ بسر رهيب شىء ما فى ماضيها كانت ضجة منه لدرجة تجعلها تكتب كل شىء ، بما فى ذلك ميلادك وطفولتك . لاتتكلم عنهما .. » قلت ردا عليها : « ولكنها كانت إمرأة قوية وأنت تعرفين ذلك .. جيدا استطاعت أن تتجاوز معظم المشكلات التى صوبتها إليها الحياه أو التاريخ ! »

« نعم ! ولكن قوتها تكمن فقط فى مكرها واحتيالها ، فى قدرتها على خداع نفسها ... ، وخداعك وخداع الآخرين .

كانت دائما تحتفظ بأشياء ولاتقول لك كل شى فى وجهك ، ودائما تتفادى أسئلتك بعدم اهتمام مصطنع ، ولكن لابد أنه كان يؤلمها داخليا . »

وكانت « هيلجا » على حق . بحث لها بكل همومى .

« كنت أشعر دائما أنها تكذب بخصوص أبى ، فيما عدا أواخر أيامه . كانت تعرف أنها تموت . عندما ناقشنا الأمر أقنعتنى تقريبا أنه كان « لودڤيك »

« أو بالأحرى أقنعت نفسها « ياڤلادى » .

« ربما »

بعد موت جيرترود بأسبوعين ، تلقيت مكالمة تليفونية من « كلاوس ونتر » . الرجل ذى الشعر الأبيض الذى قدم نفسه إلينا أثناء الجنازة .

اتفقنا على أن نلتقى خارج المتحف حيث كانت « جيرترود » تعمل .

لم يدعني « ونتر » إلى مكتبة . ولابد من ذلك سرنا فى شارع جانبى ودخلنا بناية سكنية لاتحمل أية علامات ، من بقايا مابعد الحرب ، مبنية على الطراز الستالينى الكلاسيكى . ابتسم لى ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة حتى أصبحنا خارج المصعد فى الدور العاشر . سرنا فى ممر مفروش بالسجاد ودخلنا شقته .

كنت فى غاية الدهشة . المكان مكدس بالتحف الأثرية والرسوم ومجهز بطريقة جميلة .

« ليس سيئا ... هه ! »

لوحة واحدة كبيرة - كانت ٨ × ٦ أقدام تقريبا - وهى التى لفتت انتباهى . لوحة حديثة نسخة مثيرة من الأسلوب الواقعى الاشتراكى القديم ، لكن مع تحريف واضح ، تضم مجموعة مهمة من الأشخاص .

ملتفون حول طاولة من اليمين إلى اليسار ، كأنهم فى حالة كلام . . « كرومويل » فى لباسه الرسمى ، « روبسبيير » فى الجاكت الأخضر الفاتح ، « تروتسكى » فى بدلة « تونك » وذراعه الممتدة .. بتوازن فوق التليفون منتظرا المكالمة التى لم تأت أبدا ، « دانتون» فى سابع سماء بعد أن أتى على كأس الكلاريت * زجاجة الكلاريت تحمل ماركة « شاتو باستيل » ١٧٩١ ، أما « لينين » فيجلس على مقعد على مسافة من الطاولة بدون شيئا .

* خمرة بوردو الفرنسية الحمراء

وخلف هذه المجموعة المتنوعة ، كان هناك على الحائط بورتريهات لـ « ماركس » و« ميلتون » وتمثال نصفى ل« فولتير » على رف صغير وعلى الأرض ، كان يجلس مثقف من أواخر القرن يرتدى بنطلونا أزرق ، وجاكت أسود مصنوعا من الجلد ، ونظارة مذهبة الإطار ، يداه تحملان رأسه ، وكأنه يحاول أن يجد معنى للثوارت القديمة . وكان ذلك الرسم الذى لايحمل توقيعا ، بعنوان « التاريخ » .

« أين وجدت هذا ؟ ومن الذى رسمه ؟ لم يسبق أبداً أن رأيت تروتسكى فى رسم من رسوم الواقعية الاشتراكية » قال « ونتر » : « ولا الرسام ... وهذا هو السبب الذى جعلها تبدأ العمل . هى تعيش فى « موسكو » . أحد أصدقائى رأى اللوحة فى شقتها واشتراها منها على الفور « قدمت له عرضا بالدولار » .

كانت « جيرترود » تحبها جدا .. وأنت ؟ »

هززت رأسى .

« خذها ... إنها لك »

دهشت لهذ الكلام المفاجىء ، ولكننى رفضت العرض « هذا عطف كبير منك ، ولكنه كبيرا جدا على شقتنا »

ابتسم ولم يقل شيئا لعدة دقائق . ثم بدأ يتكلم بهدوء وبتشدق محسوب . « كنت أنا وأمك كثيرا ماننظر إلى هذا الرسم ، ونتحدث عن الزمن الماضى . هل أحضر لك كأسا ؟ »

« فنجان قهوة قد يكون شيئا طيبا »

وبينما كان « ونتر » فى المطبخ ، رحت أفحص الغرفة بدءاً بأرفف الكتب .

كانت مكتبة من الثلاثينيات أضيف إليها الكثير الذى لايشبه مجموعة « جيرترود » فى البيت عاد « ونتــر » ورآنى أنظر إلى الكتب .

« هه ! دعنى أريك الكتـاب الذى كـان إنجـيلنا فى الثـلاثينيـات . » وأخـرج الطبعـة الأولى من « ملخص تاريخ الاتحـاد السـوفيـتى « باللغـة الروسية ، تأليف « ج . ف . ستالين » وأعطاها لى .

« من تأليف الشيطان شخصيا ؟ »

« لاتكن سـانجا إلى هذا الحد ! كـتبتـه لجنة من النـاس المؤرخـون السوفييت الذين باعوا أرواحهم للشيطان »

« لماذا ؟ »

« حدث لنا شىء ما بعد أن هزمنا البيض فى الحرب الأهلية .

مـوت « لينين » عدم كفـاءة « تروتسكى » إزاء مناورات «سـتـالين» . لابد أن تفـهم شيئـا واحدا . سـتـالين كان منظمـا قديرا للحـزب أنه لكى يضـمن السلطة ، لابد أن يضـمن الحزب ، وفعل ذلك بقسـوة لاتتحـمل أية معارضة أو تسمح بذلك .

الناس الذين صنعوا الثـورة ... إما أنـهم مـاتوا أو أنهم استـهلكوا، أنهكو تماما . ماحدث لنا كان شيئا أشبه بتنويب وجودنا . جلدنا بسوط الشيطان . فقدنا السيطرة على حـواسنا . منحـتنا السـتـالينية التبصـر داخل نواتنا وداخل الكائنات الأخـرى . ضـمـتنا بالرصـاص الأعـمـاق السـفليـة لأرواحنا ومـازالت عـلامـات الوسم هنـاك ... دليـلا على عـارنا الجمعي »

« لم يسـقط الكل ! مـاذا عن السـجناء السـيـاسـيين فى فـوركـوتا الذين

تظاهروا ضد ستالين » ؟ وماذا عن « لودفيك » ؟

لقد كان لديه شجاعة المقاومة » .

« طبعا ! طبعا ! لاأنكر أنه كان هناك بعض الذين فضلوا الانتحار . كان القرار الذى اتخذناه هو أن نظل أحياء .

كان لابد أن نخضع كرامتنا واحترامنا لذواتنا »

« هل كان ذلك ثمنا يستحق الدفع « ياهر ونتر » ؟

أنظر إلى الاتحاد السوفيتى اليوم أو إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية .

بعضنا يحاول أن يقاتل من أجل بداية جديدة »

« لاداعى لقولك « هر ونتر » أرجوك ! اسمى « كلاوس » أن تتحدث عن بداية جديدة فإن ذلك شىء نبيل بلاشك ، ولكن لابد أن نتعلم أن نكون مجردين من الهوى .

لاأستطيع أن أستسلم لإحساس العاطفة الزائف وأصدق أن وجود أشخاص مثلك فى السلطة يمكن أن يجعل كل شىء عظيما ومجيدا فجأة ، وأن ظروفا رائعة ستحولنا إلى كائنات مدهشة بين عيشة وضحاها ! »

« سخريتك »

« سخرية ؟ ! هل تتذكر أولئك الذين أستسلموا لأوهام مشابهة فى سنة ١٩١٧ .... ليصبحوا – فقط – وحوشا تخيفنا بعد عشرين عاما ؟ هذا النوع من السكر الذاتى مسموح به . »

« العالم ردىء الطبيعة البشرية تحكمها جينات أنانية ، كلنا أشرار بالفطرة . وهكذا طبقا لمنطقك يجب علينا أن نعود لنحرث عقولنا . أنا لاأوافق ! »

« هذا هو امتيازك . لكن أرجوك لاتشوه أرائى .

كل ما أنصحك ضده وأحذرك منه هو أى شعور بالانتصار لو كنت أظن أن الطبيعة البشرية ثابتة ، وغير قادرة على التغيير لما كنت اليوم شيوعيا . وكان لابد لى أن أقول لك إن هناك شيئا فى النفس ، ربما له علاقة بتكويننا الحيوى ، يسمح لغرائزنا بأن تطغى ، وأن تتجاوز ، وتعطل الإشارات الصادرة من المخ فنيا .. نحن البشر قد ألحقنا ضرراً وشرا ببعضنا الآخر أكثر من أى نوع آخر نزعم أننا قد جئنا منه هل توافق ؟:

ضاق صدرى فقمت كأننى سأنصرف « لقد سمعت بعض هذه المحاجة من قبل ، ورغم كل شىء مازلت أؤمن ... »

« إيمان ؟ كانت تلك دائما مشكلة كبيرة . الماركسية كدين بديل بأنبيائه وباباواته ! أنظرإلى أين أوصلتنا ؟ أنت تؤمن ؟

ليس لديك الحق أن تؤمن ! يجب ألا تؤمن لماذا أنت واقف ؟ لم أستدعك لحوار فى الفلسفة . اجلس من فضلك ! »

فعلت كما طلب منى ، ولكننى شعرت بأنه كان يتلاعب بي . من يكون « ونتر » هذا بحق الجحيم ؟ ! »

« من أنت ياكلاوس ؟ »

« أنا أحد رفاق أمك القدامى ! »

« لكنك أصغر من « جيرترود » إلى حد ما . كانت ستكمل الرابعة والثمانين هذا العام »

« فعلا أنا سأبلغ التاسعة والسبعين فى أكتوبر القادم .

كنا فى « موسكو » معا أثناء الحرب وكنا نعمل فى المبنى نفسه . وأتذكرك وأنت طفل صغير . »

« كنت تعمل إذن لحساب الاستخبارات الحـربية السوفيتية أيضا ؟ وذهبت للقائها فى نورفولك قبل الحرب . ماذا كنت تعمل حينذاك ؟

للمرة الأولى هذا المساء يشحب وجهه ويفقد رباطه جأشه ، ولكن للحظات قليلة . ثم قال بصوت مخنوق إلى حد ما : نعم ! قابلتها فى انجلترا فعلا . كان ذلك فى إطار العمل . ماذا قالت لك ؟ »

وكان دورى لابتسم . كذبت وقلت كل شيء .

« والآن ... اسمعنى « يافلاديمير » ، « جيرترود » أيضا قالت لى كل شيء ! عندى معلومات عن اللجنة وعن عملك السياسى . أنا سعيد جدا ، وقد وزعت بعض كتيباتكم داخل الحزب . على أعلى مستوى ! » ذهلت . صرخت فيه : « أنت ... ! ماذا فعلت ! ؟ أيها المجنون ! كيف تجرؤ على ذلك ؟ ليس من حقك . وهى قد أخطأت بقولها لك فقد وعدتنا أنها .... من أنت بحق الجحيم ؟ .. « ونتر » .... قل لى ... »

« وماأهمية ذلك ؟ »

« لأننى بدأت أفقد أعصابى ! »

« هل سألت أمك أبدا ... من كانت ؟ »

« كانت أمى ! »

« أسمع « يافلاديمير » أنا وأمك كنا نعمل معا . فى الاتحاد السوفيتى وفى ألمانيا الديمقراطية »

كنت قــد بــدأت أفهـــم . ولكننى لم أستــطيع أن أصدق تلميحات « ونتر » . « جيرترود » كانت تعمل فى المتحف . وأنت ؟ »

ابتسم « ونتر » ولكنه لم يتكلم .

« حسن ! » سألت بنبرة بدت أكثر عدوانية . هز « ونتــر » كتفــيه ! « أنظر ياهر « ونتر » ... أنت دعوتنى إلى هنا كنت تريد أن تتكلم . وأنا أريد أن أنصرف لأنه ليس لى ماأريد أن أقوله لك أكثر من ذلك ! ولكن ماذا تحاول أنت أن تقول عن أمى ؟ ضاقت عينا « ونتر » وهو ينظر إلى . كانت « هيلجا » على حق ، تذكرت ظنى حينذاك . هذا الرجل يداه ملوثتان بالدماء !

« ڤلاديمير ... إما أنك كنت سانجا جدا أو أن لاوعيك قد أوحى لك بأن تظل على ادعائك . هل تعرف أنك بمجرد أن تبدأ العمل لحساب الاستخبارات ، لايمكنك أن تخلع نفسك أبداً ؟ » « كنت أعرف أنها كانت تعمل لحساب الاتحاد السوفيتى .. لكن ... » ، تعنى بأن لديك أوهامًا عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية فعلا ! إذا رحلت « موسكو » . فسوف تنهار بين عيشة وضحاها . كنا امتداد « موسكو » الألمانى ، وبالطبع فإن الذين كانوا يعملون لحسابهم فى أماكن أخرى فى أوروبا ، أرسلوا إلى بلادهم . لم نغادر أنا ولا جيرترود أبدا . أنت ترتعد « ياڤلادى » ؟

« تريد أن تقول إن أمى كانت تعمل لحساب « الستاسى »* ؟

« لا ! كانت تعمل لحسابى ، وأنا أرأس قسما خاص . نحن نعمل

* جهاز الاستخبارات فى ألمانيا الديمقراطية .

كحلقة اتصال بين الاستخبارات الخارجية وال « ستاسى » وعدة عمليات سرية داخل كلا التنظيمـــين ... نرسل تقاريـــرنا إلى « موسكو » أولا .. ثم إلى « برلين »

شعرت بالغثيان . أسرعت إلى الحمام وأفرغت مافى معدتى . امتلأت عيناى بالدموع . حاولت أن أتمالك وعدت إلى مكتب « ونتر »

« تناول مشروبا « ياقــلادى » ... إن كان لى أن أدعوك هكذا الآن !؛ أعتقد أنك فى حاجة إلى مشروب ! »

« أنابخير ، شربت بعض الماء »

« أنت الآن تكرهها ؟ تعتقد أنها قد خانت اللجنة ؟ .

« ماأشعر به نحوها شىء بينى وبين ذكرياتى عنها . ولكن ماذا تريد أنت منى »

« لاشىء كثيرا .! أشعر فقط أننا يجب أن نلتقى مرة كل شهر لاأطلب منك أن تكون جاسوسا « ياقلادى »!

لاحــاجــة لذلك . لدينا ملف كـامل عن لجنة « من أجل ألمــانيــا الديمقراطية » ... عضويتها .. وثائقها .. ولدينا محاضرأكثر تفصيلا لاجتماعاتها ... أكثر مما ترى . باختصـار « ياقلادى » ... نحن نعرف كل شىء لدينا عدد لابأس به من المخبرين داخل جماعاتكم ، ندفع لهـــم لكى يمدونا بتقــارير مفصلة ومنتظمة . هل تريد أن تراها ؟ »

كـان بودى أن أخنقه وأحرق شقتـه . أنا جاد « ياكـارل » . كـانت

المرة الأولى فى حياتنا التى أشعر فيها أننى عنيف . لاأحد كان يعرف أننى هناك لو قتلته ودمرت كل الأوراق .. فمن ذا الذى سيعرف ؟ لكن ذلك كان جنونا لحظيا ... أفزعنى ! كنت متلهفا لأعرف أسماء المخبرين . قلت له ذلك .

سار « ونتر » نحو مكتب وتناول ملفا وأخذ منه ورقتين أعطاهما لى . التهمتهما بعينى كالمجنون . كان جسمى يرتعد حتى النخاع . ماقرأته كان تقريرا دقيقا ... جدا ... عن اجتماع عقدناه منذ ليلتين .سقطت فى المقعد دون كلمة واحدة !

« تصلنا أحيانا تقارير متناقضة . وكانت « جيرترود » هى التى تحل المشكلة وهى الآن ليست موجودة . أنا سعيد أنك قد أقمت علاقات جيدة مع القساوسة . وكما يجب أن تتوقع فإن بعضهم يعمل لحسابنا أما جماعاتكم فهم مختلفون ، يريدون أن تقوم ألمانيا الديمقراطية بتسريح جيشها العامل . سذاجة خطرة . تهدد دولتنا ! » كنت عاجزا عن الكلام . صدمة وغضب ويأس ! كانوا يعرفون فكرت فيك « ياكارل » وماذا يمكن أن يحدث لو سجنت أنا « وهيلجا » ملجأ أيتام بالنسبة لك ؟ الفكرة فى حد ذاتها جعلتنى أصرخ « ماذا تريد منى ؟ لاأريد أن أراك كل شهر ، ولا أن أراك أبدا ! لن أنقل إليك شيئا .. هل ستعطينى أسماء المخبرين فى جماعتنا ؟ »

« لا ، أستمع إلىَّ «ياڤلادى» يحدث أحيانا أن أتفق مع أهدافكم .

لولا أننى أعمل مع الدولة لكنت عضوا فى اللجنة وأعتقد أننا فى حاجة إلى التحول الديمقراطى ، أن يكون لدينا انتخابات ، وصحافة حرة ، وكل شىء آخر – ، فى التحليل الأخير – أن تظل الدولة

الحالية فى الحكم ، كما هو الحال فى الدولة الغربية التى يعجب بها أصدقاؤك كثيرا .. نظراؤنا فى « بون » و« باريس » « ولندن » ، مثلنا تماما ، لايعرفون الرحمة . الفرق أن لهم خبرة مئات السنين » .

وافقت معه ، ولكننى رفضت أن أعطيه أى إحساس بالرضا .

« مازلت لا أريد أن أراك ثانية »

« لكن من غيرى يمكن أن يقول لك إن جدلا كبيرا يحدث داخل المكتب السياسى حول خطوط لاتختلف عن بعض ماتطالبون به فى كتيباتكم ؟ »

« تقصد أن هناك ... »

« إصلاحى فى الكرملين ؟ ليس بعد ، ولكن عاجلا سيكون . نظيرى فى « موسكو » ، الراحل « يورى أندروبوف » كان يعتقد أن الإصلاح هو الطريق الوحيد . »

« إذن لو بدأت « موسكو » سوف تكون فى حاجة إلى عدد قليل من المؤيدين فى ألمانيا الديمقراطية ؟ »

« أنت إنسان ذكى يابروفيسور « مايور » لابد أنك ستكسب بأسرع مما تعتقد . »

« لست متأكدا من أننى أصدقك ! »

« انتظر ، وسوف ترى . الصبر هو أكثر الخصال نبلا ! » سرت عائدا إلى الشقة وأنا فى حالة ذهول ، غافلا عن شمس الربيع . غافلا عن أزهار اللوز ، ناسيا كل شىء سوى « ونتر » .

كان ذهني يستعيد ويستعيد الأحداث التي وقعت في ذلك المساء .

أريد أن أركض في « أونتر دن ليندن » صارخاً في البرية أن أمي كانت جاسوسة ! وأنها كانت تجسس على أسرتها ! » وأن عقلها الأشل كان قد دمر كل معنى للشرف ! كانت الأخلاق فكرة لم تفهمها « جيرترود » أبدا .

عندما عدت كانت الشقة هادئة . وكنت أنت في تشيكوسلوفاكيا مع مجموعة من مدرستك . وكان لدى « هيلجا » عمل حتى ساعة متأخرة ، فقد كان يوم « ثلاثاء » موعد فحص عدد إضافي من المرضى في عيادتها في المستشفى .

صرخت في صورتها . عودى إلى المنزل « ياهيلجا » عودى لإجراء تحليل لى ! كنت أنتقل من غرفة لأخرى أزيل كل صورة لها أراها أمامي . هناك صورة أحبها : « جيرترود » تحملك وأنت في عامك الثالث . تبتسم لك ابتسامة حقيقية . كنت أحب تلك الصورة . وكانت موضوعة على مكتبي .. مع ذلك أخذتها وهشمتها على الأرض . كرهت تلك الابتسامة . لايمكن أن تكون حقيقيه ! لاشيء فيها حقيقيا ... وجهها .. عواطفها .. حياتها .. كل شيء كان قناعا .

عندما رجعت « هيلجا » في ذلك المساء قلت لها كل شيء .. اهتزت أيضا .. ولكنها لم تندهش .. ولم تفاجأ ! كان الأمر بالنسبة لها لغزا ... وتم حله ! جلسنا متجاورين ساعة كاملة .. كلانا مدفون في أفكاره !

- ٢٤ -

لو أن هناك شخصا واحدا يمكنه أن يخبر « ڤلادى » بما يريد أن يعرفه عن « لودڤيك » لَكان ذلك الشخص هو « ڤيلكس » ، فقد كان يعرفه من منظور طفل . « ڤيلكس » الذى ولد نتيجة حب كبير بين والديه فى أيام الحلم البطولى . « ڤيلكس » الذى كان يفهم أكثر مما كان يدرك والداه ، والذى كان يقظا بشكل دائم لأى تغير ولو ضئيل فى فراج أى منهما .

عندما استيقظ « ڤيلكس » فى ذلك اليوم الجميل من يوليو عام ١٩٣٧ ، حاول أن يفهم لماذا كان سعيدا إلى ذلك الحد ! عبس ، وحاول أن يتذكر الحلم ولكنه هز كتفيه يأسا . كان أحد أسباب سعادته أن ثلاثتهم يجتمعون معا لمدة شهر تقريباً . كان « لودڤيك » قد توقف عن السفر . على أطراف أصابعه . سار « ڤيلكس » إلى غرفة نوم والديه وإدار أكرة الباب النحاسية بهدوء شديد . أحدث الباب صريراً . كانا نائمين بعمق ، ومتعانقين ،. ابتسم « ڤيلكس » وانسحب خارجا وجذب الباب فأغلقة ، احدث الباب صريراً مرة أخرى مما جعله يرتجف ويتوقف ، ولكن لم يصدر صوت من الغرفة .

« باريس » صيفاً . أطل من نافذة المطبخ وأغمض عينيه عندما ضربت الشمس وجهه . كانت الشوارع تبدو واضحة وجافة . تجمعات الماء اختفت . ضوضاء الشارع تتزايد فبدأ يرى أشكالاً مألوفة . فى أحلام اليقظة ، كان « ڤيلكس » ينظر إلى أصحاب المحلات ، ويضع لكل منهم ملامح مختلفة . بعد ذلك كانت تلك الوجوة التى يعيد تركيبها تذكرة بأناس يحبهم ولكنهم كانوا الآن بعيدين فى الأتحاد السوڤيتى ....

رغم الإجهاد الشديد الذى كان يحدث لأمة ، فإنه كان يستمتع برحلاته إلى « موسكو » .

كان الأصدقاء القدامى دائماً حاضرين فى ذهنه . وكثيراً ما كان يبدأ حوارات متخيلة مع الشخصيات فى الشارع الذى يقع أسفل مسكنهم .

وأحياناً يندمج فى التفاصيل المعقدة لذلك العالم المتخيل ، لدرجة أن يغفل عن أمه وهى واقفة فى آخر المطبخ تستمع إلي كل كلمة يقولها . كان يشعر بالحرج أحياناً ، ولكن ذلك لم يزعجه أبداً .

أعد لنفسه إفطارا بسيطاً ولكنه لم يسترخ طويلاً . تملكه للمرة الأولى خيال حرب أهلية قديمة ، عندما كان فى الخامسة أو السادسة ، وتسلل ذهنه مرة أخرى إلى آثار « الدولية » . كان فعلاً يسمع صوت المارشال « توكاشيفسكى » هادئا ولطيفا ، وليس مثل صوت الجنرالات الذين يشاهدهم فى السينما .

« يمكنك أن تأتى بإفطارى الآن يا رفيق . أنا جاهز » أخذ « فيلكس » الصينية ، وذهب بها إلي المارشال الذى ابتسم حين أدى له تحية القبضة الحمراء .

« هل هناك أخبار من الجبهة أيها الرفيق المارشال ؟

" البيض فى حالة انسحاب شامل ، قوات " كولشاك " هزمت . دينكين " اختفى . أخبار طيبة : هه ؟ " .

« بالطبع أيها الرفيق المارشال ، ولكن .. الجيوش الأجنبية .! هناك أثنان وعشرون منها على الأراضى السوفيتية . هل نستطيع أن نهزم أثنين وعشرين جيشاً ؟ "

" نستطيع .. بكل تأكيد ! الرفيق " تروتسكي " يصل اليوم . هل تود مقابلته ؟ " .

عند هذه المرحلة رن جرس التليفون . لعن " فيلكس " المتكلم .

" نعم .. نعم .. أنا .. ماما مازالت نائمة يا عم " شميلكا " .. سأبلغها أنك اتصلت .. بالتأكيد . ! أتمنى ذلك .. أو ريڤوار ! " " لودڤيك " كان دائماً غير موجود بالنسبة لمن يطلبه ، إلا إذا كان هو يريد أن يرد على التليفون . هذه القاعدة من قواعد المنزل كانت راسخة فى ذهن " ڤيلكس " لدرجة أنها جاءت بشكل تلقائى .

كان " ڤيلكس " يحب " ليڤيتكس " . وكان هو الوجه القديم الوحيد من الوطن فى " باريس " فى ذلك الوقت . جاء لزيارتهم مرتين الأسبوع الماضى ولكن التوتر كان يبدو عليهم جميعاً .. والمفاجأة .. المفاجأة .. أنهم توقفوا ككلهم عن الكلام عندما دخل " فيلكس " الغرفة . كان يكره أن يفعل الكبار ذلك معه . لم يعد طفلاً .

كان لديه حدس أن والديه يقومان بأعمال سرية لحساب الاتحاد السوڤيتى . لم يقل له أى منهما شيئاً ، ولكن قواعد وتعليمات البيت كانت غريبة . برامج السفر بالنسبة للعائلة مثلاً لم تكن تعلن لأى شخص. ولم يكن تفسير « ليزا » لذلك مقنعاً ، كان غبياً ، لدرجة أن « ڤيلكس » لم يعد حتى يتذكر ماذا قالت له أول مرة . عبس . بالأمس فقط طلب منه أحد أصدقائه ، أندريه ، أن يأتى لقضاء عدة أسابيع معه ومع أسرته فى " إقليم الباسك " . رفض ، " ڤيلكس " وعندما ألح عليه « أندرية » يعرف سبب رفضه ، همهم « ڤيلكس » بشئ غير مفهوم عن أن والديه كان ينويان اصطحابه فى رحلة طويلة إلى مكان ما ... أو شئ من هذا القبيل .

كان أول يوم من أيام العطلة الدراسية . صفق بيديه . كان ذلك أحد أسباب شعوره بالسعادة . كيف نسى ؟ .. سعيد لأن الدراسة إنتهت . كانوا فى البداية يظنونه أحد أبناء اللاجئين الإسبان ، يبحث عن مأوى من الحرب الأهلية . أولوه اهتماما خاصا وبدأ يتعلم الفرنسية بسرعة مذهلة .

معظم المدرسين من الشيوعين أو الاشتراكين وكانت إسبانيا قريبة جداً من تفكيرهم . شقيق مدرس الكيمياء مات فى " تيريول " . وفيما بعد أكتشف المدرسون أن " فيلكس " لايتكلم كلمة إسپانية واحدة . كانوا قد خدعوا أنفسهم ، ولكن غضبهم تحول إلى " فيلكس " .

« أنا أتكلم الروسية والبولندية والألمانية » ، أعلن ذلك وعيناه متأججتان غضباً .

« الروسية ؟ » .

ربما أفضل من الإسپانية عند بعض المدرسين ، وكان يلقى عناية أكبر . أما لغته الفرنسية فأستمرت فى التحسن .

وذات مساء سأله مدرس الرياضيات الشاب : ماذا يعمل أبوك ؟ " أجاب " فيلكس " كما قالوا له فى مناسبات عديدة ومدن عديدة .

" رجل أعمال " .

نظرة الرعب على وجه المدرس جعلت " فيلكس " يحمر خجلا .

" متى ترك الأتحاد السوڤيتى ؟ " .

الآن .. كانت اللهجة عدائية لدرجة أن " ڤيلكس " هز كتفية فى تحد . " نفاية بيضاء !" هل قال المدرس ذلك بالفعل أم خيال « فيلكس » هو الذى صور له ذلك ؟ » .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت المدرسة جحيماً ، بؤسا لايمكن أحتماله . بدأ بعض الأطفال يضايقونه لأنه « أبيض » . والاستهزاء به أدى ذات مرة إلي اشتباك بالأيدى . أما الذى أزعجه أكثر من ذلك ، فهو ضحك « لودفيك » و " ليزا " عندما أخبرهما .

بعدها تكلمت " ليزا " مع المدرس وخف التوتر ... لكن المدرسة لم تعد شيئاً ممتعاً ! .

كان " أندريه " هو صديقه الوحيد . وكانا يتحدثان معا فى كل شئ .

« فيلكس » يحب الذهاب إلى بيت أندريه الذى كان والده يعمل سائق قاطرة بنظام الورديات . وعندما كان يذهب معه إلى منزلهم بعد المدرسة كان يرى أن والده يستيقظ من النوم متأخرا ويستعد للذهاب إلى عمله ، ولكنه كان يتكلم معها دائماً ، ويعاملها معاملة الكبار .

فى بعض الأيام كان « أندريه » ووالده يلعبان الشطرنج لفترة طويلة، وكان « فيلكس » يمنى نفسه بالذهاب معهما إلى " الباسك " لقضاء أسبوع فى الشهر التالى .

تناهت إلى سمعه الأصوات المألوفة فأسرع إلي غرفة النوم . كان يعتقد أن " ليزا " ستكون فى حالة فرح وحماس مثله لما قاله « لودفيك " فى الأسبوع الماضى ، وهو أنه لن يكون مضطرا للسفر إلى الخارج بعد ذلك . ولكن وجهها كان مشدودا . هى نظرة يعرفها «فيلكس» جيدا ، ولكنها كانت فى الماضى مرتبطة دائماً بغياب " لودفيك " .

اليوم ليس لها تفسير . عانق أمه فضمته إليها بشدة وراحت تمسد وجهه طول الوقت . أصبحت الكلمات عاجزة وغير صالحة للتعبير ، ولكن

تلك المبادلات الصامتة المشحونة بالعاطفة ، كانت دائماً تنقل إشارات خاصة . هكذا كان الأمر دائماً .. وعلى قدر ما يتذكر .

أدراك " فيلكس " أن قرار والده بعدم السفر يعني أن هناك تهديدات قوية قد تكون أشد خطورة ... فأين يكمن الخطر ؟ ولماذا ؟.

" لماذا ماما منزعجة .. ومتوعكة المزاج هكذا ؟ " . كان "لودڤيك" و" ڤيلكس " يسيران فى الحى اللاتينى ... رأى " لودڤيك " "باريس" لأول مرة فى سنة ١٩٢٣ ، ووقع فى غرام تلك " المدينة داخل المدينة . شرح لـ " فيلكس " : أمر نابليون الثالث ببناء "بوليڤار سان ميشيل" ، ولكن تم الإبقاء على عدد كبير من الشوارع الضيقة للاحتفاظ بالعبق البوهيمى القديم .

نظر " لودڤيك " إلى شعر الولد الذى كان يعكس ضوء الشمس وابتسم لنفسه . أصبح " ڤيلكس " طويلا ووسيما ... مثل أمه تماما .

تذكر جدله مع " ليزا " حول إنجاب طفل فى عالم تمزقه الحروب والصراعات . والحمد لله إنها كسبت الجدل . وضع ذراعه حول كتف الولد . كانت أعمق لحظات كربه تدور حول " فيلكس " دائماً . فى الأيام الباكرة كان قلقاً لما يمكن أن يحدث لابنه إن وقع هو نفسه فى أيدى الأعداء . وبمرور السنوات أصبح " لودڤيك " أكثر استقرارا من الناحية الذهنية .. والآن ... فإن " ڤيلكس " سوف يتذكر والده على الأقل .

« لم أعد طفلا صغيراً ! أنا أعرف أكثر مما تعتقد . وهى منزعجة وقلقة عليك ... ومتوعكة المزاج ... لماذا يا أبى ؟

أرجوك .. قل لى ... أرجوك ! "

" سوف أقول لك كل شئ عندما نكون معاً فى عطلة . أعدك سنجلس معاً فى مقهى ونتحدث طويلاً . "

" سنسافر معاً إذن ؟ "

" ليس بالضبط . ستسافر أنت و " ليزا » غداً ، وسألحق بكما بعد أسابيع قليلة . وعد منى ! "

" وهل هى منزعجة لذلك ؟ لأنك لن تذهب معنا ؟ "

" هذا أحد الأسباب بالتأكيد ! "

اكفهر وجه الولد ولكنه لم يقل شيئاً . لماذا لابد أن يبقى " لودفيك " هنا عدة أسابيع أخرى ؟ الآن كانا قد عبرا شارع " الأوديون " ووصلا إلى عالم الأدب . كان " فيلكس " يحب تلك المعارض الصغيرة ولديه فكرة جيدة عن الرواق . وعندما كان " لودفيك " يسافر كانت " ليزا " تأتى به إلى هنا وتتركه يتجول بمفرده ويقضى الساعات فى تصفح الكتب .

وبينما كان " فيلكس " ينظر إلى الكتب الصادرة حديثاً ، ويتأمل الأدوات المكتبية بلهفة سار والده عرضا نحو كشك صغير يبيع الكتب المستعملة .... ، بداخله امرأة عجوز تقوم بترتيب الكتب بشكل مستمر . تهللت عيناها عندما رأت " لودفيك " ولكنهما لم يتبادلا كلمة واحدة . ذهبت وعادت بكتاب قديم جداً وأعطته لـ " لودفيك " هذه المرة ظهر فى عينيها القلق . لاحظ " لودفيك " ذلك وابتسم لها ابتسامة مطمئنة وهز رأسه وهو يتناول الكتاب منها . وبينما هو يبتعد كانت تنظر حولها فى قلق لترى إن كان أحد يراقبهما ، ولكن كل شئ كان يبدو عادياً ..... تعرف معظم الزبائن القدامى .

" احترس يا لودفيك ! " .. همهمت لنفسها .

ذهب " لودفيك " يبحث عن " فيلكس " فوجده عند كشك الأدوات المكتبية ، وأثناء ذلك تناول قصاصة صغيرة كانت بداخل الكتاب ووضعها فى جيبه . تناول " فيلكس " الكتاب من والده . نسخة من الطبعة الأولى من رواية " الحرب والسلام " هز " فيلكس " رأسه وابتسم ضحك " لودفيك " . كانت مجموعته من الكتب القديمة مثيرة دائماً بالنسبة لـ " فيلكس " الذى لم يستوعب أبدا سبب اقتناء عدة طبعات من الكتاب نفسه .

بعد عدة ساعات ، وبعد أن ذهبا إلى البيت ، وبعد المرور حول مقهى " فولتير " أكثر من مرة ، وبعد شراء حذاء تسلق لـ " فيلكس " ، كانت صدمته شديدة . وجد الشقة عارية تماما . كل شئ تم نزعه من على الجدران . حقائب مكدسة بالملابس والكتب تغطى الأرض كانوا يعيشون هنا منذ عشرين عاماً تقريباً . وعلى خلاف والديه كان : " فيلكس " قد أصبح متعلقاً بهذه الشقة . رأى " لودفيك " النظرة على وجه الولد وضغط على كتفه بحنان .

" قامت أمك بحزم الأمتعة من أجل العطلة " .

" ولكنها قد حزمت كل شئ ألن نعود ثانية ؟ "

صوت " فيلكس " الحزين أزعج " لودفيك " . شعر بالألم . كان " لودفيك " يعلم جيداً أن حياة الترحال التى يعيشونها مربكة لنفسية ابنه . وإلى الآن لم يكن هناك بديل آخر ، سوى بالنسبة لـ " ليزا " طبعاً ، وهو أن تنتقل إلى " موسكو " ، وبشكل دائم ، وكان ذلك مستحيلا .

" لن نعود إلى هذه الشقة يا " فيلكس " . غدا ، أنت راحل إلي مكان بعيد عن هنا . لا خطابات ، لا تليفونات ، لا رسائل ، ومن الآن فصاعدا سنكون معا . ودائماً . هل أنت سعيد ؟ " .

عانق " ڤيلكس " والده .

" هل حصلت على عمل جديد ، هل سئمت العمل لحساب الاتحاد السوڤيتى ؟ "

" جداً ! " .

" بعد وقت قصير ستصير أصلع .. تماماً ! "

أبتسم " لودڤيك " وهو يتنهد . لو أنه يستطيع أن ينسـحب بهدوء ! تناول القصاصة الصغيرة التى تسلمها عند كشك الكتب .

" بعض الأشخاص ، روس بالتأكيد ، سألوا عنك اليوم .. أين كنت فى الفترة الأخيرة ، وما إذا كنت أتوقع مجيئك فى يوم معين . تظاهرت أننى لاأعرفك وأننى لا أفهم ما يقولون . لم يكن لديهم فكرة .. أننى اتكلم الروسية ولذلك سبونى ، ولكنهم صدقوا ما قلته لهم .

ربما هى التجاعيد التى تملأ وجهى ! حاذر يا لودڤيـك ! " فى تلك الليلة وهو يستعد للنوم ، قالت له " ليزا " ألا يبقى الولد ساهرا لوقت متأخر . " لابد أن ينام حالا .. لدينا يوم طويل غـدا " وقامت " ليزا " لتنظف طاولة المطبخ التى كانت مكدسة ببـقايا طعـام العشاء . حمل " لودڤيك " ابنه على ظهره كما كان يفعل عندما كان " فيلكس " أصغر من ذلك بكثير ، وسار نحو المكان الضيق – خزانة أكثر منها غرفة – حيث كان يوجد سرير " ڤيلكس " .

" لاداعى للقصص الإسپانية هذه الليلة . فهى حزينة جداً " .

منذ عيد ميلاده الثالث ، كان " فيلكس " يحرص على حكايات قبل النوم كلما عاد والده من رحلة طويلة فى الخارج . كانت الحكايات كلها تتضمن حيوانا يقوم بالدور الرئيسى . وكان "لودڤيك"

دائماً يلتقى ، فقمة تتكلم فى امستردام ، أسدا مهتاجا فى لندن ، دبا من سيبيريا هائماً فى ڤيينا ، ثورا أمريكيا ضالا فى چنيف ، ثعبانا ضخما فى ميونيخ ... وهكذا ! وحول هذه الحكايات كان " لودڤيك " ينتهج أسلوباً لشرح ما يدور فى العالم الخارجى لابنه .

ومع تطور " فيلكس " ، كانت الحيوانات تختفى بالتدريج ، ليحل محلها بشر خرافيون ، ثم بعد ذلك ، فى السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة ، كان " لودڤيك " يروى له حكايات حقيقية يختارها من تجاربه وخبراته فى الاتحاد السوڤيتى وألمانيا ، ومؤخرا ، من الحرب الأهلية الإسپانية .

كان الكلام عن الحرب الأهلية الإسپانية يدور فى كل مكان يذهب إليه " فيلكس " . وكان فخوراً لأن والده يساعد الجمهورية ضد الفاشست ، وذات صيف لحق به هو و " ليزا " لمدة أسبوع فى " كولليور " أحب المدينة جداً لدرجة أنه كان يود أن يقضي وقتاً أطول هناك ، ووافق والده . وفى كل يوم ، عندما كان " لودڤيك " يزور قريته الجمهورية في الجبال ، كان " فيلكس " يسحب " ليزا " لاستكشاف القلعة القديمة التي تعود إلى القرون الوسطى .

لم تكن الحكاية مجرد قلاع قديمة وأيس كريم وكعك ! ولا تلك الساعات الطوال فى اللعب على الشاطئ . الواقع أن " فيلكس " قد أقام علاقة صداقة مع ولد فى نفس عمره . أصبح الولدان لاينفصلان. وكانت "ليزا" سعيدة لسعادة ابنها . وبعد أيام قليلة اكتشفت أن صديق " فيلكس " الجديد كان له أخت تكبر الولدين بعام واحد .

تعلق بها " ڤيلكس " وصار يتبعها فى كل مكان مما ضايق شقيقها ناهيك عن طالبى يدها الكثر ، والأكثر جدية !

ثم جاء يوم رحل فيه الأخ وأخته . انتهت العطلة .

" فيلكس " كسير القلب ، يجول فى أرجاء القلعة القديمة ، يأسى لنفسه ويتخيل مواقف ينقذ فيها حبيبته من قوى الشر . ووصل به الأمر أن زهد الطعام عدة أيام . كان " لودفيك " و " ليزا " يرقبان كل شئ صامتين . أية محاولة للكلام عن ذلك مع الولد يمكن أن تكون مدمرة . وقبل أن يمر الأسبوع ، كانت " ليزا " قد نجحت فى استعادة ابنها إلى الواقع !

روى له " لودفيك " عشرات القصص عن إسبانيا . كيف كان العمال الإسبان يحاربون ضد " فرانكو " و " هتلر " و " موسوليني " كيف كان الأمريكان والروس والإنجليز والألمان .. نعم .. الألمان أيضاً .. يهرعون لمساعدة الجمهورية . حكايات البطولة وأيام الأمل !

بعد فترة ، بدأ " فيلكس " يشعر أن حكايات " لودفيك " مملة ومكررة . حتى البطولة يمكن أن تصبح مملة ..... ، لكن هناك شئ آخر . لم يكن يحصل على حكاية كاملة ! كان قد سمع والديه يتكلمان همسا عن التيارات التحتية السامة . الحرب داخل الحرب ، القتل داخل المعسكر الجمهورى . لم يفهم فيلكس ذلك الكلام ، ولكنه كان يعرف أنه - مهما كان معناه - فهو مزعج بالنسبة لوالديه أيما إزعاج !

" كلمنى عن حياتك عندما كنت طفلا .. قبل الثورة .. العم " شميلكا " قال إنك كنت دائماً تجادل الجميع ! " .

الولد الذى كان مستلقيا على السرير فى ظل ليلة صيف ، ينظر بإعجاب شديد إلى والده . انحنى " لودفيك " ليقبل عينيه .

" كنا مجموعة كاملة فى تلك المدينة الصغيرة .. تذهب إلى المدرسة نفسها .. وخارج المدرسة كنا نقضى معظم وقتنا معاً . كان المركز الصيفى الرئيسى على شاطئ النهر . وهناك كنا نسبح ونتنافس لنرى من يمكنه اصطياد أكبر كمية من السمك نشعل نارا ونشويه .. لا أجمل ولا أطعم !

وفى الشتاء ، كان من عادتنا أن نتسكع حول محطة السكة الحديد للمدينة الحدودية ميزات كثيرة . كنا جزءا من الأمبراطورية النمسوية . والجانب الآخر من النهر كان الأمبراطورية القيصرية .

وكنت أنا شخصياً أفضل النمسويين .... نشاهد القطارات تمضى أمامنا ونحلم برؤية المدن الكبرى .. سان بطرسبورج ، برلين ، لندن ، باريس ، ڤيينا . كان عالمنا محدودا بتلك الأماكن .

نرى الناس يعودون من " ڤيينا " إلي " ليمبرج " ، ولسبب ما فشلنا أن نفهمه ، كانت كل النساء الجميلات من طبقة النبلاء الروس من عادتهن أن يلقين بزهورهن عند " بدڤوشوليسك " الصغيرة ، وكنا نأخذ تلك الزهور ونرشها الماء ونحزمها بخيوط جديدة ونبيعها للمسافرين إلى الاتجاه العكسى ، أو الأم " شميلكا " كانت تشتريها منا دائماً . "

" هل كان والدا العم " شميلكا " أغنياء ؟ "

" ليس إلى تلك الدرجة ، ولكنهما مقارنة بنا كانا يبدوان كذلك ، فقد كان " شميلكا " يرتدى ثيابا نظيفة ويتلقى دروسا فى الموسيقى ، أما الترف الكبير . فكان يتمثل فى استقلاله بغرفة فى منزلهم " .

" كفى يا " لودڤيك " ! أترك الولد ينام ! " .

ابتسما عندما سمعا صوت " ليزا " . قبل " لودڤيك " الولد فى وجنتيه " نوما هادئا يا بنى ! " .

في الصباح التالى انتقل " لودڤيك "إلى فندق صغير فى د " سيلشى " ، بينما استقلت " ليزا " و " فيلكس " قطارا يحملهما إلى سويسرا عبر مسارات والتفافات معقدة ، كان " لودڤيك " يحاول بها أن يضلل أى كلب صيد عن مساره . لم يكن مستقبله واضحاً ، ولكنه لم

يكن على استعداد للمخاطرة بحياتهم . فإن يصلا إلى مقصدهما مرهقين تماماً ، لأفضل ألف مرة من ألا يصلا على الإطلاق .

" ليزا " تحلم :

أمواج هائلة كأنها ملاءات ثقيلة ، بيضاء ناصعة كالقطن المغسول تغطى حواسها . رأس " لودفيك " يواصل الظهور والاختفاء .. هل يحاول أن يسبح ؟ لقد اختفى ثانية .

هدأت الأمواج . ليس بحرا .. وإنما الثلج .. ! صحراء ثلجية . تعرفت على الأفق القطبى المألوف " سيبيريا " . وها هى نفسها هناك تسير نحو مجرى يتدفق ولكن بحركة بطيئة . تصل إلى حافة الماء ، لكنها تجد نفسها فجأة فى مواجهة جذع شجرة ضخم مقيد فيه رجل بالسلاسل ، ... ولا يقاوم بالمرة . تتعرف على " لودفيك " وتجرى نحوه وهى تصرخ .." اجناتى .. ! اجناتي .! " ولكن جذع الشجرة والرجل المقيد به ينحسران كأنهما سراب . بعد ذلك تجد نفسها غائصة فى الأرض عاجزة عن الحركة . شلل . جذع الشجرة توقف أيضاً .. الدم يتدفق من وجه " لودفيك " ويتساقط فى المجرى المائى مثل الشمع على الماء ، قطرات دم كاللؤلؤ . مات ! لا ...مازال حيا .. تظهر على وجهه ابتسامة ثم يبدأ الكلام .. لكنه ليس صوته .

صوت عميق وكل كلمة واضحة بينة . صوت الممثل اليهودى " ميخويلس " على مسرح " موسكو " . " لودفيك " فى الحنجرة القناع د " ميخويلس " . يقرأ قصيدة .. هى معروفة بكل تأكيد ..

لقد صمدت أمام الرغبات ،

تباعدت الشقة بينى وبين أحلامى ،

حزنى فقط بقى كاملاً ،

بقايا قلب فارغ .

عواصف تدبير لايرحم ،

ضربت إكليل زهورى فأفقدته الحس ،

أعيش خرابا وحيدا ..

وأتساءل .. متى تحين النهاية .

أشباح تتحرك خلف " لودفيك " ، الفؤوس ترتفع استعداد لقتله . صوت آخر ، متحرر من الجسد ، خفي ، من يكون ؟ " فيلكس " يردد عبارة ثم يعيدها .. شعبنا .. شعبنا .. شعبنا .. " الفؤوس على وشك أن تنزل !

استيقظت " ليزا " برجفة شديدة . الحلم يتلاشى تدريجياً والقطار يتقدم بهدوء ، ثم بدأ ينعطف فى سيره فى المسافة المتبقية نحو القرية السويسرية الجبلية . تحسست بيديها البلل على خديها . كانت قصيدة " پوشكين " غريبة فعلا ! ...... درستها في المدرسة فى التاسعة أو العاشرة من عمرها ولم تقرأها أو ترددها منذ ذلك . إحدى مفاجآت الذاكرة .

" فيلكس " ما يزال نائماً إلى جوارها ، رأسه مستندة على النافذة وشمس ما بعد الظهيرة تطبع ظلالا على وجهه . مشطت " ليزا " شعره بأصابعها ونظرت من النافذة . صور مذهلة .

المنطقة فى قمة بهائها فى فصل الصيف . أزهار جبال الألب متفتحة النجوم ذات اللون الأصفر الفاتح رسمت على وجهها ابتسامة رضا .

لحظة ، ونسيت كل شئ وهى تستنشق ما حولها .

عربة القطار مملوءة بعبق الورود التى جاءت بها مع متاع شهر العسل عروس ألمانية سويسرية وزوجها الفرنسى .

مائة وردة بيضاء . لم يكن في عربة القطار سواهم " فيلكس " الذى لم يكن معتادا على مثل تلك المناظر ، كان فى غاية الدهشة لحجم وجمال الباقة . العروس الصغيرة التى كانت متأثرة بالسعادة البادية على وجه الولد ، أخذت وردة من الباقة وشبكتها على صدر " البلوفر " الذى كان يرتديه . ابتسمت " ليزا " لرؤية ذلك . كانت الوردة مدلاة على صدره كأنها تحاكى حالة صاحبها الجديد ! منذ ليلة الأمس ، عندما أبلغها " لودفيك " بقراره ، " ليزا " خرساء من شدة الخوف .

قال بابتسامة غريبة .. حزينة .. " لقد قررت التقاعد .!

كفى ! سأكتب لأبلغ موسكو الأسبوع القادم . "

ضمته إليها ، ولكنه كان يرى فى عينيها أنها كانت متجمدة من الخوف .

كلاهما يدرك أن فرص النجاة ضيقة جداً . إن أى خادم أو موظف نكرة ما كان يمكن له أن يترك العمل دون تحقيق بالغ القسوة ! ماذا سيفعلون مع " لودفيك " ؟

الرجل الذى أنشاء شبكات فى أكثر من اثنا عشرة دولة أوربية .

" فيم تفكرين يا أمى ؟ "

قال " فيلكس " وهو ينظر فى عينى أمه بعد أن أيقظته مناظر ورائحة الجبال . ها هما مرة أخرى وحدهما . العروسان نزلا فى المحطة

السابقة ، القطار يشق طريقه ببطء وصعوبة نحو " فينهوت " ضمته " ليزا " ولم تجب . كانت قد قررت هى و " لودفيك " ، منذ أن كان " فيلكس " فى الثالثة ويسأل غريبة أن الصمت أفضل من الكذب .... ما عدا مناسبات خاصة طبعاً ! كان ذلك هو الأسلوب الوحيد ، وإلا فإن طبيعة عمل " لودفيك " كانت تعنى صناعة عالم زائف تماماً ، مملكة من الأكاذيب . ولم يكن ذلك مقبولا بالنسبة لكليهما .

و " فيلكس " من جانبه ، نشأ ليقبل أن هناك أسئلة كثيرة فى هذا العالم .. لن يحصل على إجابات عنها !! كان يرى ذلك مراوغة ، قبلها كحقيقة من حقائق الحياة ، مثلما يتعلم الأطفال دائماً ألا يتحدوا قرارات من هم أكبر منهم .

وصل القطار إلى المحطة . هبطت " ليزا " و " فيلكس " على الرصيف واستنشقا هواء الجبل ! ساعدهما أحد الحمالين ، وفى ظرف نصف الساعة كان قد وصلا إلى الشاليه الذى اختاره لهما " لودفيك " كمعتزل عن العالم !

كلاهما يفكر فيه !

" متى يأتى ؟ ! "

- ٢٥ -

كان " لودفيك " بمفرده فى " باريس " . يقضى وقتاً قليلا فى غرفته بالفندق ويتجنب كل معارفه وعلاقاته القديمة . وذات ليلة ، وهو عائد إلى الفندق بعد منتصف الليل ، رأى شخصا غريبا يراقب غرفة نومه من الشارع . انتظر حتى انصرف الرجل ، وغادر الفندق نهائياً ، فى الثالثة صباحاً !

كنا بعد منتصف النهار ، عندما استيقظ فى اليوم التالى فى شقة آمنة فى الدور الأخير من عمارة قديمة فى شارع " كوندى " . لم يكن هناك أحد فى الدنيا ، ولا حتى " ليزا " ، يعرف بوجود هذه الشقة .

بعد الثانية ظهرا ، خرج " لودفيك " وسار حتى أقرب مقهى وطلب قهوة و " كرواسان " واستخدم التليفون للاتصال بـ " ليفيتسكى " كما هو متفق . وفى ظرف نصف الساعة كان " ليفيتسكى " فى المقهى .

أخرج نسخة من " الإزفستيا " بتاريخ ثلاثة أيام سابقة من حقيبة يده وأعطاها لـ " لودفيك "

لم يكونا قد تبادلا كلمة واحدة بعد .

" هل أنت متأكد أنك لم تكن متبوعاً يا " شميلكا " ؟ "

" نعم ! "

بعد أن قرأ " لودفيك " الجريدة امتلأ وجهه بالغضب " قتلة البلشفيك " القدامى يتلقون الأنواط " .. لايمكن أن ننتظر يا " شميلكا " حتى يقتل ذلك السفاح الجميع ! .. لماذا بحق

الجحيـــم تركـت " بو خارين " يعود ؟

كان لابد أن يبقى ويوحد القوات مع " تروتسكى " .

؛ كان خائفاً . " تروتسكي " أيضاً سوف يقتل . " سپيجل جلاس " يتبجح بذلك فعلاً .

" لابد أن نحـذر تروتسكى . هل لديك أية وسـيلة للاتصـال ؟ ابنه موجود هنا . "

وهل يثق بنا ؟ "

" لا أستطيع أن أصبر أكثر من هذا . كتبـت مسـودة أولى من رسالتى للجنة المركزية لإعادة نـوط الـشـرف . غـدا سـأرسـله إلى " موسكو " وإلى بعض الأصدقاء فى " امستردام " و"لندن " مع تعليمات بأن ينشر علنا . وبعـد أن يحـدث ذلك سـوف يـكون بإمكـاننا أن نرى " تروتسكى " ونحذره بما نعرف .لماذا تنظر إلى هكذا ؟ "

" لاتريد أن تعيش أكثر من هذا ... أليس كذلك ؟ "

" بلى ! أنا لدى ابن . أريد أن أراه وقد كبر ! .

" ولكن رسالتك دعوة للقتل ... سيقتلونك يا " لودفيك " وأنت تعرف ذلك أفضل منى .

" هناك مخاطرة ... لكن ...

" لكن مـاذا ؟ الوحـيـدون الذين بإمكانهم حـمـايتنا هـم أجـهـزة الاستخبارات الرسمية فى بريطانيا والولايات المتحدة . "

ضحك " لودفيك " : ليس في بريطانيا . لنا رجال كثيرون هناك أنا الذى زرعتهم ... والآن أصبحت أخافهم . على أية حال ، يـجب ألا نبيع

أنفسنا للبرجوازية . الموت أفضل ! "

" ربما وقعت أنا أيضاً على رسالتك . تركنا العمل فى وقت واحد قد يحدث أثراً أكبر ! "

" هل تعطينى رقم تليفون ؟ "

أعطاه " لودفيك " قصاصة . حفظ " ليفيتكسى " الرقم ومزق الورقة .

تصافح الرجلان بحميمة .

" من الذى كان يظن طوال تلك السنوات الماضية فى " بدفو شوليسك " أن الأمر سوف ينتهى بنا على هذا النحو ؟ "

عانق " لودفيك " صديقه وهما يفترقان . كان " ليفيتكسى " خائفاً .

ويشعر بخواء داخلى .. فهو يعرف أنه لن يرى " لودفيك " مرة أخرى صعد " لودفيك " السلالم " عائداً إلى ملجئه وبدأ يعيد كتابة رسالته . وبعد أن انتهى من ذلك شعر بسلام نفسى . وأنه أصبح حرا . فتح النافذة ليسمح بدخول الهواء المنعش ونظر إلى الناس فى الشارع . ابتسم للسماء الزرقاء الصافية الحياة تنساب هادئة فى باريس فى ذلك اليوم . ليته كان يشعر بمثل تلك السعادة فى شقته فى " لينجراد " وهو ينظر إلى " نيفسكى بروسبكت " .

على ناصية الشارع رأى جماعة من الشباب فى الزى العسكرى ، لكنه لم يلمح أى فرد من أفراد الـ .. " إن . كى . فى . دى " جلس أمام الآلة الكاتبة وبدأ :

١٦ يوليو ١٩٣٧

إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى .

هذه الرسالة التى أكتبها الآن ، كان يجب أن أكتبها منذ زمن بعيد ، فى ذلك اليوم عندما ذبح الستة عشر – وكل منهم مناضل بلشفيكى – فى أقبية " لوبيانكا " بأوامر من " أبو الشعب " .

بقيت صامتا آنذاك ولم أرفع صوتى إزاء جرائم القتـل التى تلت ذلك . ولذا فإننى أتحمل مسئولية ثقيلة ، ذنبى عظيم ، ولكننى سأحاول أن أكفر عنه ... أكفر عنه من فورى وأريح ضميرى " .

حتى هذه اللحظة كنت أسير إلى جواركم . والآن لـن أخطـو خطوة أخرى . لقد تفرقت بنا السبل . من يسكت الآن لابد أن يكون متورطا مع " ستالين " ، خائنا للطبقة العاملة ، خائنـا للاشـتراكية . لقد ناضلت من أجل الاشتراكية منذ كنت فى العشرين من العمـر . والآن ، وأنا على مشارف الأربعين لا أريد أن أعيش على حـسـاب الـ " إن . كى . فى . دى " . تعلمت أن أعمل بطرق غير قانونية لمدة ستة عشر عاماً .. وما يزال بقـيـة مـن طـاقة لأبـدأ مـن جديد ، لإنقاذ الاشـتراكية .

الضجيج الذى تهنئون به أنفسكم لن ينجح في إغراق أنات وصرخات الضحايا الذيـن يعذبون فـى أقبيـة " لوبيـانـكـا " و " سفابودنيا " ومينسك و " كييف " و " لينجراد " و " تيفليس " .

لن تنجحوا . وصوت الحقيقة لن يخمد إلى الأبد على أيدى الفساد وأيدى أمثالكم المجردين من كل المبادئ ، ومزيج الأكاذيب والدماء الذى تسممون به الحركة العمالية فى أرجاء العالم ...

وحذر ستالين ألا يصدق الجماهير التى تشيد به وتهتف له ، وأن

هناك حقداً رهيباً تحت ذلك التملق . شرح تطوره السياسى ، وكيف أنه لايمكنه مواصلة خدمة "موسكو" . ووقع باسم " لودڤيك " .

ثم بعد ذلك خطرت لـه فـكرة ، فـأضاف فقـرة جـديـدة فى سنة ١٩٢٨ منحت " نوط العلم الأحمر " من أجل خدمات قدمتها لثورة البروليتاريا . مرفق لكم النوط .

إن من المهين لكرامـتى أن أرتدى نوطا يرتديه جـلادو أفـضـل عناصـر الطبقة العاملة الروسـيـة . فى الأسـبـوعين المـاضـيين نشرت " إزڤستيا " أسماء الذين حصلوا على النوط مؤخرا .. لم يتم الإفصاح عن إنجازاتهم : إنهم الرجال الذين نـفـذوا أحـكـام الإعدام فى البلسڤيك القدامى .

منذ أن أنشـاء شبكته ، كان " لودڤيك " قد ابتكر أسلوباً لتوصيل الرسائل العاجلة إلى موسكو خلال أربع وعشرين ساعة .

وضـع رسـالتـه إلى مسـتـخدميه السابقين فى مـغلف بنـى وكتب عليه :

لعناية الشعبة الرابعة .. علي وجه السرعة . ثم سار حتى السفارة السوڤيتية ، وضعه فى صندوق البريد الخاص ، وانصرف دون كلمة مع أحد باستثناء البواب الذى ابتسم له وغمز بعينه .

بعد عدة جولات إلى شارع " كوندى " مقتنعا بأنه قد فاجاهم . كان أخر مكان يتوقعوا وجوده فيه هوالسفارة .

" لودڤيك " يعتقد أنه كـان فى أمان الآن ، ولو لبعض الأيام حتى تصل الرسالة إلى " موسكو " .

لقد استخف بالعدو . بعد ساعة من تسليم الرسالـة ، استـخـدم

" سپيچل جلاس " سلطته ليفتحها ويقرأها ويعقد اجتماعا عاجلا لكبار معاونيه .

" لودڤيك ؛ خائننا وانضم إلي النازيين . أريدكم أن تجدوه هو وعائلته .. وأن يقتلوا . انتهى . أى أسئلة ؟ حسن لاتعودوا قبل أن تكونوا قد نفذتم هذا التكليف . أرسلوا " ليڤيتكسى " ! "

دخل ليڤيتكسى المكتب ، شاحب الوجه .

" أين صديقك لودڤيك ؟ "

" ليس لدى فكرة ! "

" هل مازال فى پاريس ؟ "

" أنا فعلا لا أعرف .. لم نتصل ببعضنا منذ عدة أسابيع ، وكما تعلم فقد عدت من إنجلترا بالأمس فقط .. "

" لا أصدقك يا " ليڤيتكسى " . أمثالكم من الكوزموبوليتان كلهم سواء . نحن ننظف الاسطبلات ببطء . أنا أحذرك . إن لم تساعد على أن نجده سنعيدك إلى " موسكو " للتحقيق معك فى "لوبيانكا" .

ابتسم " ليڤيتكسى " ابتسامة واهنة . " أشكرك على ثقتك يا رفيق ، الآن أصبح لدى عمل أؤديه ضد الثورة المضادة الحقيقية" .

"أخرج يا "ليڤيتكسى" ، ولا يكن عندك شك . لودڤيك انتهى ! "

ذهب " ليڤيتسكى " إلى المقهى ، وطلب كأسين كبيرين من البراندى . وبعد أن أتى عليهما توقفت يداه عن الارتعاش . ذهب إلى البار واتصل تليفونياً بـ " لودڤيك " . رنتان قصيرتان . ثم ثلاث رنات قصار . كانت الرسالة بسيطة . انج بحياتك . لقد اكتشفوك . بعد أن

أدى مهمته عاد " ليفيتسكى " إلى شقته وتأكد له أن أحد عـناصـر الـ " إن . كى . فى . دى " كـان يحـاول جـاهداً أن يبـدو عـاديـاً على الرصيف المقابل .

انزعج " لودفيك " لرسالة " ليفيتسكى " كيف بهذه السـرعة ؟ ثم ، غاضباً من نفسـه راح يـضرب بقـبضـتـه على الطـاولة . لابـد أن يكـون " سبيچل جلاس " قد فتح الرسالة . لعن " لودفيك " نفسه لأنه لم يختر قناة أخرى للاتصال بموسكو . حزم الآلة الكاتبة وثيابة فى حقيبة ، وخرج من الشقة .

كان يعرف أن محطات السكة الحديد فى " باريس " لن تكون آمنة لعدة أيام قادمة ،. لابديل عن السيارة .... سيارته " الستروين " مركونة أمام منزل صديقته ، العجوز التى أعطته قصاصة التحذير منذ أيام قليلة . هى أقدم وأضمن صندوق بريد له فى " باريس " . شـعر بأنه لابد أن يذهب إلى شقـتـها ليودعـها ، ولكن سنوات الانضـبـاط الحديدى غلبت مشاعرة . لامكان للعواطف فى هذا العمل البائس . تأكد أن السيارة لم تكن مراقبة ، بأن سار عدة مرات جيئة وذهابا فى الشوارع الجانبية . كان اليوم حارا وهو يستقبل نسيم المساء ، ويتمنى ألا يضطر لارتداء بدلة كاملة أو ربطة عنق . وبعد أن تأكد له أنه لايمكن أن يكون مراقباً .. دخل السيارة .

فى ظرف نصف الساعة ، كان قد ترك " باريس " وراءه مـتجـهـا صـوب " ديجـون " . كـانت الطرق سوداء بالقار ، وكـان لابد أن يقـود سيـارته ببطء . لمدة ثلاث ساعات كانت هـى السيـارة الوحـيـدة على الطريق . وصل إلى " ديجون " فى الصباح تقريباً . لم يكن من الصعب أن يعرف مكان المحطة . ركن سيارته ووجد مقهى عمالياً طلب كونياك

مع القهوة . كان حظه أفضل في المحطة . فقد كان هناك قطار صباحى متجه إلى " ليون " ، ومنها يمكن أن يستتقل قطار آخر إلى " لوزان " .

عندما وصل إلى " فينهوت " كنا بعد الظهر . كان هو و " ليزا " : قد مرا بها قبل ذلك بسنوات طويلة واستغربا ألا يكون بتلك القرية الجبلية الرائعة مطعم أو فندق . كانت " ليزا " قد وجدت غرفة فى بيت العمدة ، وكان بعض الأطفال قد دلوا " لودفيك " على الطريق ... والذين كانوا قد أصبحوا أصدقاء لـ " فيلكس " .

كان " فيلكس " هو الذى رآه أولا وجاء يجرى من على تل صائحاً بأعلى صوته :

" بابا ! لقد إبيض شعرك ! "

رفع " لودفيك " الولد من على الأرض وقبله ، ذهبا معاً إلى بيت العمدة رأتهما " ليزا " من النافذة فاندفعت لاستقبالهما ..

لاحظت هى أيضاً كيف تغير شعره ولكنها لم تقل شيئاً ثلاثتهم الآن فى غرفة واحدة ، مما حدد الكلام بين الكبار . على أية حال ، كان " لودفيك " مرهقاً ، فذهب إلى السرير من فوره بعد عشاء بسيط مكون من الخبز والجبن والحليب الساخن ليتمكن من ازدراد الطعام فى هذه الليلة نام قبل " فيلكس " بوقت طويل .

عندما استيقظ " لودفيك " كان الاثنان مازالا نائمين فى السريرين الصغيرين . ذهب إلى النافذة ووقف هناك يتطلع إلى هدوء المنظر الجبلى أمامه . كان يعرف أنه يقف على حافة هاوية ، ولكن مقارنة بعالم المرايا والأقنعة والعذابات التى تحرر منها منذ وقت قريب ... فإن الهاوية أخف وطأة .

كانت حياته كلها مباراة فى الشطرنج .. مع الموت . لم يكن جيله يخاف فكرة الموت ، ولكن ما يجعلها مقبولة هو الاعتماد بأن المرء سيموت من أجل قضية ، فى مسيرة صراع هائل على السلطة .

يدرك الآن أن الثورة التى لعب فيها دوراً صغيراً قد تحللت ، وأن الناس الذين كانوا يعملون ذات يوم تحت إمرته ، يتم تجنيدهم اليوم لقتله . سيحاكمونه ويضيقون عليه الخناق ، وإن نجحوا .. فسيقتلونه رمياً بالرصاص .

إلى متى يظل هائماً قلقاً ينظر خلفه كل لحظة ليرى إن كان الجلاء قد وصل أم لا ؟ !

تذكر حلم الليلة الماضية . ذكريات طفولته . " ظروف المعيشة هنا بدائية " .. همست " ليزا " وكلاهما قهقه !

" شـ .. شـ . شـ " قال وهو يشير إلى ابنهما النائم .

" وجوده فى حياتنا يجعلها تستحق . إنه عوضنا عن سنوات الألم والمعاناة " . قالت " ليزا " .

" ليتنى لم أتسبب فى كل هذه الكوارث لأكثر شخصين أحبهما فى العالم . ربما كان يجب أن ترحلا من هنا ! "

" لا ! "

انقضى الأسبوع الأول سريعاً . بدأ " لودفيك " يسترخى . أصبحا يخرجان للتمشية طويلاً . " لودفيك " يحكى للولد حكايات

عن الماضى ، عن أيام مـا قـبل الثـورة . وعندمـا يكون هو و " ليـزا " وحدهما يناقشان المستقبل . " لودفيك " يتحرق شوقاً للاتصال بقلة من أصدقائه الثقات فى أمستردام .. وخاصة الشيوعى الألمانى المنشق ؛ سنيفليت " . عن طريقة كان " لودفيك " يريد أن يقدم خدماته ، ومعرفـته الواسـعة عـن العـمل الـداخـلى للنظام إلى " تروتسكى " ! .

« اعتقد أنك لابد أن تنشر رسالتك الآن يا " لودفيك " ذلك سيجعل قتلك أكثر صعوبة بالنسبة لهم . "

" صـحيح ! ولكنه قد ينبه كافة أجهزة الاستـخبارات فى أوروبا وتصبح الأمور أكثر صعوبة . أريد شخصا ما ينفذ لى بعض المهام البسيطة . شخص أثق به .... جيرترود ؟ "

" ولماذا هى ؟ أما زلت تثق بها بعد العلاقة الإنجليزية ؟ "

" لقد أعترفت بكل شئ . أولئك الناس قد يشـبعو احتـياجـاتها الجسـدانية . ولكنها لاتحـتـرم عقـولهم . أنت تعرف أنها كانت تريد الانتحار من سنوات قليلة . أنا قلق .. لو أعتقدت أننى قد أختفيت بلا أثر فقد تحاول مرة أخرى أن تقتل نفسها . "

قالت " ليزا " عابسة : لا أظن ذلك ! "

" لم تحبيها أبداً : "

" لا ! "

وضحك " لودفيك " .

- ٢٦ -

كان ذلك في نوفمبر ١٩٩٢ عندما استجمعت ما يكفي من الشجاعة لأتحدث مع أمك ، كانت جالسة في مطبخ شقتنا تشرب الشاى ، وكنت أعرف أننى لابد أن أخبرها قبل أن تقرأ ذلك في الصحف ، كلانا كان نشطا في التحرك الذى أسقط النظام أخيرا ، وفي سنة ١٩٨٩ كنا جزءا من التيار البشرى المندفع أمام المبانى التى كان البيروقراط يحكمون سيطرتهم عليها ذات يوم .. ثم عبر الحائط إلى برلين الأخرى ، لكى يروا فقط ثمار انتظارهم الذى سرقه الديمقراطيون المسيحيون ، بعد عام بالضبط فقدت عملى .

وصوت ملجم بالخوف ... " هيلجا ! "

عرفت من صوتى أن الأمر جد خطير " هل قتلت أحدا يا "ڤلادى" ؟ " أسوأ من ذلك ! " .

بصوت أكثر هدوءا .. " الأفضل أن تخبرنى أنت " .

جلست أمامها واعترفت ، قلت لها إننى قد التقيت " ونتر " عدة مرات دون علمها ، عبست ، عندما قلت لها إنه هو الذى كتب فعلا الرسائل الثلاث الأخيرة التى أرسلتها اللجنة إلى المكتب السياسى .

حدثت فىَّ ... غير مصدقة ، قلت لها إننى لم أسم أحدا ، أبدا ، ما أغرانى هو المعلومات المتوفرة لدى " ونتر " والمستمرة من مصادر موثوقة في " موسكو " ومعرفته التفصيلية بمكتبنا السياسى ، كان "ونتر " من مؤيدى " جوربا تشوف " ، شيوعى إصلاحى ، وهنا أوقفتنى عن الكلام .

" ڤلادى ! هل تقول ذلك لكى تختبر علاقتنا ؟ هل هى لعبة حمقاء فكرت فيها ؟ " .

" لا .. لقد قلت لك الحقيقة ! " .

لطمتنى على وجهى ، جذبتنى من شعرى وألقت بكوب على رأسى .

" لقد خنتنا أيها الوغد ، لا تستحق سوى الموت !

لابد أن تموت ! أنا أكرهك .. لقد خدعت فيك ، كيف خطر لى ذات يوم أنك يمكن أن تكون أمينا ؟ " .

" اسمعى يا " هيلجا " .. أرجوك .. استمعى لى .. لقد هددنى ، قال إننى إذا رفضت أن أقابله فسوف يكشفون مساعدة " جيرترود " لهم . . وأنها كانت تعمل لحسابهم ، سيمنحونها ميدالية ذهبية بعد وفاتها " .

" أتمنى أن يمنحوك مثلها بعد أن تشنق نفسك ! " .

" هيلجا ! لم أقل لهم شيئا ! كانوا يعرفون كل شئ " .

" ماذا تقول ؟ لو لم تقدم لهم المعلومات ... فلماذا كانوا يحتاجونك إذن ؟ " .

" قلت لهم عن " ونتر " ، إنه شيوعى قديم ، يريد أن ينقذ شيئا من الحطام الغارق ، كلنا كنا نعمل الشئ نفسه ، لكن بطرق مختلفة ، كان فى حاجة إلى تنظيم ليضغط على قيادة الحزب وخضعنا ! ثلث رجالنا كانوا مزروعين بواسطة جهاز الاستخبارات " .

" ومنظرنا القيادى كان يتلقى الاستشارات التكتيكية من رئيس جهاز الاستخبارات فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية .. ألا تشعر بالخجل يا " ڤلادى ؟ " .

" كنت أشعر أن " ونتر " معنا ، معرفته الواسعة والدقيقة بالسياسة العالمية وبالتطورات داخل الاتحاد السوڤيتى القديم كانت مفيدة لنا جدا ، كنت أشعر أننى أستخدمه بقدر ما كان يستخدمنى ، من أين تعتقدين أننى قد حصلت على تسجيلات لأحاديث " جوربا تشوڤ " ومع " هونيكر " ؟ هل نسيت أثرها ؟ لقد منحتنا الشجاعة لكى نخرج إلى الشارع ، عرفنا أن " موسكو " لن ترسل الدبابات كما حدث فى عام ١٩٥٣

" لو كان كل شئ بريئا كما تصوره هكذا ، فلماذا لم تخبرنى بأنك كنت تقابل " ونتر " ؟ .

" كنت سأخبرك لو أننى لم أكن أعرفك جيدا ، كنت ستعترضين وتنفذين إعدامى بشكل طبيعى ، أنا أحتاجك يا " هيلجا " .

" تكذب مرة أخرى يا ڤلادى " ! لماذا لاتعترف أنك كنت تشعر بالخجل لأنك تعرف أن ما تفعله خطأ ؟ بالتأكيد .. خطأ ! أخلاقيا خطأ ! وربما أكثر ! إنه خيانة لرفاقك الذين كانوا يخاطرون معك ومن أجلك ، هل نسيت كيف كان الرفاق الشبان ينظرون إليك وأنت تتكلم ؟ كان الأمل مكتوب على وجوههم ، والآن تقول لى إن الكلمات التى كنت تقولها لم تكن كلماتك .. وإن الرفيق " ونتر " هو الذى كان يعد لك السيناريو .

انظر إلى نفسك فى المرآة ! " .

لم أستطع أن أرد عليها ! جلست .. بلا حركة ... مكبلا بالندم ، أما هى فكانت تنظر إلىّ رثاء واحتقاراً !

" لماذا تخبرنى بذلك كله الآن ؟ "

وبقيت صامتا .

" هل أنت خائف أن يصرعك " ونتر " أو شخص آخر ؟ أن تقرأ عن ذلك كله فى الصحف ؟ "

هززت رأسى .

" هل هذا احتمال وارد ؟ "

" نعم "

" وكيف عرفت ؟ "

" قال لى " ونتر " أن أحد الصحفيين كان يسأل عنى "

" ما زلت تقابل " ونتر " ؟

" إنه نشط جدا فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى يا " هيلجا " كنا كلنا نفكر فى الانضمام فى وقت ما .. أليس كذلك ؟ أرجوك .. صدقينى .. كان " ونتر " من أفضلهم ! " .

لم تستطيع " هيلجا " أن تتحمل أكثر من ذلك ، خرجت من الشقة غاضبة ، واندفعت خلفها مثل كلب ذليل ، وأخيراً توقفت واستدارت لتواجهنى .

" لا أستطيع أن أعيش معك بعد الآن ! أنا فى حاجة لأكون مع

آخرين ، منظرك يصيبنى بالغثيان ! فعلا .. كيف يمكن أن أواجههم بعد ذلك ؟ توقف عن ملاحقتى أرجوك ! "

" إلى أين ستذهبين ؟ "

" إلى أصدقائى ، قد أبقى فى المستشفى هذه الليلة أما بالنسبة للغد .. "

عدت إلى الشقة وأنا لا أدرى إلى أين تمضى بى الحياة ، لا أعرف وجهتى ، هل أبدأ من جديد .. أجود نفسى .. أستعيد حب " هيلجا " .. ثم ثقتها فيما بعد ؟ كنت أتصل تليفونيا بغرفتها فى المستشفى كل نصف ساعة تقريبا ! لا أحد يرد ، وفى الثالثة صباحا غلبنى النوم .

فى الصباح التالى اتصلت أنت بى ، وأخبرتنى أن " هيلجا " قالت لك إنها سوف تترك الشقة وترحل إلى " نيويورك " وتعيش بمفردها ولكن دون إبداء الأسباب .

وافترضت أنت أننى لم أكن مخلصا ، ولم أصحح لك ذلك الافتراض يابنى ، كنت أعتقد أنك لن تفهم شيئا آخر غير ذلك ، لم يكن فى دمك نقطة سياسة واحدة ، أرجوك .. أغفر لرجل عجوز كبرياءه الأحمق ، كان لابد أن أقول لك كل شئ فى الوقت المناسب .

إن ما أذهلنى هو السرعة التى غادرت بها " هيلجا " إلى " نيويورك " ، شعرت بالألم ، كنت أفترض أنها لابد أن تكون قد خططت لذلك منذ زمن ، وقبل أن أعترف لها بسرى .. بذنبى ! فكرت أنها ربما كان لها عشيق ، وأنهما قد هربا معا .

وبعـد أسـبوع اكتشـفت .. مصـادفـة .. أن زميـلـة لهـا فـى المستشفى كان قد عرض عليها العمل فى نيويورك ولكنها لم تسـتطع السـفر لمـرض أمـها الشديد ، وقد رشحت " هيلجا " التى طارت إلى هناك ، وحصلت على الوظيفة فى اليوم نفسه .

وهكذا يكون اللغز قد أصبح محلولا أمامك يا " كارل " ما كتبته هـو السـبب الوحـيد والحقيقـى لافتـراقنا ، هـل تـرى أنها كانت على حق ؟ أنا أعتقـد ذلك ، وأفكر دائما فى كيفية أن أسترجـع نفسى فى عينيها ، أنا فى حاجة إليها يا ابنى ! .

- ٢٧ -

كـان " ساو " قد تركني بمفردى فى شقته بشارع موريللو ، ذهب إلى " هانوى " ليحضر عشيقته وابنهما إلى " باريس " وكنت أكره دائما أن أكون بمفردى ، أود أن تكون " هيلجا " بجانبى .

" ساو " أحضر لى كل ما طلبته من روسيا .. والأشياء موجودة فى مكتبه المجاور لغرفتى ، أجلت فحص الأوراق يا " كارل " كنت أشعر بالقلق وكأننى على حافة هاوية ، أحاسيسى تحذرنى من شئ غير عادى ينتظرنى !

صنعت قدحا كبيرا من القهوة ، وعدت إلى مكتب " ساو " .

حقيبة " ساو " ملقاة على الأرض مكدسة بكتب وملابس . الملفان اللذان أحضرهما من " موسكو " يحملان عنوانين : " جيرترود مايور " و " لودڤيك " : رائحة سجائر روسية قديمة ورزم صغيرة من الوثائق عليها آثار دبابيس صدئة وجوازات سفر " لودڤيك " .

بدأت بملف " لودڤيك " ، سمين ، مقارنة بالآخر ، وفوجئت بوجود مجموعة من الصور ، لم أتعرف على معظم الناس فيها ، كانت هناك بعض الذكريات القديمة " لودڤيك " مع امرأة ، لها وجه قاس بملامح حادة ، ثم بدأ يظهر فى الصور طفل ، تنهدت ، لم تكذب علىّ أحاسيسى .

المرأة التى فى الصور كانت هى زوجة " لودڤيك " أو رفيقته ،

والطفل ذو العينين الذكيتين .. ابنهما ، لاشك فى ذلك ، وهكذا فإن " جيرترود " إما أنها كانت تعيش وهما أو أنها كذبت علىَّ ، الاحتمال الثالث ، وهو احتمال أن تكون قد عاشت علاقة حب قصيرة مع " لودفيك " وكنت أنا نتيجتها .. لم يكن واردا ، والآن كنت قد أصبحت متأكدا أن " لودفيك " ليس أبى ، لم تكن هناك أى صورة لـ " جيرترود " مع " لودفيك "

وجدت أصل الرسالة الشهيرة التى أرسلها " لودفيك " إلى اللجنة المركزية ، والتى كانت أمى تحفظها عن ظهر قلب وتتلوها علىَّ كثيرا ، كان هناك أيضا تلك المناسبة التى لا تنسى عندما أعادت قصة رسالة " لودفيك " لأعضاء لجنة " من أجل ألمانيا ديمقراطية " فى أحد اجتماعاتهم ، وكان ذلك ، دون شك ، بعد الحصول على إذن من " ونتر " ، وبغرض تعزيز أوراق اعتمادها كمنشقة .

استعرضت الوثائق بسرعة وكان معظمها تافها لا أهمية له ، إلى أن وجدت مغلفا مكتوبا عليه :

سرى للغاية

لعناية الرفيق : " جـ . ف . ستالين "

إعدام الخائن العتيد : " لودفيك "

كانت يداى ترتعشان وأنا أخرج التقرير المطبوع على الآلة الكاتبة من المغلف ، كانت الورقة قد حال لونها وعلى وشك التحلل ، فردت الأوراق كلها على الطاولة ، وحملت كل ورقة على حدة إلى ماكينة التصوير ، وبعد الانتهاء من المهمة جلست فى مقعد " ساو " الجلدى وبدأت القراءة .

من : هـ . سبيجل جلاس

٦ سبتمبر ١٩٣٧

منذ أول مرة التقيت فيها بـ " لودفيك " ، لم يخامرني شك أننا كنا نتعامل مع خائن ومجرم على أعلى مستوى من الذكاء ، بمجرد أن سلم ما يسمى بـ : " رسالة إلى اللجنة المركزية " كان عملاؤنا وراءه ، علمنا أنه كان على علاقة بأجهزة استخبارات غربية ، ربما تكون " برلين " أو " لندن " قد جندته ، ولكن سرعان ما تكشف لنا أنه كان يلعب عليهما معا .. ربما ليعرف أيهما سيدفع له أكثر !

وبعد أن درسنا تاريخ هذا الرجل وشخصيته بعناية ، اتضح أن ميله العاطفي وضعفه اللذين يجعلانه دائما لايستطيع أن يفصل بين الصداقة والواجب الوظيفي ، سوف يمكناننا من اقتفاء أثره ، وقد أثبت هذا التقدير جدواه بأسرع مما كنا نتوقع .

علمنا أن " لودفيك " كان لديه عدة نساء تعملن لحسابه في أوروبا ، أقمت اتصالات باثنتين منهما في بريطانيا وهناك أخريات في ألمانيا والنمسا .

إحداهن " ج . م " شيوعية ألمانية قابلتها في بريطانيا وكانت قريبة منه على نحو خاص ، إن لم تكن علاقتها صميمة به ، جعلت عميلا ألمانيا آخر " ك ، و " يقابل تلك المرأة ، بدأ " ك . و " يسعى لصداقة " ج . م " في شهر يونيو من ذلك العام .

بعد ذلك بفترة قصيرة اعترف لها بأنه شيوعي ألماني زميل ، يعمل لحسابنا وقال لها إنه يحبها ، والحقيقة أنها وقعت في سحر " ك . و "

وأصبحا حميمين ، تقرير " ك . و " عن تفاصيل ذلك الإغواء مرفق بهذا التقرير ، ومنه ترى أن الحب الجسدانى الذى كانت " ج . م " محرومة منه منذ زمن بعيد ، قد لعب دورا كبيرا فى نجاحنا .

كان إخلاصها لـ " لودفيك " مبنيا على عبادة البطل وحبها له ، رفضه تبادل العلاقة الجنسية معها ، جعلها ، كما يوضح تقرير " ك . م " ، تشعر بالامتعاض ، أنا أضيف هذه التفاصيل فقط لأن الرفيق " بيزوف " أخبرنى أن الرفيق " ستالين " يريد تقريرا شاملا لايغفل شيئا مهما كان صغيرا أو تافها ..

وبعد أن تمكن " ك . و " من كسب ثقتها ، أبلغ " ج . م " أن " لودفيك " قد خان حركتنا .. ولابد أن يلقى القبض عليه ويعدم قبل أن تأخذه " برلين " ، رفضت هذا التوجه فى النقاش ، ولكن " ك . و " أقنعها بأنه حتى لو لم يذهب بمحض إرادته إلى " برلين " فإنهم سيكتشفونه ويجعلونه يتكلم ، وهكذا يمكن أن يكون مستقبل عمليتنا الألمانية فى خطر ، وهنا اعترفت أن " لودفيك " كان على اتصال بها وأنها كانت ستلتقيه هو وأسرته ، وبناء عليه ، نقلنا عمليتنا إلى مكان قريب من الحدود الفرنسية السويسرية ، أرسلنا علبة شوكولاته سامة لكل الأسرة ، كان يمكن أن يسهل ذلك المسألة ، ولكن منظر ابن "لودفيك" .. الصغير " فيلكى " جعلها تفقد شجاعتها فخطفت العلبة منه .

كان تصرفها غريبا ، ولكنه لم يثر الشك لدى " لودفيك " قالت إنها كانت فى عجلة ، وحددت له موعدا لتراه بعد أيام قليلة .

كان جميع أفراد فريقنا فى حالة استعداد ، قابلته فى مقهى بالقرب من المحطة فى " تيرتيت " ، كانا يتمشيان ، اقتربت منهما سيارتنا وتوقفت ، حملناهما ووضعناهما فى السيارة ، حينذاك أدرك أنها خانته وبدأ المقاومة ، أمسك بشعرها فبدأت تصرخ ، كان ذلك يوم ٤ سبتمبر ١٩٣٧ ، كان فريقنا على طريق " شمبرلاندز " بالقرب من " لوزان " ، توقفنا وألقيناه من السيارة وأطلقنا عليه الرصاص ، كان خائنا وشريرا حتى آخر لحظة ، كان يهتف " نظام ستالين قائم على الإرهاب .. ولن يدوم عاشت الثورة العالمية .

وهكذا كان أمامنا أن نختار ، هل نذهب إلى " فينهوت " ونقتل أسرة الخائن ونخاطر بحياتنا ، حيث قد يتم القبض علينا .. ؟ جاءنى اتصال تليفونى وصدرت أوامر بأن أعيد الفريق إلى باريس ، الدقة العسكرية لعمليتنا ..

لم أستطع أن أواصل القراءة يا " كارل " تملكنى خوف شديد .

المعلومات التى وصلتنى من " جيرترود " عن القبض على " لودفيك" كان ينقصها تفاصيل كثيرة ، هل كانت هى المرأة التى أوصلتهم إلى " لودفيك " .. معقول ؟ كنت أود أن أقفز من نافذة شقة " ساو " فى الطابق الأخير .

ثم فتحت الملف المكتوب عليه " جيرترود " لاشئ مهما هنا ، إلا إذا كانوا قد أخذوه ، كان هناك تقرير إدارى ممل يثنى على تفانيها وولائها ، وتقرير قصير عن وصولها بسلام إلى " برلين " وإقامة جماعة اتصال جديدة تحت قيادة " ونتر " فى ألمانيا .

افترضت أن جرائمها التى ارتكبتها بعد الحرب لابد أن تكون قد سجلت فى أرشيف ألمانيا الديمقراطية ، عدت إلى ملفات " لودفيك " ووجدت رسالة من " ليزا " إلى " فريدى " فى موسكو ، كانت قد كتبت قبل رحيل " ليزا " و " ڤيلكى " إلى الولايات المتحدة مباشرة بمساعدة أصدقاء بلچيك .

الرسالة جعلتنى أبكى ، ولا أعرف كيف سيكون شعورك يا " كارل " بكيت على " لودفيك " ، و " ليزا " و" ڤيلكس " ... بكيت علينا ، أمى قائلة كيف ترى ذلك ؟ .

عزيزى عزيزى " ڤريدى " .

لا أعرف إن كانت هذه الرسالة سوف تصلك ولكننى أرسلها إلى عنواننا القديم الآمن ، ستذهب إلى ڤيينا ، ثم إلى كييف .. ثم تصلك من كييڤ .

لابد أن تصل إليك يا " ڤريدى " ، لن تصلك أخبار من " لودفيك " بعد الآن ، قتلوه فى الأسبوع الماضى ، وجدوا جثته مخرمة بطلقات من مدفع ماكينة . واصلوا إطلاق النار عليه ، حتى بعد أن فارق الحياة ، كما يفعل الصيادون الخائفون عندما لايصدقون أنهم قد قتلوا نمرا .

كان " لودفيك " يستعد للسفر إلى " الرايمز " ، حيث رتب لاجتماع مع الزعيم العمالى الألمانى " سنيڤليت " ، ولكن قبل ذلك كان لديه موعد مع " جيرترود مايور " هل تتذكرها ؟ كانت هى التى قد وشت به لجهاز الـ " إن . كى . ڤى . دى " .

كان " ڤيلكس " قلقــا عندمــا عدت من " تيريتيت " بدون "لودڤيك" يوم السبت ، وعلى مدى اليومين التاليين لم يكف عن السؤال عن والده قــرأت عن ذلك فى الطبعة الأولى من جـريدة " لوزان " صـبــاح الأثنين بعــد عــدة ســاعــات ، أخبرت " فيلكس " .. وجلسنا على جانب الطـريق وبكينا .

كـان " لودڤيك " يعـرف أنهم لن يتركوه على قيد الحياة طويلا ، كان يبتسم متجهما كل صباح يجد نفسه فيه على قيد الحياة وكأنه يقول : لقد عشت يوما آخر كل يوم يجىء بأمل جـديد وخـوف جـديد .. قـال ذات مـرة : " .. والآن أعـرف كـيـف يمكن أن تكون الأمـور بالنسـبـة لجـمـيع الآخرين فى موسكو " .. كان يود من كل قلبه ، ويدعم من الاشتراكيين ذوى العقـول المسـتقلة أن يحكى للعالم عن جرائم " ستالين " ، وأن يحذر " تروتسكى " من أن وحدة خاصة كانت تعد العدة لاغتياله منذ وقت قريب .

فى آخر أسبوع لنا معـا ، كـان " لودڤيك " قد بدأ يتوهـم أشياء، بدأ يراكـم جميـعـا ، فى القطـار كــان يـرى أن المحصل يشــبـهك ، فى الحـافلة كـان يتـوهـم أن السـائق يشـبـه " لارين " ، لم يشـعـر أبدا ، هـكـذا ، بالوحـدة فى حيـاته ، ولا بأنه مقطوع من رفاقـه وأصدقائه ، فـى أحد الأيام ، وكنت أكثـر اكـتـئـابا عنه فـى أى يوم آخـر ، بدأنا نتكلم عن الأيام الماضية فى " ڤيينا " ، وعنكم جميعا وعن " كريستينا " .. وتدفقت الذكريات .

كـانـت المـرة الوحـيـدة التـى ضـحـك فـيـهـا ، عنـدمـا كنـا

نتكلم عن " بدقوشوليسك " قال " عندما كنا صغارا ، كنا نتوق لمغادرة " بدقوشوليسك " ، كان لدى كل منا رغبة ملحة فى رؤية العالم ، وفى أن ندير ظهورنا لـ " جاليشيا " ، والآن ، أنا هنا وسط منظر طبيعى رائع ، وعلى استعداد لأن أتنازل عن أى شئ .. لأتنوق الحليب الساخن الذى كانت أمى تقدمه لنا فى ليالى الشتاء الباردة ، كانت تغليه حتى يصبح فى لون الشوفان " .

ومرة أخرى ، كان يذكرنى بحديث " ليڤينيه " فى قفص الاتهام فى " ميونخ " :

نحن الشيوعيين موتى فى أجازة فعلا ، ولكن من الذى كان يمكن أن يصدق أننا سيتم اصطيادنا مثل الكلاب ، كما حدث لـ "ميشا" فى "كييڤ" بأيدى أناس يقولون إنهم شيوعيون وينفذون أوامر الحزب الشيوعى ؟ ..

فى الشهر الماضى ذهبنا إلى " ڤيڤى " ، مدينة صغيرة فاتنة بجوار بحيرة " چنيڤ " الكبيرة ، ووجدنا أنفسنا معجبين بكنيسة "سان مارتان " ، ونحن ننظر إلى شواهد القبور وجدنا اسمين إنجليزيين : " لودلو " و " بروچتون " ، من أولئك الإنجليز الذين ينتمون إلى القرن السابع عشر ؟ دخلنا الكنيسة وسألنا القس .

ولدهشة " لودڤيك " كان القس يعرف تاريخ الرجلين كاملا . كان الرجلان من الثوار ، " ادموند لودلو " هو أحد القضاة الذين حاكموا " تشارلز الأول " ،

و " بروچتون " هو الذى قرأ حكم الإعدام .

وبمحض المصادفة ، وجدنا مقبرتى أثنين من أقرب رفاق "كروموبل " ، كان " ثرللو " رئيس سكرتارية " كروموبل " قد نبههما وحذرهما أن حياتهما فى خطر .

وفى " ڤيڤى " استقبلوهما استقبال الأبطال ، وكان القرويون يمنعون أى غريب من الاقتراب من القرية ، كان منزل الليفتنانت جنرال "ادموند لودلو" عليه حراسة مشددة ، وكان أى قارب يقترب من الشاطئ يتم تفتيشه جيدا ، وأى متسكع يتجول فى " ڤيڤى يلقى القبض عليه ويفتش ، وكان السائحون الأبرياء يعاملون معاملة الشخصيات المريبة ، كان هناك جرس فى حجرة " لودلو " ، عند سماع صوته يحمل المواطنون أسلحتهم ويهرعون إلى بيت الرجل الإنجليزى ، الرجلان تزوجا هنا مرة أخرى ، وماتا موتا طبيعيا ..

والألواح الرخامية الموضوعة تكريما لهما ، كان مكتوب عليها : " المدافعون عن حريات وطنهم " . وكانت ذريتهم ما تزال تعيش فى سويسرا ، نظرت أنا و " لودڤيك " إلى بعضنا الآخر فى دهشة .

كلانا كان يفكر فى الشئ نفسه ، لو كان بالإمكان أن يحمينا أهل القرية نحن الثلاثة هذه الأيام ! ؟ .

قال " لودڤيك " : " كان قرنا أكثر تحضرا من القرن الذى نعيشه ، نحن لانجيد سوى إنتاج الأيتام !! " "

فيلكس " أيضا يعرف أن ولده قتل بأيدى " رجالنا " هكذا كنت تشير إليهم فى " موسكو " يا " ڤريدى " " ڤيلكس " يسأل أسئلة صعبة ويطلب إجابات عنها .. بالأمس سألنى عرضا : أمي .. من أين جاء " ستالين " إذن ؟ ألم يكن تابعا مخلصا لـ " لينين " ؟ " أعتقد أن ابن " لودڤيك "لن يصبح أبدا ثوريا محترفا ، فهو ملئ بالحقد والكراهية للناس الذين قتلوا أباه .

ليتك كنت هنا يا " فريدى " ، أنت وكل الآخرين ، أنا فى حاجة إليكم ، أفتقدكم ، وخائفة عليكم ، لا أحد من الذين عملوا مع "لودڤيك " فى أمان ، أهرب يا "فريدى " ، أهرب .. ! انج بنفسك ، مادمت قادراً على ذلك !

" ليزا "

وهكذا يابنى ، خسرت جدا ، وربحت جداً آخر ، أعتقد أن " ونتر " لابد أن يكون أبى وهذا فقط هو الذى يفسر لى عدم وجود اسمى فى ملفات الـ " ستاسى " * لابد أنه قد تأكد من ذلك ، لو عرفت ذلك من قبل ، لما أخبرت " هيلجا " ، ولكانت هنا الآن ، ولما شعرت بهذه الهشاشة أو عدم الاستقرار النفسى ، كنت غبيا .. وجبانا .. ولكن ، لست مجرما مثل أجدادك ، وكما كان يحدث فى أوقات أخرى ، وإن كان على نحو أكثر غرابة .. هناك قوة عمياء تدفعنى الآن لكى ألتقى بـ " ونتر " .

* جهاز الاستخبارات فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية - " Stasi " .

- ٢٨ -

يوليو ١٩٤٥ ، برلين غارقة فى ضوء الشمس ، حطام الحرب فى كل مكان ، قطعان النساء تعمل فى جمع وإزالة الأنقاض ، جثث تحت البقايا والاطلال ، والمطر لم يتوقف على مدى اليومين الأخيرين ، أما ظهور الشمس فأيقظ الرائحة النتنة للجثث المتحللة !

مجموعة من الضباط الأمريكيين الذين وصلوا حديثا يسيرون فى " الكودام " عندما سمع أحدهم اسمه يتردد .

" ڤيلكس .. ! ڤيلكس . ! " كان الصوت عاليا وملفوظا بالروسية " معقول ؟ أنت ؟ ! .

حملق الضابط الأمريكى الشاب فى الشخص الذى كان يرتدى حلة قذرة من زى الجيش الأحمر ، والذى كان يناديه باسمه من عربة "چيب" مكشوفة ، كان " فيلكس " قد أبلغ عند وصوله بأن ضابطا من الجيش الأحمر كان يبحث عنه ، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع . كان يكره كل ما هو سوڤيتى .

ڤيلكس لم يره جيدا ، ولكن عندما اقتربت السيارة الچيب بدأ يتعرف عليه ، كان ابن العم " ڤريدى " ... " آدم ! " صديق المدرسة القديم أيام " موسكو " ، آدم .. ماجور فى الجيش الأحمر ، قفز من سيارته الچيب ، وتعانق الرجلان ، قدمه " ڤيلكس " إلى زملائه الضباط ، الذين كانون مدهوشين للصلات الواسعة لصديقهم الشاب

الخجول ،رتب أن يلتقى بهم فيما بعد ، ودفعه "آدم" فى الچيب وأصدر أوامره للسائق بأن يعود بهما إلى المكان المخصص له بالقرب من الثكنات المؤقتة .

لم يتكلما كثيرا فى السيارة ، وصدرت أوامر للسائق بأن يذهب لإحضار بعض الطعام والشراب والعودة فى ظرف ساعة .

وجد " آدم " و " فيلكس " مقعدا قديما فى الساحة أمام الثكنات " العم ڤريدى ؟ " .

" مات ! "

" كيف ؟ "

" بعد أن قتلوا أباك ، كانت مسألة وقت بالنسبة له ، وصلتنا رسالة والدتك ، بكى " ڤريدى " مثل الأطفال ، قال لأمى إنهم لن يأخذوه حيا ، عندما جاءوا لإلقاء القبض عليه قفز من شباك غرفته ، تعرف أنه كان يعمل فى الطابق الأخير فى الشعبة الرابعة . "

" وأمك " .

" نجت ! لحسن حظها كانت قد انفصلت عن " ڤريدى " منذ عدة سنوات ، استجوبوها عنه وعن " لودڤيك " ، قالت لهم كل ما تعرفه ... ولم يكن كثيراً " .

" ألا تشعر بالمرار يا آدم ؟ " .

" مرارة ؟ ! " وضحك ضحكه جوفاء " لقد كنت دائما أشعر بكراهية محرقة ، عندما التحقت بالجيش الأحمر فى البداية كنت أحلم دائما بأننى أقتل " ستالين " ، فعلا " .

" والآن ؟ "

" لقد غيرت الحرب كل شئ .. أنت تعرف بعض ما مررنا به ، في وحدتنا ، كان هناك رجال ماتت عائلاتهم بكاملها أثناء معسكرات التجميع ، بعض الضباط ، بينهم جنرال ، أطلق سراحهم من المعسكرات لأن خبراتهم كانت مطلوبة ، إنهم يكرهون " ستالين " وكل ما يمثله ، مثلى ، ولكننا كنا نكره النازيين أكثر ، كل عائلة " فريدى " عماتى وأعمامى جميعا ، وأجدادى أبيدوا فى مذبحة " بيبى يار " : مئات النساء والرجال والأطفال من أصل يهودى ، كانوا يساقون إلى الغابات ويجبرون على حفر قبورهم .. ثم تطلق عليهم النار .. وكان الألمان يعتبرون ذلك تدريبا على الرماية .. ليس أفراد القوات الخاصة .. بل الجنود العاديون ، ولم يكن اليهود فقط .

كان الألمان يعاملون الشعب كله أسوأ من معاملة الحيوانات .

" ألذلك تركتموهم يغتصبون ويسلبون وينهبون فى برلين ؟ "

" تركناهم ؟ لقد كانت الأوامر تأتى من فوق .. " ستالين "

أعطى أوامره للقيادة العليا لتشجيع الرجال الذين خاضوا حربا ضارية ، بأن يجدوا " بعض الترفيه " .. بنص كلماته ، ! جيشنا منضبط .

وكان المنطق بسيطا : كانوا يعاملوننا كالحيوانات ، وفى "برلين" أثبتنا لهم بالفعل أننا حيوانات ! يوم دخلنا " برلين " كان هناك سكان رفعوا العلم الأحمر ، النساء خرجت ببطاقات الحزب الشيوعى القديمة التى كن يخفينها أثناء حكم النازى ، كن يظهرنها لنا والدموع

فى عيونهن وهن يستقبلن قواتنا فرحين ! لك أن تتخيل حجم الرعب وجنود الجيش الأحمر يغصبوهن " .

لفهما الصوت لحظات ، كان كلاهما قد سمع والده وهو يروى كيف أن الحرب تغير كل شئ ، الجبال القائمة ستصبح بمستوى الأرض والتلال الصغيرة ترتفع إلى ذرى جديدة ، كانا يعتقدان أن هذه الحرب ستغير العالم إلى الأفضل كما فعلت سابقتها ، وعندما عاد وجههما يألفان بعضهما مرة أخرى وهاجت الذكريات القديمة بدأ يتكلمان ، روى " ڤيلكس " لآدم كيف وصلوا إلى الولايات المتحدة بمساعدة أصدقاء فى " باريس " ، حيث مكثوا عدة أشهر بعد اغتيال " لودڤيك " ، وكيف أن " ليزا " قابلت " شميلكا " ثانية ، وبعد ذلك " سيدوف " ابن " تروتسكى " الذى كان يتوق للقاء " لودڤيك " كما قابلت الكاتب " ڤيكتور سبرج " ، وكلاهما ساعد فى الانتقال إلى الولايات المتحدة .

ووصف له كيف حققت أجهزة الاستخبارات فى نيويورك مع " ليزا " وسألوها عن " لودڤيك " ، وكيف قالت لهم إنها لم تكن تعرف شيئا عن أسرار عملياته ، وبالذات أين وكيف تسلل إلى الأجهزة الغربية ، ويبدو أنهم اقتنعوا " ڤيلكس " نفسه دخل المدرسة وتخرج فى نفس موعد التجنيد .

" وعندما قلت لهم إننى أتكلم الروسية والألمانية والفرنسية والبولندية عينونى فى وحدة الخدمات الخاصة لديهم والتى تماثل الشعبة الرابعة عندنا ، كنا نزود كبار الضباط بالمعلومات الاستخبارية والأمنية"

" وأمك ؟ "

" فى طريق عودتها إلى فرنسا ، قررنا أن نعيش فى فرنسا بعد تسريحى ، درست الفلسفة وأود أن أعود إليها بعد أن ينتهى كل ذلك ، وأنت ؟ " .

" كنت أدرس الفيزياء عندما قامت الحرب ، سأعود إلى جامعة " موسكو " بعد أن ينتهى ذلك أيضا لأبدأ من جديد ، هل ستعود إلى موسكو يا " ڤيلكس ؟ "

" لا ! " موسكو " تعنى القتل بالنسبة لى ، البشر يتم كنسهم مثل أوراق الشجر ، لا ! لن أعود إلى موسكو " .

" أفهم ، فى هذه الحرب ضحينا بأرواح كثيرة .. بغباء! معظم جنرالاتنا لايحترمون الحياة البشرية ، كان " چوكوڤ " يستخدم الجنود كمجسات للألغام ، ولكننى أعيش فى " موسكو " أيضا يا " ڤيلكس " ، وهناك غيرى كثيرون ، ليس لنا بلد آخر ، ألن تعود أبدا .؟ ولو فى زيارة قصيرة ؟ " .

هز "ڤيلكس" كتفيه ، كان ڤيلكس يقول عادة أن لا شئ مستحيلا .. مثل العالم الذى نعيش فيه ، نحن أيضا فى تغير مستمر. وصل الطعام أكلوا خبزا أسود غير طازج ورنجة معلبة وشربوا زجاجة ڤودكا ، ولاشئ أكثر من ذلك ، أفضل على أية حال مما أكل " آدم " فى الليلة السابقة : أوراق اللفت المحشوة .. كأنها كانت محشوة بروث الخيل !

كان الخبز الأسود هو الذى ذكر " ڤيلكس " بآخر زيارة له لموسكو .

كان هو و " ليزا " قد اعتبراها نوعا من التغيير يجعلهما يعتقدان أن " لودفيك " كان وفيا كالعادة ، حبس دموعة ، وجد أن آدم قد أيقظ الذكريات الأليمة ، تذكر المناقشات بين والديهما وأصدقائهما ، كان الحديث دائما يتطرق إلى القيصر و " ستالين " يتبادلون التعليقات عن القمع تحت حكم القيصر ، كان هناك اتفاق عام على أنهما قريبان من بعضهما الآخر .

كانت هناك روح تضامن وتآزر ، كانوا يتأكدون أن أسر السجناء الذين يرسلون إلى سيبيريا لا تعاني من الجوع .

فى سيبيريا نفسها كانوا يساعدون بعضهم الآخر ، ولكن إرهاب " ستالين " دمر الروابط الأساسية للتضامن الإنسانى .

أصبح الناس يخشون ظلهم ، اعتادوا الحياة فى خواء .

" هل قال لك " فريدى " ذات يوم من الذى خان " لودفيك " ؟ سأل " فيلكس " صديقة ، هز " آدم " رأسه .

" إنها موجودة هنا فى " برلين " عرفت ذلك من خلال شبكتنا ، عنوانها معى .. فى جيبى ! مررت أمام شقتها بالأمس عدة مرات ولكن ... "

" ماذا ؟ " صاح " آدم " قافزا فى غضب " ماذا تنتظر ؟ " وبدأ يجر " فيلكس " إلى حيث كانت العربة الجيب واقفة .

اعترض " فيلكس " توقف يا " آدم " ! إلى أين نحن ذاهبان ؟ قال " آدم " : لنقتلها ، لننتقم لأبوينا ، أنا كضابط سوفيتى لدى السلطة أن ... "

" هى امرأة تستحق الرثاء ، ترس ضئيل فى آلة قتل هائلة ، لديها طفل ، لكن تعال معى .. عندى بعض أسئلة لها وأريد أن تكون شاهدا ! "

فى الأوقات العادية ، كان لابد أن يطلب " آدم " تصريحا من قائده ، لكنه كان قد قاتل بعنف لكى يصل إلى " برلين " ، وكانت الثقة فى القادة عند أدنى مستوياتها منذ صعود " ستالين " إلى السلطة .. وكبار الضباط السوفيت على وعى بتلك الظاهرة ونادرا ما كانوا يتدخلون .

أرشد "فيلكس" صديقة إلى المبنى ، وجدوها بمفردها ، عندما رأت " جيرترود " أن " فيلكس " هو الذى يقف أمامها أصابها هياج ، أشاحت بوجهها محاولة أن تغوص فى ركن الغرفة بدأت يداها ترتعشان نظر " فيلكس " إليها وبرقت فى ذهنه صورة " لودفيك " ، يتنفس بصعوبة وكأنه يختنق .

ويشعر بأنه على شفا كارثة ، فكه فقط كان يتحرك رغما عنه ، شفتاه بيضاوان ساكنتان ، شقت رأسه صرخة غضب ، جسمه مخدر ، هرب الدم من وجهه ، رأى " آدم " ما اعترى صديقه فأمسك بذراعه .

فيلكس ! ماذا بك ، هل تشعر بمرض ؟ هل أحضر لك بعض الماء ؟ "

تمالك " فيلكس " نفسه ورأى الخوف فى عينيها !

قالت بأنين مستجدية : " لدى ابن ! "

رد عليها آدم : " وكلانا كان لديه أب معافى ! "

قالت مناشدة ڤيلكس : " ماذا ستفعل ؟ هل ستقتلنى ؟ "

" لـدى فقـط بعـض أسـئلة لك ، أريـد أن أعـرف الحقيقـة يا " فراو * مايور ! " .

قاطعة " آدم " إن كذبت قد أقرر أنْ ...

أوقفه " ڤيلكس " بإيماءة .

" يا فـراو مايور ... هـل تعرفـين من أنا ؟ حسـن ! لمـاذا وشـيت بـ " لودڤيك " لمن قتلوه ؟ "

بدأت جيرترود تبكى .

" هددونى ، لم يفلح ذلك معى ، بعد ذلك وعدونى بأنهم سيتركون والدى و " هينى " الصغير يخرجان من " راڤينزبروك " .

وصدقتهم ، لم أصدق أبدا شيئا من هرائهم عن أن " لودڤيك " كان عميلا للجستابو ، ولكننـى صدقت أنهم يمكـن أن ينقـذوا والدى ، قال " سپيجل جلاس " إن والدى وأخى سوف يتم استبدالهما ببعض الألمان الذين كان " هتلر " يريدهم " .

سألها " ڤيلكس " : " وهل حدث ؟ " .

" لا ! كانت خدعة ! "

نظـر " ڤيلكـس " فى عينيهـا ولكن جيرترود اسـتدارت .. " لدى طفل صـغير يا " ڤيلكس " ، لولاه لقتلت نفسى ووفرت عليك المشقة ، ولفعلت ذلك بعد موت " لودڤيك " .. ولكننى كنت حاملا . " قال " ڤيلكس "

* سيدة Frau

" كفى ! قولى لى يا " فراو مايور " .. هل تمت عملية قتله بسهولة ؟ هل قال لك شيئا ؟ هل وجدوا شعرك فى يده ؟ " بدأت تبكى مرة أخرى .

قال " آدم " وهو يسحب مسدسة : تكلمى أيتها الكلبة ... " لم يكن يشعر بأى شىء نحو تلك المرأة ، وكان يمكن أن يقتلها دون تفكير ، كانت " جيرترود " تعرف أن " ڤيلكس " هو حمايتها ، ركعت أمامه على ركبتيها .

" لن أنسى وجه لودڤيك ذلك المساء .. لن أنساه ما حييت ، كان غاضبا من نفسه لأنه وثق بى ، اعتقدت أنه مات وانحنيت عليه لكى أقبله ولكنه أمسك رأسى وهو يصيح .. " خائنة " ! ثم صرخ فى الآخرين عاشت الثورة العالمية " بعد ذلك أفرغو كل طلقاتهم فيه ... وفقدت أنا الوعى ! " غادرا شقتها دون أن ينظرا إليها مرة أخرى ، وهما على وشك أن يصعدا إلى العربة الچيب شاهدا " ڤلادى " الصغير مع اثنين من الألمان يرتديان الزى الرسمى الروسى ، عائدين به إلى أمه ، الرجلان كلاهما وقفا فى وضع " الانتباه " لأداء التحية لـ " ڤيلكس ، و " آدم " الذى هز رأسه وهو يدير محرك السيارة .

وفى تلك الليلة ، بدأ " ڤيلكس " كتابة رسالة طويلة إلى " ليزا " يروى لها فيها أحداث ذلك اليوم .

وقفت فى المدخل تراقبنا ونحن سائرين نحو المصعد .. هل تعرفين ، كان المصعد دائما يعمل فى المبنى الذى تقيم فيه ، رأيت ابنها - أنا متأكد أنه كان هو - بينما كنا منصرفين أنا و" آدم " مخلوقة

تستحق الرثاء ، لم يغرني سم الانتقام للحظة . كان شيئا مرعبا أن أراها مرة أخرى ولكن ذلك كان لابد أن يحدث ، ما هى الأسباب الحقيقية التى دفعتها لخيانة " بابا " ؟ كان ما قالته لا يبدو صادقا .

ولكن يومنا لم يكن قد انتهى ، عندما وصلنا إلى مسكن " آدم " وركبنا السيارة الچيب ، رأينا طابورا من السجناء الألمان فى حراسة جنود من الجيش الأحمر ، كانوا عائدين إلى معسكر مؤقت خلف الثكنات ، بعد أن أمضوا يوما طويلا شاقا يجمعون الأنقاض من الشوارع الجانبية ، كانت الشمس مازالت طالعة ، فطلب السجناء إذنا بالجلوس على الحشيش بضع دقائق واستجاب الحراس لطلبهم ، ولذلك كانوا ينظرون إليهم بامتنان شديد . ألقى إليهم أحد الحراس علبة سجائر سرعان ما اقتسموها بينهم ، كنا نراقب المنظر صامتين ، ونحن نسير جوار السجناء قام أحدهم ونظر إلينا فى دهشة .

" فيلكس " : " آدم " ! ألا تعرفانى ؟ "

توقفنا ونظرنا إلى الرجل الذى كان ينادى اسمينا ، من ذلك الرجل طويل اللحية الذى يبدو عليه البؤس ويرتدى حلة طيار ممزقة ؟

" أنا " هانز " ، هل تتذكرنى ؟ لعبنا الشطرنج معا فى موسكو منذ سنوات طويلة .. "

نظرت أنا و " آدم " لبعضنا الآخر ، اندفعت نحو " هانز " أولا وعانقته و " آدم " بعدى ، وأدى الحراس التحية لآدم ، أمرهم أن يطلقوا السجين بكفالته ووقع إيصالا باستلامه بسرعة وانطلقنا نحن الثلاثة .

كان منظرا غريبا ، ثلاثة رجال ، من الواضح أنهم أصدقاء . ولكنهم يرتدون ثلاثة أنواع من الزى ، أحدهم ألمانى .. صمم " آدم " أن نرجع إلى غرفته ، وهناك شربنا المزيد من الفودكا ، وصممت أن أن يحلق " هانز " لحيته القبيحة ، وقدم له " آدم " الأدوات ، بعد أن انتهى من الحلاقة ، أمسكت أمام وجهه بالمرآة .. وبدأ "هانز" يبكى ، ضمه آدم .

" الآن نحن سواسية ... سيكون كل شئ جميلا .. " وبعد أن هدأ " هانز " حكى لنا حكايته .

" بعد حلف " هتلر " و " ستالين " تم تسليم عشرات الشيوعيين الألمان فى موسكو إلى النازى ، أرسلت أمى فورا إلى " رافنزبروك " وهناك قتلها طبيب نازى لمجرد التسلية ، أما أنا فقد أرسلونى إلى ملجأ للأيتام حيث أصبحت فورا عضوا فى الشبيبة النازية . اختارونى للطيران . كنت طيارا جيدا لذلك كانوا يرسلوننى فى مهام لقصف " موسكو " و " لينينجراد " وهناك كنت أفرغ القنابل فوق حقول خالية قبل أن أعود إلى القاعدة .

لم أستطع أبدا أن أعرف موسكو بـ " ستالين " . لو استطعت لكان من السهل على إلقاء القنابل ، بالنسبة لى ، كانت موسكو هى نحن جميعا ، وآخرون مثلنا ، كنت دائما أفكر فيكما وفى أصدقائى الآخرين .. ماذا حدث لكما يا " فيلكس " ؟ ولماذا ترتدى الزى الرسمى الأمريكى ؟ "

قصصت عليه أنا و " آدم " قصصنا .. كلانا فقد أباه بفضل ستالين " و هتلر " ، نظرنا إلى بعضنا الآخر فى صمت ونحن نتذكر أيامنا الماضية ، بعد ذلك أخذه " آدم " إلى معسكر السجن ، كلانا كان قد صمم على أن نحصل له على حريته .

قلت : إن لم تستطع يا آدم أن تخرجه فسوف أحاول من جانبى قال " آدم " لا تقلق ، چنرالى كان فى الحزب البولندى مع " فريدى " و " لودڤيك " وسيفهم لماذا لايمكن أن يظل " هانز " أسير حرب ، ولكن قل لى يا " هانز " .. أين ستعيش فى ألمانيا المقسمة ؟ .

فكر هانز للخطة : ألمانيا تشبه داعرة فقدت الذاكرة ، لا تعرف من الذى سيأخذها بعد الآخر ، ولا كيف اغتنموها وباعوها .. فى البداية " هتلر " والفاشست ، والآن الحلفاء

تمنيت أن ينتصروا ، ولكن ليس لدى أية رغبة فى أن أعيش فى أى بلد محتل .. أعتقد أننى قد أعود إلى " درسدن " حيث كانت تعيش عائلة أبى ... ولكننى لا أريد أن أعيش تحت حكم ستالين ، من ناحية أخرى لا أعتقد أننى يمكن أن أتحمل العيش فى ميونخ ! .

قلت : " فى هذه الحالة لا يجب أن تفعل ذلك ، تعال وعش معنا فى " باريس " ، أنا أعنى ما أقول ، وأمى سوف يسعدها أن تراك . "

ابتسم " هانز " " .. " لا تنس أننى ألمانى ، نحمل ماركة الوحش ! سيحتاج الأمر وقتا حتى تهدأ النفوس .. "

أتمنى أن توافقي معي يا أمي ، أعرف أنك ستوافقين ، رؤية " آدم " و " هانز " ذكرتني ثانية بكل أولئك الذين فقدناهم إلى الأبد ، " لودفيك " .. " فريدى " .. " ميشا " .

" العم شميلكا " الذى قتل فى الفندق فى نيويورك بعد فراره من " باريس " .

الأطفال الخمسة الذين شبوا معا فى مدينة " بدفو شوليسك " كلهم تسمموا بماء ذات البئر .

منذ موت أبى وأنا حزين وغاضب " آدم " جعلنى أدرك أننى لم أكن وحدى فى ذلك ، ولكن " هانز " هو الذى جدد إيمانى بالبشر "هانز " ، الذى قتل هتلر والده ، وسلم " ستالين " أمه لهتلر لتختفى فى " رافنزبروك " .

" هانز " هذا نفسه ... رفض أن يلقى القنابل على المدن الروسية . لو اكتشفوا ذلك لأعدموه سرا .

" هانز " أثبتت أن الخير فينا .. وأنه لا يمكن أن يموت .. أثبت أنهم – حتى – لو وضعوا فى يدك البندقية وأعطوك سببا كافيا لأن تضغط على الزناد ، فإنك مازلت قادرا على أن تقول لا ..

هو تتذكرين تلك القصيدة التى كان " لودفيك " يحبها : " أولئك الذين يملكون القدرة على ايذاء الآخرين .... ولكنهم لا يفعلون ... "

أشعر أننى و " آدم " قد اجتزنا هذا الامتحان اليوم .. !

- ٢٩ -

يوم رمادى من أيام شهر إبريل ، كئيب ، المطر يهطل ، التاسعة صباحا واليوم أحد ، " برلين " نصف نائمة ، " ڤلادى " الذى مازال نعسانا على أثر ليلة ساهرة يسير مترنحا إلى النافذة ويزيح الستائر هذه ، بالقطع ليست أمطار الربيع ، السحب كثيفة ، لعله الخريف ، المطر الذى لا يتوقف ينشر الكآبة والحزن .

تمتم " ڤلادى " لنفسه : " لم أعد صالحا لشئ ! "

وبعد أن حلق ذقنه دقق في ملامحه مليا وأقنع نفسه أنه لايبدو أكبر مما كان منذ عشر سنوات .

منذ أن قرأ الملف المكتوب عليه " جيرترود " و " ڤلادى " يشعر أنه يغرق ! وبعد ما كشفه له " ونتر " ، أصبح يعتقد أن لاشئ مما عرفه عن أمه يمكن أن يكون مفاجئا له ، ولكن الذى هزه من الأعماق وزلزل كيانه هو أنها شاركت مشاركة مهمة فى عملية قتل " لودڤيك " .

مصابا بالإحباط والاكتئاب ، كان يشعر بأن أحزانه قد تضاعفت ، يتملكه شعود بالاغتراب عن كل شئ ، أحيانا تنتابه رغبات متوحشة ، كان يريد أن يمزق حياته بفعل عنيف ، أصبح نكد المزاج .. صموتا ، وشخصا بدأ أصحابه يتجنبونه .

أشد ما يؤلمه ، ذلك الدليل الذى أكد له أخيرا كل ما كان يشك فيه ،

" لودفيك " لم يكن والده ، كان على استعداد لتقبل ذلك ، ولكن تحققه من أن والده الحقيقى كان أحد القتلة التابعين لجهاز "إن - كى - فى - دى" والذى لقح أمه بابتسامات زائفة وسائل منوى حسب الطلب - منفذا للتعليمات حرفيا - كان يضيف إلى عذاباته ، ترى هل كان " ونتر " ؟

يأسا ، ذهب إلى " إيفيلين " التماسا لبعض الراحة الجسدية .. لكن الموهبة التى كانت تتمتع بها المرأة أثناء سنوات الدراسة ، قد جفت تماما ... أصبحت امرأة قليلة الذكاء ، شديدة التمركز حول ذاتها .. مضجرة .. لا تتكلم إلا عن نفسها وعن أفلامها الرائعة !

وذات ليلة ، بعد أن مارست الجنس معه ، وكان ذلك أيضا قد أصبح روتينا بلا روح ، أعلنت " إيفيلين " أنها لم تعد تريده عاشقا .. " فلنظل أصدقاء ... فقط " . ابتهج " فلادى " للخبر .. ووافق .

وذهبا إلى أحد المقاهى ليدشنا الاتفاق الجديد، وهنا رأتهما " ليلى كروز بيرج " ، كانا يتشاجران ، وهددت بأن ترسم صورة أخرى لهما جالسين على الطاولة ، فى يد كل منهما نصف تفاحة ، وكل نصف تنقصه قضمة ، وأنها سوف تسمى اللوحة " ما بعد الحائط " .

ضحكوا ، وقاموا لمشاهدة النسخة الإنجليزية الكاملة من فيلم " العداء الطائش " . وعندما عاد إلى المنزل كانت هناك رسالتان مسجلتين على جهاز الرد على المكالمات ، الأولى من " ونتر " ، يؤكد موعدهما ويقترح مطعما فرنسيا فى " كروز بيرج " الثانية من " ساو " فى " باريس " يطلب منه أن يتصل به على وجه السرعة لأمر بالغ الأهمية .

" تحياتى يا " ساو " ! "

" سعيد لاتصالك .. أين كنت ؟ "

" أشاهد " العداء الطائش " للمرة الثالثة . هل شاهدته يا " ساو " ؟

" بالطبع ! نفاية هوليود العادية المضيعة للمال .. ماذا تشاهد فيه ؟

" صور الرأسمالية السلطوية المتفسخة ، المتعددة اللفات ، وألة الدولة التى تم تصويرها قسرية تماما ، حتى المواجهة الديمقراطية تم تجنبها ، إنها نقد أجوف ورديء للنظام يا " ساو " ، النظام الذى يحتل بلدكم الآن ، بوينج .. ستى بانك .. موبيل .. دلتا .. ماريوت .. آى - بى - إم .. يونيليڤر .. العداء الطائش .. تحفة يا " ساو " ... أذهب وشاهده مرة أخرى .

" الإنسان اليائس يمكن أن يقرأ أى شيء فى لاشيء ! هذه هى " الموضة " اليوم .. أليس كذلك ؟ " .

" أنا لست من أفاعى ما بعد الحداثه يا " ساو " ، وأن كنت تعتقد ذلك ! "

" ڤلادى ! كف عن هذا الهراء .. لم أتصل بك لكى أناقش فيلما من أفلام هوليود . اسمعنى .. لقد حدث شيء هام وأحتاجك بشدة ، هذه المرة لا يجب أن تقول " لا " ! لى مبلغ من المال عند أحد المحامين الأمريكيين من ذوى الأساليب الملتوية .. هل تفهمنى ؟

تنهد ڤلادى غير مصدق .. " لا ! "

" بلى ! أنت تفهم ، الصفقة ليس لها علاقة بك . هذا الرجل يمتلك دار نشر لها أفرع عديدة فى أمريكا الشمالية وأوروبا ، لا أستطيع أن أتذكر الاسم الألمانى .. لكن أسمع .. فى مقابل المبلغ المدين به لى ، عرض علىَّ امبراطورية النشر التى يمتلكها والتى يقول إنها تخسر ، ولكن يمكن أن يتغير حالها على يد مسئول كبير زكى .. ولكن من يهتم بذلك ؟ والآن اسمعنى ... أريدك أن تدير هذا العمل .. سأقوم أنا بالجانب التجارى ، أنا فى حاجة لشخص له دراية بالكتب ..

" لماذا ؟ "

" ماذا تقصد بـ لماذا ؟ "

" لست فى حاجة لشخص يقرأ كتبا لكى يدير هذه الامبراطورية ، يمكن أن تستأجر تاجر سلاح أو محاسبا بمرتب كبير .. لايهم الوجهة التى تتخذها ثقافتنا . أعتقد أن ألمانيا ما تزال مختلفة ، ولكن نهاية الأنجلو ساكسون كابوس ! " .

" أعرف يا " ڤلادى " .. أعرف .. أنا فى حاجة إليك ... نعم أو لا ؟ "

" دعنى أفكر فى الأمر ، سأتصل بك غدا .. وإذا قبلت يا " ساو " أين سيكون مكانى ؟ أقصد فى أية مدينة ؟

" أعتقد أنك ستقضى معظم وقتك فى الطائرة يا " ڤلادى " ، سأحجز لك مكتبا على الكونكورد ... "

وعندما لم يستجب " ڤلادى " للنكتة خاف " ساو " إلى حد ما . "

" يمكــن أن تعـمل مــن أى مكـــان تحب ! نيــويورك ، پاريس ، برلين ... هل تريد أن تعرف كم سيكون راتبك ؟

" لا ! "

ضـحك " سـاو " .. " طاب يومك يا بروفيـسـور " مـايور " ، " لينا " تبلغك تحياتها ! "

" هل استقرت الآن ؟ "

" بالتـأكيـد ، ولكنهـا تفتقـد البلـد القـديـم ، طهيـهـا رائـع يا " ڤلادى" !

" ولابد أن ذلك يجعلك سعيدا يا " ساو " .. " ضحك " ساو " ، تعال لزيارتنا بسرعة ، ولاتنس أن تتـصل بى أولا مـهما كـان قرارك ، وهناك شئ آخر .. هل تعرف الاسم الذى اخترته لدار النشر .

" لا ! "

" النمور الخمسة "

" إلى اللقاء يا " ساو " ! "

كان المطر قد توقف فى الخارج ، وظهرت مساحات كبيرة زرقاء من السماء كمقدمة لضوء الشمس الذى كان الآن يضئ غرفة نوم – مكتب ڤلادى ، شعر بالانتعاش ، لقد ذكره فيلم " العداء الطائش " بأن الثقافة لم تعدم النقاد ، " ساو " عرض عليه عملا ، لايمكن أن يبقى صامتا ، بدأ يذرع غرفته جيئة وذهابا .. كانت جدرانها الآن عارية ، كل ماله علاقة بـ " جيرترود " تم إزالته ، كان " ڤلادى " يشعر بأنه يريد أن يتكلم

مع " هيلجا " ، و " جيرهارد " ، ومع أى شخص آخر ماعدا " إيڤيلين " !
بعد عدة ساعات ، وفى يأس ، اتصل تليفونيا بـ " كارل " يخبره بالعرض الذى تلقاه من " ساو " .

" ما رأيك يا " كارل ؟ "

" هذا خبر طيب جدا يا " ڤلادى " ، ولابد أن تفعل ما تراه أفضل بالنسبة لك ! "

" ماذا تظن كان يمكن أن يكون رأى أمك ؟ " صمت طويل ...

" كارل ! "

" نعم .. أنا هنا ، لا أعرف ، هل يمكن أن أتصل بك تليفونيا فيما بعد ؟ نحن مقبلون على أزمة ، الحزب سوف يزيح " شاربنج " ويؤيد " لافونتين " ، وهو أمر سيكون كارثة ، إنه يساوى أكثر من اللازم بالنسبة للمناخ الحالى ...

" لا أوافقك ! إنه أفضل من لديكم ... ربما احتاجونى لأكتب له أحاديثه .. ويمكنك أنت أن تعمل لحساب " ساو " " كارل " .. هل تسمعنى ؟ "

" سنتكلم فى ذلك قريبا يا " ڤلادى " . غدا سأتصل بك ، وهذا وعد ! "

فكر ڤلادى ، يالها من محادثة بائسه اقرر أن ذلك كان الوقت المناسب لكى يرسل مخطوطته إلى " كارل " ، فليقرأ الولد بينما هو - ڤلادى - على قيد الحياة يستطيع أن يناقشه ، وضع المخطوطة بعناية فى طرد ، وأرفق به رسالة كتبها بخط يده .

عندما اتصلت بك بخصوص العمل الذى عرضه علىّ ساو ، كنت حذراً كالعادة ، لامعنى لأن نقضى ما بقى لنا من العمر متباعدين . لقد وضعت جنبا إلى جنب .. جزءاً من تاريخ عائلة ، وإعادة بحث عن " لودفيك " و " جيرترود " ، ونظرة على ما حدث بينى وبين أمك وتقليب الأمر على وجهيه ، أن أرسل ذلك إليك أم لا ! لا تفتح هذا الطرد إن كنت تشعر أنك أفضل ، هكذا ، بترك الماضى وراء ظهرك .. ولكن إذا فتحته .. عدنى بأنك ستقرأ ما فيه حتى النهاية ..

أتمنى أن تكون لديك الرغبة فى أن تتكلم معى بخصوص ما فيه ..

- ٣٠ -

استيقظ قبل الظهر مباشرة ، لم يكن مهيئا للصدمة التى كانت فى انتظاره ، لم يصدق عينيه فى البداية ، لابد أن يكون حلما ، غطى رأسه بالبطانية ورفعها ببطء متأكدا أن الشبح قد اختفى .

كانت ما تزال هناك ، جالسة على مقعدها المفضل : " هاى ڤلادى ! لقد تركتك تنام ! " .

قفز من السرير .. " لماذا لم تخبرينى ؟ "

" ربما كنت قد هربت "

" كان لابد أن أهرب .. هل أصابتك نيويورك بالجنون يا " هليجا " ؟ "

جلس على حافة السرير ينظر إليها ، الآن عيناها هادئتان خاليتان من عداء المواجهة الأخيرة بينهما ، صوتها الذى كان مليئا بالحدة والتوتر عاد إلى طبيعته العادية ، جلس على الأرض عند قدميها ودفن رأسه فى حجرها ..

تداعت الذكريات القديمة . تكلما عن نفسيهما .. وعن " كارل " وعن حياتهما أثناء الانفصال ، اعترفت " هيلجا " أنها لم تعد قادرة على مواصلة العيش فى الولايات المتحدة لكونها بيضاء .. أمتعته بقصص عن أصدقائها الذين تمادوا بشكل مبالغ فيه لإخفاء بياضهم ، حتى الإيطاليين .. كانوا يشيرون إلى أنفسهم الآن بـ " أمة الزيتون " ، !

وصديق حميم لها ، محلل نفساني زميل ، عاد إلى جنوب شرق " كينتكى " وكان يكتب الآن كتابا عن شعب " الميلنچيون " .

قام " ڤلادى " مدهوشا : " شعب ماذا ؟ " .

" الميلنچيون ! "

راحت " هيلجا " تشرح له بتأن وصبر شديدين ، الميثولوچيا التى تقول إن كان واحد فى جبال " كينتكى " كان من أصل اسكتلندى أو أيرلندى مع الدم " الشيروكى" ، ولكن الحقيقة غير ذلك " الميلنچيون " هم سلالة جماعات عرقية متعددة ، جاءوا إلى وسط القارة قبل الإنجليز ، معظمهم نزح من إسپانيا والبرتغال ، وهكذا كان صديقها يوضح الآن الصلة الوراثية بين " الأپالاشيان " البيض والموريسكيين الإسبان وأبناء شمال أفريقيا واليهود ، كانت هناك دلائل أيضا على صلات بالمجتمعات التركية .

كان " ڤلادى " مفتونا ومرتبكا .. " لماذا هذا الهاجس ؟ ولماذا الآن ؟ "

ابتسمت " هيلجا " لفضوله ، تماما كما كان يحدث فى سالف الأيام عندما كانت تحكى له عن اكتشاف فى مجال الصحة النفسية، لا يعرف عنه شيئا ..

" أعتقد أنهم يريدون أن يتحدوا مفهوم الأصل الإثنى المتجانس فى الجنوب الأمريكى وأپالاشيا " .

" تأكدى أن صديقك " الميلنچيون "

سيرسل لنا نسخة من الكتاب ."أعتقد أن الأمر كان صعبا بالنسبة لك .

سلالتكم لا يمكن أن تتحسن ، بروتستانتى أبيض من ساكسونيا ، أنا سعيد لأنه أعادك إلى هنا " .

" ليس بالضبط ! لقد أفتقدتك يا " ڤلادى " ."

بعد أن مارسا الجنس ، قالت " هيلجا " إنها أيضا قد قرأت المخطوطة التى أرسلها إلى " كارل " .

" وماذا كان رأى " كارل " ؟ "

" هزته حكاية " جيرترود " حتى أنا أيضا يا " ڤلادى " ، ولم يكن لدى وقت لها ، لابد أن يكن ذلك فوق طاقتك على الاحتمال ، " كارل " يصل غدا إلى " برلين " سيقول لك رأيه بنفسه ، أنا سعيدة لأنك كتبت ذلك كله .. وتخلصت منه " لم يتذكر أنه كان على موعد عشاء مع "ونتر" ، إلا عندما اقترحت الذهاب لتناول الطعام فى مطعم قديم ، فى البداية فوجئت .. وجفلت .

" أمور بسيطة ، وسؤال واحد مهم يحتاج إجابة يا " هيلجا " .. تعالى معى أرجوك ! "

هزت رأسها فكرة أن يتناول العشاء مع " ونتر " فى أول يوم تعود فيه إلى " برلين " غيرت حالتها النفسية ، اكتشف ذلك ، ولكنه واصل رجاءه إلى أن وافقت أن تصحبه فى ذلك المساء لم يكن " ڤلادى" سعيدا هكذا منذ زمن بعيد ، عندما خرجا أمسك بذراعها وقبل شعرها .. بدأ الشارع غريبا مقارنة بما كان عليه قبل ذلك بعد الظهر .. الأرصفة المبتلة جفت والسماء أصبحت صافية ، وبينما كانا يسيران نحو بوابة

" براندنبورج " رأى زحاما من الألوان ، كانت جماعات من الشباب فى حالة مرح صاخب ، وهم عائدون إلى الشرق بعد احتفال يوم بهيج ، متجاهلين صياح آلات التنبيه وهم يعبرون الميدان . كان الكبار يرتدون أفضل ثيابهم ويحاولون قدر استطاعتهم تجاهل ذلك المرح الصاخب .

تبادلا الابتسام ، كانت تلك هى " برلين " التى يحبانها ، بدأت السحب تعبر السماء ثانية ، سعيدان لأنهما قد ارتديا معاطف المطر وأسرعا الخطى ... استقلا حافلة إلى " كروزينبيرج " ، وعندما وصلا المطعم كان المطر قد بدأ رذاذا خفيفا .. المكان مزدحم بالرواد ، مدهش أن يكون ذلك مساء يوم أحد ! كان " ونتر " يجلس على طاولة فى ركن . اقتربا منه ، لو أنه كان مدهوشا ومفاجئا بوجود " هيلجا " فقد نجح فى إخفاء ذلك جيدا ، ثم بدأ على الفور يمارس سحره عليها ! .

" أريد أن أنبهكما لوجود رجل هنا فى المطعم ، لم يرنى حتى الآن ، يجلس فى الناحية الأخرى مع زوجته ، لو جاء وتحرش بى ، أرجو أن تظلا هادئين ، لا تحاولا التدخل ..." من هو يا " كلاوس ؟ "

" شخص أحمق .. تافه .. ملعون .. زوجته زارتنى ! اربط حزام المقعد ياعزيزى ! " .

رجل مسن ، يرتدى حلة من الحرير الأخضر الباهت ، كان يقترب من الطاولة ، استحال وجه " ونتر " حجرا ..

" مساء الخير يا " كلاوس " ، مرت أربعون سنة ، ألم تسامحنى وتعف عنى بعد ؟ "

لم يرد عليه " كلاوس ونتر "

" هذه هى قائمة الطعام .. هيلجا .. ڤلادى .. ماذا تودان ؟ هذا الإزعاج سينقضى سريعا ! "

امتلأت عينا الرجل الغريب بالحزن ، لم ينتظر ، بل انصرف ببطء محنى الكتفين .

قال " ڤلادى " وهو يخشى الأسوأ : " كلاوس " ! لن أتكلم معك فى شئ ، ولن أبقى هنا إلا إذا قلت لنا من يكون هذا الرجل ، هل هو عميل سابق .. خانك ؟ "

" أسوأ يا " ڤلادى " .. أسوأ ! "

" مثل ماذا ؟ أنا مصمم أن أسمع منك " بعد أن طلبا الطعام ، وفتحت لهم زجاجة نبيذ ، روى لهما ونتر قصة علاقته بالرجل الذى كان يرتدى الحلة الحريرية الخضراء .

" اسمه " والتر " ، وهو ابن خالتى ، أمه وأمى شقيقتان ، يكبرنى بعام واحد ، ولكن هذا الوغد ما زال أكثر تماسكا منى ، تشاجرنا معا منذ أربعين عاما .. تقريبا . ! "

وبدأت القصة تتكشف بالتدريج ، كانا قد نشأ فى المنزل نفسه فى " ودنج " وأصبحا صديقين حميمين ، لم يفترقا قط إلا فى الفترة التى سافر فيها "كلاوس" إلى إيطاليا لمدة عام ليدرس تاريخ الفن ، وهناك كان يعيش فى "لوكا " ويقيم فى أحد المساكن المستأجرة وتعلم الطهى .

" وأصبحت طباخا متعصبا ! كل شئ لابد أن يكون متقنا ، وعندما جئت إلى " برلين " كنت أطبخ لـ " والتر " ولغيره ، وكانوا مدهوشين وسعداء . وذات شتاء ، ذهبت أنا و " والتر " للتزلج فى جبال الألب فى سويسرا . وفى أحد الأيام بقيت فى المنزل لشعورى بالإرهاق . قلت له ألا يتأخر حيث كنت أقوم فى ذلك اليوم بإعداد صلصة خاصة للباستا من ابتكارى ، وأنها سوف تفسد إن تركت على النار طويلا . عاد بعد يوم كامل .. وطلب العشاء .. فورا ! قلت له إنه لابد من خمس أو عشر دقائق .. قال : حسن ! وواصلت الطبخ . بعد ذلك رأيته يأكل قطعة شوكولاته بطريقة مستترة ... يلتهمها مثل الحيوان المفترس . وطبعا ، عندما كانت الصلصة قد أصبحت جاهزة للپاستا كان " والتر " قد فقد شهيته للأكل .

جننت يا " ڤلادى " ! طردته ، لم يسبق لأحد أن أهان طبيخى هكذا قبل ذلك . ومنذ ذلك اليوم لا نتكلم معا " قاطعته " هيلجا " ... " لا يمكن أن أصدق ذلك يا " هر ونتر " ... قصة من تأليفك ! "

" أهذه هى الحقيقة يا " كلاوس " ؟ "

" ڤلادى ! أنا أحذرك .. لاتستفزنى بسبب هذا الموضوع . أنت تعرف جيدا أننى قد وضعت كتابا عن المطبخ الإيطالى ، والآن أعد كتابا آخر عن المطبخ فى الاتحاد السوڤيتى السابق ، أنا أتعامل مع موضوع الطعام بجدية شديدة يا " هيلجا " و " والتر " كان يعرف ذلك جيدا . ! والآن خبرانى .. ماذا يحدث لكما ؟ ولماذا لا أراكما منذ أكثر من عام ؟ "

قال له " ڤلادى " كل شئ ، اكتشافه أن " جيرترود " هى التى ساعدت فى قتل " لودڤيك " ، وأن " ونتر " كان متورطا فى

الموضـــوع ، وأنـــه كـــان يـــريـــد أن يســـأله بعـــض الأســـئلة بهـــذا الخصوص .

لم يبد على وجه " ونتر " أى تغير عندما سمع ذلك .

" كنت أعرف عنها ، وأنــت تعــرف أنهــا كانــت تعمــل لحساب " موسكو " حتى النهاية ، وليس لحسابنا . كنت أعرف ذلك ، وذات ليلــة – كنــا ســـكارى – حكــت لــى القصــة كلها ، وكانت تبكى مثــل الأطفــال يا " ڤــلادى" ! لم أكــن متورطا فى تلك المسألة ، ولكن ذلك لايعنى أننى لم أرتكب جرائم أخرى وربما أسوأ . ! وأنت تعــرف ذلك . كانــت تحــب " لودڤيك " ولكنه لم يكن مهتمــا بها ، وكان ذلك أسلوبها فى الانتقام . وقالت لى أيضا إنها لو لم تكن حامل .. لقتلت نفسها . "

" ليتها فعلت ! أسلوب غريب للتعبير عن حبها للودڤيك "

" غضب الجحيم أهون من غضب امرأة تشعر بالإهانة يا " ڤلادى " ! من المؤكد أنك .. "

" كلاوس .. كم استمرت علاقتكما الغرامية ؟

أعــرف أنــك أغويتها فى انجلترا ، فى السنة نفسها التى قتل فيها " لودڤيك " ، هل استمرت العلاقة ؟ "

هــز " ونــتر " كتفيــه ، وعــلا وجهه عبــوس " أنا لســت والـــدك يا " ڤلادى " ! "

" من أذن ؟ "

" وهي كانت متأكدة أنه ليس أنا ، وإنما الرجل الإنجليزى ، كان عاشقا قديما قبل أن يتزوج " أولجا " ، أخبرتنى ذات يوم أنه جاء إلى فراشها فى الليل ، وأنهما استعادا الأيام الماضية . كانت مقتنعة بأن " السير كريستوفر براون " - كما أصبح فيما بعد - هو أبوك ! "

"هل مات ؟ "

" نعم ! خدم سفيراً لدى الاتحاد السوفيتى لفترة ما ، كلانا .. أنا ، و " جيرتى " كنا نضحك على ذلك كثيرا "

" تريد أن تقول إنه .. هو و" أولجا " لم يكتشفا أبدا ؟ "

" بالطبع لا ! نحن لم نفضح أمرهما ، والإنجليزى الوحيد الذى كان يعرف أنهما معنا كان " ڤيلبس" ، أعتقد أن " كريستوفر " و " ڤيلبس " التقيا فى " موسكو " فى أكثر من مناسبة " أمسكت " هيلجا " يد " ڤلادى" بشدة من تحت الطاولة .

صمت الكل ! كان " ونتر " يحاول أن يهدئ الموقف ..

" هل تتمنى لو أننى كنت والدك يا ڤلادى ؟ "

" لا ! "

كانت الاجابة سريعة وقاطعة . "اختيارى المفضل ما يزال "لودڤيك" ليتها كانت قد قتلت نفسها ! "

" أنت مخطئ يا " ڤلادى " ، مخطئ جدا ! لأن التاريخ يواصل ارتكاب الحماقات ويجب ألا تستسلم . "

" حماقات التاريخ ينفذها بشر واعون ، أليس كذلك يا "كلاوس" ؟

بشر أذكياء ، مثقفون مثلك ! كنت دائما رئيس طباخين ممتازا ... أليس كذلك ؟ لحم البشر .... لحم الحيوانات .. سيان عندك !

قالت " هيلجا " حذرة : " اهدأ يا " ڤلادى " ، رغم أنها كانت سعيدة بغضبة .

واصل "ڤلادى" كلامه : " بشر يدعون أنهم يؤمنون بالأفكار النبيلة ، انظر إلى أين أوصلتنا ؟ اللوح تم تنظيفه تماما ! "

" هراء ! زماننا سيجئ ثانية . ليس بالطريقة نفسها بالطبع ! كلنا تعلمنا دروسا مريرة ، ولكن لم يتم محونا من الخريطة ! ألا ترى ما يحدث فى العالم ؟ "

" أراه جيدا . ! الفاشست فى حكومة إيطالية ، حيث يدير البلاد من يتحكمون فى المجال التلفزيونى .. فى موسكو ، المجرمون يديرون السياسيين !

" قش تذروه الرياح يا " ڤلادى " ، فى كل مكان آخر ، الناس يعودون إلى الحظيرة ، إنهم لا يتطلعون إلى أهداف عظمى .

كل ما يرتجونه ... دولة حياة كريمة ودرجة من المساواة ، من سيحقق لهم ذلك ؟ الاشتراكيون يتخبطون فى كل مكان . رأسمالية ما بعد الشيوعية مثل المرحلة تسحق كل شئ فى طريقها .. هل هى قادرة على حل المشكلات التى فشلت الشيوعية فى حلها ؟ الأيديولوجيون الذين أصابهم الانتصار بالجنون ، يمكن أن يتصوروا أن الفقر ، أو الظمأ للعدل لم يعد مهما . فى أوروبا قد يكون الثلثات هما اللذان يحكمان ،

ولكن على مستوى الكرة الأرضية فإن التسعة أعشار فى الجانب الآخر . الشيوعية ماتت ! ولكن شيئا ما سينهض من رمادها ، هذا هو الوقت الخطأ للاستسلام يا " ڤلادى " ، أنت فى حاجة إلى حزب . "

" حزبك انهى يا " كلاوس " . عليك أن تقبل ذلك . لقد انتهى ذلك العالم إلى الأبد ! "

ماذا أقول لك ، مُنَظِّرُكُم الذى يتلمس طريقه مثل حيوان يدور ، ويدور ، ويدور ، أرواح شريرة تديره على أرض قاحلة ، بالقرب من المراعى الخضراء التى أخطأها ..

ضحك " ونتر " بصوت خافت " ميفوستوفيليس إلى فاوست " ، حسن ! " ونتر " إلى " مايور " ـ متهور كعادتك دائما يا صديقى ! فى وقت ما ، عندما تصبح الرأسمالية كونية فعلا ، سيحتاج الناس إلى مؤسسات سياسية جديدة لكى تحميهم من وحشيتها ..

أنا عائد لتوى من " بكين " ، وحزبى أداؤه ليس سيئا هناك كما تعرف ، في أوروبا الشرقية وموسكو نحن ننهض ثانية ، ليس لأننا كنا جيدين ، وإنما لأن العلاج بالصدمات أكثر سوءا .

الفضاء محدود ! ولكنه موجود بالفعل . بدأنا ننمو هنا مرة أخرى ، بدون يد جمهورية ألمانيا الديمقراطية الميتة ! لماذا لا تنضم إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى وتصبح نشطا من جديد ؟ يجب ألا تذوى أمام الدولة يا " ڤلادى " .

فانتازيا سياسية يا " كلاوس " ! هل تعتقد أننى لابد أن أقبل عرض " ساو " ؟ "

" بالطبع ! وفورا دون تفكير ! ماذا حدث لك يا " ڤلادى " ؟ قد يكون مفيدا أن تدير مؤسسة كبيرة للنشر على مستوى العالم ، من يعرف ؟ ربما أعطيك مذكراتى ! "

" مادمت لست فيها يا " كلاوس " ، أنظر . ! ها هو ابن خالتك ينصرف ، أرجوك صالحه .. فهو متألم بالفعل .. هيا ! إن فعلتَ ، فقد أفكر جديا فى الانضمام إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ! أو شئ من هذا القبيل .. !

" والتر ! "

كان صوت " ونتر " مسموعا من الجميع ، وقف ابن خالته بالقرب من الباب واستدار لينظر إليه ، هز " ونتر " رأسه اندفع " والتر " إلى طاولتهم وتعانق الرجلان .

" بالمناسبة ! هذا هو صديقى البروفيسور " ڤلاديمير مايور " ، وهذه زوجته " هيلجا " ... " والتر نورنبرج " .

" يسعدنى أن أكون حاضرا فى هذه المناسبة يا " هر نورنبرج " كنا مغادرين ! عودة سعيدة ! "

خرج " ڤلادى " و " هيلجا " بسرعة ، كان الجو صحوا مرة أخرى ، وقفا ساكنين يرقبان عناقيد النجوم فى سماء الليل ، فوق مدينتهم التى ستعاد صياغتها مجددا عاصمة للرايخ الجديد ! همس لـ " هيلجا" : بدونك .. كنت قد بدأت أشعر كأننى ريشة فى مهب الريح" ..

لم ترد ... ولكنها أمسكت ذراعه وسحبته بهدوء إلى المنزل !

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوية	إسماعيل فصيح	ت محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت . محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت . عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت . نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت . مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	الن تورين	ت أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
قصائد حب	ان سكستون	ت محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	سجاميس باربر	ت أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت المهدى اخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينيالبستى	ت . محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت محمد ابو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	الان وود	ت رمسيس عوض
فى مدح الكسل ومقالات اخرى	برتراند راسل	ت رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
العالم الاسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت احمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة امريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت عبد الحميد غلاب واحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت حسين محمود
السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت فؤاد مجلي
نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	ت حسن ناظم وعلي حاكم
صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت حسن بيومي
فن التراجم والسير الذاتية	اندريه موروا	ت أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت سعيد الغانمي وناصر حلاوي
بوشكين عند «نافورة الدموع»	الكسندر بوشكين	ت مكارم الغمري
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت محمد طارق الشرقاوي
مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت محمود السيد علي
مختارات	غوتفريد بن	ت خالد المعالي
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقي	ت أحمد فتحي يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت ماجدة العناني
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت إبراهيم الدسوقي شتا
الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت أحمد زايد ومحمد محيي الدين
وسم السيف	ميجل دي ثرباتس	ت محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت فورية العشماوي
مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت سري محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت إدوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت بشير السباعي
الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت إبراهيم قنديل
مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت إبراهيم فتحي
النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت رشيد بنحدو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت عز الدين الكتاني الإدريسي
قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت محمد بنيس
أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت عبد الغفار مكاوي
مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت عبد العزيز شبيل
الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت . د. أشرف علي دعدور

صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت محمد عبد الله الجعيدي
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت محمود علي مكي
حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت هاشم أحمد محمد
النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت منى قطان
المرأة والجريمة	فرانسيس هيدنسون	ت ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادئ	ارلين علوي ماكليود	ت إكرام يوسف
راية التمرد	سادي پلانت	ت أحمد حسان
مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت نسيم مجلي
غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت سمية رمضان
امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت لميس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت نخبة من المترجمين
الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت أنور محمد إبراهيم
الفجر الكاذب	چون جراي	ت أحمد فؤاد بلبع
التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	ت سمحه الخولي
فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحي	ت بشير السباعي
الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت أميرة حسن نويرة
الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت شوقي جلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت لويس بقطر
ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا	طارق علي	ت طلعت الشايب
تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت أحمد محمود
المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت سحر توفيق
مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف ماري مواريه	ت كاميليا صبحي
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	ت وجيه سمعان عبد المسيح
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت أسامة إسبر
حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت أمل الجبوري
اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت نعيم عطية
الإسكندرية تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت حسن بيومي
قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت عدلي السمري

صاحبة اللوكاندة	كارلوس حولدونى	ت سلامة محمد سليمان
موت أرتميد كروث	كارلوس فوينتس	ت أحمد حسان
الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت على عبد الرؤوف البمبى
خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت عبد الغفار مكاوى

(تحت الطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر	أنطوان تشيخوف
الجانب الدينى للفلسفة	من المسرح الإسبانى المعاصر
الولاية	تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
المدارس الجمالية الكبرى	حكايات ثعلب
مختارات من الشعر اليونانى الحديث	شامبوليون (حياة من نور)
بارسيفال	الحورية الهاربة
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	الإسلام فى السودان
عدالة الهنود	العربى فى الأدب الإسرائيلى
جان كوكتو على شاشة السينما	آلة الطبيعة
الأرضة	ضحايا التنمية
غرام الفراعنة	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة	أيديولوجى
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	تاريخ الكنيسة
التجربة الإغريقية حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى	فن الرواية
العنف والنبوءة	ما بعد المعلومات
خسرو وشيرين	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)	المهلة الأخيرة
وضع حد	الهيولية تصنع علماً جديداً
التليفزيون فى الحياة اليومية	مدرسة فرانكفورت نشأتها ومعزاها

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٥٥٥ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 144 - 7)



Tarek Ali

Fear of mirrors

العشاق - دائما - يريدون أن يعرفوا الحقيقة ، ولكنهم - أحيانا - لا يريدون أن يقولوها ...

وقد كان سقوط الشيوعية بالنسبة لبعض الألمان الشرقيين ، أشبه بنهاية علاقة حب طويلة ... ومؤلمة ... وعندما أصبح بمقدورهم فى النهاية أن يقولوا الحقيقة ، اكتشفوا أنهم لا يريدون الاستماع ... !

"ڤلادى" المنشق السابق ، الذى يفقد وظيفته عندما يرفض التخلى عن أفكاره الاشتراكية فى ألمانيا الجديدة ... المتحدة ... يريد أن يشرح لابنه معنى تورط عائلته الطويل مع الحركة الشيوعية . هى قصة "لودڤيج" العميل السرى البولندى الذى جند "فيلبى"، و "جيرترود" أم "ڤلادى" التى لايضارع حبها لـ "لودڤيج" سوى إخلاصها للمثال الشيوعى .

ومع الانكشاف التدريجى لخطوط الرواية من خلال الفوران السياسى
العشرين ، يصف "ڤلادى" الآمال والأحلام الكبرى التى أيقظتها الثورة البل
ويكتشف الحقيقة .... المرة !

"الخوف من المرايا" رواية الكاتب الباكستانى طارق على (٥٦ سنة)
التاريخ الغريب لأوروبا الوسطى من منظور أولئك الواقفين على الضفة الأ
ساحة الحرب الباردة ، وهى عمله الروائى الثالث بعد «افتداء» ١٩٩٠ ،
شجرة الرمان» ١٩٩٢ .

